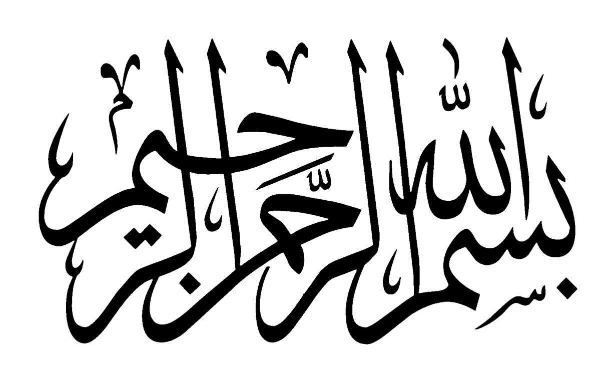


ضياء الفرقان في تفسير القرآن

المجلد السادس عشر

السيد محمد تقي النقوي القايني


بسم الله الرحمن الرحيم



ضیاء الفرقان
فی
تفسیر القرآن

مجلد ۱۵

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱۵: 978-964-8981-59-9
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur’an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
ردهبندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
ردهبندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الخامس عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

شابک: ۹ - ۵۹ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

الجزء

الرابع والعشرون

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰآءَهٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكٰافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَ ٱلَّذِي جٰآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهٖٓ أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مٰا يَشٰآؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزٰآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللّٰهُ بِكٰافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ ﴿٣٦﴾ وَ مَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنْتِقٰامٍ ﴿٣٧﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِيَ ٱللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهٖٓ أَوْ أَرٰادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يٰا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ إِنِّى عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنّٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ

فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اَللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضٰى عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ ٱلْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُفَعٰاءَ قُلْ أَوَلَوْ كٰانُوا لاٰ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَ لاٰ يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلّٰهِ ٱلشَّفٰاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذٰا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

◀ اللّغة

مَثْوًى: المثوىٰ المقام.

أَسْوَأَ: أفعل التّفضيل من ساء يسوء.

مُمْسِكٰاتُ: بضمّ الميم إسم فاعل من الإمساك و هو في الأصل الحفظ.

قال في المفردات إمساك الشّيء التّعلّق به و حِفظه و أمّا في المقام فهو كناية عن البخل.

ٱشْمَأَزَّتْ: الإشمئزاز التنفّر و الإنضجار.

◀ الإعراب

ٱلَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِۦٓ الّذي هنا جِنس لأنّ خبره جمع و هو قوله أُولَٰٓئِكَ فلا يراد به واحد معيّن لِيُكَفِّرَ اللاّم من صلة قوله، لهم ما يشاؤن عند ربّهم، و قيل هو لام القسم و التّقدير واللّه ليكفرنّ، فحذفت النُّون وكسرت اللاّم.

◀ التّفسير

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَٰفِرِينَ

أظلم إفعل التَّفضيل من ظلم ظلماً، و إنّما جيء به في الآية لدلالة على أنّ الكذب على اللّه تعالىٰ أقبح و أشنع منه على غيره و لأجل هذا عدَّ من مبطلات الصَّوم بخلاف الكذب على غير اللّه و رسوله فأنّه ليس بمبطلٍ ثمّ قال تعالى: **وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ** قيل المراد بالصِّدق القرآن أي و كذَّب بالقرآن إذ جاءه بإنكاره أنّه كلام اللّه و لا شكّ أنّ الكذب على اللّه و إنكار كتابه من أعظم مصاديق الكفر و مأواه جهَّنم و بئس المصير و لذلك قال على سبيل الإستفهام الإنكاري، **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَٰفِرِينَ** فهو من قبيل قوله تعالى: **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ**(١) فالجواب بلى أنّه يكفيه و في المقام بلى أنّ مثواه جهّنم.

وَ ٱلَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ

أمّا قوله: **وَ ٱلَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ** فهو النَّبي قطعاً لأنّه جاء به من اللّه تعالى و عليه قاطبة المفسّرين.

و أمّا قوله: **أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** فقد إختلفوا فيه فالمشهور أنّ المراد (من صدَّق به من الأمَّة) و قال في التّبيان نقلاً الزّجاج أنّ الّذى هاهنا والّذين بمعنى،

١- الزّمر = ٣٦

واحد يراد به الجمع و قال لأنّه غير موقّتٍ، و قيل الّذي جاء بالصّدق هو النّبي من قول لا إله إلاّ اللّه و صدَّق به هو النّبي أيضاً.

ثمّ قال الشّيخ و الصّحيح أنّ قوله: **وَ صَدَّقَ بِهِۦٓ** من صفة الّذين جاءوا بالصِّدق لانّه لو كان غيرهم لقال و الّذي صدَّق به و قوله: **أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** يعني من جاء بالصّدق و صدَّق به هم المتّقون عن معاصي اللّه خوف عقابه و أنّما جاء بلفظ، الّذي واحد لأنّه أراد به الجنس و معناه الجمع كقوله: **وَ ٱلْعَصْرِ، إِنَّ ٱلْإِنْسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا و عملوا الصّالحات**[1] إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكرهﷺ لا بأس به لأنّه أحد الأقوال في المقام و أمّا إستدلّ به من الآية فلا يصّح و ذلك لأنّ الإنسان كلّيٌ طبيعّي يشمل جميع الأفراد كما يشمل الفرد و لذلك قالوا أنّ الكلّي يوجد بوجود الفرد و يعدم بعدم جميع الأفراد فالإنسان كما يطلق على زيد و عمر و خالد و جميع الأفراد على سبيل الحقيقة و هذا ممّا لا كلام فيه عند الفلاسفة و حيث كان الإنسان في سورة العصر، موضوع الحكم و هو يطلق على جميع المصاديق فصَّح أن يقال بعده **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** بصيغة الجمع و هذا بخلاف ما نحن فيه فأنّ قوله تعالى: **وَ ٱلَّذِي** مفرد فكيف يشار بالجمع إلى المفرد.

و أمّا قول الزّجاج و هو أنّ، الّذي، و الّذين، بمعنى واحد فهو غير معقول إذ لا يمكن أن يكون المعنى في المفرد و الجمع واحداً و أوهن منه قول من قال لأنّه أراد به الجنس، ولم يعلم أنّ هذا أي إرادة الجنس أو الإستغراق في اللاّم مثل قول الحمد للّه لا في الذّوات الخارجّية و ذلك لأنّ لفظ زيد مثلاً موضوع للفرد المشخّص الموجود في الخارج مع جميع خصوصياته فهو لا يصدق على عمرو و بكرٍ، و لا يمكن أن يقول أحد أنّي أردت الجنس من قولي أضرب زيداً و هكذا في سائر الأسماء و الصّفات و كلمة، الّذي، و أن لم تكن موضوعاً للفرد إلاّ أنّها

١- العصر = ١/٢/٣

وصف له و كلّ وصفٍ مختصّ بموصوفه كما أنّ الّذين، وصف للجمع فوضع أحدهما مكان الأخر لا يساعده العقل و لا يوافقه النّقل، هذا، و بما ذكرناه تعرف أنّ قراءة إبن مسعود **وَ ٱلَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ** لا معنى له و حقّ الكلام، والّذين جاءوا بالصّدق، بصيغة الجمع و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ تقدير الآية والّذي جاءَ بالصّدق و الّذي صدّق به قضاءً لحكم العطف، و المعنى أنّ الّذي جاء بالصّدق أي القرأن هو النّبي ﷺ و الّذي صدَّق به أي صدّق النّبي بما جاء به هو القرأن و المراد بالتّصديق هو الإعتقاد بأنّ القرأن منزّل من عند اللّه للعمل به أولئك هم المتّقون، أي النّبي و من صدّقه و حيث أنّ المصدّقين كانوا كثيرين فقال أولئك هم المتّقون بلفظ الجمع و هذا ممّا لا إشكال فيه و هذا كما قال تعالىٰ: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنا مُوسَى ٱلْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**[١] فقوله: **لَعَلَّهُمْ** أي لعلّ أتباع موسىٰ يهتدون، المقام أيضاً نقول أولئك أي أولئك الّذين صدّقوا هم المتّقون تعالىٰ: **وَ إِذْ اٰتَيْنا مُوسَى ٱلْكِتابَ وَ ٱلْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**[٢] أي لكي تهتدون.

و الحاصل أنّ المتّقين في الآية هُم الّذين صدّقوا به و كون النّبي داخلاً فيهم أيضاً لا إشكال فيه لأنّ النّبي رأس المتّقين واللّه أعلم.

لَهُمْ ما يَشاۤؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاۤءُ ٱلْمُحْسِنِينَ

الحسن عبارة عن كلّ منهجٍ مرغوب فيه و ذلك ثلاثة أضرب، مستحسن من جهة العقل، و مستحسنٌ من جهة الهوىٰ، و مستحسنٌ من جهة الحسّ، ففي الكلام إشارة إلىٰ أنّ المتّقين من المحسنين بجميع معانيها فأنّ التّقوىٰ رأس جميع الفضائل و قوله تعالىٰ: **لَهُمْ ما يَشاۤؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** معناه أنّ اللّه يعطيهم ما يشاؤن في الجنّة إذ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلّذ به الأعيُن.

لِيُكَفِّرَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

١- المؤمنون = ٤٩
٢- البقرة = ٥٣

ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

أي أنّ اللّه تعالىٰ يَسقُط عنهم ماكانوا عليه من الشّرك والمعاصي التّي فعلوها قبل ذلك بسبب توبتهم و رجوعهم إلىٰ اللّه و يجزيهم في الأخرة بأحسن الّذي كانوا يعملون، أي أنّ اللّه تعالىٰ ينظر إلىٰ أعمالهم الّتي عمِلوا بها بعد الإيمان و يجزيهم على هذا الأساس و لا ينظر إلىٰ ما عملوا به قبل إيمانهم من الشّرك و المعاصي فهذا الجزاء كفّارة عن ذنوبهم.

و الظّاهر أنّ اللاّم في قوله: **لِيُكَفِّرَ**، للتّعليل أي السّبب و العلّة لذلك الجزاء هو تكفيرذنوبهم و إسقاطهاعنهم و أيُّ جزاءأحسن من حطّ الذّنب ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاءواللّه ذوالفضل العظيم و لمثل هذافليعمل العاملون فأنّ اللّه تعالىٰ ذوالرّأفة و الرّحمة و أنّ رحمته سبقت غضبه و هى قريبة من المحسنين.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

الهَمَزة للإنكار و، ليس، للنّفي و النّفي في النّفي إثبات أي أنّه تعالىٰ يكفي عبده والعبد لا يحتاج إلىٰ غيره و هذا الحكم مؤيّد بالعقل والنّقل.

أمّا العقل فواضح لأنّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شيٍ و قدرته بذاته لا بغيره و كلّ قادرٍ غيره فقدرته منه و به فإذا كان العبد مستعيناً به و هو متوكّلاً عليه ففي الحقيقة إستعان بكلّ القدرة و إعتمد عليها فكيف لا يكفي عبده.

ثانياً: نقول في صورة الكفاية يلزم العجز و الضّعف و قد فرضناه قادراً خلاف الفرض، العبد لا يخلو في إستعانته باللّه تعالىٰ أمّا أن يكون اللّه كافياً له أو لا يكون فأن كان كافياً فقد ثبت المطلوب و أن لم يكن كافياً فأن كان غيره كافياً فهو غير معقول إذ كيف يعقل أن يكون المخلوق الذّي أخذ قدرته عن الخالق أقوىٰ و أقدر ممّن أخذ قدرته منه.

ثالثاً: أنّ اللّه تعالىٰ خالق و موجدٌ و أن شئت قلت هو علّة إيجاد الممكنات و

قد ثبت أنّ العلّة حاوية لجميع مراتب المعلول لأنّ المعلول رشحةٌ من رشحات العلّة فإذا لم تكن العلّة كافية فغيرها بطريق أولى فثبت و تحقّق أنّ اللّه تعالىٰ يكفي عبده و لا يقدر أحدٌ علىٰ منعه عمّا أراد.

أمّا النّقل فالأيات كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَ كَفَىٰ بِاللّٰهِ وَلِيًّا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَفَىٰ بِاللّٰهِ نَصِيرًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكيلًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكيلًا**(٤) والأيات كثيرة.

روى في مشكاة الانوار عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ قال عليه السلام: للتّوكّل على اللّه درجات، منها أن تتوكّل عليه في أمورك كلّها فما فعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنّه لا يألوك إلاّ خيراً و فضلاً و تعلم أنّ الحكم في ذلك إليه الخبر(٥).

و عن أبي عبد اللّه قال: أوحىٰ اللّه تبارك و تعالى إلى داود أنّه ما إعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي عرفت ذلك عن نيّته ثمّ تكيده السّموات و الأرض و من فيهنّ إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ وما إعتصم عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلاّ قطعت أسباب السّموات من بين يديه و أسخت الأرض من تحته ولم أبال في أيّ وادٍ يهلك إنتهىٰ(٦).

و الأحاديث كثيرة و لا نحتاج إلىٰ ذكرها بعد دلالة صريح الكتاب علىٰ المدّعىٰ

١- النّساء = ٤٥
٢- النّساء = ٤٥
٣- النّساء = ٨١
٤- الأحزاب = ٣
٥- ص ١٦
٦- ص ١٦

و على هذا فمعنى الآية أنّ اللّه يكفيك و يخوّفونك هؤلاء الكفّار بالّذين من دُون اللّه من خلقه و من يضلل اللّه أي من أضلّه اللّه فماله من هادٍ، و المقصود أنّ الّذين يخوفونك من الخلق فقد ضلّوا عن سواء السّبيل و ما قدروا اللّه حقّ قدره.

وَ مَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنْتِقٰامٍ

و ذلك لأنّ المضّل يكون مانعاً عمّا أراده اللّه فهو أقدر من اللّه و لازم ذلك أن يكون اللّه أضعف منه فإذاً ليس بقادرٍ بقولٍ مطلق و من كان كذلك فهو مخلوق و المفروض خلافه و قوله: **أَلَيْسَ ٱللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنْتِقٰامٍ** معناه أنّه عزيزٌ قادرٌ منتقمٌ عن الأعداء فأنّ الهمزة للإنكار كما في قوله: **أَلَيْسَ ٱللّٰهُ بِكٰافٍ عَبْدَهُ**[١] و قد مرّ الكلام فيه و قيل معنىٰ الآية من يهديه اللّه الىٰ طريق الجنّة فلا أحد يضلّه عنها، و قيل من يحكم بهدايته فلا أحد يمكنه أن يحكم بضلالته و هذا ظاهر.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِىَ ٱللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرٰادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ

ثمّ قال اللّه تعالىٰ لنبيّه، **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ** و أنمّا أتىٰ بنون التأكيد مشعراً بأنّه لا جواب لهم غير ذلك قطعاً إذ لا يقول أحد منهم أنّ خالق السّموات والأرض هو الوثن و الصّنم أو غيرهما من المخلوق و أنمّا قال ذلك لأنّ الكفّار كانوا يقولون هؤلاء شفعاءُنا عند اللّه و لم يقل أحد منهم إنّا نعبدها لأنّها خالق السّموات و الأرض و إذا كان كذلك بإقرارهم و إعترافهم بأنّ الخالق للسّموات والأرض هو اللّه قل لهم يا محمّد أفرأيتم ما تدعون من دون اللّه، من الأصنام و الأوثان، **إِنْ أَرٰادَنِىَ ٱللّٰهُ بِضُرٍّ**

١- الزّمر = ٣۶

هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ أي هل الأصنام و الأوثان تقدرون علىٰ دفع الضرّ عنّي، أو أرادني، اللّه، برحمةٍ هل هنّ ممسكات رحمته، أي هل تقدرون على منع الرّحمة منه تعالىٰ.

و من المعلوم أنّ الجواب منفيّ أي لا قدرة لهنّ علىٰ دفع الضرّ و لا على منع الرّحمة و من يعجز عن النّفع و الضرّ و كشف الكرب عمّن يتقرّب اليه لا يأتي منه ذلك كيف يحسن عبادته و أنمّا تحسن العبادة لمن يقدر علىٰ كلّ شيءٍ يلحقه عجز و لا منع و هو اللّه تعالىٰ.

ثمّ قال تعالىٰ: **قُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** أي إذا كان الأمر على هذا المنوال و لا يقدر أحدٌ غير اللّه تعالى على دفع الضرّ و لا على منع الرّحمة فهو يكفي العبد و عليه التّوكل في جميع الأمور و تفويض الأمر اليه.

كما قال تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.**

قُلْ يٰا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

يعني قل يا محمّد، لهؤلاء الكفّار إعملوا على مكانتكم، أي علىٰ ديانتكم و طريقتكم أنّي عامل، بما أدعوكم اليه فسوف تعلمون، أنّكم على الباطل و أنا على الحقّ يوم القيامة، و قوله: **ٱعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ** ليس معناه موافقة النّبي و إعراضه عمّا دعاهم اليه من الإسلام بل الأمر بالعمل على وجه التّهدّد لهم، أي إذا لم تقبلوا قولى فأعملوا ما شئتم من عبادة الأوثان و هذا كما يقول الإنسان لمن أصرّ علىٰ عناده و مخالفته الحقّ فأعمل ما شئت فسوف تعلم تبعاته و مضرّاته.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ

أي فسوف تعلمون من يأتيه عذاب اللّه و خزيه و من يحلّ عليه عذابٌ مقيم أي دائم بعد الموت يوم القيامة.

إِنَّآ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكيلٍ

هذه الآية في الحقيقة تسلية للنّبي في إنكار الكفّار دعوته و بقاءهم على الكفر فقال تعالىٰ: **إِنّآ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ** أي إنّا أنزلنا القرآن عليك بالحقّ لدعوة النّاس اليه و بعبارةٍ أخرى ما على الرّسول إلاّ البلاغ و أمّا قبول الحكم أو عدم قبوله فهو خارج عن وظيفة الرّسول فأنّ المكلّف مختار في الدّنيا في القبول والرّد، فمن إهتدىٰ بهداية النّبي بقبوله الدّعوة، فلنفسه، أي فيرجع نفع القبول اليه في الدُّنيا و الأخرة، و من ضلَّ أي أنكر الرّسول وردَّ دعوته فأنمّا يضلّ عليها، أي على نفسه أي يتوجّه ضرره و خسرانه على نفسه، و ما أنت عليهم بوكيلٍ، في هدايتهم وضلالتهم و ذلك أنّهم لم يفوّضوا أمرهم اليك حتّىٰ تختار لهم ما هو بصلاحهم بل الأمر اليهم أنفسهم.

و حاصل الكلام إنّا لا نحتاج الىٰ عبادتهم و طاعتهم و لا يضرّنا كفرهم و معصيتهم بل الغرض من إرسال الرُّسل و انزال الكُتب هو إيصال الخير اليهم في الدّنيا و الأخرة و هذا هو الّذي تقتضيه قاعدة اللُّطف.

ٱللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها وَ ٱلَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فَيُمْسِكُ ٱلَّتي قَضىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ ٱلْأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

قال في التّبيان في قوله تعالىٰ: **ٱللّٰهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها.**

قيل أنّ الموت ها هنا المراد به النَّوم و التوفّي هاهنا هو توفّي النّفس لا الرُّوح لأنّ إبن عبّاس قال في إبن آدم نفسٌ و روحٌ فإذا نام قبضت نفسه و بقيت روحه والرّوح هو الّذي يكون بها الغلظيط، هكذا في التّبيان و لم نفهم معناه و لعلّه التغليظ أو غير ذلك والله أعلم مؤلّف.

و النّفس هي الّتي يكون بها التميّز فإذا مات قبضت نفسه و روحه إنتهىٰ. نقل هذا القول عن إبن عبّاس صاحب الكشّاف أيضاً و تبعه القرطبي و غيره من مفسّرين العامّة، قال في الكشّاف ما هذا لفظه، و رواء عن إبن عبّاس أنّه قال في إبن آدم نفس و روح بينهما مثل شعاع الشّمس فالنّفس الّتي بها العقل و التميّز و الرُّوح الّتي بها النّفس و التحريك فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه و لم يقبض روحه إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول إن كان ما نقلوه عنه حقّاً فهو دليل علىٰ جهل إبن عبّاس و أنّه قال ما قال من عند نفسه و لم يعلم معنى النّفس و الرّوح و من لم يعلم معناها كيف فرّق بينهما.

فالنّفس الّتي تعلّق الموت بها في الآية هي الرُّوح لا غيره فقوله إذا نام العبد قبض اللّه نفسه و لم يقبض روحه كلامٌ لا طائل تحته و هو أيضاً لم يفهم ما قال إذ لو علم كان عليه أن يبيّن معنى النّفس الّتي تعلّق الموت بها غير الرُّوح و لم يقل أحد من العقلاء أنّ في جسم الإنسان، روح و نفس نعم لو أريد بالنّفس ذات الشّئ و حقيقته كما يقال في عرف العوام نفس الحجر و نفس الشّجر مثلاً فهو خارج عن البحث إذ النّفس بهذا المعنى هو الموجود الخارجي بما هو هو، و الّذي نقول به تبعا لكافّة العقلاء هو أنّ النّفس و الرّوح واحد و الفرق بينهما بالإعتبار و بالجملة ما به الحياة في الإنسان تارةً يعبّر عنه بالرّوح و أخرىٰ بالنّفس و إذا كان كذلك فما معنى قول إبن عبّاس إذا نام العبد قبض اللّه نفسه و لم يقبض روحه و للبحث فيه مقام آخر.

إن قلت فما معنىٰ قوله تعالىٰ: **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**.

قلت البحث حول الآية يقع في مقامين:

الأوّل: في معنىٰ قوله تعالىٰ: **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**.

الثّانى: في قوله: **وَ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** الىٰ قوله: **أَجَلٍ مُسَمًّى**.

أمّا البحث في المقام الأوّل ففيه إحتمالان:

أحدهما: أن يكون المراد بالتّوفّية في الآية معناها اللغوّي أعني به إعطاء الحقّ بتمامه و كماله قال في المفردات توفية الشّئ بذله وافياً و إستيفاءه تناوله وافياً إنتهىٰ.

و أن يكون المراد بالموت زوال القوّة الحاسّة الّذي يتحقّق بعد خروج الرُّوح عن البدن و هذا هو الّذي يعبّر عنه بالموت عرفاً و على هذا فمعنى الكلام أنّ اللّه تعالىٰ يجزي كلّ نفسٍ ما عملت به خيراً كان أو شرّاً حين موتها أي حين خروجها عن البدن كما ورد في بعض الأخبار أنّ المحتضر قبل خروج الرُّوح عن بدنه يرى مقامه و مكانه بعد موته فيتحسّر علىٰ ما فات منه.

الثّاني: أن يحمل التّوفية علىٰ الموت و المعنى أنّ اللّه تعالىٰ يميت الأنفس بمعنى مفارقتها عن الأبدان حين موتها أي حين بلوغ آجالها التّقديرين لاكلام فيه فأنّ الموت بيده كما أنّ الخلق بيده فالموجد و المفني واحد و هو اللّه تعالىٰ إمّا بواسطة أو بلاواسطة و هذا ظاهر.

أمّا البحث في المقام الثّاني: فهو الّذي أوقع المفسّرين في القلق و الإضطراب و قال كلّ واحدٍ منهم ما فهم من الآية و الإنصاف أنّهم لم يأتوا بشئٍ يعتمد عليه عقلاً أو نقلاً و لذلك تمسّكوا بقول إبن عبّاس و غيره في حلّ الإشكال، والّذي يختلج بالبال بعون الملك الوّهاب هو أنّه لا موت للنّفس في النّوم حقيقتاً و أنمّا شبّه النّوم بالموت علىٰ سبيل الكناية و الإستعارة كما شبّهوا اليقظة بالحياة و على هذا يقال النّوم موتٌ خفيف و الموت نومٌ ثقيل، و أن شئت قلت الموت قطع علاقة الرّوح عن البدن بالكلّية، و النّوم ليس كذلك بل تبقى منه علاقة ما بعد مفارقته عن البدن حين النّوم و لذلك يطلق الحيّ على النّائم و لا يطلق الحيّ على الميّت فلا يقال للنّائم أنّه مات و هذا دليل علىٰ إتّصال الرّوح بالبدن و لأجل هذه الدقيقة.

قال تعالىٰ: **وَ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** اى النفس التى لم تمت فى منامها فقول إبن عبّاس إذا نام العبد قبض اللّه نفسه، مخالف لصريح الآية و أمّا قوله و لم يقبض روحه، مضافاً الىٰ أنّه خلاف العقل و القاعدة، خارج عن الآية إذ لم يذكر فيها و لا نعلم أين وجد الرّوح و الآية لم يتعرّض لها.

و أمّا قوله: **فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ** الىٰ آخر ما قال ففيه إشارة الىٰ نقطةٍ أخرىٰ و هى أنّ الأرواح المفارقة عن أبدان النّائمين بعضها ينفصل عن الأبدان بالكلّية في حالة النّوم فالنّائم يصبح ميّتاً و بعضها يؤخّر الىٰ أجلٍ مسمّىٰ و هو الأرواح الّتي لَم تبلغ الىٰ الأجل المسّمى لها فهي لا تقطع علاقتها عن البدن بل ترجع اليه كما كان ففيه إيماء الىٰ أنّ الّذي نام على فراشه لا يدري ما يفعل به من الموت و الحياة فينبغي أن لا يكون غافلاً عن نفسه هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و لعلّه أشار بذلك حيث قال: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** في الموت و الحياة و النّوم و اليقظة و أنّ الإنسان لابدّ له من الموت و الفناء، و لا يمكن له الفرار من حكومته.

أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَ لَا يَعْقِلُونَ

قيل، أم، بمعنى، بل، أي بل إتّخذوا من دون اللّه شفعاء، بزعمهم الفاسد من الأصنام و الأوثان قل يا محمّد لهم **أَوَلَوْ كَانُوا** هؤلاء الأصنام **لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا** لكونهم من الجماد **لَا يَعْقِلُونَ** و المعنى كيف يشفع عند اللّه من لا يملك شيئاً من النّفع و الضّر و لا عقل له.

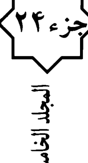
قُلْ لِلّٰهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

يعني قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار للّه الشّفاعة جميعاً، لا لغيره ممّن لا يملك شيئاً و هو جماد **لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** لكونه خالقاً لهما **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** بعد الموت، و المقصود أنّ جميع الأمور بيده و لا أمر و لا نهي إلاّ له و هو الّذي يجازي كلّ إنسانٍ علىٰ عَمَله على الطّاعة بالثّواب و على المعاصي بالعقاب فهو المالك لكلّ ما سواه.

وَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذٰا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن شدّة عنادهم و لجاجهم و ثباتهم علىٰ الكفر، فقال: **وَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ** عندهم أي تنفّرت قُلوبهم لعدم إيمانهم بالآخرة فمن كان غير مؤمنٍ باللّه و اليوم الآخر حاله كذلك و أمّا **إِذٰا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ** من الأصنام و الأوثان **إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** أي يفرحون بذكر معبودهم فأنّ حبّ الشّيئ يعمي و يصمّ و لا عجب فيه فأنّ كثيراً من المسلمين أيضاً كذلك فإذا ذكر آل محّمد عندهم إشمأزت قلوبهم وإذا ذُكِر الّذين من دونهم ولو كان المذكور معاوية و يزيد و عبدالملك و غيرهم إذا هم يستبشرون فالآية الشّريفة و أن كان موردها خاصّاً حيث نزّلت في المشركين إلاّ أنّ معناها يشمل كلّ من ترك الحقّ و أخذ بالباطل.

■



قُلِ ٱللّٰهُمَّ فاطِرَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ عالِمَ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِي مٰا كٰانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿۴۶﴾ وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذينَ ظَلَمُوا مٰا فِي ٱلْأَرْضِ جَميعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوٓءِ ٱلْعَذٰابِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ بَدٰا لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿۴۷﴾ وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴿۴۸﴾ فَإِذٰا مَسَّ ٱلْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰانٰا ثُمَّ إِذٰا خَوَّلْنٰاهُ نِعْمَةً مِنّٰا قٰالَ إِنَّمٰآ أُوتيتُهُ عَلٰى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿۴۹﴾ قَدْ قٰالَهَا ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ ﴿۵۰﴾ فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ ٱلَّذينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰٓؤُلٰآءِ سَيُصيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزينَ ﴿۵۱﴾ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿۵۲﴾ قُلْ يٰا عِبٰادِيَ ٱلَّذينَ أَسْرَفُوا عَلٰىٓ أَنْفُسِهِمْ لٰا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَميعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحيمُ ﴿۵۳﴾ وَ أَنيبُوٓا إِلٰى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذٰابُ ثُمَّ لٰا تُنْصَرُونَ ﴿۵۴﴾ وَ ٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذٰابُ بَغْتَةً وَ

أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «۵۵» أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ «۵۶» أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدٰينى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «۵۷» أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «۵۸» بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ «۵۹» وَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ «۶۰» وَ يُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ «۶۱» اَللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «۶۲» لَهُ مَقالِيدُ السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ «۶۳» قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ «۶۴» وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «۶۵» بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ «۶۶» وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَ السَّمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ «۶۷» وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ

فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذٰا هُمْ قِيٰامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَ أَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهٰا وَ وُضِعَ ٱلْكِتٰابُ وَ جِآيءَ بِالنَّبِيّٖنَ وَ ٱلشُّهَدٰآءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلٰى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءُوهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ اٰيٰاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰآءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا قٰالُوا بَلٰى وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ عَلَى ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءُوهٰا وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلٰامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَ قٰالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشٰآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعٰامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَ تَرَى ٱلْمَلٰآئِكَةَ حٰآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿٧٥﴾

◄ اللّغة

فَاطِرَ: أصل الفطر اللّه لشقّ طولاً و فطر الخلق هو إيجاد الشّي و إبداعه.

بَدَا لَهُمْ: أي أظهر.

وَ حَاقَ بِهِمْ: أي أنزل بهم وأحاط بهم و قيل أصله، حقَّ،فقلب نحو زلَّ و زال.

خَوَّلْنَاهُ: التَّخويل العطاء بلا مكافاة و لا مجازات علىٰ سبيل التفضّل، و قيل التَّخويل في الأصل إعطاء الخول و قيل إعطاء ما يصير له خولاً، من قولهم فلان خال مالٍ و خايل مالٍ أي حسن القيام به.

فِتْنَةٌ: الفتنة الإختبار.

أَسْرَفُوا: الإسراف التجاوز عن الحدّ.

لَا تَقْنَطُوا: القنوط اليأس يقال قنط، قنوطاً إذا يئس.

وَ أَنِيبُوا: أمرٌ من أناب ينيب إذا رجع.

بَغْتَةً: أي فجأةً و غفلةً في وقت لا تتوقّعونه.

لَمِنَ السَّاخِرِينَ: السّاخر المستهزء.

كَرَّةً: بفتح الكاف و الرّاء المشدّدة الرّجوع.

بِمَفَازَتِهِمْ: المفازة الصّحراء فهي مهلكة يقال فوز الرّجل إذا هلك ومات.

مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ: هي جمع مقليد، كمنديل و مناديل.

فَصَعِقَ: أي مات.

سِيقَ: بكسر السّين و سكون الياء و فتح القاف مجهول ساق، و السُّوق الحثّ علىٰ السّير.

زُمَرًا: بضمّ الزّاء و فتح الميم الجماعة واحدها زمرة.

نَتَبَوَّأُ: أصله الرّجوع يقال باء بكذا إذا رجع به.

◄ الأعراب

بَلْ هِيَ ضمير البلوى أو الحال أَنْ تَقُولَ مفعول له أي أنذرناكم مخافة أن تقول يٰا حَسْرَتٰى الألِف مبدلة من ياء المتكلّم وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ الجملة حال، من الّذين كفروا لٰا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ حال أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ في إعرابها أوَجُه:

أحدها: أنّ، غير، منصوب بأعبد قدّم عليه.

الثّاني: أن يكون منصوباً، بتأمروني، و أعبد بدل منه و التّقدير أفتأمروني بعبادة غير اللّه و هذا من بدل الإشتمال.

الثّالث: أن يكون غير منصوباً بفعلٍ محذوف و التّقدير، أفتلزموني غير اللّه وَ ٱلْأَرْضِ مبتدأ و قَبْضَتُهُ الخبر و جَمِيعًا حال من الأرض وَ ٱلسَّمٰوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ مبتدأ و خبر و بِيَمِينِهِ متعلّق بالخبر أو حال من الضّمير في الخبر.

و قيل الخبر محذوف تقديره و السّموات قبضته و زُمَرًا في الموضعين حال نَتَبَوَّأُ حال من الفاعل أو المفعول وحَيْثُ هنا مفعول بـه و حٰآفِّينَ حـال مـن الملائكة و يُسَبِّحُونَ حالٌ من الضّمير في، حافّين واللّه أعلم.

◀ التّفسير

قُلِ ٱللّٰهُمَّ فٰاطِرَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ عٰالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهٰادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِي مٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يقول اللّهم فاطر السّموات و الأرض، أي مـبدءهما و خالقهما و موجدهما و الخطاب للنّبي و المراد جميع المكلّفين أن يدعوا اللّه بهذا الدّعاء وصف اللّه تعالى نفسه أوّلاً بالخالقيّة فقال فاطر السّموات و الأرض و من خلق السّموات والأرض خلق جميع الخـلق إذ ليس وراء السّمٰوات و الأرض مخلوقاً أخر و بعبارةٍ أخرى قوله: فٰاطِرَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ معناه خالق جميع الخلق.

ثانياً: وصف نفسه بالعلم بجميع الأشياء فقال عالِم الغيب و الشّهادة، و معناه أنّه لا يخفىٰ عليه شئ و العلم بهذا المعنىٰ مخصوص بذاته تعالىٰ.

ثالثاً: بأنّه تعالىٰ هو الحاكم بين العباد يوم القيامة فيما إختلفوا فيه أيضاً ممّا لا شبهة فيه، و من كان متّصفاً بهذه الصّفات التّي لا توجد في غيره هو المستحقّ للمعبوديّة لا غيره بل من أنكره تعالىٰ أنكر نفسه و هو كما ترى.

وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن سوء العذاب و شدّته يوم القيامة فقال **وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** أي كان ما فيها من الأموال و الذّخائر تحتها ملكاً لهم **وَ مِثْلَهُ مَعَهُ** أي وزيادة عليه مثله و أن شئت قلت و مثل ما في الأرض مع ما في الأرض **لَافْتَدَوْا بِهِ** أي وأراد الظّالم أن يفتدي نفسه بجميع ما في الأرض و مثله زيادةً عليه، من شدّة ذلك العذاب يوم القيامة لما قبل منه و لما نودي به، و حذف الجواب أي جواب، لو، الشّرطية لدلالة الكلام عليه و تقدير الكلام، لو يفتدي الظّالم بجميع ما في الأرض و مثله لما نودي به و ما قبل منه و فيه إشارة إلىٰ سوء العذاب فوق تصوّر الإنسان.

وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ هذا الكلام في الحقيقة تفسيرلقوله، سُوءالعذاب و شدّته،فأنّ ظهورالعذاب خارجاًعن الإحتساب معناه أنّه فوق ما يتصوّره و يظنّه في الدّنيا و أيّ عذابٍ أسوء و أشدّ ممّا لا يحيط العقل به و أنّماوصف العذاب بذلك لأنّ الظّالم يظنّ أنّه من سنخ عذاب الدّنيا.

وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

أخبر في الآية أنّ العذاب المذكور في الآية السّابقة من ثمرات أعمالهم في الدُّنيا و في تعبيره بكلمة، بدا، إشارة إلى نكتة خفيّة و هى أنّ الثّمرة الّتى كانت في الدُّنيا كانت غير محسوسة لهم لخفائها و أمّا بعد الموت فقد ظهرت و صارت محسوسة كما أنّ الثّمرة في الشَّجرة لا تبدوا و لا تظهر إلاّ وقت بلوغها و ظهورها، و ذلك لأنّ مقام القوّة غير مقام الفعليّة مقدّم عليها تقدّم مقام الهيولىٰ على الصُّورة و هكذا الأعمال النّاشئة عن الإنسان تظهر ثمرتها بعد الموت يوم تبلى السّرائر **مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**.

و قد أشار اللّه تعالىٰ إلى هذه الدّقيقة في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلٰى نَفْسِهِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا يَكْسِبُونَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ اَلنّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ اَمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهٰا مَا اَكْتَسَبَتْ**[6].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ اَللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ**[7] والأيات كثيرة جدّاً.

فهذه الأيات و أمثالها تنادي بأعلىٰ صوتها أنّ الثّواب و العقاب يوم القيامة من ثمرات الأعمال في الدُّنيا فأنّها مزرعة الأخرة فكما أنّ الزّارع إذا لم يزرع في وقته لم يحصد في فصله كذلك الإنسان المكلّف إذا لم يعمل في الدّنيا من خيرٍ أو شرّ لم يكن له ثواب و لا عقاب ألا ترى أنّ المجنون الّذي لا تكليف له لا عقاب له و لا

١- النّساء = ١١١
٢- البقرة = ٧٩
٣- الأعراف = ٩٦
٤- يُونس = ٨
٥- الطّور = ٢١
٦- البقرة = ٢٨٦
٧- إبراهيم = ٥١

ثواب فالعمل شجرةٌ و الثّواب و العقاب ثمرتها.

و من المعلوم أنّ الأثمار متفاوتة مختلفة لأنّ الأشجار متفاوتة مختلفة فشجرة التفّاح ثمرتها التفّاح و شجرة الرمّان ثمرتها الرمّان و هكذا و أمّا شجرة الحنظل فثمرتها الحنظل و هكذا و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

دهقان سالخورده چه خوش گفت با پسر
کی نُور چشم مَن بجُز از کِشته نَدروی

و قال الأخر:

از مکافات عَمَل غافل مَشو گندم از گندُم برُوید جَو زِ جَو

و الأصل في ذلك أنّ الثَّمرة تتبع الشّجرة، واللّه تعالىٰ جلّ شأنه عادل لا يظلم علىٰ أحدٍ لقبح الظلم و تنزّهه تعالىٰ عن الإتّصاف به فإذا كان العبد على طريق الحقّ قولاً و عملاً و نيّةً فلا وجه لعذابه و إلىٰ هذا المعنى أشار أميرالمؤمنين بقوله: و لا يَخافَن إلاّ ذَنبه، و لم يقل إلاّ اللّه فقد ظهر أنّ قوله تعالىٰ: **وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا** حقّ يؤيّده العقل و الشّرع و علىٰ هذا.

فقوله: **وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ** معناه وحاقت بهم خطاياهم التّي ارتكبوها في الدُّنيا فالعذاب الّذي أحاط بهم ثمرة أعمالهم:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ**[١].

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

الضُّر بضمّ الضّاد سوء الحال إمّا في نفسه لقلّة العلم و الفضل والعفّة و امّا في بدنه لعدم جارحة و نقص، و امّا في حالةٍ ظاهرة من قلّة مالٍ و جاهٍ، و **الضَّر** بفتح

١- البقرة = ٨١

الضّاد الضرّر يقال ضرّه أقرب أو أكثر من نفعه أي ضرره.

و قال بعض أهل اللغة، **الضُّر** با لضمّ و الفتح بمعنىٰ واحد و هو الضرّر إلاّ أنّ الضَّرر إذا كان في النّفس من مرض و هزالٍ و عاهة يقال له الضُّر بالضمّ و إذا كان في غير النّفس يقال له الضَّر بالفتح إنتهىٰ.

أقول و إلى الأوّل أعنّي الضرّ في النّفس أشار اللّه تعالىٰ بقوله حكايةً عن أيّوب النّبى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادٰى رَبَّهُٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّـرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَـمُ ٱلرّٰاحِمِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُـرَّهُ مَـرَّ كَأَنْ لَـمْ يَـدْعُنٰآ إِلٰـى ضُـرٍّ مَسَّهُ**[٢].

وإلىٰ الثّانى: أشار اللّه بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُٓ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَالْيَوْمَ لٰا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَ لٰا ضَرًّا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا**[٥].

إذا عرفت هذا فنقول أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن تقلّب الإنسان و تحوّله من حالٍ إلىٰ حالٍ وأنّه لا يبقىٰ علىٰ حالةٍ واحدةٍ فإذا مسّه ضرّ من مرضٍ و مصيبةٍ و بلاءٍ دعانا و فزع إلينا ثمّ بعد ذلك إذا خوَّلناه أي أعطيناه نعمةً مِنّا كرفع البلاء عنه و إعطاؤنا الصِّحة إيّاه قال أنّما أوتيته علىٰ علمٍ أي أوتيته بـحيلتي و تـدبيري و عَمَلي و لا يقول أنعمني اللّه به فيجب علَّي الشكّر على هذه النّعمة و بعبارةٍ أخرىٰ في الضرّ يعرف اللّه و فى النّعمة ينساه و يكفر بها و ليس هذا إلاّ من ضعف إيمانه

١- الأنبياء = ٨٣
٢- يُونس = ١٢
٣- الحجّ = ١٣
٤- سَبأ = ٤٢
٥- الفرقان = ٣

فالحكم بإعتبار الأغلب كما هو الشّأن في أكثر الأحكام ضرورة أنّ الأنبياء و الأوصياء خارجون عن الحكم خروجاً تخصصّياً لا تخصّيصياً اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الحكم عامٌّ شامل لجميع الأفراد من حيث هو الإنسان إلاّ من عصمه اللّه من الزَّلل و الخطأ و كيف كان أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية و أمثالها أنّ نوع الإنسان من حيث أنّه إنسان كذلك و لا ينافي الحكم خروج بعض الأفراد من جهة العصمة ثمّ إستدرك و قال: **بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** قال تعالى ليس الأمر كما يقولون و يزعمون بزعمهم الفاسد بل هي، اي النِّعمة التّي أنعمنا بها عليه فتنة و إختبارٌ له ليظهر كيف شكره على النّعمة فيجازيه بحسبها.

إن قُلت أيُّ إحتياجٍ إلىٰ هذا الإبتلاء و الإختبار و المفروض أنّ اللّه تعالىٰ عالم بحاله.

قُلت الجزاء مترّتبٌ علىٰ الفعل لا علىٰ العلم فلا يجوز أن يجازيه على علمه بحاله، بل يجازيه علىٰ فعله و ذلك لما قلنا في الآية السّابقة أنّ الثّواب و العقاب يترّتبان علىٰ العمل و هذا مقتضى العدل و قد مرّ الكلام فيه عقلاً و نقلاً.

و قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** معناه لا يعلمون أنّ هذه فتنة لهم و إختبار و أنّما قال أكثرهم لا يعلمون لأنّ منهم من يعلم بأنّها فتنةٌ، فيشكر عليها كالأنبياء و الأوصياء و الأولياء و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِىَ ٱلشَّكُورُ** ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ أنّ كفران النّعمة لا يختصّ بهؤلاء القوم الّذين تراهم بل قال الّذين كانوا من قبلهم أيضاً كذلك كما قال:

قَدْ قٰالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمٰآ أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

و الضّمير في قالها، راجع إلىٰ كلمتهم التّي قالوها و هى **إِنَّمٰآ أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ** و هذه الكلمة هي التّي قالها الّذين من قبلهم، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، مِن أموالهم بل صارت وبالاً عليهم هكذا قيل و يحتمل أن يكون المراد

ما كانوا يكسبون، بأعمالهم و المعنىٰ واضح لا خفاء فيه.

فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰٓؤُلآٰءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ

أي فأصاب الّذين كانوا من قبلهم سيّئات ما كسبوا من الظلم و المعاصي و المقصود أصابهم العقاب في الدّنيا والأخرة.

ثمّ قال والّذين ظلموا من هؤلاء الكفّار يعني من كفّار قريش أو كفّار قوم النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم سيصيبهم أيضاً كما أصاب العقاب من كان قبلهم **سَيِّئٰاتُ مٰا كَسَبُوا** أي سيصيبهم سيّئات ما كسبوا من العقاب، و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد و إذا تحقق السبب **وَ مٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ** أي ليس يفوتون اللّه و لا يمكن لهم الفرار من حكومته ثمّ قال تعالىٰ علىٰ وجه التّنبيه لهم.

أَوَ لَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية في الحقيقة جواب كلّمتهم الّتي، قولهم: **إِنَّمٰآ أُوتِيتُهُ عَلٰى عِلْمٍ** أي أوتيت المال أو كلّ نعمةٍ، بعلمي و تدبيري، فقال اللّه تعالىٰ ليس الأمر كذلك بل الرّزق بيد اللّه يبسطه لمن يشاء و يقدر و يضيق كذلك و ليس للعلم و التدبّير و الحيلة و أمثالها موضعٌ و لا مجال في كثرة المال و قلّته و الدّليل علىٰ ذلك مشاهدة العرف فإنّا نرىٰ الأموال مجتمعة عند العوام و الجّهال و الفقر حظُّ العلماء و العقلاء فلو كان للعقل و التّدبير في جمع المال مدخلٌ لكان الأموال عند العلماء و هذا من أدلّ الدّلائل علىٰ أنّ الأمر بيد اللّه كما أنّ المال مال اللّه يعطيه من يشاء و يمنع من يشاء و يبسط لمن يشاء و يضيق علىٰ من يشاء كلّ ذلك علىٰ جهة الإختبار و الإمتحان و الىٰ ذلك أشار بقوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** و آية آيةٍ أكبر و أعظم من التّفكر في قدرة اللّه و عجز المخلوق و ضعفه في باب المعرفة،

قال أميرالمؤمنين: **عَرفتُ اللّه بفسخ العزائم و نقض الهِمَم** ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الى أفضل النّعم الّتي منَّ اللّه بها علىٰ عباده بعد المعرفة باللّه و هو غفران الذُّنوب:

قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

أمر اللّه تعالىٰ نبيّه أن يقول لهم أي للّذين أسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا أي لا تيأسوا فأنّ القنوط اليأس، من رحمة اللّه، فأنّها واسعة أنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعاً و ذلك أنّه تعالىٰ هو الغفور للذّنوب والرّحيم لعباده و فى هذه الآية دلالة واضحة على أنّه يجوز أنّ يغفر اللّه بلا توبة تفضّلاً منه او بشفاعة النّبي لأنّه لم يشرط التّوبة بل أطلقها هكذا قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** يعني بشرط التّوبة و قد تكرّر ذكر هذا الشّرط في القرآن فكان ذكره فيما ذكرفيه ذكراً له فيما يذكر فيه لأنّ القرآن في حكم كلامٍ واحد و لا يجوز فيه التّناقض قراءة إبن عبّاس وإبن مسعود **يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ لِمَن يَشاء** و المراد بمن يشاء من تاب لأنّ مشيّئة اللّه تابعة لحكمته و عدله لا لملكه و جبروته إنتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف و تبعه علىٰ ذلك غير واحدٍ من المُفسّرين لا يرجع الى محصّل و ليس في المقام تناقض أصلاً و لا ينافي غفران الذّنوب جميعاً عدله و حكمته و كأن صاحب الكشّاف لم يتدبّر في الآية حقّ التدبر و ذلك لانّ الآية صرّحت بأنّ اللّه يغفر الذُّنوب الّتي صدرت من عباد اللّه من الإسراف علىٰ أنفسهم لا الذّنوب بقولٍ مطلق بأىّ نحو إتّفقت، و توضيح ذلك إجمالاً أنّه لا إشكال في أنّ الإسراف من مصاديق الذّنب و كلّ ذنبٍ فهو ظلمٌ فالمسرف ظالمٌ مذنب سواء كان الإسراف في المال أم في العبادة و ذلك لأنّ الإسراف التّجاوز عن حدّ الإعتدال في أي شيءٍ كان فأنّ الإسلام دين الإعتدال و الأمّة أمّة الوسط.

قال تعالىٰ: **(لتكونوا أُمّةً وسَطاً)**، فكلّ ما جاوَز حدّ الوَسط دَخَل في الظُّلم لأنّه ذنبٌ، ثمّ أنّ الظلم علىٰ أقسام:

أحدها: الظُّلم علىٰ اللّه و هو الشِّرك باللّه قال تعالىٰ حكايةً عن لقمان: **وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1].

وصفه بالعظمة لأنّه لا يغفر فأنّه أعظم الذُّنوب.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ**[2].

فثبت و تحققّ أنّ الشّرك باللّه ذنب لا يغفر و هذا أحد أقسام الظُّلم و الذّنب لا كلام لنا فيه فعلاً إذ لا شكّ لأحدٍ أنّ هذا الذّنب غير داخلٍ تحت المغفرة في الآيات.

الثّاني: من أقسام الظُّلم، الظُّلم على الغير كغصب ماله أو هتكه أو ضربه أو قتله أو غير ذلك و هذا الذَّنب ممّا يغفر بسبب التَّوبة و رضا المظلوم كما هو مقرّرٌ في باب التّوبة.

الثّالث: الظُّلم على النّفس كترك الواجب أو فعلِ الحرام إذا لم يتعدّ الى الغير اذ في صورة التّعدي يدخل في القسم الثّاني و هو الظُّلم على الغير.

إذا عرفت أقسام الظُّلم و عرفت أنّ كلّ ظلم ذنب و بالعكس.

فنقول أمّا القسم الأوّل فهو خارج عن البحثً لأنّه ممّا لا يغفر و أنمّا البحث في الذُّنوب الّتي تغفر و هى إثنان:

الظُّلم على الغير، و الظُّلم على النّفس.

و ان شئت قلت، الذّنب الّذي يسري الىٰ الغير، والّذي لا يسري الى الغير.

أمّا الّذي يسري الى الغير فهو يحتاج الى التَّوبة قطعاً و جلب رضا المظلوم، و ذلك لأنّه تعدّى الىٰ حقّ الغير بغصب ماله أو هتكه أو قتله أو غيبته فلو أراد أن

١- لقمان = ١٣

٢- النّساء = ١١۶

يغفر اللّه له يجب عليه جلب رضا الخالق بالتّوبة و جلب رضا الخلق لأنّه ضيع حقَّه ففي هذه الصُّورة يغفر اللّه له.

و أمّا المغفرة بدون هٰذين الشّرطين فهي تنافي عدله و حكمته لأنّها توجب تضييع حقّ الغير و هو ظلم و اللّه تعالىٰ منزّهٌ عنه.

و أمّا الذّنب الّذي لم يسر الى الغير بل كان بين العبد و معبوده و بعبارة أخرى ضيَّع حقّ اللّه فقط و هذا هو الّذي يعبّر عنه بالظُّلم على النّفس فأي إحتياج فيه الى التّوبة بالمعنى الّذي ذكرناه بل توبته إنابته و رجوعه عمّا كان عليه و إقباله و توجّهه الى ربّه، فغُفران لهذا المذنّب من اللّه تعالىٰ لا شرط فيه سوى الإنابة اليه إذ المغفرة في هذه الصوّرة بإرادة اللّه و مشيّئته و لا توجب تضييع حقّ أحدٍ من الخلق حتّىٰ يقال أنّها تنافي عدله و حكمته أليس للّه تعالىٰ أن يغمض عن حقّه و يعفوا عن عبده و يغفر له، أيجوز لوليّ الدّم العفو عن القاتل و لا يجوز للّه العفو عن المذنب.

و الحاصل أنّ إغماض صاحب الحقّ عن حقّه لا ينافي العدل بل هو أعلى مرتبةً من العدل إذ في العفو لذّة ليست في غيره بل هو من أحسن الصّفات.

و أمّا تفسير الآية على ما حقّقناه فنقول: **قُلْ يٰا عِبٰادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ** لا علىٰ غيرهم من الخلق أي الّذين إرتكبوا الذّنب على أنفسهم بأن تركوا الواجب أو فعلوا الحرام الّذي لم يسر الى الغير و لم يوجب تضييع حقّه **لاٰ تَقْنَطُوا** أي لا تيأسوا **مِنْ رَحْمَةِ ٱللّٰهِ** الّتي وسعت كلّ شيءٍ **إِنَّ ٱللّٰهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ** الّتي كانت كذلك أي كانت علىٰ أنفسكم لا علىٰ غيركم، جميعاً أنّه هو الغفور الرّحيم، و على هذا فالآية ناظرة الىٰ الإسراف و التّعدي علىٰ النّفس لا مطلقاً و هذا لا ينافي عدله بل يقوّيه و يزّينه و أمّا الأيات الّتي شرط فيها التّوبة فهي ناظرة الىٰ مطلق الذّنب فلا تناقض البن هذا كلّه في ردّ إستدلاله و قوله أنّه ينافي عدله و حكمته، و إلاّ فقد ذكر اللّه تعالىٰ الإنابة بعد هذه الآية فقال:

وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذٰابُ ثُمَّ لاٰ

تُنْصَرُونَ

و الإنابة هي التّوبة بوجهٍ وغيرها بوجهٍ أخرأنّ التّوبة رجوعٌ عن المخالفة إلى الموافقة أي عن مخالفة حكم الحقّ إلى موافقته و أمّا الإنابة فهي الرّجوع إلىٰ اللّه.

و إلى هذا المعنىٰ أشار اللّه بقوله: **وَ أَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** أي إرجعوا إليه و أعرضوا عمّا سواه و لذلك قالوا الإنابة أعلىٰ مرتبةً و أرفع شأناً عن التّوبة، فالتّوبة للعوام و الإنابة للخّواص فأنّ الإعراض عمّا سوىٰ اللّه ليس من شأن العوام و بعبارةٍ أخرى كلّ منيب إلىٰ اللّه فهو تائب قطعاً و ليس كلّ تائبٍ منيباً إليه بل الحقّ أنّ الإنابة من شئون الأنبياء و الأوصياء و الأولياء فأنّ الإعراض عمّا سوى اللّه معناه تَرك الدّنيا و الإقبال إلىٰ الأخرة بالكلّية، بل المنيب لا توجّه له إلىٰ الأخرة أيضاً:

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: إلٰهي ما عبدتك خوفاً من نارِك و لا طَمعاً في جَنّتك بل عبدتك لأنّي وجَدتُك مُستّحقاً للعبادة، فَمن عَرف اللّه لا يَعرف سواه و يقول لو كشف الغطاء ما إزددت يقيناً.

و أمّا قوله: **وَ أَسْلِمُوا لَهُ** فهو إشارة إلىٰ مقام التّسليم في جَنب قضاءه و قدره و أحكامه.

و قد روى في مشكاة الأنوار عن الصّادق عليه السلام قال: كان علّيٌ عليه السلام يقول: اللّهُم منَّ علَّي بالتّوكل عليك والتّفويض إليك والرِّضا بقدرك والتسليم لأمرك حتّىٰ لا أحبّ تعجيل ما أخّرت و لا تأخير ما عجّلت يا أرحم الرّاحمين، أمين ربّ العالمين.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ أي أنيبوا إلى اللّه و أسلموا له، قبل نزول العذاب، وأمّا بعده فلا تنصرون و هو ظاهر.

وَ ٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

إختلفوا في المراد بالأحسن الّذي يجب إتّباعه فقيل المراد به أحسن ما انزل لأنّه أراد بذلك الواجبات و النَّفل التّي هي الطّاعات دون المباحات و المقبّحات التّي لا يأمر بها.

و قال السُّدي، أحسن، أي ما ما أمر اللّه به في الكتاب، و قال قوم يـريد بـه النّاسخ دون المنسوخ.

و قال الحسن، أحسنه، أن يأخذوا بما أمرهم اللّه به و أن ينتهوا عمّا نهاهم عنه و قالوا غير ذلك أيضاً، و الحقّ أنّ الآية من قبيل قوله تعالىٰ: **فَبَشِّرْ عِبادِ، اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**[١].

و قد مرَّ الكلام فيها فكما أنّ الأقوال فيها حسنٌ و أحسن علىٰ ما تقدّم ذكره كذلك في الأيات المنزلة حسن و أحسن هذا إذا كان المراد من قوله: **أَحْسَنَ مٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** الأيات القرأنيّة و يحتمل أن يكون المراد به الأحكام الشّرعية فأنّها أيضاً نزلت علىٰ النّبي من جانب اللّه تعالىٰ و كيف كان فالأيات و الأحكام فيها حسن و أحسن كما لا يخفى فأنّ الإنفاق حسن في نفسه و الإنفاق على الأبوين أحسن و الصَّوم حسن مرغوب فيه و الصَّوم مع ترك المحرّمات أحسن و هكذا.

و قوله: **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ اَلْعَذٰابُ بَغْتَةً** أي فجاةً و النّدم بعد نزول العذاب لا فائدة فيه كما قال تعالىٰ:

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتٰى عَلٰى مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اَللّٰهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ اَلسّٰاخِرِينَ

قيل أنّ، في موضع نصب أي كراهيّة أن تقول، و عند الكوفيّين، لئّلا تقول، و عند البصريّين، حذر، أن تقول، و قيل أي من قبل أن تقول نفس لأنّه قال قبل هذا **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ اَلْعَذٰابُ.**

قال الزّمخشري في الكشّاف، فأن قلت، لم نكرت، قلت لأنّ المراد بها بعض

١- الزُّمر = ١٨ / ١٧

الأنفس و هی نفس الكافر إنتهیٰ.

أقول قوله لأنّ المراد بها بعض الأنفس لا كلام فيه وأمّا قوله و هی نفس الكافر فلا وجه لتخصيص النّفس بنفس الكافر فأنّ قوله تعالىٰ: **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ** عامّ يشمل كلّ نفسٍ لا على التّعيين و الحسرة لا تختصّ بالكافر و هو واضح.

و قوله: **فِي جَنْبِ ٱللَّهِ** قيل معناه في طاعة اللّه و قيل في ذكر اللّه يعني القرأن و العمل به، و قيل في ثواب اللّه.

و قال الفرّاء، الجنب القرب و الجوار يقال فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره و منه (والصّاحب بالجنب) و المعنى علىٰ ما فرّطت في طلب جواره و قربه و هو الجنَّة و قال الزّجاج، أي علىٰ ما فرَّطت في الطّريق الّذي هو طريق اللّه الّذي دعاني إليه و العرب تسّمى السَّبب و الطّريق إلى الشّئ جنباً، و قيل في جنب اللّه، أي في الجانب الّذي يؤدّي إلىٰ رضا اللّه عزّ و جلّ و ثوابه و العرب تسمّى الجانب جنباً، و هذا أقوى الأقوال و أحسنها و أن كان لكلّ منها وجهٌ وجيهٌ.

و أمّا قوله: **يَا حَسْرَتَىٰ** والأصل يا حسرتي فأبدل من الياء، أَلِف لأنّها أخفّ و أمكن في الإستغاثة بمدّ الصّوت و ربّما ألحقوا بها الهاء و يقال يا حسرتاه، والهفاه، و اغوثاه و أمثال ذلك و المقصود أنّ الغفلة توجب الحسرة و النّدامة و معنى الآية أن تقول نفس يا حسرتا أي يا حسرتي و تأسفي على ما فرَّطت، أي قصَّرت فأنّ التَّفريط إهمال ما يجب أن يتقدّم فيه حتّىٰ يفوت وقته و مثله التقصير أي قصَّرت في الإتيان بأمر اللّه و نهيه، **وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ** السّخرية الإستهزاء بالنَّبي و الكتاب و الدّين و هذا إقرار منهم علىٰ نوفوسهم بالإستهزاء و نحن نرى في زماننا هذا ما حكاه اللّه تعالىٰ في الآية عن الكفّار، من الّذين يدعون الإسلام و مع ذلك يستهزؤن بالمؤمنين الّذين يصلّون و يصومون و يحجّون و ينسبونهم بالإرتجاع و لم يعلموا أنّ هذا كفرٌ باللّه و إرتداد من دينه فأنّ حلاله حلال إلىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك و الدّين لا يختصّ بزمان دون زمان أو بقومٍ دون قومٍ و قد

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**[١].

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللّٰهَ هَدٰينِي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ

أي و لئلا تقول لَو أنّ اللّه هداني، أي أراد هِدايتي و إيماني لكنت من المتّقين، مفهوم الآية أنّ اللّه تعالىٰ لم يرد منّي الإيمان و لذلك بقيت على الكفر.

و هذا قول الجبريّين، و لم يعلموا أنّ اللّه هداهم إلىٰ الإيمان بواسطة النّبي فأنّ الهداية هي إرائة الطّريق و قد فعل النّبي ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِرًا وَ إِمّٰا كَفُورًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّٰا ثَمُودُ فَهَدَيْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمٰى عَلَى ٱلْهُدٰى**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوٰيهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللّٰهِ**[۴].

فهذه الآيات و أمثالهما تدّل علىٰ أنّ اللّه هداهم و هدانا بواسطة أنبيائه فما معنى قولهم **لَوْ أَنَّ ٱللّٰهَ هَدٰينِي** و قد قلنا سابقاً أنّ الهداية فرعٌ علىٰ الإرادة.

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ

أي و لئّلا تقول حين ترى العذاب **لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً** أي رجعة إلىٰ دار الدّنيا لكنت من المحسنين الذّين يفعلون الطّاعات، و ذلك لأنّه يقال له إنّك كنت قبل ذلك في دار الدُّنيا فلم لم تكن من المحسنين و إليه الإشارة بقوله:

بَلىٰ قَدْ جٰاءَتْكَ اٰيٰاتِي فَكَذَّبْتَ بِهٰا وَ ٱسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْكٰافِرِينَ

والمراد بالأيات القرأنيّة علىٰ ما قال المفسّرون و الحقّ أنّ المراد بها الاعمّ من التّكوينية و التّشريعية فأنّ الأيات جمع أية و هى العلامة الدّالة علىٰ

١- آل عمران = ۸۴
٢- الإنسان = ٣
٣- فُصّلت = ١٧
۴- ألقصَص = ۵٠

خالقها و فى كلّ شئٍ له أية و المراد بتكذيبها إنكارها و هم كانوا كذلك كما قال تعالىٰ: **وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْكٰافِرِينَ.**

و في قوله: **وَ ٱسْتَكْبَرْتَ** إشارة إلىٰ أنّ تكذيبهم الأيات لأجل إستكبارهم لا لجهلهم فأنّهم كانوا من أتباع الشّيطان و إستكبروا كما إستكبر الشّيطان.

تَنبيهٌ:

قال الشّيخ في التّبيان أنّما خاطب بالتّذكير و النّفس مؤنثة لأنّـه أراد بـالنّفس الإنسان إنتهىٰ.

أقُول أراد بالتّذكير، فتح التّاء في قـوله: **فَكَذَّبْتَ بِـهٰا وَ ٱسْـتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ،** مَع أنّ الخطاب ظاهراً للنّفس و القاعدة تقتضي كسر التّاء في الخـطاب للمؤنّث فأجاب الشّيخ بأنّ المراد بالنّفس الإنسان و هو مذّكر، و نحن نقول كأنّه غفل عن أنّ النّفس تقع علىٰ الذّكر و الأنثىٰ لأنّ تأنيثه سماعى لا حقيقي هذا كما يصّح في الخطاب التذكّير و هو فتح التّاء كذلك يصّح التّأنيث و هو كسر التّاء في الخطاب.

و قد نقل عن أمّ سَلمة عن النّبيصلى الله عليه و آله و سلم: قد جاءتك أيـاتي فكـذّبت بها وإستكبرت و كنت من الكافرين، بكسر التّاء في الجميع.

و قرأ الأعمش **بَلٰى قَدْ جٰآءَتْكَ اٰياتِي** و هذا يدّل على التّذكير و المقصود أنّ القراءة جائة بالكسر و الفتح لأنّ النّفس تقع للمذّكر و المؤنّث بل بعضهم قد أنكر قراءة الفتح و قال يجب الكسر، و هذا أيضاً لا يصّح ألا ترىٰ أنّ قـبله **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ** ثمّ قال: **وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ ٱلسّٰاخِرِينَ** و لَم يَقُل من السّاخرات.

وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللّٰهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن حال الكفّار يوم القيامة و أنّهم مسوَّدة الوجوه

من شدّة العذاب الّذي أحاط بهم و ذلك لأنّهم كذبوا على اللّه في الدّنيا ثمّ قال، أليس فى جهنّم مثوى و مأوى للكافرين، و الهمزة للإنكار و الجواب بلى مثواهم، جهنَّم لأنّهم تكبَّروا عن طاعة اللّه و عصوا أوامره.

وَ يُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ

المشهور بين القرّاء التّشدّيد من نجّى ينجّي مثل صرَّف يصرّف و علىٰ هذا فهو من باب التّفعيل و قرئ شاذّاً بالتّخفيف من أنجىٰ ينجي، إنجاءً، و علىٰ هذا فهو من باب الأفعال و المعنى واحد يقال نجَّيته و أنجيته، و المفازة، بالتّوحيد قراءة العامّة لأنّها مصدر و قرأ الكوفيّون، بمفازاتهم، علىٰ الجمع أيضاً جائز، و لمّا أشار اللّه تعالىٰ فيما مضىٰ إلى حال الكفّار في الأخرة أشار في هذه الآية إلىٰ حال المتّقين فقال و ينجّي اللّه الّذين إتّقوا بمفازتهم، أي بمنجاتهم من النّار و أصل المفازة المنجاة و به سمّيت الفلاة مفازة علىٰ وَجه التّفأول بالنّجاة منها، لا يمسّهم السُّوء أي لا يمسّهم ما يكرهونه من الغمّ و الهمّ و العذاب و لا هم يحزنون في الجنَّة بل يتنعّمون فيها بأنواع النِّعم لأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ به الأعين.

و محصّل الكلام أنّ أسباب العيش و السُّرور لهم فيها موجودة و أسباب الحزن و الغمّ مفقودة و لمثل ذلك فليعمل العاملون.

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

أمّا أنّه خالق كلّ شئ فمعناه أنّه خالق لكلّ ما إتَّصف بالشَّيئية لا أنّه خالق نفس الشّئ و ذلك لأنّ الشّئ هو الوجود قال السّبزواري في المنظومة:

ما ليس موجوداً يكون لَيساً ‏ ‏ قد ساوَق الشّئ لَدَينا أيساً

و الأيس هو الوجود و أن شئت قلت هما مترادفان كالإنسان و البشر أطلق الشّئ علىٰ اللّهّ تعالىٰ بهذا المعنى.

قال بعض المحقّقين أنّ الشّئ تارةً يقال و يراد به المصدر و تارةً يقال و يراد به المفعول أعني به المشئ فإذا وصف به تعالى فمعناه، شاء وإذا وصف به غيره فمعناه المشئ و لذلك يقال هو تعالىٰ شئ لا كالأشياء و للبحث فيه مقام أخر و كيف كان لا شكّ أنّه تعالىٰ خالق كلّ مخلوق.

و أمّا أنّه على كلّ شئ وكيل، فقد ظهر معناه لأنّ الخالق وكيل لمخلوقه قهراً أي زمام أمر الخلق بيده يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا نعني بالوكيل إلاّ هذا.

لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

مقاليد جمع مقلاد مثل مفاتيح جمع مفتاح، و قيل واحدها مقليد، و المقاليد المفاتيح و قيل المقاليد الخزائن و معنى الآية أنّ مفاتيح السّموات و الأرض تحت قدرته و إختياره و هو كناية عن إحاطته بخلقه و قدرته كما قيل:

أزمّـة الأمـور طـرّاً بـيده   والكلّ مستمدّةٌ من مَـدَده

و قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ** يوم القيامة لأنّهم يخسرون الجنّة و نعيمها و يأخذون النّار و سعيرها.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ

قرأ إبن عامر، تأمرونني، بنونين مخفّفين على الأصل، و قرأ نافع على حذف نون الثّانية و إنّما كانت المحذوفة الثّانية لأنّ التّكرير و التّثقيل يقع بها و أيضاً حذف الأولىٰ لا يجوز لأنّها دلالة الرّفع، و أمّا الباقون فقد قرأوا بنون واحدة مشدّدة على الإدغام و عليها المصاحف و هو الأقوى و عليه الأكثر، و معنى الآية (قل لهؤلاء الكفّار أتَأْمُرُوٓنِّيٓ أن أعبُد غَيْرَ ٱللّٰهِ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ) بأنّ المعبود منحصر في اللّه و غيره لا يستحقّ ذلك كائناً ما كان.

أن قُلت ما العامل في قوله: **أَفَغَيْرَ**.

قُلتُ ذكروا فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون **تَأْمُرُوٓنِّيٓ** إعتراضاً، و يكون التّقدّير (أَفَغير اللّه أَعبُد أيّها الجاهلون في ما تأمروني.

الثّاني: أن لا يكون إعتراضاً و يكون تقدير الكلام، (أَتأمرُوني أعبُد غير اللّه أيّها الجاهِلُون في ما تأمرُونّي) فعلى الوجه الأوّل فلا موضع لقوله، أعبد، من الإعراب لأنّه علىٰ تقدير أعبد أيّها الجاهلون، و أمّا على الوجه الثّاني عدم الإعتراض فيكون موضعه نصباً علىٰ الحال و تقديره، أتأمرُونّي عابداً غير اللّه فمخرجه مخرج الحال قاله في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف **أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ** منصوب، بأعبد، و **تَأْمُرُوٓنِّيٓ** إعتراض، و معناه أَفَغير اللّه أَعبُد بِأَمركُم، و ذلك حين قال له المشركون، إستَلم بعض آلِهتنا و نؤمن بإلهك إنتهىٰ.

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ، بَلِ ٱللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ

ثمّ قال تعالىٰ لنبيّه: **وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** من الأنبياء و الرّسل، لئن أشركت، باللّه غيره من الأصنام و الأوثان، **لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** أي لوقعت عبادتك علىٰ وجه لا يستحقّ عليها الثّواب **وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ** و الحبط العناد فقوله: **لَيَحْبَطَنَّ** أي ليفسدّن يقال حبط بطنه إذا فسد من داءٍ معروف في الآية مسائل لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً.

الأولىٰ: قرئ،ليحبطنّ،عملك على البناء للفاعل و عليها المصاحف و قرئ علىٰ البناء للمفعول بضمّ الياء و قرئ بالنّون و الباء و عليها فالمحيط هُو اللّه.

الثّانية: قال صاحب الكشّاف.

فأن قُلت الموحى إليهم جماعة الأنبياء فكيف قال: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ** على التَّوحيد.

قُلتُ معناه أوحي إليك **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** و إلىٰ الّذين من قبلك مثله و أوحي إليك و إلى كلّ واحدٍ منهم لئن أشركت و ساق الكلام إلى أن قال.

فَأن قُلت كيف يصحّ هذا الكلام مع علمه تعالىٰ أنّ رسله لا يشركون تحبط أعمالهم.

قُلتُ هو علىٰ سبيل الفرض و المحالات يصحُّ فرضها لأغراضٍ فكيف بما ليس بمحالٍ إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره لابأس به و فى المقام إحتمال آخر و هو أن يكون الخطاب للنبيّ و المراد الأمَّة هذا مضافاً إلىٰ أنّ الآية بيان حكم كلّي و هو أنّ الشِّرك باللّه يوجب حبط الأعمال من أيّ شخصٍ صدر.

و من المعلوم ان مرحلة الإمكان غير مرحلة الوقوع فالشّرك باللّه بالنِّسبة إلى المخلوق في حدّ الإمكان لا في حدَّ المحال، و الأنبياء لكونهم معصومين لا يتحققّ منهم الشّرك و الذَّنب و المانع من الوقوع هو العصمة و عدم تحققّ الشّئَ لأجل المانع لا ينافي تحقّقه في حدَّ ذاته على سبيل الإمكان، فالعصمة تمنع عن فعليّة الذَّنب في حقهم لأنّها تسلب القدرة عنهم حتّىٰ يقال أنّ النّبي لا يقدر علىٰ الذّنب إذ عدم القدرة على الشّئَ نقص في الفاعل و بعبارةٍ أخرى عدم تحقّق الذّنب عن النَّبي إمّا لعدم قدرته عليه، و إمّا لوجود المانِع.

فأن كان الأوّل فلا يثاب عليه و أن كان الثّاني فيثاب عليه و ذلك لأنّ القدرة على الفعل و التَّرك على الفرض موجودةٌ إلاّ أنّ المانع و هو العصمة منعه عن الفعل بإختياره و كان قادراً علىٰ الذّنب بحسب قدرته و فيه أجرٌ عظيم فأنّ العصمة ليست من الموانع القهرَّية الّتي توجب سلب القدرة عن الفاعل.

و حاصل الكلام أنّ المعصوم كغيره من أبناء البشر في القدرة على الذّنب و لا فرق بينهما من هذه الجهة إلاّ أنّه أي المعصوم لا يذنب لأنّ اللّه عصمه منه بعنياته و توفيقه إيّاه و أمّا غير المعصوم فليس كذلك و العصمة لا توجب سلب الإختيار على الفعل و تركه فالمعصوم يقدر على الذّنب بحسب طبيعته و مع ذلك لا يذنب بـاختياره و لأجل ذلك يقال هو أفضل الخلق و إذا كان كذلك فالآية الشّريفة لا تحتاج إلىٰ التّوجيه و التّأويل بل هي كغيرها من الآيات المبيّنة للأحكام و قد ثبت أنّ الحكم المعلّق على شرطٍ يدور مدار وجود شرطه فإذا إنتفى الشّرط إنتفى المشروط لأنّ المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه فتأمّل في المقام.

و أمّا قوله: **بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ ٱلشَّٰاكِرِينَ** فالتّقدير، بل فأعبُد اللّه، و تقديم المسند إليه لافادة الحصر أي إجعل العبادة له تعالىٰ لا لغيره علىٰ وجه الحصر ألا ترىٰ أنّ قولك، زيداً ضربت يوجب حصر الضّرب في زيد أي ما ضربت غير زيد، بخلاف قولك ضربت زيداً فأنّ إثبات الضّرب لزيد لا يوجب نفي الضّرب عن غيره فأنّ إثبات شيءٍ لشيءٍ لا ينفي ماعداه، و هكذا قوله: **بَلِ ٱللَّهَ اعْبُدْ** و مثله قوله تعالىٰ: **إِيّٰاكَ نَعْبُدُ وَ إِيّٰاكَ نَسْتَعِينُ** في إفادة الحصر.

و أمّا قوله: **وَ كُنْ مِنَ ٱلشَّٰاكِرِينَ** حيث أمر اللّه نبيّه بالشّكر فالوجه فيه أنّ عبادة اللّه علىٰ وجه الإنحصار تتوقّف علىٰ المعرفة و من المعلوم أنّ معرفة اللّه كذلك من أعظم النّعم الإلٰهيّة بل لا نعمة فوقها، و قد ثبت أنّ الشّكر على النِّعمة واجب عقلاً و شرعاً و لذلك أمر اللّه نبيّه بالشّكر على هذه النّعمة العظيمة كن من الشّاكرين.

وَ مٰا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ ٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ ٱلسَّمٰوٰاتُ مَطْوِيّٰاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ

الْقَدر بفتح القاف و سكون **الدّال** و **الرّاء** المنزلة و الشَّرف و العظمة يقال رجل له قدر، أي منزلة و شرف و منه ليلة القدر، و علىٰ هذا فمعنى قوله: **وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ** أي ما عظّموه حقّ عظمته، والوجه فيه أنّ تعظيم الموجود فرعٌ على معرفته و معرفة اللّه بكنهه لا يمكن لأحدٍ من خلقه و إذا كانت المعرفة بالكنه مستحيلة فكيف يمكن تعظيمه بما هو حقّه.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **ما عَرفناك حَقّ مَعرفتك**، و إذا كان سيّد البشر و أفضل الأنبياء و أقرب الخلق إلىٰ اللّه معترفاً و مقرّاً بعدم معرفة اللّه حقّ معرفته فماظّنك بغيره هذا بالنّظر الىٰ النّقل.

و أمّا من جهة العقل فلأنّ المخلوق كائناً ما كان متناهٍ في ذاته و صفته لأنّـه حادث مسبوق بالعدم و محلوقٌ به فلوجوده إبتداء و إنتهاء و هكذا في صـفاته لأنّها تابعة لوجوده و لا نعني بالمتناهي إلاّ هذا.

و أمّا الخالق فهو غير متناه في وجوده و صفاته و المعرفة الكاملة لا تحصل إلاّ بإحاطة المدرك على المدرك على وجه الكمال و التّمام فمعرفة اللّـه بـالكنّه لا تحصل لأحدٍ إلاّ بما ذكرناه و لازم ذلك هو خروج المتناهي عن تناهيه محال و توضيح ذلك علىٰ سبيل الإختصار هو أنّ المخلوق متناه ذاتاً وصفةً و من الصّفات العلم.

ثمّ أنّ المعرفة لا تحصل إلاّ بالعلم، و العلم لا يوجد إلاّ بإحاطة المدرك على المدرك و المفروض أنّ المدرك أعني به علم المخلوق متناه، و المُدرَك أعني به معرفة اللّه بالكنه غير متناه فإحاطة علم الخلق بذاته تعالىٰ و صفاته توجب خروج المتناهي عن كونه متناهياً و إلاّ لا يكون محيطاً بغير المتناهي فالمدرِك من حيث أنّه مخلوق يكون متناهياً و من حيث أنّه أحاط بغير المتناهي أن يكون غير متناه فهو متناه و غير متناه و التّناهي و عدم التّناهي متناقضان فيلزم إجتماع النّقيضين، و

هو محال فمعرفة اللّه بالكنه محال و هو المطلوب و إذا كان كذلك فكيف يعظّم اللّه حقّ تعظيمه و يعرف منزلته و هذا معنى ما قدروا اللّه حقّ قدره فهذا الحكم من الأحكام العقلّية الّتي لا تقبل التّخصّيص أبداً فهو ثابت في حقّ جميع الخلق من البدو الى الختم و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **وَ ٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ** القبضة كناية عن قدرته كما يقال فلان في قبضتي أي تحت قدرتي و إختياري و النّاس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه و قدرته و إحتمل بعضهم أن يكون معنى القبض و الطّي إفناء الشّئ و إذهابه و عليه فالمعنى أنّ الأرض و السّموات جميعاً ذاهبة فانية يوم القيامة قال المراد بالأرض الأرضون السبع و الدّليل على ذلك قوله: جميعاً **ٱلسَّمٰوٰتُ مَطْوِيّٰتٌ بِيَمِينِهِ** أيضاً كناية عن قدرته فأنّ اليمين كناية عن القدرة قيل ليس يريد به طيّاً بعلاج و إنتصاب و أنّما المراد بذلك الفناء والذّهاب و اليمين في كلام العرب قد تكون بمعنىٰ القدرة و الملك و منه قوله تعالىٰ: **لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**[1] أي بالقوّة و القدرة و منه قول الشّاعر:

إذا ما رايةُ رفعت بمجدٍ   تـلّقاها عـرابـة بـاليمين

و قال الأخر:

ولمّـا رأيت الشّـمس أشرق نـورها   تـنـاولت مـنها حـاجتي بـيمينٍ

و قوله: **سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ** نزّه ذاته المقدّسة عَن أن يشرك به أي أنّ الخالق الّذي كانت قدرته كذلك فهو منزّهٌ عن الشّريك الّذي لا يقدر علىٰ شئٍ.

وَ نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ إِلّٰا

۱- الحاقّه = ۴۵

مَنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرٰى فَإِذٰا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ

النَّفخ بفتح النّون و سكون الفاء و الخاء نفخ الرّيح في الشّئ و منه نفخ الرُّوح في النّشأة الأولىٰ قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي**[1] يقال إنتفخ بطنه و منه إستعير إنتفخ النّهار إذا إرتفع و رجلٌ منفوخ أي سمين قاله في المفردات **والصُّور** بضمّ الصّاد و سكون الواو و الرّاء قيل هو مثل قرن ينفخ فيه فيجعل اللّه ذلك سبباً لعود الصُّور والأرواح إلىٰ أجسامها و روى بعضهم أنّ الصُّور فيه صورة النّاس كلّهم و قوله: **فَصَعِقَ** الصّاعقة و الصّاقعة يتقاربان و هم الهدّة الكبيرة إلاّ أنّ الصَّقع يقال في الأجسام العلّوية.

قال بعض أهل اللّغة الصّاعقة على ثلاثة أوجه، الموت و العذاب، و النّار.

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ **فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ** كما في هذه الآية.

من الثّاني: قوله تعالىٰ: **أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ**[2].

من الثّالث: قوله تعالىٰ: **وَ يُرْسِلُ ٱلصَّواٰعِقَ فَيُصيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰآءُ**[3].

قال الرّاغب في المفردات أنّ ما ذكروه فهو أشياء حاصلة من الصّاعقة فأنّ الصّاعقة هي الصُّوت الشّديد من الجوّ، ثمّ يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت فهي في ذاتها شئ واحد و هذه الأشياء تأثيرات منها إنتهىٰ.

و كيف كان فقوله فصعق من في السّموات و الأرض فالصّاعقة هاهنا الموت، و معنىٰ الآية و نفخ في الصُّور، و النّافخ هو إسرافيل و أنّما أتىٰ بصيغة الماضي في جميع ألفاظ الآية مع أنّ النَّفخ و الصعق في المستقبل لأنّ المستقبل إذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي كقوله: **اِقْتَرَبَتِ ٱلسّٰاعَةُ وَ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ**[4].

و إذا كان كذلك فكأنّه نفخ فيه سابقاً و هكذا قوله فصعق أي مات من في

۱- الحجر = ۲۸
۲- فصّلت = ۱۳
۳- الرّعد = ۱۳
۴- القمر = ۱

السّموات و الأرض (إلاّ ما شاء اللّه) إستثنىٰ من الهالكين قوماً مِن الملائكة منهم الملك النّافخ الّذي ينفخ فيه فأنّه يبقى بعده و هكذا غيره ممّن لا يعلمه إلاّ اللّه ثمّ نفخ فيه أخرى، أي تارةً أخرىٰ.

فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ فهذه النَّفخة الثّانية للحشر، قيل يفني اللّه تعالى بعد الصَّعق و موت الخلق، الأجسام كلّها ثمّ يعيدها، و معنى فإذا هم قيام ينظرون، إخبار عن سرعة إيجادهم لأنّه إذا نفخ النَّفخة الثّانية أعادهم عقيب ذلك فيقولون من قبورهم أحياء ينظرون ما يراد و يفعل بهم.

أقول يستفاد من الآية أنّ النَّفخة الأولى لموت الأحياء بدليل قوله فصعق من في السّموات، و الأرض، ثمّ بعد موت الأحياء و لحوقهم بالأموات، نفخ في الثّانية لإحياء الجميع فقوله فإذا هم قيام ينظرون، إشارة إلى قيام الجميع.

روى علّي بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن علّي بن الحسين عليهما السّلام، قال سئل عن النَّفختين كم بينهما، قال عليه السلام: ما شاء اللّه فقيل له فأخبرني يابن رسول اللّه كيف ينفخ فيه؟ فقال عليه السلام: أمّا النّفخة الأولى فأنّ اللّه يأمر إسرافيل فيهبط إلى الأرض و معه الصُّور وللصُّور رأس واحد و طرفان و بين طرف كلّ رأسٍ منهما ما بين السّماء والأرض، قال عليه السلام: فإذا رأت الملائكة إسرافيل و قد هبط إلىٰ الدّنيا و معه الصُّور قالوا قد أذن اللّه في موت أهل الأرض و فى موت أهل السّماء قال عليه السلام: فيهبط إسرافيل بحظيرة بيت المقدس ويستقبل الكعبة فإذا رأوه، أهل الأرض قالوا أذن اللّه في موت أهل الأرض قال عليه السلام: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصّوت من الطّرف الذّي يلي أهل الأرض فلا يبقى في الأرض ذوروح إلاّ صعق و مات ويخرج الصَّوت من الطّرف الّذي يلي أهل السّماء فلا يبقى في السّموات ذو روحٍ إلاّ صعق و ماتَ إلاّ إسرافيل. قال عليه السلام فيقول اللّه لإسرافيل ياإسرافيل مت

فيموت إسرافيل فيمكثون في ذلك ما شاء اللّه الخبر[١].

وَ أَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَ جِاْيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ ٱلشُّهَدَآءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ

الإشراق الإضاءة يقال أشرقت الأرض أي أضاءت و قيل أي طلعت، و إختلفوا في النُّور، فقال قومٌ المراد به العدل أي أضاءت الأرض بعدل ربّها، و قيل معناه الحكم بالحقّ فيها، و قيل أنّ اللّه يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به.

قال إبن عبّاس، و قيل أنّ الأرض يومئذٍ من فِضّة تشرق بنور اللّه تعالىٰ حين يأتي لفصل القضاء و المعنىٰ أنّها أشرقت بنور خلقه اللّه فأضاف النُّور إليه علىٰ حدّ إضافة الملك إلى المالك و قيل أنّه اليوم الّذي يقضي فيها بين خلقه لأنّه نهار لا ليل معه.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال وردّها، ما هذا لَفظه و لا يبعد أن يراد، واللّه أعلم، من إشراق الارٔض بنور ربّها ما هو خاصّة يوم القيامة من إنكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدّو الأعمال من خيرٍ أو شرّ أو طاعةٍ أو معصيةٍ أو حقٍّ أو باطل للنّاظرين و إشراق الشّئ هو ظهوره بالنُّور و لا ريب أنّ مظهرها يومئذٍ هو اللّه سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكتسب منه تعالىٰ و هذا الإشراق و أن كان عامّاً لكلّ شئ يسعه النُّور لكن لمّا كان الغرض بيان ما للأرض و أهله يومئذٍ من الشّأن خصّها بالبيان فقال: **وَ أَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** و ذكره تعالىٰ بعنوان ربّوبية الأرض تعريضاً للمشركين المنكرين لربّوبيته تعالىٰ للأرض و ما فهيا و المراد بالأرض مع ذلك الأرض و ما فيها و ما يتعلّق بها كما تقدّم أنّ المراد بالأرض في قوله: **وَ ٱلْأَرْضُ**

١- تفسير علّي بن إبراهيم ج ٢ ص ٢٥٢

جَمِيعًا قَبْضَتُهُ ذلك إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقُول أنّما ذكرنا أقوالهم في تفسير الآية الشّريفة بطولها و تفصيلها لأنّا بعد التّأمل فيها لم يحصل لنا ما يعتمد عليه و تطمئنّ به النّفس فنقلنا أقوالهم في المقام لعلّك تفهم منها ما لم نفهم منه والّذي يخطر بالبال في معنى الآية هو أنّ المراد بالأرض في الآية الشّريفة أرض المحشر، لا هذه الأرض المحسوسة المشهودة.

و حيث أنّ المفسّرين حملوا الأرض المشرقة بنور ربّها علىٰ هـذه الأرض فإضطربت كلماتهم حول معنى الآية و لم يعلموا أنّ الأرض التّي أعدّت للحساب هو أرض المحشر لا أرض الدُّنيا فأنّ أرض الدّنيا للعمل لا للحساب و اذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال فامّا أن نقول أرض المحشر لا نور فيها و أمّا نقول أنّـها مشرقة.

أمّا القول الأوّل: فلا سبيل إليه إذ لو لم يكن فيها نور فتكون فيها ظلمة إذ لا واسطة بين النُّور و الظُّلمة.

فالقول الثّاني: هو الحقّ و من المعلوم أنّ الأسباب هناك منقطعة فلا شمس هناك و لا قمر فلا محالة يكون شروق الأرض بنور خالقها أي بمشيّئته و إرادته لا أنّ هناك نور من سنخ الأنوار المحسوسة في الدُّنيا و أن شئت قلت بنور ربّها أي بوجود ربّها الّذي خلقها فأنّ الوجود قد يعبّر عنه بالنُّور لأنّ خاصّيتهما الظّـهور بالذّات و المظهر للغير فيهما واحد.

قال اللّه تعالىٰ: **اللّه نُورُ السَّمٰوات وَ الْأَرْض** و قد مرَّ الكلام فيها و أمّا البَحث حول نور اللّه فأسكتوا عمّا سكت اللّه عنه فأنّ معرفة نور اللّه معرفة ذاته المقدّسة التّي منعنا عن الغور فيه و اللّه أعلم فحمل الآية علىٰ ظاهرها ممّا لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: **وَ وُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ** فالظّاهر فيه أنّ المراد بالكتاب هو صحيفة الأعمال:

قال اللّه تعالىٰ: **إِقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفٰى بِنَفْسِكَ اَلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ أُوتِىَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتٰابَهُمْ**[٢].

و المراد بالشُّهداء قيل هم الّذين يشهدون علىٰ الأمم للأنبياء بأنّهم قد بلغوا أحكام اللّه إلىٰ النّاس و أنّهم كذّبتهم أممهم، و قيل المراد بهم الّذين شهدوا على الأمم من أمّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدٰآءَ عَلَى اَلنّٰاسِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَكُونَ اَلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدٰآءَ عَلَى اَلنّٰاسِ**[٤].

و قيل المراد بالشّهداء الّذين إستشهدوا في سبيل اللّه فيشهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين اللّه قاله السُّدي.

و قال إبن زيد هم الحفظة الّذين يشهدون علىٰ النّاس بأعمالهم لقوله تعالىٰ: **وَ جٰآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰآئِقٌ وَ شَهِيدٌ**[٥] فالسّائق يسوقها إلىٰ الحساب و الشَّهيد يشهد عليها و هو الملك الموكّل بالإنسان و قوله تعالىٰ: **وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** أي أنّ اللّه تعالىٰ يقضي بينهم بالحقّ، فلا ينقص أحد منهم شيئاً ممّا يستحقّه من الثّواب و لا يفعل به ما لا يستحقّه من العقاب و إذا كان كذلك فهم لا يظلمون، لأنّ القاضي بينهم هو اللّه تعالىٰ و هو منزّهٌ عن الظُّلم و متَّصفٌ بالعدل و إلى هذا المعنىٰ أشار بقوله:

وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا يَفْعَلُونَ

١- الإسراء = ١٤
٢- الإسراء = ٧١
٣- البَقَرة = ١٤٢
٤- الحجّ = ٧٨
٥- ق = ٢١

و معنىٰ التَّوفية إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه علىٰ التّمام و الكمال من غير نقيصة، و هذا مقتضى العدل فأنّ العدل هو وضع الشّئ في محلّه إذا أعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه فقد وضع الشّئ في محلّه.

و قوله: **وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا يَفْعَلُونَ** معناه أنّه تعالىٰ لا يخفى عليه شئ يُعقل أن لا يكون الخالق عالماً بما يفعل المخلوق بل هو أعلم بحاله و أفعاله و أقواله منه و هو ظاهرٌ لا خفاء فيه.

وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذٰا جٰآءُوهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ اٰيٰاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰآءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا قٰالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ عَلَى ٱلْكٰافِرِينَ

لمّا أخبر اللّه تعالىٰ عن حال الكافرين و المؤمنين في الأيات السّابقة و أنّه تعالىٰ يثيب و يعاقب علىٰ قدر إستحقاق العبد يوم القيامة أخبر في هذه الآية عن أحوال الكفّار فقال: **وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا سِيقَ**، بكسر السّين مجهول، ساق، و السَّوق في اللّغة الحثّ علىٰ السَّير يقال ساقه علىٰ السّير إذا حثّه عليه و **زُمَر** بضّم الزّاء و فتح الميم جمع، زمرة، الجماعة يقال فلان في زمرة الفاسقين أي في جماعتهم، و علىٰ هذا فالزُّمر معناها الجماعات و معنى الكلام أنّ الكفّار يوم القيامة يساقون إلىٰ جهنّم بصورة جماعات متفرّقة بعضها أثر بعضٍ، و فى التعبير بالزُّمر، دون الجماعات إشارة الىٰ نقطةٍ و هى أنّهم أي الكفّار حين سوقهم إلى جهنّم لهم صوت كصوت المزمار و منه مزامير داود يعني أصوات له كانت مستحسنة، قال الشّاعر:

وَترى النّاس إلىٰ مَنزله　　زمراً تنتابه بعد زمرٍ

حَتَّىٰٓ إِذٰا جٰآءُوهٰا فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا أي إذا جاؤا جهنّم فتحت أبواب جهنّم لهم، فقوله: **فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا** جواب، إذا، و أبوابها سبعة، و قد ورد في الأخبار أنّ

أبواب الجنّة ثمانية و أبواب جهنّم سبعة و قد نصَّ الكتاب عليه أيضاً.

قال اللّه تعالىٰ: **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها**[٢].

و قد مرَّ الكلام فيها في سورة الحجر ونقلنا الأخبار الواردة فيها و ستتكلّم في هذا الباب في المستقبل بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه تعالىٰ.

وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أي خزنة جهنّم و هي جمع خازن، و الخزنة الملائكة الموكّلون على النّار و أنّما قالت الخزنة **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** أي من جنس البشر، علىٰ وجه الإنكار و التّقبيح لفعلهم في الدّنيا فالهمزة للإنكار **يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ** أي الأيات الدّالة علىٰ معرفته و توحيده.

وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا أي الأيات الواردة في الوعيد و المعنىٰ يُخوِّفُونكم عنها.

قالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ أي قالوا في جواب الخزنة، بلىٰ، قد جاءتنا رسل ربّنا و خوفونا لقاء هذا اليوم و لكن حقَّت كلمة العذاب من اللّه تعالىٰ علىٰ من كفر به و نحن مستحقّون بذلك، و الغرض من سُؤال الخزنة و جواب الكفّار أنّ الحجّة قد تمَّت عليهم في الدّنيا حسب إقرارهم.

و من المعلوم أنّ المقر يؤخذ بإقراره فأنّ إقرار العقلاء علىٰ أنفسهم جائز و عند ذلك يقول لهم الملائكة الموكّلون علىٰ جهنّم كما حكىٰ اللّه عنهم.

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

أي بئس مقام المتكبّرين جهنّم و الخلود فيها ثمّ أشار اللّه تعالىٰ إلىٰ أحوال المؤمنين يوم القيامة:

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتّٰى إِذا جاؤُها وَ

١- الحجر = ٤٤
٢- النّحل = ٢٩

فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ

لمّا أشار اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة إلىٰ سوق الكفّار إلىٰ جهنّم و ما قالَت الخزنة لهم أشار في هذه الآية إلى سوق المتّقين المؤمنين باللّه و برسوله و العاملين بطاعته و المطيعين لأوامره و نواهيه في الدّنيا فقال: **وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا** أي إجتنبوا معاصيه و فعلوا طاعاته **إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا** أي جماعة بعد جماعة **حَتّٰى إِذٰا جٰاءُوهٰا** أي الجنّة **وَ فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا** أي أبواب الجنّة و هى ثمانية **وَ قٰالَ لَهُمْ خَزَنَتُهٰا** أي قال لهم الملائكة الموكّلون عليها **سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ** أي طابت أفعالكم وزكت **فَادْخُلُوهٰا خٰالِدِينَ** أي فأدخلوا الجنّة خالدين فيها جزاءً على أعمالكم أنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين.

و أعلَم أنّ جواب، إذا، في هذه الآية محذوف بخلافه في الآية السّابقة، و ذلك أنّ جواب الشّرط فيها قوله: **قٰالُوا بَلىٰ** و أمّا في هذه الآية فلم يذكر و تقدير الكلام، سعدوا، أو فازوا، أي حتّىٰ إذا جاؤها، سعدوا، أو فازوا، و فتحت أبوابها، و يحتمل أن يكون الجواب **فَادْخُلُوهٰا** و أيضاً في قصّة أهل النّار حذف **الواو** و قال: **فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا** بدون الواو، و أمّا في هذه الآية فلم يحذف و قال: **و فُتِحَتْ أَبْوٰابُهٰا** قالوا أنّ **الواو** زائدة، و الحقّ أنّ **الواو** في موضعه و ذكره في الكلام دليل علىٰ أنّ الأبواب فتحت للمتّقين قبل أن يأتوا لكرامتهم على اللّه تعالىٰ والتّقدير حتّى إذا جاؤها و أبوابها مفتّحة **جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوٰابُ**(١).

و أمّا حذف **الواو** في قصّة أهل النّار لأنّهم وقفوا علىٰ النّار و فتحت الأبواب بعد وقوفهم عليها، اذلالاً، لهم واللّه أعلم.

وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ

١- ص = ٥٠

ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ

أي إذا دخلوا الجنّة يحمدون اللّه و يشكرونه علىٰ ما أعطاهم من الجنّة و نعيمها و أورثهم أرض الجنّة قيل في التّعبير بالأرث إشارة الىٰ أنّ الجنّة صارت عاقبة أمرهم كما يصير الميراث، و قيل ورثوها من أهل النّار و قوله: **نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ** معناه نتّخذ من أرضها أيَّ مكانٍ شئنا، فنعم أجر العاملين، في الدُّنيا بعد الموت و لمثل ذلك فليعمل العاملون.

وَ تَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

و ترىٰ الملائكة حاّفين من حول العرش، حافّين، بتشديد الفاء فاعل من حفَّ نصب علىٰ الحال و معنىٰ حاّفين، محدقين، و منه قول النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: **تحُفّه الملائكة بأجنحتها** و جمعه، أحفّة و المعنىٰ ترى الملائكة محدقين به **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** أي ينزّهون اللّه و يقدّسونه متلذِّذين بذلك و قد مرَّ الكلام في معنىٰ العرش غير مرّةٍ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** أي بينَ الخلائق، أو بين أهل الجنّة و النّار بالحقّ لا ظُلم فيه على أحدٍ فأنّ اللّه يعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه **وَ قِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** القائل بذلك جميع المؤمنين و قد ثبت أنّ جميع المحامد يرجع اليه فأنّ الحمد على النِّعمة و جميع النِّعم منه تعالىٰ و نحن أيضاً نقول آخر دعوانا الحمد للّه ربّ العالمين.

■

سورة المؤمن (غافر)

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ تَنْزيلُ ٱلْكِتابِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزيزِ ٱلْعَليمِ ﴿٢﴾ غافِرِ ٱلذَّنْبِ وَ قابِلِ ٱلتَّوْبِ شَديدِ ٱلْعِقابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصيرُ ﴿٣﴾ ما يُجادِلُ فيٓ اٰياتِ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلَّذينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴿٥﴾ وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحابُ ٱلنّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذينَ اٰمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تابُوا وَ ٱتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ ٱلْجَحيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبآئِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ

ذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَ قِهِمُ ٱلسَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ ٱلسَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْايمانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قالُوا رَبَّنآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ اٰياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمآءِ رِزْقًا وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشآءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى ٱللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلّٰهِ ٱلْواحِدِ ٱلْقَهّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسابِ ﴿١٧﴾ وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْاٰزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾

وَ ٱللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

ذِى ٱلطَّوْلِ: الطَّول بفتح الطّاء الفضل و المَّن.
يُجَادِلُ: المجادلة المخاصمة فى دفع حجج اللّه.
تَقَلُّبُهُمْ: التقلّب التصرّف.
لِيُدْحِضُوا: الإدحاض الإبطال.
وَقِهِمْ: بكسر القاف أمرٌ من وقى، يَقي، الوقاية الحفظ.
لَمَقْتُ ٱللَّهِ: المقت بفتح الميم أشدَّ العداوة و البغض.
يُنِيبُ: اناب، ينيب، الإنابة، الرّجُوع.
بَارِزُونَ: البروز، الظُّهور.
ٱلْأَزِفَةِ: الأزفة، الدّانية من قولهم أزف الأمر إذا دنا.
ٱلْحَنَاجِرِ: جمع حنجرة.

◀ الإعراب

تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ أي هو تنزيل الكتاب فالمبتدأ محذوف غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَ قَابِلِ ٱلتَّوْبِ كلتاهما صفة لما قبله و الإضافة محضة ذِى ٱلطَّوْلِ صفة ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ مبتدأ و يُسَبِّحُونَ خبره رَحْمَةً وَ عِلْمًا تمييز ومَنْ صَلَحَ في مَوضع نصب عطفاً علىٰ الضّمير في أدخلهم، ومِنْ مَقْتِكُمْ هو مصدر مضاف إلى الفاعل و أنفكسم منصوب به، وَحْدَهُ مصدر في موضع الحال مِنْ أَمْرِهِ حال مِن الرُّوح أو متعلّق بيلقي يَوْمَ هُمْ بدل من يوم التّلاق و(هُم) مبتدأ و بَارِزُونَ خبره كَاظِمِينَ حال من القلوب أو من الضّمير في، لدى، يطاع في موضع جرّ صفة لشفيع علىٰ اللّفظ

أو في موضع رفع على الموضع.

◄ التّفسير

حمٓ، تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

حمٓ قرأ أهل الكوفة (حاميم) بإمالة الألِف و قرأ الباقون بالفتح من غير إمالةٍ و هما لغتان فصيحتان، و أمّا موضعه من الإعراب فقيل، نصب و تقديره، أتل أو إقرأ، حٰم، موضعه، جرّ، بالقسم و من جزم قال لأنّها من حروف التّهجي و هي لا يدخلها الإعراب، و قد فتح الميم بعضهم و جعله إسم السُّورة و نصبه، و قد مرَّ إختلاف المفسّرين في مباديْ الصُّور و معناها و هل هي أسماء للسُّور أو إشارة أو رمزٌ أو كناية عمّا لا يعلمه إلاّ اللّه تعالىٰ و هذا هو الحقّ.

و قوله: **تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ** بالرّفع علىٰ أنّه خبر لمبتدأ محذوف أي هو تنزيل الكتاب او هذا تنزيل الكتاب و يجوز أن يكون، **حٰم**، مبتدأ و **تَنزيلُ الكتاب**، خبره و المعنىٰ أنّ القرأن أنزله اللّه و ليس منقولاً و لا ممّا يجوز أن يكذّب به و قوله: **مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ** أي من جانب اللّه العزيز و هو القادر الّذي لا يغالب و لا يقهر عالم بما يفعله و لا يخفىٰ عليه شيْ قيل هذه الصّفة لا تصّح إلاّ للّه تعالىٰ لأنّ غيره مغلوب مقهور تحت قدرته و لا يخلو من جهل كائناً من كان ثمّ وصف اللّه نفسه بوصفٍ أخر و قال:

غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَ قَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ

ذكر أوّلاً أنّه غافر الذَّنب، و هو مؤيّدٌ بالعقل و النّقل و قد مرَّ الكلام في هذا الحكم:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يا عِبادِىَ ٱلَّذينَ أَسْرَفُوا عَلىٰٓ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ**

رَحْمَةِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ يَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ جَمِيعًا[١].

و غيرها من الأيات في تضاعيف الكتاب، و أمّا أنّه **قٰابِلِ اَلتَّوْبِ**، التَّوب بفتح التّاء قيل هو جمع توبة كدوم و دومة وعوم وعومة و قيل هو مصدر تاب يتوب توباً مثل قال يقول قولاً، و معنى التّوبة الرّجوع يقال تابَ إذا رجع و أنّما قال في الذَّنب، غافر، و فى التّوب قابل، و لم يقل غافر الذّنب و التّوب مثلاً، أو قابل الذّنب و التَّوب، لأنّ الذّنب ممّا يغفر و التّوبة ممّا تقبل، فلامعنى لغافر التَّوب كما لا معنىٰ لقابل الذّنب و قد منَّ اللّه تعالى بهذين الحكمين على عباده:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ اَلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ اَلَّذِي يَقْبَلُ اَلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ اَلسَّيِّئٰاتِ**[٣].

و أمّا أنّه شديد العقاب، فقيل كما أنّه يغفر لكونه غافراً فقد يعاقب لكونه شديد العقاب و الحقّ أن يقال أنّ الثّواب و العقاب متقابلان فكما أنّ ثواب اللّه لا حدَّ له كذلك عقابه لا حدَّ له و ذلك لأنّ الرَّحمة و الفضل منشأ الثّواب و الغضب منشأ العقاب إلاّ أنّ رحمته سبقت غضبه فلا إنتهاء لرحمته و فضله كما لا إنتهاء لغضبه فما نشأ منهما كذلك فهو أرحم الرّاحمين في موضع الرَّحمة و أشدَّ المعاقبين في موضع النّكال و النَّقمة، فالجنَّة و ما فيها من النِّعم من مظاهر رحمته و جهنَّم و ما فيها من العذاب من مظاهر غضبه ورد أعوذ باللّه من غضب الجبّار و قد أشار اللّه تعالىٰ إلى هذا المعنى في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اَعْلَمُوٓا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ اَلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**[٥].

١- الزُّمَر = ٥٣
٢- التّوبة = ١٠٤
٣- الشّورىٰ = ٢٥
٤- البقرة = ١٩٦
٥- الأنعام = ١٦٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**[١].

و أمّا أنّه تعالى ذو الطَّول فهو أيضاً واضح فأنّ **الطَّول** بفتح الطّاء الإنعام و الفضل، و من المعلوم أنّ النِّعم كلّها منه بل لا منعم إلاّ هو:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لا تُحْصُوهٰا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**[٤].

و قوله: **لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ** فهو شعار التّوحيد، و إليه المصير و المرجع، قال تعالىٰ: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** فمنه البدء و إليه الختم، و المقصود أنّ الأوصاف المذكورة لا توجد إلاّ في المعبود الذّي لا معبود سواه و إليه مصير الخلق.

مٰا يُجٰادِلُ فِيٓ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ إِلاَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلاٰدِ

الجِدال بكسر الجيم في الأصل، المفاوضة علىٰ سبيل المنازعة و المغالبة و أصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله يقال جدلت البناء أي أحكمته، و قيل الأصل في الجدال الصُّراع و إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة و هى الأرض الصلبة.

و قيل المجادلة المخاصمة و كيف كان فهو ممدوحٌ و مذموم، و يعبّر عن الأوّل بالجدال عن الحقّ و عن الثّاني بالجدال بالباطل.

فَمن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **أُدْعُ إِلٰى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ**

١- الحَشر = ۴
٢- النّحل = ٣۴
٣- النّحل = ١١۴
۴- النحل = ۵٣

جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[١] و قد مرَّ البحث فيها هناك.

من الثّاني: أعني به الجدال بالباطل و هو مورد الإشارة في الأية:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تُجادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **حَتّىٰ إِذا جاءُوكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذا إِلّا أَساطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**[٣].

إذا عرفت هذا و ما علمت أنّ الجدال على قسمين حقٌّ و باطل فقوله تعالىٰ: **ما يُجادِلُ فِيٓ اٰياتِ ٱللّٰهِ** من الجدال علىٰ الباطل و ذلك لأنّ الكفّار غرضهم منه إثبات الباطل و إدحاض الحقّ و لذلك قال تعالىٰ: **ما يُجادِلُ فِيٓ اٰياتِ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** و أنّما قال ذلك لأنّ أيات اللّه لا يجادل فيها إلاّ الكافر باللّه فأنّ الحقّ لا جدال فيه إذ ليس وراء الحقّ شيئاً و لذلك لا يجادل المؤمن في أيات اللّه كما هو مفهوم الآية و أنّما غرض الكافر إنكار أيات اللّه و أنّها من أساطير الأوّلين.

فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ أي تصرّفهم في البلاد، و ذلك لأنّي و إن أمهلتهم في الدّنيا و لكن عاقبتهم تصير إلى العذاب.

و قال إبن عبّاس يريد تجارتهم من مكّة إلىٰ الشّام و إلى اليمن، و قيل لا يغررك ما هم فيه من الخير و السّعة في الرّزق فأنّه متاع قليل في الدّنيا، و قيل لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم فأنّ عاقبتهم الهلاك و العذاب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ الجدال بالباطل و إنكار الحقّ كان في الأمم السّالفة أيضاً فقال: **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ** و التّأنيث بإعتبار الجماعة أي

١- النّحل = ١٢٥ ٢- النّساء = ١٠٧

٣- الأنعام = ٢٥

كذّبت الرُّسل قبل هؤلاء الكفّار قوم نوح، و الأحزاب من بعدهم و المراد بالأحزاب الأمم الّذين تحزّبوا علىٰ أنبيائهم بالتّكذيب نحو عاد و ثمود فأنّهم أيضاً كذَّبوا رسلهم.

وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ قال: برسولهم و لم يقل برسولها لأنّه أراد الرّجال دون غيرهم و فى قراءة عبد اللّه، برسولها، علىٰ ظاهر اللّفظ و المعنىٰ همُّوا ليقتلوه أو جادلوا بالباطل، أي جادلوا ليدحضوا به الحقّ و يبطلوه **فَأَخَذْتُهُمْ** أي أخذت هٰؤلاء الكفّار أخذ عزيزٍ مقتدر، فكيف كان عقاب، أي أليس وجدوه حقّاً فما الّذي يؤمن هٰؤلاء من مثل ذلك و المقصود من الآية أنّ حكم الأمثال واحِد.

وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ

أي و كذلك وجبت ولزمت كلمة ربَّك على الكفّار أنهّم أصحاب النّار، يوم القيامة.

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تٰابُوا وَ ٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذٰابَ ٱلْجَحِيمِ

ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ عن أحوال الملائكة حول العرش أنّهم يسبّحون اللّه يكفرون به فقال: **ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ** من الملائكة **وَ مَنْ حَوْلَهُ** أي و الّذين منهم حول العرش كلّهم يسبّحون بحمد ربّهم، و لا يكفرون به طرفة عين **وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** أي باللّه تعالىٰ إيماناً خالصاً **وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا** أي يطلبون الرّحمة و المغفرة من اللّه تعالى للمؤمنين من أفراد البشر **رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا** أي و يقولون ربّنا وسعت كلّ شئ رحمةً و علماً، نصبهما على التّمييز و المعنى وسعت رحمتك و نعمتك و علمك كلّ شيءٍ، فنقل الفعل إلىٰ الموصوف علىٰ وجه المبالغة.

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أي و يقولون أيضاً، فأغفر للّذين تابوا، و رجعوا ممّا كانوا عليه من الذّنب، و اتّبعوا سبيلك الّذي دعوت خلقك إليه بواسطة أنبياءك من التّوحيد و الإخلاص في العبادة **وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ** أي إمنع عنهم عذاب جهنّم.

إن قلت ما معنىٰ قوله: و يستغفرون للّذين تابوا، أليست التّوبة تكفي لإسقاط العذاب، و بعبارةٍ أخرىٰ أيُّ احتياج الى الإستغفار بعد التّوبة.

قُلت إسقاط العذاب عن التّائبً لا يجب على اللّه إذ لو كان واجباً لما كان يحتاج إلى مسألتهم بل اللّه كان يفعله لا محالة هكذا قيل.

أقُول لعلَّ مراد القائل أنّ العذاب وجب على المذنب بعد تحقّق الذَّنب منه فالعقاب مترتّب على الذّنب ترتُّب المعلول على علّته و المسقط لا يكون إلاّ اللّه تعالى فأن قلنا يجب عليه الإسقاط فقد أوجبنا على اللّه الإسقاط يجوز الحكم من المخلوق على الخالق و أن شئت قلت لا يجب علىٰ اللّه شئ، يتمّ بناءً علىٰ أنّ العبد لا يستحقّ شيئاً بعمله و أنّما الثّواب و ترك العقاب من اللّه على سبيل التّفضّل و للبحث فيه مقام أخر، و يحتمل أن يكون المراد بإستغفارهم قبول توبة التّائب.

فقَوله: **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا** أي إقبل توبتهم، فالمراد بالإستغفار هو قبول التّوبة إذ لا يجب على اللّه قبول التّوبة و أنّما يقبل التّوبة تفضُّلاً منه و رحمةً على عباده و أنّما قلنا ذلك لأنّ معنىٰ قبول التّوبة هو إسقاط العذاب إذ لو لم يسقط العذاب لا معنى لقبول التّوبة و اللّه أعلم.

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

هذا أيضاً من قول الملائكة يقولون **رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ** أي وعدت المؤمنين بها و هي إقامةٌ و خلود و دوام.

وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبَآئِهِمْ وَ أَزْواٰجِهِمْ وَ ذُرِّيّاٰتِهِمْ أي وعدتهم أيضاً بذلك، أنّك أنت العزيز، أي القادر علىٰ كلّ شئ، الحكيم، بوضع كلّ شئٍ في موضعه.

وَ قِهِمُ ٱلسَّيِّئاٰتِ وَ مَنْ تَقِ ٱلسَّيِّئاٰتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ هذا أيضاً من دعاء الملائكة يقولون **وَ قِهِمُ ٱلسَّيِّئاٰتِ** الواو للعطف وقهم، فعل أمر من وقى، يَقى، و الأمر منه، قِ، والظّاهر أنّ المراد بالسّيئات في المقام هو السَّيئات من العذاب أعني شدائدها و يجوز أن يكون المراد بها هو نفس العذاب أي وقهم العذاب والوقاية الحفظ أي لا تعذّبهم **وَ مَنْ تَقِ ٱلسَّيِّئاٰتِ** أي و من صرفت عنه العذاب **يَوْمَئِذٍ** يوم القيامة **فَقَدْ رَحِمْتَهُ** و ذلك، أي صرف العذاب عنه بسبب الرَّحمة، **هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** أي هو الفلاح العظيم و أيّ فوزٍ أعظم من شمول الرَّحمة إيّاه فأنّ من دخل في رحمة اللّه فاز فوزاً عظيماً.

و قيل المراد بالسّيئات نفس المعاصي التّي يرتكبها الإنسان في الدُّنيا و عليه فالمعنىٰ و من تق السّيئات يومئذٍ، إشارة إلىٰ الدُّنيا أي من وفّقته لترك المعاصي في الدّنيا فذلك هو الفوز العظيم، و الفرق بين المعنيين أنّ المراد بالسيّئات على الأوّل تبعات المعاصي و هى جزاؤها و ذلك لأنّ جزاء السَّيئ سيئ و وقايتهم عنها أي صرف العذاب و العقاب عنهم.

علىٰ الثّانى: هو أن يكون المراد بالسّيئات المعاصي في الدُّنيا صرفهم و منعهم عن المعاصي التّي هي بمنزلة العلّة و إذا فقدت العلّة و هى فعل المعصية فقد المعلول و هو العقاب و لكلٍّ منهما وجهٌ وجيه إلاّ أنّ سياق الكلام يقتضي أن يكون المراد بيومئذٍ، يوم القيامة لا يوم الدُّنيا بدليل قولهم (وَ وَقهم عذاب الجَحيم) و إذا كان المراد بيومئذٍ، يوم القيامة فالمراد بالسّيئات هو العقاب المترتّب عليها لا نفس المعاصي إذ لا معصية و لا طاعة في القيامة لأنّها ليست بدار

التكلّيف.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **اليوم عَمَلٌ و لا حساب وغَدٌ حسـابٌ و لاعَـمَل،** والّذي يظهر من الأيات هو أنّ الدُّعاء أمرٌ مرغوب فيه على كلّ حـالٍ و أمّـا أنّ إسقاط العذاب هل هـو تـفضّل مـنه تـعالىٰ عـند التّـوبة فـيحتاج إلىٰ الدُّعـاء أو واجبٌ عليه فلا يحتاج إلىٰ السّؤال فقد مرَّ الكلام فيه مضافاً إلىٰ أنّه خارج عن موضوع الكتاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْـفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ

المَقت، بفتح الميم و سكون القاف و التّاء مصدر يقال، مقت مَقتاً، و المقت أشدَّ العداوة و البغض، و معنى الآية **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**، باللّه، **يُنادَون** بضَم الياء و فتح الدّال بصيغة المجهول أي يقال لهم ينادون من قبل الملائكة بامرٍ من اللّـه **لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** و ذلك أنّهم لمّا رأوا العذاب يقال لهم لمقت اللّه أكبر.

قال بعضهم لمّا رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت اللّه أكبر من مقتكم أنفسكم، و قيل لمّا تركوا الإيمان في الدّنيا و صاروا إلى الكفر فقد مقتوا أنفسهم أعظم المقت كما يقول أحدنا لصاحبه إذا كنت لا تبالي بنفسك فلمّا أُبالي بك.

و قال بعضهم معناه لمقت اللّه أكبر من مقت بعضكم لبعض.

أقُول الآية لا تحتاج إلىٰ هذه التكلّفات لوضوح معناها و ذلك لأنّهم لمّا ماتوا على الكفر و عاينوا العذاب مقتوا أنفسهم أي ذمُّوها، فيقال لهم لمقت اللّه لكم بسبب عدم قبولكم الإيمان و بقاءكم على الكفر في الدّنيا أكبر من مقتكم أنفسكم و هذا ممّا لا خفاء فيه.

قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ

أَمَتَّنا من أمات، يميت، و التّاء للخطاب، و نا، مفعول، أي حكمت بموتنا أو أقبضت روحنا، أثنتين، أي مرّةً بعد مرّةٍ و أحييتنا كذلك و إختلفوا في معناه،

فقال إبن مسعود و إبن عبّاس و الضّحاك و قتادة، و كانوا أمواتاً في أصلاب أبائهم ثمّ أحياهم اللّه في الدّنيا ثمّ أماتهم الموتة التّي لابدّ منها في الدُّنيا حينَ جاء أجلهم ثمّ أحياهم للبعث و القيامة فهاتان حياتان و موتتان و هو قوله تعالىٰ: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوٰاتًا فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**[١].

و قال السُّدي، أميتوا في الدُّنيا ثمّ أحياهم في القبور للمسألة ثمّ، أميتوا ثمّ أحيوا في الأخرة و أنّما صار إلى هذا لأنّ لفظ الميّت لا ينطلق في العرف علىٰ النُّطفة في صلب الأباء، و قيل أخرجهم و أحياهم و أخذ عليهم الميثاق من ظهر أدم، ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم في الدّنيا ثمّ أماتهم.

أقُول ما قاله السُّدي أظهر و أقوى إذ لا شكّ في الإحياء للمسألة في عالم البرزخ ثمّ الإحياء في الأخرة لأجل الحساب و على هذا فالموتة الأولى بعد حلول الأجل و الموتة الثّانية بعد سؤال القبر في البرزخ، و الحياة الأولىٰ، الحياة الدُّنيوية، و الثّانية، في الأخرة و معنى الآية أنّ الكفّار قالوا إنّا بعد ذلك إعترفنا و أقررنا بذنوبنا فهل إلىٰ خروجٍ من سبيل، فنسلكه في طاعتك و إتّباع مرضاتك أو هَل لنا طريقٍ إلى الخروج من العقاب الّذي وجب لنا بسبب المعاصي.

و من المعلوم أنّ الجواب لا طريق لكم فهذا الكلام منهم مثل قول القائل **رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلّىٓ أَعْمَلُ صٰالِحًا فِيمٰا تَرَكْتُ.**

و الجواب، الجواب و هو قوله: **كَلآّ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰآئِلُهٰا**[٢].

١- البَقرة = ٢٨ ٢- المؤمنون = ١٠٠

ثمّ علّل اللّه تعالىٰ ذلك بقوله:

ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ

هذا جواب من اللّه تعالىٰ عن قولهم فهل إلى خروج من سبيل، و حاصله أنّكم إذا دعيتم إلى توحيد اللّه كفرتم به و إذا دعيتم إلىٰ الشّرك به و بعبادة الأصنام و الأوثان أمنتم به و من كان كذلك فقد حقّ عليه كلمة العذاب ماله من جواب فالحكم في ذلك للّه العلّي الكبير، و العلّي، القادر على كلّ شئٍ و حكمه حقّ و قوله صدق، و هو لا يظلم على أحدٍ أنّما تجزون ما كنتم تعملون إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً **ما رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ**.

و محصّل الكلام أنّ النّدامة و الحسرة يوم القيامة على ما فات من العبد في الدّنيا بسوء سريرته و إختياره لا فائدة فيها.

هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ رِزْقًا وَ مٰا يَتَذَكَّرُ إِلّٰا مَنْ يُنِيبُ

أي أنّ الّذي كنتم كفرتم به في الدُّنيا و أشركتم به هو الّذي يريكم أياته، فيها و أقام لكم الحجج و البراهين بواسطة انبياء، و ينزّل لكم من السّماء رزقاً، من الغيث و المطر الذّي ينبت ماهو رزق الخلق، و ما يتذّكر، به إلاّ من ينيب و يرجع إليه و يتدبّر في أياته و أمّا من أقبل إلى الأصنام و الأوثان و تابع الشّيطان ولم يرجع إلى اللّه فكيف يتذّكر، و فى هذه الآية إشارة إلىٰ نكتة خفيّة و هي أنّكم تأكلون رزقه و تعبدون غيره، و هذا عجيبٌ.

فَادْعُوا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكٰافِرُونَ

الفاء للتّفريع أي إذا كان اللّه يريكم أياته الدّالة علىٰ توحيده و يرزقكم من

السّماء فأعبدوه و أدعوه مع الإخلاص ولو كره الكافرون، ذلك لأنّ الكافر باللّه حاله معلومٌ فلا تبالوا بهم فأعبدوا ربّكم رغماً لأنوفهم.

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ

وصف اللّه نفسه بأنّه رفيع الدَّرجات الكلام، هو رفيع الدَّرجات، قيل معناه رفيع طبقات الثّواب التّي يعطيها الأنبياء و المؤمنين في الجنّة.

و قيل معناه رفيع الصّفات و قيل، رفيع السّموات السبع، فهو على الأوّل رافع الدَّرجات، فعيل بمعنىٰ فاعل.

علىٰ الثّاني: من صفات الذّات و معناه لا أرفع قدراً منه و هو المستحقّ للمدح و الثّناء.

علىٰ الثّالث: من صفات الفعل.

و قوله: **ذُو ٱلْعَرْشِ**، أي خالقه و مالكه لا أنّه يحتاج إليه، و قوله: **يُلْقِي ٱلرُّوحَ** يحتمل أن يكون المراد بالرُّوح جبرئيل، و بالقاءه إرساله إلىٰ الأنبياء كما قال تعالىٰ: **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ**[١].

و يحتمل أن يكون المراد به القرأن، قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**.

و قوله: **عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ** هم الأنبياء إذ ليس لأحد في إختيار النّبي مشيّئته واللّه تعالى هو الّذي إختار من عباده من شاء وأراد للنّبوة **لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ** قيل ليوم البعث أي يبعث الرّسول لإنذار الخلق من أهوال يوم القيامة، قيل في تسميته بيوم التّلاق لأنّه اليوم الّذي يلتقي فيه أهل السّماء و أهل الأرض، و الأحسن أن يقال في وجه تسميته به، أنّه اليوم الّذي يلاقي كلّ إنسانٍ جزاء عمله، أو يلاقي صحيفة أعماله و غير ذلك.

١- الشّعراء = ١٩٣ - الشّوريٰ = ٥٢

يَوْمَ هُمْ بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ

لا يبعد ان يكون قوله: **يَوْمَ هُمْ بَٰرِزُونَ** تفسيراً لقوله: **يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ** فكأنّه قيل ما يوم التّلاق، فقال تعالىٰ: **يَوْمَ هُمْ بَٰرِزُونَ** أي يظهرون من قبورهم و يهرعون إلىٰ أرض المحشر، و هو يوم التّلاق، و يوم الجمع، و يوم الحشر و يوم الحساب أو ما شئت فسمّه.

لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لأنّه تعالىٰ عالم السّر و الخفيّات، بكلّ شيءٍ عليم **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** إختلفوا في القائل بهذا الكلام فقال بعض المفسّرين أنّه تعالىٰ يقرّر عباده فيقول لمن المُلك اليوم، فيقّر المؤمنون و الكافرون بأنّه لِلّه الواحد القهّار.

و قال الأخرون أنّه تعالىٰ هو القائل و هو المجيب لنفسه و يكون في الاخبار بذلك مصلحة في دار التكلّيف.

و نقل بعض المفسّرين من العامّة عن إبن مسعُود أنّه قال يحشر النّاس على أرضٍ بيضاء مثل الفضّة لم يعص اللّه عزّ وجلّ عليها فيؤمّر منادٍ ينادي، لِمَن الملك اليوم، فيقول العباد مؤمنهم و كافرهم، للّه الواحد القهّار، فيقول المؤمنون هذا الجواب سروراً و تلذّذاً، و يقول الكافرون غمّاً و إنقياداً و خضوعاً.

فأمّا أن يكون هذا و الخلق غير موجودين فبعيد لأنّه لا فائدة فيه إنتهىٰ كلامه.

أقُول ما نقله عن إبن مسعود على فرض صحّة النّقل لا دليل عليه و أنّما قال ما قال من عند نفسه و العجب من النّاقل حيث صرَّح قبل النَّقل بأنّه أصحّ ما قيل فيه.

و قوله في أخر كلامه أنّه لا فائدة فيه، لا فائدة فيه بل فيه فوائد.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

•وَإِنَّ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ فَلاَ شَيْءَ إِلَّا اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

الَّذِی اِلَیْهِ مَصیرُ جَمِیعِ الْأُمُورِ بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا کَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا وَبِغَیْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا کَانَ فَنَاؤُهَا وَلَوْ قَدَرَتْ عَلیٰ الْإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا... .

روی علّي بن إبراهيم في تفسيره بأسناده عن عبيد بن زُرارة قال سمعت أبا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: إذا أمات اللّه أهل الأرض لبث كمثل ما خلق الخلق و مثل ما أماتهم وأضعاف ذلك ثمّ أمات أهل السّماء الدّنيا و أضعاف ذلك ثمّ أمات أهل السّماء الثّانية، ثمّ لبث مثل ما خلق الخلق و مثل ما أمات أهل الأرض و السّماء الدّنيا و السّماء الثّانية و أضعاف ذلك ثمّ أمات أهل السّماء الثّالثة مثل ما خلق الخلق و مثل ما أمات أهل الأرض و أهل السّماء الدّنيا و السّماء الثّانية و السّماء الثّالثة و أضعاف ذلك في كلّ سماء مثل ذلك و أضعاف ذلك ثمّ أمات ميكائيل ثمّ لبث مثل ما خلق الخلق ومثل ذلك كلّه و أضعاف ذلك ثمّ أمات جبرئيل ثمّ لبث مثل ما خلق الخلق و مثل ذلك كلّه و أضعاف ذلك، ثمّ أمات إسرافيل ثمّ لبث مثل ما خلق الخلق و مثل ذلك كلّه و أضعاف ذلك، ثمّ يقول اللّه عزّ وجّل لمن الملك اليوم، فيرّد على نفسه اللّه القّهار.اين الجبّارون و أين الّذين إدعوا معي إلٰهاً آخر، أين المتكّبرون، و نخوتهم ثمّ يبعث الخلق.

قال: عبيد إبن زَرارة فقلت أنّ هذا الأمر كائن طوّلت ذلك فقال: أرأيت ما كان هل علمت به. فقلت: لا. فقال: فكذلك هذا إنتهىٰ.



أقول يظهر من هذا الحديث و ما نقلناه عن نهج البلاغة، أنّ قوله تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ** بعد فناء الدّنيا و القائل به هو نفسه كما أنّ المُجيب أيضاً هو تعالىٰ:

– الخطبة ١٨٥

ٱلْيَوْمَ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللّٰـهَ سَـرِيعُ ٱلْحِسٰابِ

اللاّم في اليوم للعهد الحاضر و المعنى اليوم الحاضر و هو يوم القيامة تجزى كلّ نفسٍ بما كسبت في الدّنيا من الأعمال إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً فيثاب علىٰ صالح الأعمال و يعاقب على سيّئاتها و من المعلوم أنّ المسبّب يتوقّف علىٰ وجود السَّبب و إلى هذا المعنىٰ أشار اللّه بقوله: **لاٰ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ** أي لا ظلم من اللّه تعالىٰ على أحدٍ من خلقه بل العبد هو الّذي ظلم على نفسه و أشترى العقاب بإختياره و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسٰابِ** معناه لا يشغله محاسبة واحدٍ عن محاسبة غيره فحساب جميعهم على حدٍّ واحد و فى آنٍ واحد و هو ظاهر.

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْـقُلُوبُ لَـدَى ٱلْـحَنٰاجِرِ كٰـاظِمِينَ مٰـا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ

يقال أزف الأمر إذا دنا، و أزف الوقت إذا دنا و قرب و منه (أَزِفَة الأزِفَة) أي دنت القيامة و المعنىٰ دنوّاً المجازاة يوم القيامة، أمر اللّه نبيّه أن ينذرهم و يخوّفهم من أهوال القيامة و شدائدها و أنّه دنىٰ منهم.

لَقوله تعالىٰ: **اِقْتَرَبَتِ ٱلسّٰاعَةُ وَ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ** والمراد بدنّوه و قربه أنّ الموت يأتي بغتةً و ما كان كذلك فهو أقرب من كلّ شيءٍ ثمّ أشار اللّه تـعالىٰ إلى وقت الموت أعني به حال الإحتضار فقال: **إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنٰاجِرِ** جمع حنجرة و هو الوقت الّذي تنتزع فيه القلوب من أمكنتها و هى الصُّدر فكظمت به الحناجر فلم تستطع أن تلفظها و لم تعد إلى أمكنتها و قيل الكاظم السّاكت على امتلائه غيظاً أو همّاً و نصب كاظمين على الحال في قول الزّجاج، و تـقديره قـلوب الظّالمين لدى الحناجر كاظمين أي في حال كظمهم هكذا قيل.

و قال قطرب أنّ المراد بيوم الأزّفة يوم حضور المنيّة و كذا **إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنٰاجِرِ** عند حضور الموت.

و قال قتادة وقعت في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج و لا تعود إلىٰ أمكنتها و هذا لا يكون إلاّ يوم القيامة.

أقول ما ذكروه لا بأس به فأنّ الموت أوّل منزلٍ من منازل القيامة و إنّما أَشار اللّه تعالىٰ إلىٰ ذلك لأنّه محسوسٌ عند الكلّ و لا يمكن لأحدٍ إنكاره و اليوم الّذي هذا أوَّله ينبغي أن يخاف منه:

كما روي عن علّي بن الحُسين عليه السلام أنّه قال: يا بن آدم أنّ وراء هذا أعظم و أفظع و أوجع للقلوب يوم القيامة و ذلك يوم الأزّفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين إنتهىٰ.

و قوله: **مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لاٰ شَفِيعٍ يُطٰاعُ** ما، نافية، أي ليس للظّالمين في ذلك اليوم من حميم أي من قريبٍ ينفع و لا شفيع يطاع، في شفاعته فيشفع لهم، و ذلك لأنّ الشَّفيع فوق المشفوع إليه و الأصنام و الأوثان الّتي زعم الكفّار أنّهما شفعاء لهم عند اللّه دون المشفوع إليه لأنّها جماد و الجماد أدون و أخسَّ من النَّبات و هى أخسَّ من الحيوان و هو أخسَّ من الإنسان فمرتبة الإنسان فوق مرتبة الجماد بمراتب فكيف يعقل أن يكون الجماد شافعاً لما هو أعلى منه هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الشّفاعة في القيامة لا تكون إلاّ بأذن اللّه تعالىٰ لا بأذن الخلق فثبت المطلوب.

يَعْلَمُ خٰائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ

إختلفوا في معنىٰ، خائنة الأعين، فقيل معناه يعلم ما تختان به الأعين من النَّظر إلىٰ غير ما يجوز النَّظر إليه على وجه السّرقة، و قيل في الكلام تقديم و تأخير، أي يعلم الأعين الخائنة.

و قال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلىٰ ما نهى اللّه عنه.

و قال قتادة هي الهَمزة بعينه و إغماضه فيما لا يحبّ اللّه تعالىٰ.

و قال السُّدي هي الرَّمز بالعين، و قيل هي النَّظرة بعد النَّظرة.

و قال الفّراء هي النَّظرة الثّانية و الأقوال فيها كثيرة و الحقّ أنّ خائنة الأعين صفة للنَّظرة اى يعلم اللّه النظرة المسترقّة إلىٰ ما لا يحلّ و الخائنة مصدر مثل الخيانة.

فعن كتاب معاني الأخبار بأسناده إلىٰ عبد الرّحمٰن بن سلمة الحريري قال سَألتُ أبا عبد اللّه عن قوله اللّه عزّ وجلَّ: يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ فقال عليه السلام: ألم تر الرّجل ينظر إلى الشّئ و كأنّه لا ينظر فذلك خائنة الأعين انتهىٰ.

و قال في مجمع البيان، و فى الخبر أنّ النَّظرة الأولىٰ لَك و الثّانية عليك فعلى هذا يكون الثّانية محرَّمة فهي المراد بخائنة الأعين، إنتهىٰ.

روي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لأصحابه يوم فتح مكّة و قد جاء عثمان بعبد اللّه بن سعد بن أبى سرح يستأمنه منه و كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك أهدر دمه و أمر بقتله فلمّا رأى عثمان إستحيىٰ من ردّه و سكت طويلاً ليقتله بعض المؤمنين ثمّ أمنه بعد تردّد المسألة من عثمان، وقال عليه السلام أما كان منكم رجل رشيد يقوم إلىٰ هذا فيقتله فقال له عباد بن بشر يارسول اللّه أنّ عيني مازالت في عينك إنتظار أن تؤمى فأقتله فقال عليه السلام أنّ الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين إنتهىٰ.

أقُول يظهر من هذا أنّ المراد بخائنة الأعيُن الإشارة بالعين و علىٰ هذا فالمراد بقوله يعلم خائنة الأعين، يعلم ما قصد المشير بهما.

و أمّا قوله: **وَ مَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ** أي ما تضمره الصّدور و معناه واضح و محصّل الكلام في الآية أنّ اللّه تعالىٰ عالم بكلّ شيى و لا يخفى عليه شئ و يدلّ عليه العقل و النّقل فأنّ الجهل نقصٌ واللّه تعالىٰ منزّه عنه مضافاً إلىٰ أنّ الخالق محيطٌ بمخلوقه ظاهراً و باطناً و إلاّ لا يكون خالقاً له و قد مرَّ الكلام في هذا الباب

غير مرَّة.

قال أميرالمؤمنين في نهج البلاغة:

قَسَمَ اَرْزاقَهُمْ، وَاَحْصٰى اٰثارَهُمْ وَاَعْمالَهُمْ وَعَدَدَ اَنْفاسِهِمْ وَ خائِنَةَ اَعْيُنِهِمْ وَ ماتُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ.

و حيث قد ثبت أنّ عِلمه تعالىٰ بالأشياء حضوريّ، لا حصّوليٌّ، و معنىٰ الحضوري هو حضور الأشياء عنده و لا جهل في هذا العلم أصلاً فأفهم و إغتنم.

وَ ٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ

أمّا أنّه تعالىٰ يقضي بالحقّ فلأنّه تعالىٰ هو الحقّ بقولٍ مطلق و لا حقّ كذلك سواه، و الحقّ لا يقضي إلاّ بالحقّ و إلاّ لا يكون حقّاً كما أنّ الباطل لا يقضي إلاّ بالباطل فأنّ الثّمرة تتبع الشّجرة و الفرع تابع للأصل فلو قضى الحقّ بالباطل خرج عن كونه حقّاً و سلب الشّيئ عن نفسه محال.

و أمّا الّذين يدعون الكفّار من دون اللّه و هو الأصنام و الأوثان فلا يقضون بشيءٍ أصلاً اذ الحكم بشيءٍ فرعٌ على العقل و الجماد لا عقل له و لا علم فكيف يقضي و هو لا يقدر علىٰ شيئ،

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** كأنّه بمنزلة التّعليل للحكم أي من لا يسمع و لا يبصر كيف يقضي، و يحتمل أن يكون المراد ما لا يبصر و لا يسمع فهو جماد، و المعنىٰ واضح.

■

- الخطبة ٨٩

أَوَ لَمْ يَسيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلَّذينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ اثارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ واقٍ ﴿٢١﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَديدُ ٱلْعِقابِ ﴿٢٢﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِاٰياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبينٍ ﴿٢٣﴾ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا ٱقْتُلُوا أَبْناءَ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا مَعَهُ وَ ٱسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ ٱلْكافِرينَ إِلّا في ضَلالٍ ﴿٢٥﴾ وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونيَ أَقْتُلْ مُوسىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنّيَ أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسادَ ﴿٢٦﴾ وَ قالَ مُوسىٰ إِنّي عُذْتُ بِرَبّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسابِ ﴿٢٧﴾ وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللّٰهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ ﴿٢٨﴾ يا قَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظاهِرينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ

يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ ٱللّٰهِ إِنْ جاۤءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ماۤ أُرِيكُمْ إِلّا ماۤ أَرىٰ وَ ماۤ أَهْدِيكُمْ إِلّا سَبِيلَ ٱلرَّشادِ ﴿٢٩﴾ وَ قالَ ٱلَّذِيۤ آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّيۤ أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا ٱللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ ﴿٣١﴾ وَ يا قَوْمِ إِنِّيۤ أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴿٣٣﴾ وَ لَقَدْ جاۤءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّا جاۤءَكُمْ بِهِ حَتّىٰۤ إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجادِلُونَ فِيۤ آياتِ ٱللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتيٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ عِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ ﴿٣٥﴾ وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّيۤ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبابَ ٱلسَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰۤ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِبًا وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوۤءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلّا فِي تَبابٍ ﴿٣٧﴾

◀ اللّغة

واقٍ: الوقاية الحفظ يقال وقىٰ، يَقي والفاعل منه، واق، أصله واقي، حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه.

ٱسْتَحْيُوا: الإستحياء الإستبقاء.

ذَرُونِيٓ: أي دعوني و أتركوني يقال فلان، يذر الشّئ أي يقذفه لقلّة إعتداده و لم يستعمل ماضيه و الأمر منه، ذَر، .

عُذْتُ: العياذ هو الإعتصام بالشّئ من عارض الشّر يقال عاذَ، يعوذ، عَوذاً.

مُسْرِفٌ: الإسراف الخروج عن حدّ الإعتدال.

دَأْبِ: بفتح الدّال العادة يقال دَأب، يَدأب، دَأباً فهو دائب في عمله إذا إستمرّ فيه.

يَوْمَ ٱلتَّنَادِ: يوم القيامة.

مُرْتَابٌ: الشّاك والرَّيب الشكّ.

تَبَابٍ: الهلاك.

◀ الإعراب

أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في موضع نصب أي أخاف الأمرين مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ هو في موضع رفع نعتاً لمؤمن وَ قَدْ جَآءَكُمْ الجملة حال وظَاهِرِينَ حال من ضمير الجمع في، لكم، ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ خبر مبتدأ محذوف أي هم الّذين كَذَٰلِكَ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك أَسْبَابَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بدل ممّا قبله فَأَطَّلِعَ بالرّفع عطفاً علىٰ أبلغ، و بالنَّصب علىٰ جواب الأمر و الباقي واضح.

◀ التّفسير

أَوَ لَمْ يَسيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلَّذينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ واقٍ

أَوَ لَمْ يَسيرُوا هؤلاء الكفّار **فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلَّذينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ** فَيَتفكرُوا في عَواقبهم، من قوم عاد وثمود ولُوط و غيرهم فيتفطّوا بذلك، مع إنّهم أي الكفّار في القرون السّالفة كانوا أشدّ قوّةً من هؤلاء و أثارهم في الأرض أكثر منهم فأخذهم اللّه بذنوبهم أخذ عزيزٍ مقتدر لمّا عتوا و تكبّروا و أنكروا الأنبياء و أفسدوا في الأرض، و ما كان لَهم من اللّه، أي من عذاب اللّه من واقٍ، أي حافظٍ يحفظهم عن العذاب و فى قولهم: **بِذُنُوبِهِمْ**، الباء للسَّبب و فيه إشارة إلىٰ أنّ العذاب الواقع بهم كان معلولاً لذنوبهم و معاصيهم فكأنّهم أوقعوا العذاب بأيديهم و اختيارهم علىٰ أنفسهم فالآية و أن كانت نزلت في هؤلاء الكفّار في زمن النّبي إلاّ أنّ معناها عامّ يشمل جميع الأزمنة و مصاديقها جميع الأفراد من النّاس الّذين لا يتعظون بما وقع علىٰ الماضيين بسبب أعمالهم و هذا لا يختصّ بزمانٍ دون زمان و قومٍ دون قوم.

فأنّ المقصود أنّ الإنسان العاقل في كلّ عصرٍ و زمانٍ ينبغي أن يعتبر بما مضى على من كان قبله فأنّ موارد العبرة كثيرة و حكم الأمثال واحد ومع ذلك نرى و نشاهد قلّة الإعتبار و هذا عجيبٌ.

ثمّ أشار اللّه تعالىٰ إلىٰ ما فعلوا من المعاصي الّتي استحقّوا بها للعذاب.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَديدُ ٱلْعِقابِ

ذلك إشارة إلى العذاب الواقع بهم فكأنّه قيل لم عذّبوا و بم عذّبوا فقال تعالىٰ عذّبوا بأنّهم كانوا منكرين للرُّسل مستهزئين بهم غير متوجّهين إلىٰ معجزاتهم و

كـــرامـــاتهم الدّالة عـــلىٰ صـدق مـدّعاهم ولم يـعلموا أنّ اللّـه تـعالىٰ أرسل الرُّسل إليهم إتماماً للحجّة مع علمه بإنكارهم و عدم قبولهم دعوة الأنبياء ليهلك من هلك عن بيّنةٍ، و حيث أنّهم أنكروهم بإختيارهم مع قدرتهم علىٰ القبول صاروا مستحقّين لنزول العذاب لئلاّ يكون للنّاس علىٰ اللّه حجّة بل قل للّه الحجّة البالغة على جميع النّاس و الحمد للّه ربّ العالمين.

و قوله: **إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** أمّا أنّه تعالىٰ قويٌّ فلأنّ القوّة عبارة عن القدرة و ضدّه الضّعف فلو لم يكن قويّاً قادراً فهو ضعيف إذ لا واسطة بين القوّة و الضَّعف و كلّ ضعيف فهو مغلوب مقهورٌ لا محالة و الضَّعف نقص و النَّقص من شئون الممكن واللّه تعالىٰ واجب الوجود و إذا كان قادراً علىٰ كلّ شيٍ فهو شديد العقاب و ذلك لأنّ العقاب يدور مدار المعاقب شدّةً و ضعفاً.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبينٍ، إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ

هذه الآية بمنزلة الدّليل علىٰ قوله: **فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ** و لذلك قال: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ** كان مُوسىٰ عليه السلام من أنبياء بنيإسرائيل و هو من أولي العظم، أبوه عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام و كان بينه و بين إبراهيم خمس مائة سنَة و كان أخوه هارون أكبر منه و توفّىٰ هارون قبله و عاش موسىٰ مائتين و أربعين سنة و هو أوّل رسول أرسل إلى بنيإسرائيل و من تقدّمه كانوا أنبياء غير رسل، و أخر رسل بنىإسرائيل عيسى إبن مريم و بينهما ستّ مائة نبيٍّ.

و فرعون، إسم أعجميّ يقال، تفرعن فلان إذا تعاطى فعل فرعون و منه يقال للطّغاة الفراعنة، و هامان كان وزيره، و قارون إبن عمّ موسىٰ أو إبن خالته على إختلافٍ فيه. و كان يقرأ التّوراة في جملة المؤمنين و لم يكن أحسن صوتاً منه و كان موسىٰ يحبّه كثيراً و كان أعلم بنيإسرائيل بعد موسىٰ و هارون و كان

صاحب أموال لا تحصى و كان إذا خرج علىٰ قومه يخرج معه أربعة آلاف فارس و إذا سافر من بلدٍ الى بلدٍ حمل معه مفاتيح كنوزه فتكبّر و إستطال على بنيإسرائيل و قد أخبر اللّه تعالىٰ عنه في قوله: **فَخَرَجَ عَلٰى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قٰالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا يٰا لَيْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰآ أُوتِيَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوٰابُ ٱللّٰهِ خَيْرٌ**[1] مرَّ الكلام في قصّة موسىٰ من حين ولادته الىٰ آخر عمره في سورة القصص فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً حذراً من الأطناب.

إذا عرفت هذا فقوله: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسٰى بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ** فالأيات الّتي أنزلها اللّه تعالى على نبيّه موسى هي آيات تسع كما أشار اللّه اليها في سورة بنيإسرائيل حيث قال: **وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسٰى تِسْعَ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ**[2].

الأولىٰ: العصا. الثّانية: اليد البيضاء. الثّالثة: الطّوفان. الرّابعة: الجراد. الخامسة: الطّاعون. السّادسة: القمّل. السّابعة: الضّفادع. الثّامنة: الدّم. التّاسعة: فلق البحر و إغراق فرعون و قومه، كلّها معجزات خارقات يعجز البشر أن يأتي بواحدة مثلها، و قوله: **وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ** معناه حجّةٌ ظاهرة و السُّلطان الحجّة و أيّة حجّة أكبر و أعظم من هذه الأيات الّتي لا خفاء فيها أصلاً، فأرسل اللّه موسى الى فرعون و هامان و قارون بهذه الأيات والحجّج لإرشادهم الى الحقّ إلاّ أنّهم كذّبوا موسىٰ في دعوته و حملوا آيات اللّه على السِّحر على ما بيّناه سابقاً بما لا مزيد عليه.

فَلَمّٰا جٰآءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنٰآءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ ٱسْتَحْيُوا نِسٰآءَهُمْ وَ مٰا كَيْدُ ٱلْكٰافِرِينَ إِلّٰا فِي ضَلٰالٍ

يعني فلمّا جاءهم موسى بالبيّنات بالحقّ من عندنا قالوا أي قال فرعون و هامان و من تبعهما، **ٱقْتُلُوٓا أَبْنٰآءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا** معه، أي آمنوا بموسى و من معه

١- القصص = ٨٠ / ٧٩ ٢- الاسراء = ١٠١

هكذا قيل و أنت ترى أنّ ظاهر الآية غير ذلك فأنّ قوله: **مَعَهُ** معناه ظاهر في قتل موسى أيضاً أي أقتلوا أبناء الّذين آمنوا معه أي مع موسى ولو كان المعنى ما ذكروه لقال آمنوا به و من معه و لم يقل ذلك فالمعنى أقتلوا أبناء المؤمنين مع موسىٰ و الّدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ حكايةً عن فرعون **وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ** كما سيجئ البحث فيه بعد هذه الآية و قوله: **وَ ٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ** أي لا تقتلوا النّساء فأنّ الإستحياء الإستبقاء لأنّه طلب الحياة و أنمّا أمر فرعون بقتل الأبناء دون النّساء لأنّه رأى ليلة في منامه أنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس و إشتملت على بيوت مصر فأخربتها و أحرقت القبط و تجنّبت بنيإسرائيل فلمّا قصّها فرعون علىٰ الكهنة و المنّجمين قالوا له يولد في بنيإسرائيل غلام يسلبك ملكك و يغلبك على سلطانك فسألهم فرعون هل ولد هذا الغلام أم لم يولد بعد قالوا أنّه لَم يولد و لكنّه قرب مولده ففزع من ذلك و أمر بقتل كلّ غلامٍ يولد لبنيإسرائيل و جمع القوابل من نساء مملكته و شدَّد عليهنَّ بقتل كلّ غلامٍ يولد علىٰ أيديهنّ و ترك البنات من المواليد و نفذ هذا الأمر بشدّةٍ هائلة، و قوله: **وَ مَا كَيْدُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** فالمراد أنّ كيد فرعون و هو قتل الأبناء لم ينفع له و ولد موسى و صار الأمر الى هلاك فرعون و أتباعه و أن شئت قلت أضلّه كيده و أغرقه في البحر مع أتباعه و أنصاره و لم يبق منه إلاّ اللّعنة في الدُّنيا و العذاب الأليم في الأخرة و أيُّ ضلالٍ أقبح منه و هكذا كيد كلّ كافرٍ لإطفاء نور الحقّ فأنّه يرجع الى صاحبه **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ، و لَعْنَة اللّه عَلَىَ الظّالِمِين**.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ

لمّا رأى فرعون معجزات موسىٰ و كراماته و لم يقدر على دفع حججّه قال ذروني، أي أتركوني أقتل موسىٰ و ليدع ربّه، أي يدعوا موسىٰ ربّه ليصرف عنه

القتل أنيّ أخاف أن يبدّل، موسى (دِينكم) الّذي أنتم عليه و هو إقراركم بألوهيّتي، بالإقرار بإلٰه موسى، أو أن يظهر في الأرض الفساد أي يظهر، موسى، في الأرض الفساد الإختلاف.

إعلم أنّهم إختلفوا في القراءة، فقرأ عاصم و حمزة و الكسائي و يعقوب أو أن بإثبات، ألف، قبل **الواو** و الباقون، **وأن** بغير ألف قبل **الواو** و قرأ نافع و يعقوب و أبوجعفر و غيرهم **يُظْهِرَ** بضمّ الياء من أظهر يظهر إظهاراً و على هذا نصبوا الفساد على المفعول، و الباقون، **يَظهر** بفتح الياء من ظهر يظهر، و على هذا فالفساد مرفوع على الفاعل، فعلى القراءة الأولى و هى ضمّ الياء فاعل الفعل مستتر فيه و هو موسى أي أنّي أخاف أن يظهر موسى في الأرض الفساد.

علىٰ الثّانية: فالفاعل الفساد و هو ظاهر فمن قرأ (وأن) فقد أشركِ الفساد مع التّبديل لأنّ المعنى أنّي أخاف أن يبدلّ دينكم و ظهور الفساد في الأرض، و من قرأ (أوأن) لم يشرك الفساد مع التّبديل لأنّ المعنى أنّي أخاف التبديل أو أخاف الفساد يعني أحدهما لا بعينه، و قيل (أو) في الآية بمعنىٰ **الواو** كما في قوله تعالىٰ: **وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**[١].

أي و يزيدون أو بل يزيدون، و لا تكون **الواو** بمعنى، (أو) و قد أطالوا الكلام حَول الآية بما لا فائدة فيه، و ذلك لأنّ كلمة (أن) تدلّ علىٰ أنّ فرعون أراد الشكّ ولو أراد الجمع لقال أخافُ أن يبدّل دينكم و يظهر في الأرض الفساد، أو فيظهر في الأرض الفساد فأنّ **الواو** يدلّ علىٰ الجمع بين المعطوف و المعطوف عليه، و حيث أنّه لم يقل ذلك و أتى بكلمة (أن) فهو أراد الشكّ أي أنّي أخاف أن يبدّل دينكم، أو يوقع الفساد بينكم، ولم يكن قاطعاً على أحدهما هذا كلّه مضافاً الى كلمة (أو) ثابتة في جميع المصاحف و كونها بمعنىٰ **الواو**، لا دليل عليه و هذا هو المتَّبع و لنرجع الى تفسير الآية قال فرعون لندمائه أتركوني أقتل موسى قال بعض

١- الصّافات = ١۴٧

المفسّرين و ذلك يدلّ علىٰ أنّ في خاصّة فرعون كان قوم يمنعونه من قتل موسى و من معه و يخوّفونه أن يدعوا موسى ربّه فيهلك فرعون و من تبعه فلذلك قال ذروني أقتله و ليدعُ ربّه، أي لا يهولنّكم ما يذكر موسىٰ من ربّه فأنّه لا حقيقة له و أنا ربّكم الأعلىٰ و قوله: **إِنِّىٓ أَخَافُ** الى آخر كلامه، بمنزلة التّعليل للقتل فكأنّه قيل له لم تريد قتله، فقال في الجواب أنّي أخاف أن يقع أحد الأمرين بكم.

إمّا تبديل دينكم، أي عبادتكم لي بعبادة ربّه.

و إمّا ظهور الفساد بينكم بسبب الإختلاف بين أتباع موسى و أتباعي ممّا يوجب الوهن في الملك فلذلك أقول ذروني أقتله فأنّ في قتله قطع مادّة الفساد و أنمّا قال فرعون ذلك لأنّه رأى أنّ الحقّ مع موسى و حياته و إدامة دعوته الىٰ اللّه الواحد الأحد مع ظهور الأيات والمعجزات على يده توجب إيقاظ النّاس عن نوم الغفلة و توجّههم الى معبودهم الحقيقي الّذي خلقهم.

و من المعلوم أنّ الحاكم الباطل دائماً يريد الباطل و لا يريد الحقّ، و إلاّ فأيّ ذنبٍ كان لموسىٰ ليقتل.

وَ قَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ

لمّا هدّده فرعون بالقتل إستعاذ موسى باللّه و إعتصم به من كلّ متكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب و هو يوم القيامة و فى الكلام إشارة الى أنّ فرعون قال ما قال لتكبُّره على اللّه و عدم إعتقاده بيوم الجزاء، إذ المعتقد به لا يقول ذلك و أنمّا قال من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب، و لم يقل من فرعون الّذي لا يؤمن بيوم الحساب، للإشارة بأن الإستعاذة باللّه تجب من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب و لا تختصّ بموسى و فرعون، سواء كان إسم المتكبّر فرعون أم معاوية و عبدالملك و يزيد و أمثالهم فأنّ الحكم كلّى يشمل جميع المتكبّرين في كلّ عصرٍ و زمان فأنّ من لا يؤمن بيوم الحساب و هو القيامة لا يمكن لأحدٍ أن ينجوا من شرّه إلاّ

بالإعتصام باللّه و الإلتجاء به فأنّه تعالى قاصم الجبّارين و مذلّ المتكبّرين كما فعل بفرعون و هامان و قارون و أمثالهم.

وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اَللّٰهُ وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ

إختلف المفسّرون في إسم هذا الرّجل فمنهم من قال إسمه، حبيب، و قيل شمعان بالشّين المُعجّمة، و قيل خبرك، و قيل حزقيل، ثمّ إختلفوا هل كان إسرائيلياً أو قبطياً فقال الحسن و غيره كان قبطيّاً و يقال أنّه كان إبن عمّ فرعون قاله السُّدي و هو الّذي نجا مع موسىٰ، و لهذا قال من آل فرعون و هذا الرّجل هو الّذي قال اللّه تعالىٰ فيه: **وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا اَلْمَدِينَةِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ**[1].

و قال إبن عبّاس لم يكن مِن آلِ فرعون مؤمن غيره و غير إمرأة فرعون و غير المؤمن الّذي أنذر موسىٰ.

أقول يظهر من هذا الكلام أنّ مؤمن آل فرعون غير الّذي أنذر موسى، والّذي ظهر لنا بعد التفحّص في التّواريخ و الأخبار أنّ الرّجل هو حزقيل و كان مصدّقاً بموسى و لكنّه كان يكتم إيمانه منذ سنين و لم يزل العبد الصّالح يمانع في التعرّض لموسى و أخيه هارون حتّى صرف فرعون عن عزمه علىٰ قتلهما و لمّا ظهر موسىٰ و آمن به حزقيل و إستعمل التّقية مع فرعون و قومه أخذ يدعوا قوم فرعون سرّاً الىٰ توحيد اللّه و الإيمان بنبوّة موسىٰ، و البراءة من فرعون و ربوبيّته، كان حزقيل إبن عمّ فرعون و ولّي عهده فوشى به الواشون الى فرعون و قالوا له أنّ حزقيل يدعوا الى مخالفتك و يعين عدوّك عليك فاستشاط فرعون غضباً ثمّ قال

١- القصص = ٢٠

إبن عمي و خليفتي على ملكي و وليّ عهدي لأن كان يفعل ما قلتم فقد إستحقّ اشدّ العذاب على كفره لنعمتي و إن كنتم أنتم كاذبين عليه فقد إستحقّقتم أشدّ العذاب ثمّ إستحضر حزقيل فقال الواشون بحضور فرعون قائلين له أنت تجحد ربوبيّة فرعون الملك و تكفر بنعمائه فتوجّه حزقيل نحو فرعون و قال له أيّها الملك هل جرَّبت عليّ كذباً قطّ قال فرعون لا، قال حزقيل لفرعون فأسألهم من ربّهم و من خالقهم فأجابوا فرعون هذا، فقال حزقيل أيّها الملك فأشهدك و كلّ مَن حضرك أنّ ربّهم هو ربّي و خالقهم خالقي و رازقهم هو رازقي و مصلح معائشهم هو مصلح معائشي فلا ربّ لي و لا خالق و لا رازق غير ربّهم و خالقهم و رازقهم و أشهدك و من حضرك أنّ كلّ ربٍّ و خالقٍ و رازق سوى ربّهم و خالقهم و رازقهم فأنا بريءٌ منه و من ربوبيّته و كافراً بألوهيّته و خفي علىٰ فرعون و جلساءه ما قصده حزقيل بأنّ ذلك من مختصّات اللّه تعالى فغضب فرعون على الواشين أشدّ الغضب ثمَ أمر بالأوتاد و هى المسامير و عاقبهم بها أشدّ العقاب و هكذا أنجى اللّه تعالى عبده الصّالح حزقيل من شرّ فرعون و أهلك أعداءه أجمعين هذا ما قيل في حقّه و أنّه كان يعمل بالتّقية و هذه التّقية هي الّتي قالت الشّيعة بها و يظهر ممّا ذكرناه أنّ التّقية كانت في جميع الاديان و لذلك:

قال الصّادق عليه السلام: **التّقية ديني و دين آبائي.**

و قال عليه السلام: **من لا تقّية له لا دين له.**

و أمّا أهل السُّنة فقد أنكروها علينا كما أنكروا كثيراً ممّا أمر به صاحب الشّريعة و للبحث فيه مقام آخر.

إن قُلت لم كان حزقيل يكتم إيمانه.

قُلت لو لم يكتم إيمانه لم يقبل فرعون قوله و لم يقدر على صرف فرعون عن قتل موسى و هارون و ذلك لأنّ فرعون كان عازماً على قتل موسى و هارون و لمّا

قال حزقيل أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي اللّه الأية، زعم أنّه ناصح له لعدم علمه بـإيمان حـزقيل ولو عـلم ذلك لم يـقبل قـوله بـل قـتله مـع مـوسىٰ و هارون و هذا هو السِّر في حسن التّقية و كتمان الإيمان و لأجل ذلك كان أبوطالب عليه السّلام يكتم إيمانه عن كفّار قريش لعلمه بأنّه لو أظهر إيمانه لم يقبلوا قوله فكان أبوطالب في قريش مثل حزقيل في آل فرعون و كتمان إيمانه من قريش مثل كتمان مؤمن آل فرعون من فرعون و أتباعه و كما أنّ حزقيل بكتمان إيمانه عن فرعون صار سبباً لرّدع فرعون و منعه عن قتل موسىٰ كذلك أبوطالب صار سببا لصرف قريش عن قتل رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و لا فرق بين مؤمن آلفرعون و أبىطالب إلاّ في الإسم و العجب من العامّة و مفسّريهم حيث إتّفقوا على حسن كتمان الإيمان هناك علىٰ أساس الآية و يقدحون كتمانه في حقّ أبىطالب ولم يعلموا أنّ كتمان الإيمان عن الكفّار لو كان قبيحاً فكيف مدح اللّه تعالى مؤمن آل فرعون في هذه الآية ولو كان حسناً كما هو كذلك فلم لم يحكموا هؤلاء بذلك في حقّ أبىطالب بل حكموا بكفره حتّى مات عليه و ليس هذا إلاّ أنّ أبا طالب كان والداً لأمير المؤمنين، و ما ذنب أبىطالب في ذلك إلاّ أنّه كان حامياً لنّبي الإسلام و أبا لمن أقام الإسلام بسيفه و جهاده، و لا دليل لهم على كفر أبىطالب إلاّ أنّه لم يظهر إيمانه و من كان كذلك فلامحالة مات علىٰ كفره، ولم يعلموا أنّ الإيمان أمر قلبىّ و اللّسان مظهر له فكيف يحكم من يدّعي الإسلام بكفر من لا يظهر إيمانه ثمّ كيف يحكم بأنّه مات على الكفر، أو هو في ضحضاح من النّار، و هو الّذي يقول في أشعاره:

ألا أنّ خير النّاس نـفساً ووالداً	إذا عـدَّ سـادات البـريّة أحـمد
نـبيّ الإلـٰه والكـريم بأصـله	و أخلاقه و هو الرَّشيد المـؤيّد
جرى على جلي الخطوب كأنّـه	شـهاب بكـفي قـابسٍ يـتوقَّد

من الأكرمين من لويّ إبن غالبٍ إذا سيم خسفاً وجهه يتربَّد

و قال:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب

و لِنعم ما قال المُعتزلي:

ولولا أبو طالب و إبنه لما مثل الدّين شخصاً وقاما

فذاك بمكّة أوى وحاما و هذا بيثرب جسّ الحماما

وما ضرَّ مجد أبي طالبٍ جهول لغا أو بصير تعاما

و الأشعار كثيرة و لكنّ الإنصاف قليلٌ و ليس كتابنا هذا موضوعاً لهذه الأبحاث و أنّما قلنا ماقلنا في المقام أداءً لبعض حقوقه التّي وجب على كلّ مسلم أن يراعيها و رغماً لأنوف الملحدين المعلونين و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الشّريفة فنقول:

وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ الِ فِرْعَوْنَ و هو حزقيل أو غيره على إختلافٍ فيه **يَكْتُمُ ايمَانَهُ** الكتمان ضدّ الإظهار و قد مرَّ الكلام في وجهه.

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ ٱللّٰهُ يحتمل أن تكون الهمزة للإستفهام، أي تفعلون ذلك أو لا، و يحتمل أن تكون للإنكار أي لا تقتلوا رجلاً يقول ربّي اللّه، و ذلك لأنّه لا يوجب القتل.

وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ هذا بمنزلة التّعليل للإنكار أي أتقتلونه و قد جاءكم بالبيّنات و المعجزات الدّالة على صدق مدّعاه من قبل ربّكم الّذي خلقكم.

وَ إِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ يعني قوله هذا لا يخلوا من وجهين الكذب، و الصّدق، إذلا واسطة بينهما، فأن كاذباً في قوله: **رَبِّىَ ٱللّٰهُ** فعليه كذبه أي وزر كذبه عليه لا عليكم إذ لا

تزر وازرةٌ وزر أخرىٰ، و علىٰ هذا لا مجوّز لقتله فأنّ الكاذب يأثم في كذبه فلا يجوز قتله، و إن كان صادقاً في قوله يصيبكم بعض الّذي يعدكم، من الفوز و الصّلاح و سعادة الدّارين.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ أي لا يحكم بهداية من أسرف على نفسه في معصية اللّه كذّاباً على اللّه، و قيل معناه أنّ اللّه لا يهدي إلى طريق الثّواب و الجنّة من هو مسرف كذّاب، و يحتمل أن يكون هذا إبتداء خبر من اللّه تعالى، ثمّ قال مؤمن أل فرعون:

يٰا قَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جٰاءَنٰا قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلّٰا مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلّٰا سَبِيلَ ٱلرَّشٰادِ

لمّا قال مؤمن أل فرعون **أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ** إلىٰ أخر ما قال، قال في هذه الآية **يٰا قَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ** أي أنّ هذا الملك حصل لكم بالقهر و الغلبة فهو عارية لكم و لغيركم و لا بقاء له **فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ** و عذابه، إن جاءنا، و ذلك لأنّ قدرته تعالىٰ فوق كلّ شئٍ و لا يقدر أحد على منعه عمّا أراد.

قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلّٰا مٰا أَرىٰ أي لا أشير عليكم إلاّ ما أرىٰ لنفسي **وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلّٰا سَبِيلَ ٱلرَّشٰادِ** و هو تكذيبكم بموسىٰ و إيمانكم بربوبيّتي و بعبارةٍ أخرىٰ رشدكم و هدايتكم في متابعتي و العمل بقولي فلمّا قال فرعون ذلك و دعا النّاس إلىٰ متابعته و تكذيب موسىٰ، قال مؤمن أل فرعون كما حكاه اللّه تعالىٰ بقوله: **يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزٰابِ** يعني أخاف عليكم نزول العذاب كما أنزله اللّه على المتخّرين و هم الذّين كذّبوا الأنبياء فعذّبهم اللّه بأنواع العذاب.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا ٱللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ

هذه الآية في الحقيقة تفسير وتوضيح للأية السّابقة كأنّه قال قائل، و ما يوم الأحزاب، قال مِثل دَأب قوم نوح و عاد و ثمود والّذين من بعدهم، و أنّما قلنا ذلك لأنّ الأحزاب جمع حزب و هو الجماعة التّي إتَّفقوا في أمرٍ من الأمور و هؤلاء الأحزاب كانوا كذلك إتَّفقوا على تكذيب الأنبياء و قتلهم و لذلك وقعوا فيما وقعوا، و الدَّأب، العادة.

قال المفسّرون، مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود، يعني مثل عادة اللّه، فيهم من إنزال العذاب عليهم: و يحتمل أن يكون المعنى مثل عادة قوم نوح و عاد و ثمود، في تكذيب الأنبياء.

و قوله: **وَ مَا ٱللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبادِ** معناه أنّ اللّه تعالىٰ لا يَظلم علىٰ أحدٍ لقوله: **مٰا رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ** فأنّ الظُّلم قبيح و هو تعالىٰ منزّه عنه و أمّا العذاب الواقع علهم فبما كسبت أيديهم بإختيارهم، و قد مرَّ الكلام في قصّة نوح و عاد و ثمود و كيفيّة نزول العذاب على قولهم.

و الحاصل أنّ الملاك في نزول العذاب هو التَّمرد و العصيان من أيّ شخصٍ أو قومٍ صدر و حكم الأمثال واحد. ثمّ كرَّر تخويفه و تهديده إيّاهم.

وَ يٰا قَوْمِ إِنِّيٓ أَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنٰادِ

لمّا هدَّدهم في الآية السّابقة من عذاب الدُّنيا هدَّدهم في هذه الآية عن عذاب الأخرة و هو عذاب يوم القيامة سمّي بيوم التّناد لأنّه اليوم الذّي ينادي أصحاب الجنّة أصحاب النّار.

قال اللّه تعالى: **أَنْ قَدْ وَجَدْنٰا مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مٰا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا**[1].

١- الأعراف = ٤٣

و ينادي أصحاب النّار أصحاب الجنّة:

قال اللّه تعالى: **أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ**[١].

و قيل سُمّي به لأنّ بعض الظّالمين ينادي بعضاً بالويل و الثّبور:

قال اللّه تعالى: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ**[٢].

و قيل يوم التّناد يوم التّفريق و التّشتت، و كيف كان هو يوم على الكافرين عسير، أعاذنا اللّه منه.

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ

هذه الآية تفسّر يوم التّناد فكأنّه قيل و ما يوم التّناد، فقال يوم تولون مدبرين، قيل معناه منصرفين إلىٰ النّار، و قيل يوّلون مدبرين و المقامع تردّهم إلى ما يكرهونه من العقاب و قوله: **ما لَكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ عاصِمٍ** أي لَيس لكم مانع من عذاب اللّه و من يقدر على ذلك، و من يضلّل اللّه فما له من هادٍ، أي من وكّله اللّه إلى نفسه فلا يقدر أحدٌ على هدايته و إرشاده، أو من ثبت في علم اللّه أنّه ضالّ، أي يختار الضّلالة بإختياره فما له من هادٍ و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّه لا يخلق الخلق ضالاً بحيث لا يقدر على الطّاعة كما يقول به الجبري إذ لو خلقه ضّالاً فما ذنبه في كفره وعصيانه و المفروض أنّه مخلوق على الكفر فبطل الثّواب و العقاب فأنّ عقاب من خلقه اللّه ضّالاً ظلم على العبد و اللّه تعالى منّزه عنه.

و قيل في معناه، من يحكم اللّه بضلاله فليس له من يحكم بهدايته على الحقيقة، و قيل من يضله اللّه عن طريق الجَنّة فما له من يهديه إليها، وما ذكرناه أولى واللّه أعلم.

١- الأعراف = ۴٩
٢- الإسراء = ٧١

وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ

هذا ما حَكاه اللّه تعالىٰ عن موسى أنّه قال لَهُم **وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ** أي من قبل موسى، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن‌إبراهيم خليل الرَّحمن عليهم السّلام و قد مرّ الكلام في يوسف و أحواله و أنّه صار حاكما علىٰ مِصر.

و المراد بالبيّنات،، الحجج الواضحات أو المعجزات و الكرامات الّتي أتىٰ كلّ نبيّ بها لاثبات مدّعاه **فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ** الخطاب إليهم و المراد أسلافهم و أباءهم فأنّهم كانوا في شكّ في نبّوة يوسف **حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ** و مات **قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً** كلمة، لن، لنفي الأبد أي أنّكم قلتم بعد موت يوسف لن يبعث اللّه من بعده، رسولاً، أبداً، إلى يوم القيامة و هذا كذبٌ منكم و من أين علمتم ذلك.

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ المُسرِف المُتَجاوز عن حدّ الإعتدال و المرتاب الشّاك، حكم اللّه تعالى بضلالة المسرف المرتاب إذ لا يتجاوز عن حدَّه و لا يرتاب إلاّ الضّال عن طريق الهدى ثمّ عرَّفهم اللّه بقوله:

اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اَللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰيهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ اَلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ

يحتمل أن يكون تقدير الكلام و كذلك الذّين يجادلون في أيات اللّه و علىٰ هذا يكون موضع **اَلَّذِينَ** نصب على البدل من كلمة، من، التّي هي مفعول، يضلّ، و يحتمل أن يكون موضعه الرّفع على معنى هم الّذين يجادلون في أيات اللّه و

بعبارةٍ أخرىٰ المسرفون الكذّابون هم المجادلون في أيات اللّه و الإحتمالان لا بأس بهما.

و معنىٰ الآية **ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَيٰهُمْ** أي بغير حجّةٍ و برهان و هذه المجادلة هي الّتي يعبّر عنها بالجدال الباطل المنهيّ عنه و أمّا الجدال بالّتي هي أحسن فهو ممدوحٌ مرغوب قال اللّه تعالىٰ لنبيّه: **وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** و قد مرَّ الكلام فيه مفّصلاً، و إلىٰ ما ذكرناه من النّهي عن الجدال بالباطل أشار بقوله: **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ وَ عِنْدَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** قيل مقت اللّه ذمَّه لهم و لعنه إيّاهم و إحلال العذاب بهم و المقت البغض الشّديد و إذا كان الشّئ عند اللّه مذموماً ممقوتاً فهو عند المؤمنين أيضاً كذلك فأنّ المؤمن حبه و بغضه للّه تعالىٰ.

و قوله: **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** الطَّبع والخَتم يقال على وجهين:

مصدر ختمت و طبعت، و هو تأثير الشّئ كنقش الخاتم و الطّابع.

الثّاني: الأثر الحاصل من النّقش و يتجوّز ذاك تارّةً في الإستيثاق من الشّئ و المنع منه إعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب و الأبواب نحو.

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ(١) و تارّةً في تحصيل أثر من الشّئ إعتباراً بالنَّقش الحاصل.

و قيل الطّبع أن تصوّر الشّئ بصورةٍ ما كطبع السّكة و طبع الدّراهم و هو أعّم من الختم و أخصّ من النّقش و الطّابع ما يطبع به.

قال اللّه تعالىٰ: **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**(٣).

١- البقرة = ٧
٢- الرُّوم = ٥٩
٣- التّوبة = ٨٧

و به أعتبر الطّبع و الطَّبيعة الّتي هي السَّجية فأنّ ذلك هو نقش النّفس بصورةٍ ما إمّا من حيث الخلقة و أمّا من حيث العادة و هو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب إذا عرفت هذا.

و قوله: **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ليس مَعناه أنّ اللّه خلقه كذلك بل معناه أنّ المتكبِّر الجبّار بسبب التكبّر و الظُّلم و المعاصي صار قلبه قسيا غليظاً كأنّه طبع و نقش ذلك على قلبه و إلى هذا المعنىٰ أُشير في الحديث الّذي روي عن المعصوم **أنّ الإنسان إذا عصىٰ ربَّه توجد في قلبه نقطة سوداء فأن تاب زالت و إلاّ تسري إلىٰ بقَّية القلب و تحيط به فيصير قسَّي القلب و لا يبعد أن يراد بالطَّبع هذا.**

وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا هٰامٰانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّيَ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبٰابَ، أَسْبٰابَ ٱلسَّمٰوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسٰى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِبًا وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبٰابٍ

لمّا قال مؤمن آل فرعون ما قال و خاف فرعون أن يتمكّن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم أو هم أنّه يمتحن ما جاء به موسى من التَّوحيد فأن بان له صوابه لم يخفه عنهم و إن لم يصِّح ثبتهم على دينهم فأمر وزيره هامان ببناء الصّرح و هو البناء العالي الّذي لا يخفى على النّاظر و إن بعد و هو الّذي يسّمىٰ اليوم (بالبرج) ثمّ أشار فرعون إلى علَّة الأمر بهذا البناء فقال: **لَعَلِّيَ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبٰابَ** ثمّ فسرّ الأسباب بقوله أسباب السّموات **فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسٰى** الفاء للتَّفريع، أي فأنظر إلى إله موسى نظر مشرفٍ عليه توهَّم فرعون أنّ إله موسى جسم كسائر الأجسام تحويه الأماكن و حيث أنّ فرعون كان يدَّعي الإلوهيّة شاء أن يرى تحقيقها بالجلوس في مكانٍ مشرف، و قراءة العامّة، فأطّلع، بارّفع و عليها المصاحف، و قرأ الأعرج و حفص و عيسى، بالنَّصب على أنّه جواب، لعلّ، و

الرَّفع أولى لأنّ معنى النَّصب متى بلغت الأسباب إطلّعت، و معنى الرَّفع لعلّي أبلغ الأسباب ثمّ لعلّي أطَّلع بعد ذلك ثمّ قال فرعون **وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا** أي أظُن أنّ موسى كاذبٌ في دعواه و يستفاد من قوله أظُن، أنّه لم يقطع بكذب موسى و هو كذلك فأنّ الكلام يحتمل الصّدق و الكذب إلاّ أنّ إحتمال الكذب بزعمه كان أرجح من إحتمال الصّدق و لذلك عبَّر بالظَّن دون الشكّ الّذي يقتضي تساوي الطّرفين، ثمّ أنّ اللّه تعالى كذلك **زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ** و المزَّين له الشّيطان فأنّه دائماً يزَّين الأعمال في أتباعه ليضُّلوهم عن سبيل اللّه.

قال اللّه تعالى: **وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لا غٰالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنّٰاسِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ عٰادًا وَ ثَمُودَا وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسٰاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ**[٣].

و غيرها من الآيات (و صُد عن السَّبيل) بضمّ الصّاد على بناء المجهول مثل، زيّن، و فيه أيضاً إشارة إلى أنّ الشّيطان صدَّه عن سبيل الحقّ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**[٤].

و حاصل الكلام أنّ المزّين للأعمال و الصّاد المانع عن سبيل اللّه هو الشّيطان، و أمّا قوله: **وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلّٰا فِي تَبٰابٍ** في الحقيقة جواب عن جميع ما أراده فرعون.

فقال تعالىٰ: **وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ** أي ليس كيده إلاّ في تباب، يعني في هلاك و قيل معناه خسران و إنّما قال ذلك لأنّ كيده أوقعه في الهلاك و الخسران أمّا في

١- الأنعام = ٤٣
٢- الأنفال = ٤٨
٣- العنكبوت = ٣٨
٤- الزّخرف = ٦٢

الدّنيا فلأنّ اللّه أغرقه في اليّم و أمّا في الآخرة فهو في أشدّ العذاب خسر الدّنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

■

وَ قالَ ٱلَّذيٓ اٰمَنَ يا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبيلَ ٱلرَّشادِ ﴿٣٨﴾ يا قَوْمِ إِنَّما هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ ٱلْاٰخِرَةَ هِيَ دارُ ٱلْقَرارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزٰيٓ إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثٰى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فيها بِغَيْرِ حِسابٍ ﴿٤٠﴾ وَ يا قَوْمِ ما لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجٰوةِ وَ تَدْعُونَنيٓ إِلَى ٱلنّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَني لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزيزِ ٱلْغَفّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيا وَ لا فِي ٱلْاٰخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنآ إِلَى ٱللّٰهِ وَ أَنَّ ٱلْمُسْرِفينَ هُمْ أَصْحابُ ٱلنّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مآ أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْريٓ إِلَى ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ بَصيرٌ بِالْعِبادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقيٰهُ ٱللّٰهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِاٰلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذابِ ﴿٤٥﴾ اَلنّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّاعَةُ أَدْخِلُوٓا اٰلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذابِ ﴿٤٦﴾ وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي ٱلنّارِ

فَيَقُولُ ٱلضُّعَفٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قٰالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنّٰا كُلٌّ فِيهٰآ إِنَّ ٱللّٰهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبٰادِ ﴿٤٨﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنّٰارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّٰا يَوْمًا مِنَ ٱلْعَذٰابِ ﴿٤٩﴾ قٰالُوٓا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا بَلٰى قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰٓؤُا ٱلْكٰافِرِينَ إِلّٰا فى ضَلٰالٍ ﴿٥٠﴾ إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهٰادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لٰا يَنْفَعُ ٱلظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدّٰارِ ﴿٥٢﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْهُدٰى وَ أَوْرَثْنٰا بَنِىٓ إِسْرٰآئِيلَ ٱلْكِتٰابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَ ذِكْرٰى لِأُولِى ٱلْأَلْبٰابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكٰارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِىٓ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتيٰهُمْ إِنْ فى صُدُورِهِمْ إِلّٰا كِبْرٌ مٰا هُمْ بِبٰالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَ مٰا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمٰى

وَ ٱلْبَصِيرُ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ
وَ لاَ ٱلْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَ قَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

◀ اللّغة

مَرَدَّنَآ: من ردَّ، يرُد إذا رجع أي مرجعنا.

أُفَوِّضُ: متّكلم وحده من فوَّض، تفويضاً، أي أتوكّل.

فَوَقَيٰهُ ٱللَّهُ: الوقاية الحفظ و هى مصدر من وقى، يقي.

حَاقَ: أي أحاط.

غُدُوًّا: بضمّ الغين الغداة و هى الصُّبح.

عَشِيًّا: اللّيل.

نَصِيبًا: النَّصيب الحظّ.

ٱلْإِبْكَارِ: طلوع الفجر الثّاني إلى طلوع الشّمس.

سُلْطَانٍ: بضمّ السّين الحجّة و البّرهان.

دَاخِرِينَ: معناه صاغرين.

◀ الإعراب

تَدْعُونَنِيٓ الجملة و ما يتصلّ بها بدل أو تبيين لتدعونني الأولى و أُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ حال من الضّمير في أقول ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا مبتدأ وخَبَر، أو

بدلاً من سوء العذاب وَ إِذْ يَتَحَآجُّونَ معطوف على غدُّواً تَبَعًا مصدر في موضع إسم الفاعل و نصيباً، منصوب بفعلٍ دلَّ عليه مغنون تقديره هل أنتم دافعون أو مانعون يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا ظرف أي في يوم شيئاً من العذاب فالمفعول محذوف لَا يَنْفَعُ بدل من يوم يقوم وَ لَا ٱلْمُسِيٓءُ قيل لام زائدة.

◀ التّفسير

وَ قَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ

هذه حكاية عمّا قال مؤمن أل فرعون، أي قال يا قوم، أصله قومي حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه و هكذا إتّبعون، أصله إتّبعوني حذفت الياء لما ذكرناه، قال لقومه إتّبعوني قولاً و فعلاً، أهدكم سبيل الرّشاد و هو الإيمان باللّه و توحيده فأنّ سعادة الدّارين فيه.

و من المعلوم أنّ لازم ذلك هو تصديق بنبيّه موسى إذ الإيمان يتحقّق بالشّهادتين إعتقاداً و بالعمل بالجوارح فعلاً ثمّ قال:

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ

أمّا أَنّ هذه الحياة الدّنيا متاعٌ، فقيل المتاع النّفع القليل و الوجه فيه أنّ الحياة الدّنيا مدّته قليلة جدّاً و مع ذلك هي فانية زائلة لا بقاء لها محفوفة بالأحزان و الهموم و ما كان كذلك لا ينبغي الإعتماد عليه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمِهَادُ**[٣].

١- البقرة = ٣٦
٢- أل عمران = ١٨٦
٣- أل عمران = ١٩٧

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَتٰاعُ ٱلدُّنْيا قَليلٌ وَ ٱلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلّٰا مَتٰاعٌ**(٢) و الأيات كثيرة.

و أمّا أنّ الأخرة هي دار القرار، فالوجه فيه أيضاً واضح و ذلك لأنّها باقية لا فناء لها و لا زوال، ليس فيها همٌّ و لا غمٌّ، فيها ما تشتهيه الأنفس و تلّذ به الأعين و قد مرّ الكلام في هذا الباب غير مرّةٍ و لنعم ما قيل:

أنّــما الدّنــيا كـظّلٍ زائـلٍ   أو كضيفٍ بات فيها و إرتحل

بل الحقّ أنّ الدّنيا كسرابٍ بقيعةٍ يسحبه الظّمأن ماءً.

و قد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: قال لقمان في وصيّته لإبنه: يابنّي إعلم أنّ الدّنيا قليلٌ، و عمرك قليلٍ من قليل و يفّر من القليل قليلٌ إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: قال رسول اللّه مالي و للدّنيا و ما أنا و الدّنيا، أنّما مثلي و مثلها كمثل راكبٍ رفعت له شجرة في يوم صائف فنام تحتها ثمّ راح و تركها إنتهىٰ(٣).

و الأخبار كثيرة و سيأتي الكلام في المستقبل أيضاً.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزىٰ إِلّٰا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فيها بِغَيْرِ حِسٰابٍ

إعلم أنّ هذا الحكم قد ذكره اللّه في كثير من الآيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئاٰتِ جَزٰآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها**(٤).

١- النّساء = ٧٧   ٢- الرّعد = ٢٦

٣- مشكاة الأنوار ص ٢٦٣ و ٢٦٤   ٤- يُونس = ٢٧

قال اللّه تعالیٰ: **وَ مَنْ جٰآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلّٰا مِثْلَهٰا وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ**[١].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ جَزٰآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا**[٢].

قال اللّه تعالیٰ: **فَلا يُجْزَى ٱلَّذينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئٰاتِ إِلّٰا ما كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[٣]

و غيرها من الأيات.

و أمّا في الحسنات فلم يقل جزاء حسنةٍ مثلها بل:

قال اللّه تعالیٰ: **وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيهٰا حُسْنًا إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**[٤].

قال اللّه تعالیٰ: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا**[٥].

قال اللّه تعالیٰ: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ اٰمِنُونَ**[٦].

قال اللّه تعالیٰ: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا**[٧].

و الأيات بهذه المضامين كثيرة في الباب مع أنّ القاعدة العقليّة التّي بني عليها العدل تقتضي المثل في الجزاء على العمل فأنّ العدل يحكم بعدم الفرق بين الموردين أعني جزاء السّيئة بمثلها و هكذا في الحسنة و بعبارةٍ أخرى لم حكم اللّه في جزاء السّيئة بمثلها و في الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر.

أقول أمّا أنّ جزاء السّيئة بمثلها فهو مقتضى العدل و لا كلام فيه و أمّا جزاء الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر فهو مقتضى الفضل و إلاّ فالعدل يقتضي في الحسنة مثل السّيئة فمن عمل صالحاً جزاءه مثله بمقتضى العدل و ما زاد عليه فبفضله و كرمه و لعلّ الوجه فيه حثُّ النّاس على الحسنات و ترغيبهم فيها و إلى ذلك أشار

١- الأنعام = ١٦٠
٢- الشّوریٰ = ٤٠
٣- القصص = ٨٤
٤- الشّوریٰ = ٢٣
٥- القصص = ٨٤
٦- النّمل = ٨٩
٧- الأنعام = ١٦٠

اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **بقوله لِيَجْزِيَهُمُ ٱللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ مِنْ فَضْلِهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**(٣) و غيرها من الأيات.

و إلى ذلك أشار اللّه بقوله: **وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ** إلى قوله: **بِغَيْرِ حِسٰابٍ** و ذلك لأنّ فضل اللّه و كرمه لا حدَّ له و لا نهاية فأنّ الصّفات تابعة للذّات و قد ورد في الدُّعاء، « يادائم الفضل على البَّرية».

و قوله: **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ** إشارة إلى أنّ الفضل منه تعالى يتعلّق بصالح الأعمال و لا فرق فيه بين الذّكر و الأنثى لإشتراكهما في التكليف و الطاعة و لمثل ذلك فليعمل العاملون.

وَ يٰا قَوْمِ مٰا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجٰوةِ وَ تَدْعُونَنِيَ إِلَى ٱلنّٰارِ

هذه الآية و ما بعدها منها حكى اللّه تعالى عن مؤمن أل فرعون أنّه قال: **يٰا قَوْمِ مٰا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجٰوةِ** من عذاب اللّه **وَ تَدْعُونَنِيَ إِلَى ٱلنّٰارِ** أمّا أنّه دعاهم إلى النّجاة لأنّه دعاهم إلى تصديق موسى في نبوّته بأن يؤمنوا باللّه و اليوم الأخر و النّجاة من العذاب لا تحصل إلاّ بالإيمان و العمل الصّالح و فيه صلاحهم.

و أمّا أنّهم كانوا يدعونه إلى النّار لأنّهم كانوا يدعونهم، إلى الشّرك باللّه و الإعتقاد بألوهيّة فرعون و إنكار البعث و القيامة و من المعلوم أنّ الكفر باللّه

١- النُّور = ٣٨
٢- الرُّوم = ٤٥
٣- فاطر = ٣٠

يوجب الدّخول في النّار، و هو ظاهرٌ.

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفّٰارِ

هذه الآية تفسير لما قبلها، فكأنّه قيل له كيف ذلك قال في الجواب: **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ** و أجحد نعمته **مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** مع حصول العلم ببطلانه، و ليس هذا إلاّ من قبيل الدّعوة إلى النّار، و الحال.

وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفّٰارِ أي إلى اللّه القادر الّذي يغفر الذّنوب و ليس هذا إلاّ طريق النّجاة.

لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيٰا وَ لاٰ فِي ٱلْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنٰآ إِلَى ٱللّٰهِ وَ أَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ

قيل معنى لا جرم، حقّاً، أي حقّاً أنّ الّذي تدعونني إليه من الكفر باللّه ليس له، أي لما تدعونني إليه من الكفر، دعوةٌ، أي إستجابة دعوةٍ به تنفع في الدّنيا و لا في الآخرة، و بعبارةٍ أخرى ليس في قبول دعوتكم نفعٌ لي لا في الدّنيا و لا في الآخرة و ذلك لأنّ الكفر لا خير فيه بل هو شرٌّ في الدّارين، و أنّ مردّنا، **الواو** للحال أي كيف يكون فيها نفع و الحال أنّ مردّنا و مرجعنا إلى اللّه يوم القيامة و أنّ المسرفين المتجاوزين عن حدّ الإعتدال أصحاب النّار و أيّ إسرافٍ أقبح و أشنع من الإسراف على النّفس أعني به الكفر ثمّ قال لهم.

فَسَتَذْكُرُونَ مٰآ أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ

في الكلام تهديدٌ و تخويفٌ، أي فستذكرون، صِحّة قولي و حسن نصيحتي إيّاكم غداً يوم القيامة و أمّا إنا فأفوّض أمري إلى اللّه و اتوكّل عليه في جميع

أموري أنّ اللّه بصير بالعباد، لا يخفى عليه شئ و هو رؤوف بهم أرحم الرّاحمين لمّا حكى اللّه تعالى ما قاله مؤمن أل فرعون لقومه.

فَوَقيٰهُ ٱللّٰهُ سَيِّئاٰتِ ماٰ مَكَرُوا وَ حاٰقَ بِاٰلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذاٰبِ

الوقاية الحفظ و المعنى حفظ اللّه تعالى مؤمن أل فرعون من شرّ مكرهم به فلم يقدروا على إيذاءه أو قتله و أمّا أل فرعون فحاق و أحاط بهم سوء العذاب في الدّنيا بالغرق و فى الأخرة بالعقاب الدّائم الّذي لا نهاية له ثمّ بيَّن اللّه العذاب الّذي أشار إليه بقوله:

ٱلنّاٰرُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهاٰ غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّاٰعَةُ أَدْخِلُوٓا اٰلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذاٰبِ

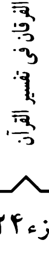
هذا الّذي أشار إليه في الآية عذاب الأخرة بعد عذاب الدّنيا، فقال النّار يعرضون عليها صباحاً و مساءً، في قوله هذا وجوهٌ من الإعراب:

أحدها: أن يكون النّار مرفوعاً على البدل من سوء العذاب في الآية الّتي قبل هذه الأية، فكأنّ قائلاً قال، و ما سوء العذاب فقال تعالى النّار.

ثانيها: أن يكون المبتدأ محذوفاً أي هو النّار.

ثالثها: أن يكون النّار مرفوعاً بالإبتداء.

رابعها: الخفض على البدل من العذاب و كيف كان فالآية تدلّ على أنّ أل فرعون يعرضون على النّار صباحاً و مساءً، و يوم تقوم السّاعة، يعني إذا كان يوم القيامة يقال للملائكة **أَدْخِلُوٓا اٰلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذاٰبِ** أي أغلظه و أصعبه، إختلفوا في مكان العرض فالجمهور على أنّ هذا العرض في البرزخ قبل القيامة و المراد بالبرزخ عالم القبر و إستدلّوا على إثبات مدّعاهم بقوله تعالى في الآية **غُدُوًّا وَ عَشِيًّا** ما دامت الدُّنيا.



و أمّا عذاب الأخرة فهو قوله: **وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ** و على هذا ففي الآية دلالة على صحّة عذاب القبر لأنّ اللّه تعالى أخبر أنّهم يعرضون على النّار غدوّاً و عشيّاً، أي صباحاً و مساءً و من المعلوم أنّ الغداة و العشّي في الدّنيا و أمّا الأخرة فليست فيها غداةً و لا عشّي.

وَ إِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ ٱلنَّارِ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّهم يتّحاجون في النّار، أي أتباع فرعون كما هو مقتضى سياق الأية، و لكن حملها على العموم أولى فأنّ هذا الإحتجاج لا يختّص بأل فرعون لكلّ من تبع فرعون في إضلال النّاس:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفٰٓاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللّٰهِ مِنْ شَىْءٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ مَآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ**[٢].

ففي هاتين الأيتين أخبر اللّه عن محاجّة الشّيطان و أتباعه، و في سورة سبأ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ، وَ قَالَ ٱلَّذِينَ**

١- إبراهيم = ٢١
٢- إبراهيم = ٢٢

ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ[١].

و المقصود من ذكر الأيات في الباب هو أنّ هذه المحاجّة التّي ذكرها اللّه في قصّة فرعون ذكرها في غيرها أيضاً و خصوصيّة المورد لا تنافي عموم المعنى فأنّ الضالّين و المضلّين موجودون في جميع الأمم، فلمّا رأوا العذاب يتحاجّون لا محالة و أن كانت المحاجّة لا فائدة فيها فقوله تعالى فيقول الضُّعفاء و هم الأتباع و أنّما عبّر عنهم بالضُّعفاء لضعف عقولهم و جهلهم و عدم تمييزهم بين الحقّ و الباطل **لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا** و هم أئمّة الضّلال الّذين ضّلوا و أضّلوا، و أمّا إستكبارهم فلأنّهم أعرضوا عن عبادة اللّه و إدّعوا ما ليس لهم و هذا هو التّكبر على اللّه و فى رأسهم الشّيطان و قوله: **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا** كلامٌ صدق ولكن يقال لهم لم كنتم لهؤلاء المضلّين ولم تكونوا تبعاً للأنبياء ألم يكن لكم عقل يميّز الحقّ عن الباطل ألم تروا معجزات الأنبياء و كراماتهم، نعم كنتم عبيد الدّنيا و لذلك تركتم الحقّ و أخذتم بالباطل.

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ ٱلنَّارِ يحتمل أن يكون الإستفهام للإنكار أي لا تقدرون على ذلك و يحتمل أن يكون الإستفهام على سبيل الحقيقة، و هو بعيدٌ لأنّهم أي ا لضُّعفاء يرون المستكبرين أيضاً في العذاب فلو كانوا قادرين على دفع العذاب أو رفعه لفعلوا ذلك لأنفسهم و على هذا فالإستفهام إنكارّيٌ إلاّ أنّ في الإنكار توبيخٌ أيضاً **قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا** عن عبادة اللّه **إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ** أي نحن و أنتم في النّار **إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبادِ** فقلا مرّد لحكمه أبداً.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا

١- سَبَأ = ٣١ الى ٣٣

مِنَ ٱلْعَذٰابِ

أنّما قالوا ذلك لشدّة العذاب و قال بعض المفسّرين يقولون ذلك لأنّهم لا صبر لهم على شدّة العذاب لا أنّهم يطمعون في التّخفيف لأنّ معارفهم ضروريّة يعلمون أنّ عقابهم لا ينقطع و لا يخفّف عنهم.

قٰالُوٓا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا بَلىٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰٓؤُا ٱلْكٰافِرِينَ إِلّٰا فِي ضَلٰالٍ

لمّا سألوا خزنة جهنّم ما سألوا من تخفيف العذاب، قالوا في جوابهم أو لم تأتيكم رسلكم بالبيّنات، يعني بالمعجزات و الدّلالات على توحيد اللّه و صحّة نبّوتهم، قالوا بلى، جاؤوا بها، قالوا فأدعوا ما شئتم، و ما دعاء الكافرين إلاّ في ضلالٍ، لأنّه لا ينفع لكم بعد تماميّة الحجّة عليكم في الدّنيا و المراد بالحجّة هو النّبي الّذي أتى بالمعجزة فأنّ للّه على النّاس حجّتين حجّةٌ ظاهرة و حجّةٌ باطنة فالباطنة هي العقل و الظّاهرة الإمام المنصوب من قبل اللّه و هو النّبي و وصيّه و لو لا ذلك لما صحَّ العقاب لأنّه من العقاب بلا بيان و هو قبيحٌ على الخالق الحكيم ولمّا ذكر اللّه قصّة فرعون و ما قاله مؤمن أل فرعون لقومه:

إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهٰادُ، يَوْمَ لٰا يَنْفَعُ ٱلظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلدّٰارِ

النَّصر و النُّصرة العون و نصرة اللّه للعبد ظاهرة لا خفاء فيها و أمّا نصرة العبد للّه هو نصرته لعباده و القيام بحفظ حدوده و رعاية عهوده و العمل بأحكامه بترك المحرّمات و فعل الواجبات و إلى هذا المعنى أشار بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ**

أَقْدامَكُمْ[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَكُمْ**[٢].

فقوله تعالىٰ: **إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا** معناه ندفع عنهم شرّ أعدائهم و نوَّفقهم في الأعمال **فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهٰادُ** يوم القيامة و أنّما قال إنّا لننصرهم كذلك لأنّ اللّه تعالى أرسلهم إلى الخلق لإرشادهم و هدايتهم و النّاس كذّبوهم و أنكروهم و هدَّدوهم بالقتل فلولا نصر اللّه إيّاهم كيف يقدرون على تبليغ رسالاتهم مع كثرة الأعداء و لذلك طلبوا النُّصرة من اللّه.

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمٰا كَذَّبُونِ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ**[٤].

ثمّ أنّ النّصر على ضربين، نصرٌ بالحجّة، و نصرٌ بالغلبة، في المحاربة بحسب ما يعلم اللّه من المصلحة و تقتضيه الحكمة هذا إذا كان في دار التّكليف فأمّا نصره إيّاهم يوم القيامة فهو إعلاء كلمتهم و ظهورهم حقّهم و علُو منزلتهم و إعزازهم بجزيل الثّواب و إذلال عدُّوهم بعظيم العقاب و الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب و أصحاب و هم الذّين يشهدون بالحقّ للمؤمنين و أهل الحقّ و على المبطلين و الكافرين بما قامت به الحجّة يوم القيامة و فى ذلك سرور المحقّ و فضيحة الباطل.

قاله بعض المفسّرين و هو حقٌّ لا كلام فيه و قوله: **لاٰ يَنْفَعُ ٱلظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ** فالوجه فيه أنّ العذر بعد تمام الحجّة لا نفع فيه مضافاً إلى أنّ الأخرة ليست بدار التكليف بل هي دار الجزاء و قيل لا ينفع معذرتهم لأنّهم يعتذرون بالباطل في قولهم: **وَ ٱللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ** و لذلك قال و لهم اللّعنة و سوء

١- محمّد = ٧
٢- أل عمران = ١٦٠
٣- المؤمنون = ٣٩
٤- العنكبوت = ٣٠

الدّار و اللّعنة هي الإبعاد من رحمة اللّه و الحكم عليهم بدوام العقاب و لهم سوء الدّار و هو عذاب النّار.

قال بعض المفسّرين المراد بالظّالمين الّذين لا تنفعهم المعذرة هم الّذين ظلموا أنفسهم أو غيرهم بإرتكاب المعاصي الّتي يستحقّ بها دوام العقاب.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَ أَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَ ذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

قال المفسّرون، أي أعطيناه التّوراة فيها أدلّة واضحة على معرفة اللّه و توحيده و أنزلنا عليه الكتاب و أورثناه بنيإسرائيل يعني التّوراة.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالهدى النبّوة و بالكتاب التّوراة فأنّ النّبي يهدي الخلق الى الطّريق المستقيم، و قوله: **وَ أَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ**، معناه جعلناه ميراثاً لهم، و قوله: **هُدًى** هو حال من الكتاب أي حال كونه هدىً أي هادياً لأولي الألباب و أنمّا خصّ العقلاء بذلك لأنّ الخفاش لا ينتفع بنور الشّمس، و الجاهل المعاند أيضاً لا ينتفع بنور الحقّ لعدم قابليّته و هو واضح.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ

أمر اللّه تعالى نبيّه بالصّبر أوّلاً، و بالإستغفار ثانياً، و بالتّسبيح ثالثاً، أمّا الصّبر فهو ثبات النّفس و عدم إضطرابها في الشّدائد و المصائب بأن يحبس لسانه عن الشّكوى و أعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة و هذا هو الصّبر على المكروه و ضدّه الجزع و قد عرّف مطلق الصّبر بأنّه مقاومة النّفس مع الهوى و بعبارةٍ أخرى أنّه ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الهوى و كيف كان فالصّبر منزلٌ من منازل السّالكين و مقامٌ من مقامات الموّحدين و به ينسلك العبد في سلك المقرّبين و يصل الى جوار ربّ العالمين و قد أضاف اللّه أكثر الدّرجات و

الخيرات اليه و ذكره في نيّف و سبعين موضعاً في القرآن و وصف اللّه الصّابرين بأوصاف فقال عزّ من قائل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِيٓ إِسْرآئِيلَ بِما صَبَرُوا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا**(٤).

و الأيات كثيرة و لا نحتاج الىٰ الأخبار بعد ذكر هذه الأيات وغيرها ممّا لم نذكره مخافة الإطناب.

و المراد بالصَّبر في المقام هو الصَّبر على أذى المشركين و تكذيبهم أيّاه أمره اللّه به في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱتَّبِعْ ما يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلّا بِاللّٰهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاصْبِرْ عَلىٰ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها**(٨).

و قوله: **إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ** يحتمل أن يكون المراد بالوعد الغلبة على الأعداء و يحتمل أن يكون المراد به ما وعده اللّه من الثّواب و الجنّة لمن أطاعه و النّار و العقاب لمن عصاه و على التّقديرين وعد الله حقٌّ لا شكّ فيه و من أصدق من اللّه

١- السّجدة = ٢٤ ٢- الأعراف = ١٣٧
٣-النّحل = ٩٨ ٤- القصص = ٥٤
٥- يُونُس = ١٠٩ ٦- هُود = ١١٥
٧- النّحل = ١٢٧ ٨- طٰه = ١٣٠

قيلاً.

و أمّا قوله: **وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** فالإستغفار طلب المغفرة و هو وظيفة العبد و المراد بالذّنب القصور في العبادة لا التّقصير فيها فأنّ النّبي لا يقصّر في العبادة أصلاً، و أمّا القصور فيها فلا إشكال فيه و ذلك لأنّ العبادة فرعٌ على المعرفة و حيث أنّ معرفة اللّه بالكنه لا تحصل لأحدٍ من خلقه فعبادته أيضاً كذلك و لذلك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **ما عَبدناك حقّ عبادتك كما قال ما عَرفناك حقّ مَعرفتك** و هذه العبادة هي الّتي عبّرنا عنها بالقصور و هى من شئون الممكن لا تنّفك عنه و على هذا فإستغفار النّبي من هذا الذّنب الّذي لا محيص عنه للمخلوق لا من الذّنب الّذي يصدر عن التّقصير و هذا معنى قولنا أنّ الأنبياء معصومون من الذّنب.

و قوله: **وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكَـارِ** فالعشي من زوال الشّمس الى اللّيل، و الإبكار من طلوع الفجر الثّاني الى طلوع الشّمس و أن شئت قلت و سبّح بحمد ربّك صباحاً و مساءً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَيٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ

قد مرَّ الكلام في معنى الجدال و قلنا أنّ المذموم هو الجدال بالباطل و أمّا الجدال بالحقّ فلا منع فيه بل هو ممدوحٌ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** فقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَيٰهُمْ** هو الجدال بالباطل قال بغير سلطانٍ فأنّ السُّلطان الحجّة فالجدال بغير سلطان هو الجدال بلا حجّةٍ و برهان و منشأه الكبر و الجهل و الى هذا أشار بقوله: **إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** كلمة (إن) نافية، بمعنى، ليس، أي ليس في صدورهم إلاّ كبرٌ أي تجبّرٌ و عظمةٌ ما

هم ببالغيه أي لا يصلون ما أرادوا و قصدوا فأنّ اللّه مذّلهم و قيل معناه ما هم ببالغي الكبر لأنّهم رأوا أنّهم إن إتّبعوا النّبي قلّ إرتفاعهم و نقصت أحوالهم و أنّهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعاً فأعلم اللّه تعالى أنّهم لا يبلغون الإرتفاع الّذي أملّوه بالتّكذيب و المراد المشركون و قيل اليهود.

لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية.

اللاّم للقسم و المراد بالسّموات و الأرض مجموع العالم و معنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنّهم ليسوا ببالغي بغيتهم و ليسوا بمعجزين فأنّ اللّه الّذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزءٌ يسيرٌ منه و هو النّاس المخلوقون الّذين هم أهون عليه ولكن أكثر النّاس جاهلون يظنّنون بجهلهم أنّهم يعجزون اللّه بجدالٍ يجادلونه أو أيُّ كيدٍ يكيدونه إنتهى كلامه.

و قال صاحب الكشّاف:

فأن قلت كيف إتّصل قوله: **لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** بما قبله.

قلت أنّ مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على إنكار البعث و هو أصل المجادلة و مدارها فحجوا بخلق السّموات و الأرض لأنّهم كانوا مقرّين بأنّ اللّه خالقها بأنّها خلقٌ عظيم لا يقادر قدره و خلق النّاس بالقياس اليه شئٌ قليلٌ مهينٌ فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر و هو أبلغ من الإستشهاد بخلق مثله **لَا يَعْلَمُونَ** لأنّهم لا ينظرون و لا يتأملّون بغلبة الغفلة عليهم و إتباعهم أهواءهم إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الزّمخشري في ربط الآية بما قبلها أحسن ما قيل في المقام إذ لو

لم تكن مجادلتهم مشتملة على إنكار البعث فلا مناسبة لقوله: **لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنّٰاسِ** إلاّ أنّ قوله فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر، في حيّز المنع إذ ليس البحث في خلق الإنسان بل البحث في إحياء الموتى على قوله و هو البعث و ليس هو خلق إنسانٍ جديد بل هو إحياء الإنسان بعد موته و هو هو بعينه فكان حقّ العبارة أن يقول كان على إحياء الإنسان أو كان على البعث أقدر و على هذا فالكلام مستقيمٌ فيصير معنى الآية أنّ الّذي خلق السّموات و الأرض مع كبرها و عظمتها فكيف لا يقدر على إحياء الإنسان بعد موته و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون أنّ ذلك أي البعث أهون و أسهل من خلق السّموات و الأرض و لا شكّ أنّه أبلغ من الإستشهاد بمثله.

وَ مٰا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمٰى وَ ٱلْبَصِيرُ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ ٱلْمُسِيءُ قَلِيلًا مٰا تَتَذَكَّرُونَ

الأعمى و البصير كنايتان عن الكافر و المؤمن أو عمّن عمي عن طريق الرّشد و الصّواب عن البصير الّذي أبصر و إهتدى اليه.

و من المعلوم أنّهما لا يتساويان و هكذا الّذين آمنوا باللّه و عملوا الصّالحات من الّذين أساؤا و ظلموا نفوسهم بإرتكاب المعاصي فأنّهما أيضاً لا يتساويان بل هما متّضادان كالنُّور و الظُّلمة و هذا ممّا يحكم به القعل السَّليم.

إِنَّ ٱلسّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ

المراد بالسّاعة القيامة نفى اللّه تعالى عنها الرَّيب و الشكّ لأنّها أي القيامة من ضروريّات الدّين فمن أنكرها أنكر الأخرة و من أنكر الأخرة فقد أنكر المعاد الّذي هو من أصول الدّين و من أنكر المعاد فهو مرتّدٌ خارج عن زمرة المسلمين و قد دلَّت عليها الأيات الكثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلسّاعَةَ لَاٰتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَميلَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ماۤ أَمْرُ ٱلسّاعَةِ إِلّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْهُوَ أَقْرَبُ**[٢].

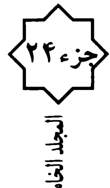
قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ أَنَّ ٱلسّاعَةَ لا رَيْبَ فيهاۤ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱلسّاعَةَ اٰتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها وَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِالحج**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما يُدْريكَ لَعَلَّ ٱلسّاعَةَ تَكُونُ قَريبًا**[٥] والأيات الواردة في الباب كثيرة.

و أمّا العقل فهو أيضاً يحكم بوجودها و لزومها لأجل الحساب و إلاّ يلزم الظُّلم على المظلوم و المؤمن الّذي عمل صالحاً أمّا المظلوم فلم يؤخذ بحقّه و أمّا المؤمن فلم يحصل له ثواب على عمله و لازم ذلك هو تساوي الظّالم و المظلوم و المؤمن و الكافر، و حيث أنّ الدّنيا دار العمل و لا ثواب فيها عقاب فالعدل يقتضي أن تكون دار معدّة لهما و هى القيامة و لا نعني بالسّاعة إلاّ هذا.

و أمّا قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** أي لا يؤمنون بالسّاعة فالوجه فيه ظاهر فأنّ من لم يؤمن باللّه لم يؤمن بالسّاعة قطعاً و أنّما يؤمن بها من أمن باللّه و رسوله و ما جاء به الرّسول من عند اللّه و من المعلوم أنّهم قليلون، و قليلٌ من عبادي الشّكور.



وَ قالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونيۤ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ

أمرنا بالدُّعاء و وعدنا الإجابة.

١- الحَجر = ٨٥
٢- النّحل = ٧٧
٣- الكَهف = ٢١
٤- الحجّ = ٧
٥- الأحزاب = ٦٣

قال الرّاغب في المفردات، الدُّعاء كالنّداء إلاّ أنّ النّداء قد يقال بها، أو، أيا، و نحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الإسم، و الدُّعاء لا يكاد يقال إلاّ إذا كان معه الإسم نحو يا اللّه، و يامحمّد، و ياعلّي، و يا فلان.

و قد يستعمل كلّ واحدٍ منهما موضع الأخر:

قال اللّه تعالىٰ: **كَمَثَلِ ٱلَّذي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلّا دُعٰآءً وَ نِدٰآءً**(١).

إذا عرفت هذا فإعلم أنّ الدُّعاء مخّ العبادة و قد حثَّ الشّرع المقدّس على الدُّعاء في الأيات و الأخبار.

فمن الأيات:

قال اللّه تعالى: **وَ لا تَطْرُدِ ٱلَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ ٱلْعَشِيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ**(٢).

و قال تعالىٰ لنبيّه: **وَ ٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ ٱلْعَشِيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ**(٣).

قال اللّه تعالى: **تَتَجافٰى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**(٤).

قال اللّه تعالى: **قُلِ ٱدْعُوا ٱللّٰهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى**(٥).

قال اللّه تعالى: **فَادْعُوا ٱللّٰهَ مُخْلِصينَ لَهُ ٱلدّينَ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكٰافِرُونَ**(٦).

قال اللّه تعالى: **وَ لِلّٰهِ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِها**(٧).

والأيات الحاثّة على الدُّعاء كثيرة في القرأن.

١- البقرة = ١٧١
٢- الأنعام = ٥٢
٣- الكَهف = ٢٨
٤- السَّجدة = ١٦
٥- الإسراء = ١١٠
٦- غافر = ١٤
٧- الأعراف = ١٨٠

و أمّا الأخبار:

فمنها ما روي في قرب الأسناد للحميري بأسناده إلى أبي عبد اللّه عليه السلام عن أبيه عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال عليه السلام: ممّا أعطى اللّه أمّتي و فضَّلهم على سائر الأمم أعطاهم ثلاث خصالٍ لم يعطها إلاّ نبّي إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا بعث نبيّاً قال له إذا أحزنك أمرٌ تكرهه فأدعوني أستجب لك و أنّ اللّه تعالى أعطى أمّتي ذلك حيث يقول **أُدعُوني أستجب لكم** إنتهى.

و عن كتاب جعفر بن محمّد الدُّوريستي بأسناده إلى حفص بن غياث النَّخعي قال سمعت الصّادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام يقول: إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئاً إلاّ أعطاه فلييأس من النّاس كلّهم لا يكون له رجاء إلاّ عند اللّه عزّ وجلّ فإذا علم اللّه تعالى ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلاّ أعطاه إنتهى.

و روى زرارة عن أبي جعفر في هذه الآية قال عليه السلام: هو الدُّعاء و أفضل العبادة الدُّعاء إنتهى.

علّي بن إبراهيم عن أبيه بأسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول أنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين قال عليه السلام: هو الدُّعاء و أفضل العبادة الدُّعاء إنتهى.

محمّد بن يحيى بأسناده عن سنان بن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر أيُّ العبادة أفضل فقال عليه السلام: ما شئ أفضل عند اللّه عزّ وجلّ من أن يسأل و يطلب ما عنده و ما من أحدٍ أبغض إلى اللّه عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته و لا يسأل ما عنده إنتهى.

علّي إبن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي عبد اللّه قال: سمعته يقول أدع و لا تقل قد فرغ من الأمر فأنّ الدُّعاء هو

العبادة أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول أنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين و قال أدعوني أستجب لكم إنتهى.
و الأحاديث في باب الدُّعاء كثيرة[1].

إن قلت قال اللّه تعالى: **أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم،** و نحن ندعوه فلا يستجاب لنا فكيف ذلك.

قلت إستجابة الدُّعاء منوطة بالمصلحة فقد لا تكون المصلحة في إستجابة الدُّعاء أصلاً و قد تكون المصلحة في تأخيرها و قد تكون المفسدة موجودة.

فعن كتاب الإحتجاج للطّبرسي قدّس سرّه عن أبي عبد اللّه في حديث طويل و فيه قال السّائل ألست تقول يقول اللّه **أُدعُوني أستجب لكم،** و قد نرى المضّطر يدعوه فلا يجاب له و المطيع (و المظلوم خ.ل) يستنصره على عدوّه فلا ينصره؟ قال عليه السلام: ويحك، ما يدعوه أحد إلاّ إستجاب له أمّا الظّالم فدعاؤه مردودٌ إلى أن يتوب إليه و أمّا المحقّ فأنّه إذا دعاه إستجاب له و صرف عنه البلاء من حيث لا يعلم أو إدّخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه و إن لم يكن الأمر الّذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه و المؤمن العارف باللّه ربّما عزَّ عليه أن يدعوه فيما لا يدري أصوابٌ ذلك أم خطأ إنتهى.

و يكفيك بعد الأيات و الأخبار الكثيرة ما ورد من الأدعية في الكتب الموضوعة لها و الحمد للّه ربّ العالمين.

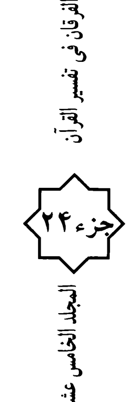
■

ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ

١- تفسير نُور الثّقلين ج ۴ ص ۵۲۸

ٱلنَّهارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذٰلِكُمُ
ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كانُوا
بِآياتِ ٱللّٰهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرارًا وَ ٱلسَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّباتِ
ذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعالَمِينَ
﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ
إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
ٱللّٰهِ لَمّا جاءَنِيَ ٱلْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ
أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا
شُيُوخًا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّىٰ مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا
أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي
يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجادِلُونَ
فِي آياتِ ٱللّٰهِ أَنّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ

ٱلسَّلٰاسِلُ يُسْحَبُونَ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى
ٱلنّٰارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا
بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ
ٱللّٰهُ ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ
﴿٧٥﴾ اُدْخُلُوٓا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ
حَقٌّ فَإِمّٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنٰا عَلَيْكَ وَ
مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ
أَنْ يَأْتِىَ بِاٰيَةٍ إِلّٰا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ فَإِذٰا جٰآءَ أَمْرُ ٱللّٰهِ
قُضِىَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
اَللّٰهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعٰامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهٰا وَ
مِنْهٰا تَأْكُلُونَ﴿٧٩﴾ وَ لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا
عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾وَ يُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ فَأَىَّ اٰيٰاتِ
ٱللّٰهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كٰانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ اٰثٰارًا فِى
ٱلْأَرْضِ فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ



﴿فَلَمّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴿٨٣﴾ فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴿٨٥﴾

◀ اللّغة

تُؤْفَكُونَ: الإفك، كلّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه.

يَجْحَدُونَ: الجحد، بفتح الجيم الإنكار.

اَلْأَغْلالُ: جمع غلّ و هو طوق يدخل في العنق للألم و الذُّل و أصله الدّخول.

اَلسَّلاسِلُ: جمع سلسلة و هی حلقٌ منتظمة في جهة الطُّول مستمّرة.

يُسْحَبُونَ: أي يجرُّون، السَّحب الجرّ.

فِی اَلْحَمِيمِ: بفتح الحاء الماء الّذي يبلغ في الحرارة.

يُسْجَرُونَ: السَّجر إلقاء الحطب في معظم النّار كالتّنور الّذي يسجر.

تَمْرَحُونَ: المرح الإحتيال في السّرور و النشاط.

حاقَ بِمِهِمْ: أي حلَّ بهم.

الإستهزاء: السّخرية

◀ الإعراب

إِذِ اَلْأَغْلالُ إذ ظرف زمان خاصّ و المراد به الإستقبال هنا لقوله فسوف

يعلمون وٱلسَّلَٰسِلُ بالرّفع معطوفٌ على الأغلال و الخبر في أعناقهم، مبتدأ و الخبر محذوف، أي السلاسل في أعناقهم و حذف لدلالة الأوّل عليه **يُسْحَبُونَ** حال من الضّمير في الجارّ أو هو مستأنف و الخبر، يسحبون و العائد محذوف أي يسحبون بها **بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ** من، هنا بمعنى البدل أي بدلاً من العلم و تكون حالاً من، ما، أو من الضّمير في الظّرف **سُنَّتَ ٱللَّهِ** هو نصب على المصدر أي سننا بهم سنّة اللّه و اللّه أعلم.

◄ التّفسير

ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن نفسه بأنّه جعل لكم اللّيل لتسكنوا و تسترحوا فيه من كدّ النّهار و تعبه، و جعل لكم النّهار و هو ما بين طلوع الفجر الثّاني إلى غروب الشّمس مبصراً أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم و تتّصرفوا في طلب معايشكم.

إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

على هذه النّعمة كما أنّهم لا يشكرون على غيرها من النِّعم و لذلك قال تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ** مع أنّ الشّكر على النّعمة واجبٌ عقلاً و قد مرَّ الكلام فيه.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ

ذلكم، إشارة إلى ما تقدّم وصفه أي أنّ الّذي وصفناه هو اللّه ربّكم خالق كلّ شيءٍ، لا غيره من الأصنام و الأوثان فأنّى تؤفكون، أي فأنّى تصرفون أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع أنّه لا إله إلاّ هو، و ما سواه كائناً ما كان مخلوق له محتاج إليه هذا كلّه مع وضوح دلالة الأيات على توحيده.

كَذٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ

أي مثل هؤلاء الأفاكّين الصّارفين عن عبادة ربّهم يؤفك و يصرف عن عبادته الّذين كانوا بأيات اللّه يجحدون.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَ ٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ

لمّا قال تعالىٰ: **ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ثمّ قال: **ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ**، قال الّه الّذي جعل لكم الأرض قراراً، أي جعلها بحيث تستقرون عليها.

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ خِلَالَهَآ أَنْهَارًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**[2].

و قوله: **وَ ٱلسَّمَآءَ بِنَآءً** أي جعلها بناءً مرتفعاً فوقنا ولو جعلها رتقاً لما أمكن الخلق الإنتفاع بها: **وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ** من المأكولات و المشروبات و الملبوسات ممّا لا يخفى على أحدٍ.

ثمّ قال: **ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ**.

قوله: **ذٰلِكُمُ** إشارة إلى جميع ما ذكره في هذه الأيات من النِّعم أي ربّكم من أعطاكم هذه النّعم و من يقدر على ذلك غير اللّه تعالى و إذا كان كذلك فتبارك اللّه ربّ العالمين الّذي لم يزل و لا يزال.

هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

١- النّمل = ٦١ ٢- الأعراف = ٢٤

أي أنّ المنعم الّذي أنعم على عباده ما أنعم هو الحيّ الّذي لا إله إلاّ هو، أي هو الحيّ الّذي لا فناء له و لا معبود سواه لا غيره فأدعوه مخلصين له الدّين، أي فأدعوه مخلصاً و لا تشركوا به أحداً و جميع المحامد يرجع إليه إذ الحمد على النِّعمة و لا منعم حقّاً إلاّ هو فلا يستحقّ أحدٌ للعبادة إلاّ هو و لا معبود سواه فالحمد كلّه له.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

يعني قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار الذّين يدعونك إلى عبادة الأصنام و الأوثان، إنّي نهيت أي أنّ اللّه نهاني أن أعبد الّذي تدعون من دون اللّه من الأصنام التّي تجعلونها ألهة.

و قال القرطبي في تفسيره في المقام، و كانوا دعوه إلى دين أباءه فأمر أن يقول هذا إنتهى.

أقول أنظروا ياأهل الإنصاف إلى هذه التّفاسير فأنّ هذا الرّجل لم يعلم أنّ أباء الرّسول لم يكونوا كافرين بل كانوا على دين المسيح و أمّا هؤلاء الكفّار فكانوا عبدة الأصنام و أين هذا من ذاك و أنّما قال ذلك لأنّه أي القرطبي و أمثاله من الجاهلين المعاندين زعموا أنّ أباء الرّسول كانوا من الكافرين كأنّهم لم يقرأوا قوله تعالىٰ: **ٱلَّذِى يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ، وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ**[1]



أو أنّهم قرأوها ولم يفهموا معناه فضّلوا و أضّلوا و من يضلل اللّه فما له من هادٍ، و ليت شعري ما الّذي دعاهم إلى هذه الأراجيف و الأكاذيب في تفسير كلام اللّه أليس هذا من التّفسير بالرّأي.

و قد قال رسول اللّه: من فسّر القرآن برأيه فليّتبوأ مقعده من

١- الشُّعراء = ٢١٩ / ٢١٨

النّار.

ثمّ نقول لو كان الأمر كما ذكره القرطّبي للزم أن يكون عبد اللّه و عبد المطّلب و هاشم و عبد مناف كلّهم من عبدة الأوثان و الأصنام و من قال من المسلمين بذلك غير القرطبي و أمثاله من الجهّال فأنّ المسلمين الّذين عرفوا الإسلام إتّفقوا على أنّ عبد المطّلب و هاشم و هكذا لم يعبدوا صنماً قطُّ و إتّفقوا أيضاً على أنّ الكفّار و المشركين الّذين كانوا يدعون النّبي الى آلهتهم، لم يكونوا على دين المسيح بل كانوا على دين الوثن و الصّنم و على هذا فما معنى قوله و كانوا دعوه الى دين آباءه ولو كان القرطبي من العلماء لقال كانوا دعوه الى دين آباءهم إلاّ أنّ داء الجهل لا دواء له.

و قوله: **لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي** هذا الكلام بمنزلة التّعليل لقوله: **نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** أي كانت علّة النّهي عن متابعتكم و قبول قولكم أنّ البيّنات و الحجّج الدّالة على توحيد اللّه و أنّه لا إلٰه إلاّ هو، منعني عن قبول دعوتكم أيّاي و بعبارةٍ أخرى أنّ ربّي قد هداني الى معرفته و من عرف الحقّ كيف يأخذ بالباطل، **وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ** أي و أمرني أن أستسلم لأمر ربّ العالمين الّذي خلقكم و أوجدكم و ربّاكم و يملك تدبير الخلائق أجمعين ثمّ أوضح ذلك بقوله:

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و المعنىٰ أنّ إلهكم هو الّذي خلقكم من تراب، الخطاب لجميع البشر أي خلقكم معاشر البشر من تراب و أنمّا قال ذلك لأنّ البشر أولاد آدم، و اللّه تعالى خلق آدم من تراب على ما مرّ بيانه سابقاً و إذا كان الأصل مخلوقاً من تراب فالفرع تابعٌ له فصَّح أن يقال للبشر خلقكم من ترابٍ أي من آدم الّذي خلقه من ترابٍ، و

قوله: **ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ** و ذلك لأنّ النطّفة أنشأت من التُّراب إذ لو لم يكن آدم لم توجد نطفة فالتُّراب هو الأصل للنُّطفة و هى فرعٌ عليه وجوداً فصحّ أن يقال ثمّ من نطفة الّتيّ جعلت في الأصلاب **ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** بفتح العين و اللاّم و القاف و هى في الأصل النطّفة الّتي قلّبها اللّه الى الدَّم الغليظ و قد يقال لقطعةٍ من الّدم و هى المسمّاة بعلقة لتعلُّقها بما يمرُّ به لظهور أثرها فيه ثمّ تصير علقة مضغة و قد مرّ الكلام في نظير هذه الآية في سورة الحجّ:

قال للّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍثُمَّمِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**(١).

قال للّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا اٰخَرَ فَتَبارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ ٱلْخالِقينَ**(٢).

و قد تكلّمنا حول هذه الأيات في مواضعها بقدر علمنا أن شئت فراجع هناك.

و قوله: **ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا** هذا بعد أن تصير العلقة مضغةً و المضغة عظاماً الى قوله: **ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا** آخر، و هذا هو المراد بالطِّفل.

و المعنى ثمّ يخرجكم اللّه من بطون أمهاتكم طفلاً في هذه الدُّنيا.

ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ و هو حال إستكمال القوّة، و قوله: **أَشُدَّكُمْ**، بفتح الألف و ضمّ الشّين جمع شدّة كنعمة و أنعم، و أن شئت قلت أيّام الشّباب.

ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا بضّم الشّين قراءة نافع و حفص و هشام و يعقوب و أبوعمر و على الأصل جمع شيخ نحو قلب و قلوب و عيب و عيوب و قرأ الباقون بكسر الشّين لمراعاة الياء و كلاهما جمع كثرة.

و عن الصّحاح جمع الشّيخ شيوخ و أشياخ و كيف كان فالمراحل ثلاثة،

١- الحجّ = ۵ ٢- المؤمنُون = ١٢ الى ١۴

الطُّفولية و الشّباب و الشّيخوخة، و الرّابعة الموت.

وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّٰى مِنْ قَبْلُ أي و بعضكم يموت قبل أن يصير شابّاً و شيخاً أي في الطُّفولية **وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى** أي يبلغ كلّ واحدٍ منكم ما قدّر له الأجل سواء كان طفلاً أو شابّاً أو شيخاً، و قيل المراد بالأجل المسمّى القيامة قاله الحسن.

و قوله: **وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** معناه لكي تعقلون، و تعرفون ربّكم الّذي خلقكم بهذه الأطوار ثمّ تفكّروا في ذلك فتعقلوا ما أنعم اللّه عليكم من النِّعم و في رأس النِّعم نعمة الإيجاد إذ لا نعمة أفضل و أشرف من الإيجاد و الخلق فمن تأمّل في هذه الآية و أمثالها أخلص العبادة له تعالى و علم أنّه مستحقٌّ للمعبوديّة لا غيره.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

أمّا أنّه تعالى يحي و يميت فهو واضح لأنّه خالق الأشياء و موجدها و من المعلوم أنّ الموت فرعٌ على الحياة فما لا حياة له لا موت له و إذا كانت الحياة بأمره تعالى فالموت أيضاً بأمره و هذا معنى قوله: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** و هذا لا يحتاج إلى الإستدلال و بسط الكلام فيه فأنّ العقل يحكم بأنّ الخالق هو المميت لما ذكرناه و الأيات أيضاً مصرّحة به فهو واضحٌ لا خفاء فيه.

و أمّا قوله: **فَإِذا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** فالمراد بالأمر هو الأمر الايجادي المعبّر عنه بالأمر التّكويني الّذي لا تخلّف فيه أصلاًيقول له كن فيكون، ليس معناه أنّه تعالى يوجد الشّئ بواسطة هذه الكلمة و ذلك لأنّه لا لفظ هناك أصلاً بل المعنى إذا أراد إيجاد الشّئ فهو موجود لا بصوتٍ يقرع و لا بنداءٍ يسمع ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

توانائی كه در يک طرفة العين زكاف و نون پديد آورد كونين

چو قاف قدرتش دم بر قلم زد هزاران نقش بر لوح عدم زد

و هذا في الأوامرالتكوينية لاخلاف فيه و أمّا الأوامرالتّشريعيةفتّخلف المراد عن الإرادة أمرٌ ممكن الحصول لأنّ إختيار العبد واسطة بين الإرادة و المراد لئلا يلزم الجبر و سيأتي الكلام فيه في موضعه و قد مرَّ في تضاعيف الأيات أيضاً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ

ألم تر يا محمّد، **إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ** بالباطل يعني المشركين فأنّهم كانوا يخاصمون في دفع أيات اللّه و إبطالها، **أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ** أي كيف ينقلبون عن الطّريق المستقيم إلى الضّلال و من الحقّ إلى الباطل ولم يعلموا أنّ اللّه متّم نوره ولو كره الكافرون.

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

هذا جوابٌ عن سؤالٍ مقدّر فكأنّه قيل من الّذين يجادلون في أيات اللّه، فقال تعالى الّذين كذّبوا بالكتاب و هو القرأن، و ذلك لأنّ المصدّق بالكتاب و بالرّسول لا يجادل في أيات اللّه إذ المفروض أنّه حقّ لا ريب فيه عنده.

وَ بِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا المراد به الأحكام الشّرعية من الصّلاة و الصّوم و الحجّ و أمثالها، أي أنّهم كما يجادلون في أيات اللّه يجادلون في الأحكام أيضاً و يستهزؤن بها فسوف يعلمون، عاقبة أمرهم إذا حلَّ بهم عقاب ما أنكروه و جاحدوه يوم القيامة ثمّ عرَّفهم اللّه تعالى و بيّن كيفيّة عقابهم فقال.

إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَ ٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ

الأغلال جمع غلّ، بضمّ الغين و هو طوقٌ يدخل في العنق للألم و الذّل،

و قال الرّاغب في المفردات، الغلل أصله تدّرع الشّئ و توّسطه إلى أن قال، فالغلّ مختصٌّ بما يقيَّد به فيجعل الأعضاء وسطه و جمعه أغلال و غلَّ فلان قيَّد به إنتهى.

و السَّلاسل جمع سلسلة و هى حلقٌ منتظمة في جهة الطُّول مستمرّة يقال تسلسلت المعاني إذا إستَّمرت شيئاً قبل شيءٍ كالسِّلسلة الممدودة.

و قال في المفردات تسلسل الشّيء إضطرب كأنّه تصَّور منه تسَّلل متردّد فردً لفظه تنبيهاً على تردد معناه و منه السِّلسلة و معنى الآية فسوف يعلمون ثمرة تكذيبهم الكتاب و الرَّسول إذ الأغلال في أعناقهم في جهنّم و السّلاسل يسحبون أي يجبّرون على الأرض و موضع يسحبون، نصب على الحال أي حال كونهم يجرّون على الأرض و الأغلال في أعناقهم و قيل تقدير الكلام إذ الأغلال و السلاسل في أعناقهم مسحوبين على النّار و السَّحب جرّ الشّيء على الأرض أعاذنا اللّه منه.

و قوله: **فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ** و **الحَميم** بفتح الحاء الماء الّذي يبلغ الغاية في الحرارة و **السَّجر** بفتح السّين و سكون الجيم إلقاء الحطب في معظم النّار كالتّنور الّذي يسجر بالوقود هكذا قيل و على هذا فالمعنى أنّ هؤلاء الكفّار الّذين في أعناقهم الأغلال و تسحبونهم السّلاسل في الحميم أي في الماء الحارّ، يسجرون في النّار أيضاً كالسّجار للتّنور و المقصود أنّهم حطب جهنّم في الحقيقة.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ

الظّاهر أنّ القائلين هم الملائكة الموّكلون على جهنّم أعني بهم خزنة النّار يقولون لهؤلاء الكفّار المغلولين أين ما كنتم تشركون، باللّه بإتّخاذكم الأصنام و الأوثان معبودين من دون اللّه فأرجعوا إليهم ليخلصوكم و ينصروكم من عذاب اللّه.

مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ

أي قالوا في جواب القائل، **ضَلُّوا عَنَّا** أي هلكوا و ذهبوا عنّا و تركونا في العذاب، و قيل معناه أنّهم صاروا بحيث لم نجدهم و قولهم **بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا** إستدراكٌ منهم أي من قولهم تركونا و ضلُّوا عنّا، فيقولون لم نكن ندعوا من قبل شيئاً، أي شيئاً لا يبصر و لا يسمع و لا يضر ينفع، و أنت ترى أنّ هذا الإستدراك منهم ليس إنكاراً لعبادة الأصنام بل هو إعترافٌ و إقرارٌ منهم بأنّ عبادتهم ايّاها كانت باطلة هكذا قيل في معنى الكلام.

و ظاهر اللّفظ مشعرٌ بالإنكار لأنّ قلوهم بل لم نكن ندعوا، معناه لم نكن ندعوا الأصنام و الأوثان، و قال بعض المفسّرين معناه لم نكن ندعوا من يستحقّ العبادة و ما ينتفع بعبادته، و هذا القول يرجع إلى القول الأوّل و الّذي نفهم من الآية هو الإنكار و اللّه أعلم.

و قوله: **كَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللّٰهُ ٱلْكٰافِرِينَ** قيل معناه كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل لكلّ كافرٍ، و قيل كذلك يضلّ أعمالهم بأن يبطلها، و قيل يضلّ الكافرين من نيل الثّواب و قيل غير ذلك.

أقول إعلم أنّ الضّلال هو العدول عن الطّريق المستقيم و يضّاده الهداية قال اللّه تعالى: **فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا**[١].

و يقال الضّلال لكلّ عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً فأنّ الطّريق المستقيم الّذى هو المرتضى صعبٌ جدّاً.

قال بعض الحكماء كوننا مصيبين من وجهٍ و كوننا ضالّين من وجوهٍ.

قال بعض المحقّقين إضلال اللّه تعالى للإنسان على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضّلال و هو أن يضّل الإنسان فيحكم اللّه عليه بذلك في الدّنيا و يعدل به عن طريق الجنّة إلى النّار في الأخرة و ذلك إضلالٌ هو حقٌّ و عدلٌ فالحكم على الضّال بضلاله و العدول به من طريق الجنّة إلى النّار عدلٌ و حقٌّ.

١- يُونس = ١٠٨ و الزُّمر = ٤١

الثّاني: من إضلال اللّه هو أنّ اللّه تعالى وضع جبلّة الإنسان على هيئةٍ إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً انفه و إستطابه ولزمه و تعذّر صرفه و إنصرافه عنه و يصير ذلك طبع ثانٍ و هذه القوّة في الإنسان فعلٌ إلهيٌ و إذا كان كذلك و قد ذكر في غير هذا الموضع أنّ كلّ شئ يكون سبباً في وقوع صحً نسبةٌ ذلك الفعل إليه فصحّ أن ينسب ضلال العبد إلى اللّه من هذا الوجه فيقال أضّله اللّه لا على الوجه الّذي يتصّوره الجهلة و لما قلنا جعل الإضلال المنسوب إلى نفسه للكافر و الفاسق دون المؤمن بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن:

قال اللّه تعالى: **مٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ**(١).

قال في الكافر والفاسق: **فَتَعْسًا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفٰاسِقِينَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **كَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللّٰهُ ٱلْكٰافِرِينَ**(٤).

و غيرها من الأيات إنتهى كلامه.

و الإنصاف أنّ ما ذكرهقدّس سرّه من أحسن الوجوه في رفع الإشكال و أن كان فيه أيضاً مجالٌ واسع للبحث و لكن نحن أعرضنا عن ذكر موارد ضعفه حذراً عن الإطالة و اللّه أعلم.

ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

ذلكم إشارة إلى مافعل اللّهبهؤلاء الكفّارمن أنواعالعذاب فيالقيامة والمعنى أنّ الّذي أوقعكم في العذاب هو أعمالكم التّي فعلتم بها في الأرض من عبادة الأصنام و كنتم تفرحون بها، **وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ** أي تبطرون في معاصي اللّه و المرح

١- التّوبة = ١٤٥
٢- مُحمّد = ٨
٣- البقرة = ٢٦
٤- غافر = ٧٤

الإحتيال في السُّرور و النّشاط و الباء في الموضعين للسَّببية.

أُدْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

أي أدخلوا أبواب جهنّم مؤبّدين فيها لا إنقطاع لكونكم فيها و لا نهاية لعقابكم، و قوله: **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** أي بئس مقام من تكبّر عن عبادة اللّه و تجبّر عن الطّاعة و الإنقياد له، ثمّ بعد الإخبار عن هؤلاء الكفّار و سوء عاقبتهم خاطب نبيّه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ

أمر اللّه نبيّه بالصَّبر على أذى المشركين و إستهزاء المنافقين المعاندين و أخبره أنّ وعد اللّه حقٌّ لا ريب فيه و المراد بالوعد نصرة اللّه إيّاه في دعوته و دفع شّر الكفّار عنه و يحتمل أن يكون المراد بالوعد ما وعد اللّه المؤمنين من الثّواب في الجنَّة و العقاب للكافرين من العذاب في الدّنيا و الأخرة.

و أمّا قوله: **فَإِمّا نُرِيَنَّكَ** إلى أخر الآية قيل معناه إنّا إن أريناك يامحمّد بعض ما نعدهم من العذاب عاجلاً و إهلاكهم في دار الدّنيا، و إن لم نَفعَل ذلك بهم و قبضناك إلينا فإلينا يرجعون يوم القيامة فنفعل بهم ما وعدناهم من العقاب و أليم العذاب، قاله في التّبيان.

و نقل عن الحسن أنّه قال تقدير الكلام إمّا نريَّنك بعض الّذي نعدهم فنريَّنك ذلك في حياتك أو نتَّوفينّك فيكون ذلك بعد موتك فأيُّ ذلك كان فإلينا يرجعون.

أقول المعنى لا خفاء فيه و لا يحتاج إلى إطالة الكلام و حاصله أنّ وعد اللّه حقّ لا ريب فيه فأن كنت حيّاً فسوف ترى شطراً منه في الدُّنيا و إن متَّ فتراه في الأخرة فأنّ عذاب الأخرة أشدَّ و أبقى.

و في قوله: **فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ** إشارة إلىٰ أنّ عذاب الدّنيا

بالنّسبة إلى عذاب الأخرة بمنزلة الجزء من الكلّ.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ

أمّا أنّ اللّه أرسل رسلاً من قبله فهو واضح و ذلك لأنّ محمّداً صلّى الله عليه و آله و سلّم كان خاتم الأنبياء و المرسلين فجميع الأنبياء كانوا قبله.

و قوله: **مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** فالمقصود أنّ الله تعالى لم يقصص قصص جميع الأنبياء في القرأن بل ذكربعضها مثل قصّة نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و بعضٌ أخر و هو أيضاًواضح.

وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فالمراد بالآية المعجزة و من المعلوم أنّ المعجزات بيد اللّه و قدرته و إرادته و لا يقدر البشر أن يأتي بها من قبل نفسه كما قال اللّه تعالى في عيسى إبن مريم.

وَ رَسُولاً إِلى بَنِيٓ إِسْرآئيلَ أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنّىٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللّهِ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلّا بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِذْ قالَ اللّهُ يا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيْكَ وَ عَلىٰ والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرٰيةَ وَ الْإِنْجيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْني فَتَنْفُخُ فيها فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْني وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ**

١- أل عمران = ٤٩

٢- الرّعد = ٣٨

بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي[١].

و هكذا في جميع الأنبياء فأنّ حكم الأمثال واحد و إنفاخ الرُّوح في الجسد من شئون الحقّ و لا يقدر عليه أحد إلاّ بأذنه و هو واضح.

فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ فإذا جاء أمر اللّه، قيل المراد بأمر اللّه هو قيام السّاعة أي القيامة.

و قال بعض المفسّرين المراد به وقت إهلاكهم أي إذا جاء الوقت المسّمى لعذابهم أهلكهم اللّه و أنّما التّأخير لإسلام من علم اللّه إسلامه منهم و لمن في أصلابهم من المؤمنين، و قيل أشار بهذا إلى القتل ببدر، و الحقّ أنّ المراد به قيام السّاعة بدليل قوله: **قُضِيَ** و قوله: **وَ خَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ** و ذلك لأنّ القضاء الحكم بين العباد و هو لا يكون في الدُّنيا بل هو في الأخرة فأنّ القيامة هي يوم الفصل و هكذا قوله: **وَ خَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ** أي المعرضون عن الحقّ.

و من المعلوم أنّ الخسران الّذي هو كناية عن العقاب في الأخرة التّي هي يوم الحساب.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

الأنعام الإبل و البقر و الغنم و قال بعضهم، المراد بالأنعام هاهنا الإبل خاصّة لأنّها هي التّي تركب و يحتمل عليها في أكثر العادات.

أقول الحقّ أنّ المراد بالأنعام الإبل و البقر و الغنم و أمّا قول البعض أنّ المراد بها هاهنا الإبل خاصّة فلا دليل عليه و أوهن منه إستدلاله بأنّها هي التّي تركب، فكأنّ المستدّل لم يتدبّر في الآية و خصَّ الأنعام بالإبل زعماً منه أنّ البقر و الغنم ليسا ممّا يركب عليه فهما خارجان عن معنى اللّفظ و يبقى فيه واحد الإبل و لم

١- المائدة = ١١١ / ١١٠

يعلم أنّ كلمة، منها، تدلّ على أنّ بعضاً من الأنعام للرّكوب و هو الإبل و بعضاً أخر للأكل و هو البقر و الغنم و أنما قلنا ذلك لأنّ كلمة، من، تبعيضيّة، مع أنّ الإبل التّي تركب، أيضاً يؤكل لحمه بعد النّحر و على هذا فمعنى الآية **ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا** أي تَركبُوا بعضاً منها أي من الأنعام الإبل و منها تأكلون أي من جميع الأنعام تأكلون فكلمة، من، في منها الأولى تبعيضيّة و فى الثّانية ليست للتّبعيض لأنّ الرّكوب ثبت للبعض و هو الإبل و أمّا الأكل فقد ثبت للجميع.

وَ لَكُمْ فيهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

يعني و جعل اللّه لكم فيها أي في الأنعام، منافع، غير ما ذكرناه من الرّكوب و الأكل، كشرب الألبان و الإنتفاع بالأصواف و الأشعار و الجلود.

و قوله: **وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِي صُدُورِكُمْ** قيل معناه، أي و إن تركبوها و تبلغوا المواضع التّي تقصدونها لحوائجكم و عليها، يعني الأنعام **وَ عَلَى ٱلْفُلْكِ** و هى السُّفن **تُحْمَلُونَ** أيضاً، و حاصل الكلام في الآية أنّ المنافع المتّرتبة على الأنعام لا تختصّ بالرّكوب و الأكل من لحومها بل لها منافع أخرى كما أشرنا إليها و عليها أي و على الأنعام في البرّ و على الفلك في البحر تحملون، للبلوغ إلى مقاصدكم، و لذلك قيل للإبل سفينة البرّ و للفلك سفينة البحر.

وَ يُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ فَأَيَّ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ تُنْكِرُونَ

أي أنّ اللّه تعالى يريكم أياته، الدّالة على وحدانيّته و قدرته، الظّاهر أنّ المراد بالأيات التّي أراهم هو الأيات التكوينية من إهلاك الأمم الماضية بسبب المعاصي التّي إرتكبوها، و خلق الأنعام لهم ليركبوها و يحملوا عليها أثقالهم، و الإنتفاع بألبانها و أوصافها و أشعارها و غير ذلك من النّعم و الأيات الدالّة على قدرته و

عنايته بعباده، يبعد أن يكون المراد بالأيات معناها العامّ الشّامل التّكوينيات و التّشريعيات لأنّ الكفّار أنكروا الجميع، و أنّ اللّه تعالى أراهم الجميع بواسطة أنبياءه قال فأيّ أيات اللّه تنكرون، بعد إتمام الحجّة عليكم و فى الكلام توبيخٌ كما لا يخفى.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ اٰثٰارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

قد مرَّ نظير هذه الأية:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كٰانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ اٰثٰارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ**[١].

و فسَّرناها هناك إلاّ أنّه تعالى قال في المقام بعد قوله في الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، و قال هناك **فَأَخَذَهُمُ ٱللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ** الآية و الفرق بينهما بحسب المعنى أنّه تعالى قال هناك فأخذهم اللّه بذنوبهم، و قال في المقام فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، من الأموال و البنيان.

و حاصل الكلام في الأيتين أنّ الماضيّن من الكفّار لم ينتفعوا بما جمعوا من الأموال بعد نزول العذاب عليهم لوم يكن لهم من يمنع العذاب عنهم و إذا كان الأمر على هذا المنوال فينبغي للعاقل أن لا يعصي اللّه إذ لا يمكن الفرار من حكومته و ليس لعذابه دافعٌ، و المراد بمن قبلهم جميع الأمم الّذين وقعوا في العذاب بسبب العصيان مثل قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و غيرهم فأنّ في ذلك عبرة لأولي الأبصار لو إعتبروا به.

١- المؤمن = ٢١

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

ذكروا في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: لمّا جاءتهم أي الكفّار، رسلنا بالبيّنات، أي بالأيات الواضحات و المعجزات فرحوا، هؤلاء الكفّار بما عندهم من العلم أي قالوا نحن أعلم من الأنبياء لن نعذّب ولن نبعث.

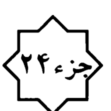
ثانيها: فرح الكفّار بما عندهم من علم الدُّنيا نحو قوله تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**(١).

ثالثها: فرح الرُّسل لمّا كذّبهم قومهم، بما أعلمهم اللّه عزّ وجلّ أنّه مهلك الكافرين و منجي المؤمنين، ففرحوا بما عندهم من العلم بنجاتهم.

أقول الظّاهر أنّ الكفّار فرحوا بما عندهم من العلم، فأنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون، قالوا لا نحتاج إلى علم الأنبياء و قوله: **وَ حَاقَ بِهِمْ** أي حلّ بهم من العذاب ما كانوا يستهزؤن به، أي جزاء بما كانوا يستهزؤن به في الدّنيا.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

البأس العذاب و المعنى أنّ الكفّار لمّا رأوا عذابنا **قَالُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ** من عبادة الأصنام و الأوثان.



فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ

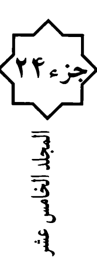
إنّما قال لم يك ينفعهم إيمانهم لأنّ الإيمان بعد رؤية العذاب ليس على أساس الإختيار بل هو من خوف العذاب الّذي عاينوه بأبصارهم فهو من قبيل فرعون

١- الروم = ٧

حيث قال ذلك بعد رؤية العذاب و الجواب.

و المطلوب الإيمان بحسب الإختيار و الإرادة بالطَّوع و الرَّغبة لا بالجبر و الكراهة و لأجل ذلك قال تعالى: **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمانُهُمْ** و فى قوله: **سُنَّتَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ** إلى آخر الآية أشارة إلى أنّ عدم قبول التَّوبة بعد رؤية العذاب هو سنَّة اللّٰه و طريقته المستَّمرة من فعله في حقَّ عباده الكافرين فلامحالة خسر هنالك المبطلون لتفويتهم الثَّواب و الجنَّة في حقَّ أنفسهم و بذلك صاروا مستَّحقين للعذاب و الخلود في النّار **ما رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبيدِ** و إنّما كانوا أنفسهم يظلمون، و لذلك ورد في الدُّعاء عجلُّوا بالتَّوبة قبل الفوت، أي قبل فوت الوقت.

■



سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتٰابٌ فُصِّلَتْ اٰيٰاتُهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لٰا يَسْمَعُونَ﴿٤﴾ وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰآ إِلَيْهِ وَ فِىٓ اٰذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحٰىٓ إِلَىَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَ ٱسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لٰا يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُٓ أَنْدٰادًا ذٰلِكَ رَبُّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿٩﴾ وَ جَعَلَ فِيهٰا رَواٰسِىَ مِنْ فَوْقِهٰا وَ بٰارَكَ فِيهٰا وَ قَدَّرَ فِيهٰآ أَقْواٰتَهٰا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ سَوآٰءً لِلسّٰآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوٰىٓ إِلَى

ٱلسَّمَآءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا
بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ
﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ
صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا
ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَآئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِـَٔايَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ
نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيٰوةِ
ٱلدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ ٱلْاٰخِرَةِ أَخْزَىٰ وَ هُمْ لَا
يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ
فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ
صَاعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَ نَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾
وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ

عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِيٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لآ أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللّٰهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمّا تَعْمَلُونَ﴿٢٢﴾ وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ ٱلْخاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢۴﴾ وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَنآءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

◀ اللّغة

أَكِنَّةٍ: بفتح الألف و كسر الكاف و فتح النُّون المشددة جمع كنان و هو الغطاء.

وَقْرٌ: الوقر بفتح الواو و سكون القاف و الرّاء الصُّمم و قد يعبّر عنه بالثّقل الذّي عرض على السَّمع.

وَيْلٌ: بفتح الواو القبح و قد يستعمل على التَّحسر.

أَنْداداً: جمع ندّ بكسر النُّون و هو المثل و الشِّبه.

رَوَاسِيَ: الجبال.

ٱسْتَوَىٰٓ: الإستواء الإستقامة، و قيل الإستيلاء.

بِمَصَٰبِيحَ: جمع مصباح و هو السّراج.

صَٰعِقَةً: بكسر العين العذاب و قيل معناها وقيعة.

صَرْصَرًا: إشتّقاقه من الصَّرير أي شديداً صوته.

نَحِسَاتٍ: جمع نحس و هو الشّؤم و قيل النَّحس سبب الشَّر.

يُوزَعُونَ: يقال وزعت الرَّجل إذا منعته.

يَسْتَعْتِبُوا: الإستعتاب الجزع.

قَيَّضْنَا: التَّقيض إحواج بعض العباد إلى بعضٍ و قيل المقايضة المقايسة، و قيل المماثلة.

قُرَنَآءَ: بضمّ القاف و فتح الرّاء جمع قرين يقال فلان قرينه أي مثله

◀ الإعراب

تَنزِيلٌ خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيلٌ كِتَٰبٌ أي هو كتاب قُرْءَانًا حال موطئة من أياته أو أنّه حال من كتاب وَجَعَلَ فِيهَا مستأنف غير معطوفٍ على خلق و إلاّ يكون داخلاً في الصلّة و لا يجوز لأنّه قد فصلّ بينهما بقوله وتَجْعَلُونَ و ليس من الصِّلة في شئٍ سَوَآءً بالنّصب و هو مصدر في موضع الحال من الضّمير في أقواتها وطَوْعًا أَوْ كَرْهًا مصدران في موضع الحال إِذْ جَآءَتْهُمُ صفة لصاعقة أو حالاً من صاعقة الثّانية وَ أَمَّا ثَمُودُ بالرّفع على الإبتداء فَهَدَيْنَٰهُمْ الخبر ذَٰلِكُمْ مبتدأ و ظَنُّكُمُ خبره وٱلَّذِي نعتٌ للخبر وٱلنَّارِ هو بدلٌ من جزاء أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ و ما بعده الخبر.

◀ التّفسير

حٰمٓ، تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قد مرَّ الكلام في الحروف التّي في أوائل السُّوره و قلنا أنّها ممّا لا يعلم معناها إلاّ اللّه تعالى و قيل أنّها أسماء للسُّور.

و أمّا قوله: **تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** أي هذا تنزيلٌ و قال البصريّون، تنزيل مبتدأ و خبره، كتابٌ فصلّت، اياته و المعنى أنّ هذا الكتاب أنزله اللّه تعالى و فيه ردٌّ على الكفّار الّذين أنكروا ذلك، و لا يطلق الرّحمن إلاّ على اللّه تعالى من حيث أنّ معناه لا يصحّ إلاّ له إذ هو الّذي وسع كلّ شيءٍ رحمةً و أمّا الرّحيم فهو يستعمل في غيره أيضاً و هو الّذي كثرت رحمته.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**[٢].

قال اللّه تعالى: **أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلتَّوّٰابُ ٱلرَّحِيمُ**[٣].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**[۴].

قال اللّه تعالى فى نبيّه: **لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**[۵].

و قيل أنّ اللّه تعالى رحمن الدّنيا و رحيم الأخرة و ذلك أنّ إحسانه في الدُّنيا يعمّ المؤمن و الكافر و فى الأخرة يختصّ بالمؤمنين و على هذا قال اللّه تعالى: **وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهٰا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**[۶] وغيرها منها

كِتٰابٌ فُصِّلَتْ اٰيٰاتُهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

كتابٌ مصدر من كتب، كتباً، كتاباً و الكتب في الأصل ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة يقال كتبت السّقاء و كتبت البغلة جمعت بين شقويها بحلقةٍ و فى

١- التّوبة = ۵
٢- التّوبة = ٩١
٣- التّوبة = ١٠۴
۴- النّحل = ٧
۵- التّوبة = ١٢٨
۶- الأعراف = ١۵۶

التّعارف ضمّ الحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطّ و قد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللّفظ فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ لكن يستعار كلّ واحدٍ للأخر و لهذا سمّي كلام اللّه و أن لم يكتب كتاباً فالكتاب في الأصل مصدر ثمّ سمّي المكتوب فيه كتاباً و الكتاب في الأصل إسمٌ للصحيفة مع المكتوب فيه و قال بعض المحقّقين الحروف بإعتبار وجودها في الخارج من المتكلّم يسمى كلاماً و بإعتبار نظمها بالخطّ يسمّى كتاباً فالكتاب و الكلام واحد و الفرق بالإعتبار و لذلك سمي القرأن كتاباً و كلاماً للحقّ فمن حيث أنّ هذه الحروف أوجدها اللّه في الخارج فهي كلام اللّه و من حيث أنّها كتبت سميّت بالكتاب.

و أمّا قوله: **فُصِّلَتْ** فالتّفصيل يقابل الإجمال و إختلفوا في المراد به في المقام، فقال بعضهم أنّما وصفه بالتّفصيل دون الإجمال لأنَ التَّفصيل يأتي على وجوه البيان لأنّه تفصيل جملةٍ عن جملةٍ أو مفردٍ عن مفردٍ و مدار أمر البيان على التّفصيل و التّمييز في مايحتاج إليه في أمور الدّين إذ العلم علمان علم دين و علم دنيا و علم الدّين أجلّهما و أشرفهما لشرف النّفع به و قيل، فصلّت أياته، بالأمر و النّهي و الوعد و الوعيد و التّرغيب و التَّرهيب إنتهى.

ذكر هذين الوجهين في التّبيان، و قال بعضهم، معناه بنيَّت و فسّرت و قيل ببيان حلاله من حرامه و طاعته من معصيته، و قيل بالثّواب و العقاب، و قرئ فصلت، بالتَّخفيف أي فرقت بين الحقّ و الباطل أو فصل بعضها عن بعضٍ بإختلاف معانيها من قولك، فصل أي تباعد عن البلد، و أنت ترى أنّ هذه الوجوه ترجع إلى أصلٍ واحدٍ و هو أنّ الكتاب ليس بمجملٍ و هو كذلك.

و قوله: **قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** إختلفوا في نصبه فقال الأخفش هو نصب على المدح و قيل على إضمار فعلٍ أي أذكره قرأناً عربيّاً، و قيل على إعادة الفعل أي فصَّلنا قرأناً عربيّاً، و قيل على الحال أي في حال كونه.

و قوله: **عَرَبِيًّا** أي أنّ اللّه أنزله بلسان العرب و لعلّ الوجه فيه أنّ النّبي الّذي أنزل عليه القرأن كان من العرب كما أنّ التّوراة و الإنجيل بلسان العبري لأنّ موسى و عيسى كان لسانهما عبريّاً و كذا من تبعهما من بنيإسرائيل.

و قوله: **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** قيل في معناه لقوم يعلمون أنّه منزّلٌ من عند اللّه.

و قال مجاهدٌ أي يعلمون أنّه إلهٌ واحدٌ في التّوراة و الإنجيل، و قيل يعملون العربيّةفيعجزون عن مثله ووصفالكتاب بأنّه قرأن لأنّه جمع بعضه إلى بعضٍ.

أقول ما ذكروه من الوجوه لا بأس به و يحتمل أن يكون المعنى لقومٍ يعلمون تفصيله و هم العترة الطّاهرة المعبّر عنهم في الكتاب بالرّاسخين في العلم و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلُّوا أبداً.**

و أنمّا قلنا ذلك لأنّ العلم بتفصيل الكتاب منحصرٌ فيهم فأنّ المتشابهات أيضاً من التّفصيل و لا يعلم معناها إلاّ العترة.

قال اللّه تعالى: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**(١).

و لتفصيل الكلام فيه موضع آخر.

بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

بَشِيرًا وَ نَذِيرًا حالان من الأيات و العامل فيه، فصلّت، و قيل هما فغتان للقرآن و المعنى أنّ القرآن مبشّراً لأولياء اللّه بالثّواب و الجنّة و منذر لأعداء اللّه بالعقاب و الخلود في النّار، **فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ** عن القرآن أي أكثر النّاس و هم الكفّار أعرضوا عنه فهم لا يسمعون، سماعاً ينتفعون به فكأنّهم لا يسمعون إذ لا فرق بين من يسمع و لا ينتفع به و من لا سمع له.

وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا

١- أل عمران = ٧

وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ

حكى اللّه تعالى عن الكفّار أنّهم قالوا للنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قلوبنا في أكنّةٍ، أي في أغشيّةٍ و أغطيةٍ ممّا تدعونا اليه و هو التّوحيد و النبوّة و المعاد، و في آذاننا وقرٌ أي ثقلٌ من إستماع القرآن أو من إستماع دعوتكم الى التّوحيد **وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ.**

و المراد بالحجاب الخلاف أو مطلق المانع و الحاجز، و ليس المراد بالحجاب المحسوس منه بل المراد إختلاف العقيدة في الدِّين و لذلك قالوا للنّبي فأعمل بما شئت في دينك فأنّنا عاملون بما يقتضيه ديننا.

و الحاصل إنّا لا نوافقك فيما تدعونا اليه من دينك.

و قيل معناه فأعمل في هلاكنا فإنّنا عاملون في هلاكك تهديداً منهم.

و قيل معناه فأعمل لإلهك الّذي أرسلك فإنّا نعمل لإلهنا الّتي نعبدها.

قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَ اَسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ

قل، يا محمّد لهؤلاء الكفّار **أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** و لست بملكٍ إلاّ أنّه **يُوحىٰٓ** من اللّه تعالى **إِلَيَّ** و لا يوحى اليكم و هذا هو الفرق بيننا و بينكم **أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ** لا شريك له في الملك **فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ** تعالى في الطّاعة و إخلاص العبادة له على ما تقتضيه الحكمة **وَ اَسْتَغْفِرُوهُ** أي إطلبوا المغفرة من اللّه فيما فعلتم من عبادة الأوثان و الأصنام و غيرها من المعاصي **وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ** الّذين أشركوا بعبادة اللّه و أنكروا ألوهيّته من عذاب اللّه يوم القيامة.

اَلَّذِينَ لا يُؤْتُونَ اَلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ

إختلف المفسّرون في المراد بالزّكوة في هذه الآية قال الحسن معناه لا يؤتون ما يكونون به أزكياء أتقياء من الدّخول في دين اللّه.

و قال الفرّاء الزّكوة في هذا الموضع أنّ قريشاً كانت تطعم الحّاج و تسقيهم فحرّموا ذلك على من آمن بمّحمد صلى الله عليه وآله وسلم و قال قوم أنّما توعدهم على ترك الزّكاة الواجبة عليهم لأنّهم متعبدّون بجميع العبادات و يعاقبون على تركها.

و قال الزّجاج معناه، ويلٌ للمشركين الّذين لا يؤمنون بأنّ الزّكاة واجبة و أنّما خصّ الزّكاة بالذّكر تقريباً لهم على شحّهم الّذي يأنف منه أهل الفضل و يتركون ما يقتضي أنّهم إن يعملوه عملوه لأجله و فى ذلك دعاءٌ لهم الى الإيمان و صرفٌ لهم عن الشِّرك وكان يقال الزّكاة قنطرة الإيمان فمن عبرها نجا.

و عن الطّبري، معناه الّذين لا يعطون اللّه الطّاعة الّتي يطهرهم بها و يزكى أبدانهم و لا يوّحدونه، و قال عكرمة هم الّذين لا يقولون لا إله إلاّ اللّه ذكر هذه الوجوه في التّبيان و قد ذكرها القرطبي أيضاً في تفسيره

و قال البيضاوي في قوله: **وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ** لبخلهم و عدم إشفاقهم على الخلق و ذلك من أعظم الرّذائل، و قال في قوله: **وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ** حال مشعرة بأنّ إمتناعهم عن الزّكوة، لإستغراقهم في طلب الدُّنيا و إنكارهم الأخرة إنتهى.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا بأس به إلاّ أنّه خارج عن البحث أنّ البحث في ذكر الزّكاة في المقام و أنّه ما وجه تخصيصها بالذّكر من بين الواجبات و ما ذكروه لا يحسم مادّة الإشكال و بعبارة أخرى إن كان الوجه في تخصيص الزّكوة بالذّكر كونها من ضروريّات الدّين بمعنى أنّ منكرها كافر، فكذلك الصّلاة و الصّوم و الحجّ فأنّها أيضاً من ضروريّات الّدين فكما أنّ منكر الزّكاة كافرٌ كذلك منكر الصّلاة و الصوم و هذا هو الإشكال الّذي لا بدّ لنا من رفعه.

ثانياً: أنّ الآية نزلت في المشركين لأنّه تعالى قال و ويل للمشركين الّذين لا يؤتون الزّكاة.

و من المعلوم أنّ المشرك باللّه منكرٌ للّه و للرسول لأنّه عابدٌ للصنَّم و الوثن و

من كان كذلك فهو منكرٌ لجميع الأحكام لا للزّكاة فقط، و على هذا فقولهم في معنى الكلام أنّهم لا يؤمنون بأنّ الزّكاة واجبة أو أنّه دعاءٌ لهم الى الإيمان و هكذا سائر الوجوه المذكورة لا ربط لها بما نحن بصدد البحث عنه تخصيص الزّكاة بالذّكر، هذا كلّه مضافاً الى أنّ السُّورة من أقدم السُّور المَّكية و أسبقها ولم تكن الزّكاة شرعت بعد عند نزول السُّورة فكيف يقال أنّهم لا يؤمنون بأنّ الزّكاة واجبة.

قال بعض المفسّرين المراد بإيتاء الزّكاة مطلق إنفاق المال للفقراء و المساكين.

أقول هذا أيضاً بعيد و ذلك لأنّ عدم إنفاق المال للفقراء و المساكين لا يختصّ بالمشركين مضافاً الى أنّه لا يوجب الكفر و الويل فأنّ كثيراً من المسلمين لولا أكثرهم كانوا كذلك و هو ظاهرٌ.

و قال صاحب الكشّاف، فأن قلت لم خصّ بين أوصاف المشركين منع الزّكاة مقروناً بالكفر بالأخرة.

قلت لأنّ أحبُّ شيءٍ الى الإنسان ماله، و هو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل اللّه فذلك أقوى دليلٍ على ثباته و إستقامته و صدق نيّته و نصوع طويّته الى آخر ما قال.

أقول ألم يعلم صاحب الكشّاف أنّ إنكار اللّه تعالى أعظم ذنباً ان إنكار الزّكاة الّتي هي من الفروع و المفروض أنّ المشرك لا يقول بتوحيده و ألوهيّته فضلاً عن الزّكاة الّتي هي من فروع الدّين فكيف يهدّد بالويل و العذاب بترك الزّكاة و لا يهدّد بالشِّرك.

و إنكار التّوحيد مضافاً الى أنّ الصّلاة أهمّ من الزّكاة بإجماع المسلمين فلم لم يقل و لا يقيمون الصّلاة مثلاً.

و محصّل الكلام أنّ تعيير المشرك و تهديده بالويل بسبب ترك الزّكاة فقط لا

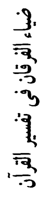
نفهم معناه اللّهم إلاّ أن يراد بالزّكاة في الآية غير معناها المتعارف عند المتّشرعة و اللّه أعلم بكلامه و نحن في ذلك من المتوفقين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

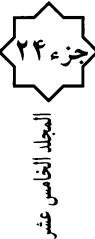
أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الّذين أمنوا باللّه و رسوله و عملوا الصالحات، و فيه اشارة إلى أنّ مجّرد الإعتقاد القلبي لا يكفي و أنّ الإيمان الحقيقي لا يتحقق إلاّ بالعمل الصّالح و من كان كذلك فله أجرٌ غير ممنونٌ أي غير مقطوعٍ بل هو متّصلٌ دائمٌ و قيل معناه أنّه لا أذى فيه من المَّن الذّي يكدر الصَّنيعة و ذلك لأنّ المؤمن يستحقّ بهذا الأجر و إعطاء الحقّ إلى من له الحقّ لا مَّن فيه للمعطى.

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يقول للكفّار على وجه الإنكار بلفظ الإستفهام أئنّكم لتكفرون بالّذي، أي باللّه الّذي خلق الأرض في يومين، يوم الأحد و يوم الأثنين و تجعلون له تعالى أنداداً أي أشباهاً و أمثالاً في العبادة، ذلك، الذّي خلق الأرض في يومين ربّ العالمين لا الأصنام و الأوثان التّي لا شعور لها لكونها من الجمادات و الجماد أخسَّ الموجودات.



روي عن النّبي ﷺ: أنّه قال أنّ اللّه خلق الأرض يوم الأحد و الإثنين و خلق الجبال يوم الثّلاثاء و خلق الشّجر و الماء و العمران و الخراب يوم الأربعاء و ذلك أربعة أيّام و خلق يوم الخميس السّماء وخلق يوم الجمعة الشّمس و القمر و النّجوم و الملائكة و أدم.



و عن روضة الكافي بأسناده إلى عبد اللّه بن سنان قال سمعت

أباعبداللّه يقول: أنّ اللّه خلق الخير يوم الأحد وما كان ليخلق الشّر قبل الخير وفي يوم الأحد و الأثنين خلق الأرضين و خلق أقواتها يوم الثّلاثاء و خلق السّموات يوم الأربعاء و يوم الخميس و خلق أقواتها يوم الجمعة و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** إنتهى.

وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ مِنْ فَوْقِهٰا وَ بٰارَكَ فِيهٰا وَ قَدَّرَ فِيهٰآ أَقْوٰاتَهٰا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ سَوٰآءً لِلسّٰآئِلِينَ

المراد بالرَّواسي الجبال و المعنى أنّ اللّه جعل أي خلق في الأرض الجبال من فوقها أي من فوق الأرض كما هو المشاهد المحسوس فأنّا نرى الجبال راسيات أي ثابتات على الأرض.

و قوله: **فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ** قد ظهر معناه في الحديث المتقدّم و فى قوله: **وَ قَدَّرَ فِيهٰآ أَقْوٰاتَهٰا** معناه جعل الأرض مستعدة و سبباً لأرزاق الخلق أيضاً مشاهدٌ محسوس فأن أرزاق الحيوان و الإنسان من الأرض و ليس هذا إلاّ أنّ اللّه تبارك و تعالى بارك فيها ألا ترى أنّ جميع المأكولات و المشروبات و الملبوسات و بالجملة جميع ما يحتاج إليه الإنسان و الحيوان من الأرض و هذا ممّا لا يحتاج إلى إقامة دليل أو برهان.

إن قلت قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ اللّه قادرٌ على كلّ شئٍ و على إيجاد جميع الأشياء دفعةً واحدة كما أخبر بذلك حيث قال أنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لكن فيكون، فما معنى التّدريج في الخلق في ستّة أيّامٍ.

قلت قد أجيب عنه بوجوهٍ:

أحدها: لإعتبار العباد في الأخبار عن ذلك إذا تصَوروه على تلك الحال.

ثانيها: فيه تعليم الخلق التّأنّي في الأمور و أن لا يستعجلوا فيها بأنّ اللّه كان

قادراً على أن يخلق ذلك في لحظةٍ و لكن خلقها في هذه المدّة لما قلنا.

ثالثها: أنّما خلق ذلك في هذه المدّة ليعتبروا بذلك على أنّها صادرة من قادرٍ مختار عالمٌ بالمصالح و بوجوه الأحكام إذ لو كان صادراً عن مطبوع أو موجبٌ لحصلت في حالةٍ واحدة.

ذكر هذه الوجوه في التّبيان و قد ذكرها المفسّرون في تفاسيرهم أيضاً، ولنا في المقام وجهٌ أخر غير ما ذكروه و هو أنّ اللّه خلقها في تلك المدّة مشعراً بأنّ العالم عالم الأسباب و المسببات، أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، ألا ترى أنّ اللّه يخلق الإنسان من نطفةٍ ثمّ من علقةٍ ثمّ من مضغةٍ و هكذا مع أنّه قادر على خلقه في لحظةٍ واحدة، و كيف كان لا شكّ أنّ الخالق هو اللّه تعالى و هو عالمٌ بالمصالح و المفاسد فهو أعلم بما أراد و فعل و ما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً.

و على هذا فالوجوه المذكورة كلّها من الإستنباطات الشّخصية لا دليل عليها من العقل و الشّرع فأنّ العلم بأسرار الخلقة لم يحصل لأحدٍ من الخلق ولن يحصل أبداً.

و قوله: **سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ** قيل معناه في أربعة أيّام مستوية تامّة، و قيل في الكلام تقديمٌ و تأخير و المعنى و قدّر فيها أقواتها سواء للمحتاجين و إختاره الطّبري.

و قال قتادة و السُّدي معناه سواء للّسائلين من ذلك لأنّ كلاًّ يطلب القوت و يسأله، و الّذي يخطر بالبال هو أنّ جميع الخلق في الإنتفاع بهذه الأرزاق من الأرض على حدٍّ سواء فأنّ كلّ سائلٍ بلسان التّكوين يطلب رزقه و لا فرق فيه بينهم و هو ظاهر.

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَ هِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ

ثمّ للتّراخي أي بعد أن خلق الأرض في يومين و جعل فيها رواسي و الجبال من فوقها و بارك فيها و قدَّر فيها أرزاقها، إستوى إلى السّماء، و هذا الكلام يدلّ على أنّ الأرض خلقها اللّه قبل السّماء.

قال بعض المحقّقين، إستوى، متى عدّي، بعلى، إقتضى معنى الإستيلاء نحو **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ**[1] أي إستولى و إذا، عدّي، بإلى، إقتضى معنى الإنتهاء إليه بالذّات أو بالتّدبير إنتهى.

و على هذا فقوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَ هِيَ دُخَانٌ** إنتهى الخلق بعد الأرض إلى السّماء بالذّات أو بالتّدبير و قوله: **وَ هِيَ دُخَانٌ** الواو للحال أي حال كون السّماء كانت دخاناً، أي كانت مثل الدُّخان و فيه إشارة إلى أنّه لا تماسك لها كما أنّ الدُّخان كذلك.

قال الزّمخشري، قيل كان عرشه قبل خلق السّموات و الأرض على الماء فأخرج من الماء دخاناً فإرتفع فوق الماء و علا عليه فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثمّ فتقها فجعلها أرضين ثمّ خلق السّماء من الدّخان المرتفع إنتهى

أقول في تفسير علّي بن إبراهيم، أي دبَّر و خلق، أي أنّ الإستواء في الآية بمعنى التّدبير و الخلق.

و عن روضة الكافي بأسناده عن محمّد بن مسلم قال قال لي أبو جعفر، كان كلّ شئٍ ماء وكان عرشه على الماء فأمر عزّ وجلّ الماء فإضطرم ناراً ثمّ أمر النّار فخمدت فإرتفع من خمودها دخان فخلق السّموات من ذلك الدُّخان و خلق الأرض من الرّماد إنتهى.

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ خلق السّموات كان قبل خلق الأرض و لعلّ

١- الرحمن = ٥

هذا هو الحقّ و اللّه أعلم.

فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قال في الكشّاف معنىٰ أمَر السّماء و الأرض بالإتيان و إمتثالهما أنّه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه و وجدتا كما أرادهما و كانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع و هو من المجاز الذّي يسمّى التّمثيل إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنت ترى أنّ ما ذكره لا يساعد ظاهر الآية و ذلك لأنّ كلمة، فا، في قوله: **فَقَالَ** تدلّ على أنّ هذا الأمر كان بعد خلقهما أي بعد أن خلقهما على ما مرَّ بيانه قال لهما أئتيا، لا قبل الخلق و على هذا فهذا الأمر ليس من الأمر الإيجادي كما زعم صاحب الكشّاف ضرورة أنّه من تحصيل الحاصل.

فالمراد بالإتيان شئ أخر غير الإيجاد و لذلك قال بعض المفسّرين معناه جيئا بما خلقت فيكما من المصالح و المفاسد و أخرجاها لخلقي.

أقول الحقّ أن يقال لم يكن هناك كلامٌ منه تعالى على الحقيقة و لا منهما جواب و مثله قوله تعالىٰ: **شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**[1] و نحن نعلم أنّ الكفّار لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم و أنّما ذلك لمّا ظهر منهم ظهوراً لا يقدرون على دفعه كانوا بمنزلة المعترفين به و مثل هذا قولهم، «جوارحي تشهد بنعمتك، و حالي معترفةٌ بإحسانك»، و ما روي عن بعض الخطباء «سل الارض من شقَّ أنهارك و غرس أشجارك و جنى ثمارك فأن لم تجبك حوراً أجابتك إعتباراً» و هذا بابٌ كبير وله نظائر كثيرة في النّظم والنّثر.

و ما نحن فيه من هذا القبيل و على هذا فليس المراد بالإتيان في قوله تعالى: **ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** أنّه تعالى قال لهما كلاماً و أنّهما أجابتا و بعبارةٍ أخرى لم يكن هناك كلامٌ حقيقة بل المعنى ما ذكرناه و اللّه أعلم بما أراد.

١- التّوبة = ١٧

فَقَضيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰواٰتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحٰى فِي كُلِّ سَمٰآءٍ أَمْرَهٰا وَ زَيَّنَّا ٱلسَّمٰآءَ ٱلدُّنْيا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

قيل في معناه، جعلهنّ سبع سماوات في يومين و ذلك لأنّ القضاء جعل الشّئ على إتمامٍ و إحكامٍ و لذلك يقال إنقضى أي قد تمّ و مضى، و قوله: **فِي** في يومين يعني سوى الأربعة الأيّام الّتي خلق فيها الأرض و قدَّر فيها أقواتها فوقع خلق السّموات و الأرض جميعاً في ستّة أيّام كما قال تعالى: **خَلَقَ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ.**

وَ أَوْحٰى فِي كُلِّ سَمٰآءٍ أَمْرَهٰا أصل الوحي الإشارة السّريعة و لتَّضمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض يكون بصوتٍ مجّردٍ عن التّركيب و بإشارة ببعض الجوارح و بالكناية، ثمّ أنّ الوحي إمّا برسولٌ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل للنّبي بصورةٍ معيّنةٍ.

و إمّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه، و أمّا بإلقاء الرّوح كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **أنّ روح القدس نفثت في روحي**، و أمّا بإلهام نحو قوله تعالى:**وَ أَوْحَيْنآ إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعيهِ**[١] و أمّا بمنامٍ كما قال صلى الله عليه و آله و سلم: **إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن**، و أمّا بتسخيرٍ كما قال تعالى: **وَ أَوْحٰى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**[٢] و ما نحن فيه من هذا القبيل فقوله: **وَ أَوْحٰى فِي كُلِّ سَمٰآءٍ** كناية عن كونها مسخرات بأمره.

وَ زَيَّنَّا ٱلسَّمٰآءَ ٱلدُّنْيا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظًا المراد بالسّماء جهة العلو، قال الرّاغب في المفردات سماء كلّ شئٍ أعلاه.

و قال بعضهم كلّ سماءٍ بالأضافة الى ما دونها فسماء و بالأضافة الى ما فوقها فأرضٌ إلاّ السّماء العليا فأنّها سماءٌ بلا أرض.

١- القصص = ٧ ٢- النّحل = ٦٨

إذا عرفت هذا فقوله: **ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا** معناه ما يرونهم فوق رؤسهم فالمراد بالدُّنيا أهل الدُّنيا أو أهل الأرض و بعبارةٍ أخرى ما فوق الأرض هو سماء الدُّنيا و هي الّتي زيَّنها اللّه تعالى بمصابيح اي السُّرج المضيّئة و هى الكواكب المضّيئة الّتي نراها فأنّها بمنزلة السّراج لأهل الأرض في اللّيالي المظلمة الأقرب الى الأرض دون ما فوقها من السَّموات فأنّ الكواكب ليست منحصرة بها، و قوله: **حِفْظًا** أي حفظناها من الشّياطين الّذين يسترقون السَّمع و يجوز أن يكون حفظاً، مفعولاً له فكأنّه قال و خلقنا المصابيح زينةً و حفظاً، **ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ** يعني ذلك الخلق تقدير القادر على كلّ شيٍ الّذي لا يخفى عليه شئ و هو بكلّ شيٍ عليم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ

يعني إن أعرض و عدل الكفّار عن التّفكر في ما ذكرناه و هو أنّ اللّه هو خالق كلّ شيٍ و هو الّذي يستحقّ أن يعبد لا غيره كائناً ما كان، فقل لهم يا محمّد أنّي أنذرتكم و خوَّفتكم أن تنزل بكم صاعقة أي عذاباً سماويّاً مثل صاعقة قوم عادٍ و قوم ثمود.

أي قوم هود و قوم صالح أمّا قوم عاد فكان نبيّهم هود النّبي عليه السلام و ذلك لمّا توفّى نوح بقى قومه و ذريّته المؤمنون دهراً طويلاً يترّقبون هود و ينتطرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد و قست قلوب كثيرة منهم و إرتدّوا عن الدّين و أقبلوا على عبادة الأصنام و كان أشدّهم بأساً و أكثرهم كفراً و طغياناً قوماً منهم سكنوا أرض اليمن و بنوا فيها الأبنية و مدَّنوا فيها المدن وكان يقال لهم قوم عاد و كانوا ثلاث عشرة قبيلة و كلّهم ينتسبون الى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، و أمّا نسب هود عليه السلام فهو إبن عبد اللّه بن رياح بن جلوث بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوحِ، و أمّا قوم ثمود فكان نبيّهم صالح عليه السلام و سيأتي الكلام في

قصّة عاد و ثمود و كيّفية هلاكهم و عقابهم بوجهٍ البسط ان شاء اللّه تعالى.

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَآئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

إذ، متعلّقة، بصاعقة أي نزّلت الصّاعقة بهم إذ جاءتهم الرُّسل من بين أيديهم أي في زمانهم، و من خلفهم أي من تقَّدم زمانه عليهم و من تأخّر، معناه من أرسل اليهم و الى من قبلهم من الأمم، ألا تعبدوا إلاّ اللّه، موضع، أن، نصب بإسقاط الخافض أي بأن لا تعبدوا إلاّ اللّه، و المقصود أنّ الرُّسل دعوهم الى توحيد اللّه، قالوا، في جواب الرُّسل، لو شاء ربّنا، أي لو شاء ربّنا أن نعبده لأنزل، علينا ملائكة، و ذلك أنّكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فإنّا بما أرسلتم به، من الإقرار بالتّوحيد، كافرون جاحدون.

قيل هذا الكلام إستهزاءٌ منهم و قيل هذا إنكار بعد الإقرار لأنّهم أقرّوا بإرسال الرُّسل ثمّ أنكروا بعد ذلك.

و الحقّ أنّهم إعترفوا و أقرّوا بصحّة الرّسالة و أنّه لابدّ منها و أنكروا رسالة البشر و لذلك قالوا لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة و لم يقولوا لا نحتاج الى الرّسول، و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى، يبعث الأنبياء على ما يعلم من مصالح عباده و المصلحة تقتضي أن يكون الرّسول الى البشر من جنس البشر لقانون السّنخية فأنّ الجنس الى الجنس يميل و الملك ليس من جنس البشر و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ**(٢).

فقولهم: **لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَآئِكَةً** لا معنىٰ له وأنّما قالوا ذلك إستهزاءً.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

١- آل عمران = ١٦٤ ٢- الجُمعة = ٢

قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

ثمّ بيَّن اللّه تعالى أخبارهم و أعمالهم الّتي صارت باعثة على نزول الصّاعقة عليهم فقال: **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ.**

و ذلك لأنّ المخلوق لا ينبغي له أن يتّكبر لضعفه و عجزه و أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه ثمّ أشار اللّه أنّهم قالوا من أشدَّ منّا قوّةً، أي أنّهم إغترّوا بقوّتهم و صلابتهم ولم يعلموا أنّ خالقهم الّذي خلقهم و أعطاهم المال و القوّة، أشدَّ منهم قوّةً، فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و أنمّا قالوا ذلك لجهلهم و عنادهم و لذلك قال تعالى: **وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ.**

و المراد بالأيات ما أعطاهم اللّه من المال و القوّة و الجاه و غيرها من النِّعم و نحن نشير إلى قصّة عاد إجمالاً:

إعلم أنّ قوم عاد كانوا ثلاث عشرة قبيلة يبلغ عددهم ما شاء اللّه و كانوا ينتسبون إلى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح و كانت بلادهم ما بين عمّان و حضر موت و كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً و كانت بلادهم أخصب بلاد العرب و أكثرها ثماراً و أنهاراً و كانت أعمارهم طويلة يعيش كثير منهم أربع مائة سنة و أجسادهم عظيمة و كانوا أصحاب بطشٍ و شدّة كما حكى اللّه تعالى عنهم في الآية و كان نبيّهم هود بن عبد اللّه بن رباح بن جلوث بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وكان هود النّبي نشاء بينهم أميناً تقيّاً و كان من أوسطهم نسباً و أفضلهم حسباً و كان أشبه ولد أدم بأدم عليه السلام و لمّا أتمّ له من العمر أربعون سنة أوحى اللّه إليه بالنبوّة و بعثه بالرّسالة إلى قومه و قال له، أئت قومك و أدعهم إلى عبادتي و توحيدي فأنّ أجابوك ردتهم قوّةً و أموالاً، فإنطلق هود إلى مجمعهم و بينما هم مجتمعون إذ دخل عليهم هود عليه السلام و أخذ يدعوهم إلى توحيد اللّه و رفض الأصنام و ترك عبادتها فغضبوا عليه بأجمعهم و أعرضوا عنه و هم يقولون

له يا هود لقد كنت عندنا تقيّاً أميناً، قال هود أنّي رسول اللّه إليكم دعوا عبادة الأصنام فلمّا سمعوا منه ذلك إزدادوا عليه غيظاً و غضباً و أقبلوا عليه يبطشون و يشتمونه إلى أن نزل عليه جبرئيل يليه و أمره بإعادة الدّعوة و قال له أنّ اللّه يأمرك أن لا تفتر عن دعوتهم و قد وعدك أن يلقى في قلوبهم الرُّعب فلا يقدرون على ضربك بعد هذا فرجع هود إلى مجتمع قومه ثانياً يعظمهم و يبلّغهم رسالات ربّه و ينصح لهم و يهدّدهم قائلاً قد تجبّرتم في الأرض و أكثرتم الفساد فدعوا ذلك و أرجعوا إلى اللّه و توبوا إليه فإزدادوا عليه غضباً و همُّوا أن ينفضوا عليه و قالوا يا هود أترك هذا القول فأنّا إن بطشنا بك الثّانية نسيت الأولى إلى أن إجتمعوا و همُّوا به بقّوتهم و عددهم فصاح هود صيحةً كادت قلوبهم أن تنصدع منها و مرارتهم أن تنَّشق و أفئدتهم أن تنخلع حتّى سقطوا على وجوههم على الأرض صرعى كالأموات و ألقى اللّه في قلوبهم رعباً شديداً من هود إلى أن قاموا و إنصرفوا عنه و لم يزل هود يأتي بعدئذٍ مجامعهم و محافلهم ولم يأل جهداً في دعوتهم و تذكيرهم و وعظهم و مكث على ذلك سبع مائة و ستّين سنة و هم لا يزدادون إلاّ طغياناً و كفراً و إعراضاً عنه، إلى أن يئس هود من إيمانهم.

و قال لهم ياقوم قد تماديتم في الكفر كما تمادى قوم نوح و خليقٌ أن أدعوا عليكم كما دعا نوح على قومه قالوا يا هود أنّ ألهة قوم نوح ضعفاء و ألهتنا أقوياء و قد رأيت شدّة أجسامنا فإغتّم هود غمّاً شديداً فدعا عليهم و قال ياربّ قد بلَّغت رسالاتك فلم يزدادوا إلاّ كفراً و عتّواً إلى أن سأل ربّه هلاكهم فأوحى اللّه إليه أنّي أمسك عنهم المطر ثمّ أمر رمال البراري و الصّحاري أن تجتمع حتّى صارت أعظم من الجبال و هى المسمّاة بالأحقاف:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ**[١].

١- الأحقاف = ٢١

و سمع هود صوتاً يقول له يا هود قرَّ عيناً فأنّ لعاد منّا يوم سوء فرجع هود إلى قومه يكرّر عليهم الإنذار و يتمّ عليهم الحجّة و قال لهم ألا ترون هذه الرّمال كيف تجَّمعت أنّي أخاف أن تكون مأمورة بإلقاء العذاب عليكم و أنّ ربّي قد وعدني أن يهلككم فأخذوا يستهزؤن به و أقبلوا بجموعهم على نقل تلك الرّمال إلى البراري فلم تزد الرّمول إلاّ تجَّمعاً ثمّ كفَّ اللّه السّماء عنهم فلم تقطر عليهم سبع سنين حتّى أصابهم القحط الشّديد و ضجُّوا و أشرفوا على الهلاك و هود يناديهم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا**(١).

و هم لا يتَّعظون بكلامه و لا يبالون بتهديده لهم بالعذاب و لمّا كان اليوم الموعود من اللّه تعالى لإنزال العذاب على قوم هود أذن سبحانه و تعالى بإنطلاق الرّيح العقيم التّي هي تحت الأرض و قد زمّت فأوحى اللّه تعالى إلى خزنة تلك الرّيح أن يخرجوا منها مثل ثقب الخاتم ولم يأذن اللّه بشئٍ منها بالخروج إلاّ على قوم عاد و لمّا أذن اللّه لها بالخروج أوحى إلى هود بذلكَ و أمره ومن أمن به بالإعتزال عن المشركين و الخروج عن بلادهم فإعتزل هود و من معه كما أمرهم ربّهم و لمّا أحسَّ قوم هود بالرّيح و كان قد وعدهم هود بها أقبلوا عليه يقولون له ياهود أتخوَّفنا بالرّيح ثمّ جمعوا ذراريهم و أموالهم و أهاليهم في شعبٍ من تلك الشّعاب التّي فيها القصور الشّاهقة و أقاموا على أبوابها يردُّون الرّيح عنها و عمّا فيها فإشتَّدت الرياح حتّى قلعتهم عن الأرض و هبَّت بهم تحملهم إلى اللّجوء إلى تلك القصور ثمّ إزدادت الرّياح حتّى طمنت تلك القصور و الحصون و الأشجار و الزّروع و صارت كلّها رملاً دقيقاً تسفيها أقلّ ريحٍ و عصفت بها سبع ليالٍ و ثمانية أيّام حسوماً و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

لطف حقّ باتو مدارها كند   چونكه از حد بگذرد رسوا كند

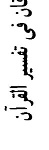
١- هُود = ٥٢

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ لَعَذابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزىٰ وَ هُمْ لاٰ يُنْصَرُونَ

و أنّما وصف الرّيح بكونها صرصراً لشدّة صوتها و إشتقاقها من الصَّرير يقال ريحٌ صرصر شديد هبوبها، و قيل يعني باردة، و قيل باردة ذات صوت، و قيل شديد السُّموم و أحسن الأقوال القول الأوّل و منه سمّي نهرٌ صرصر لصوت الماء الجاري فيه.

و قوله: **فِيٓ أَيَّامٍ نَحِساتٍ** يعني مشومات و النَّحس سبب الشّر كما أنّ السَّعد سبب الخير و قيل معناه أيّام ذات نحوس أي مشائيم العذاب و قد مرَّ الكلام في الرّيح و أنّها أهلكتهم بسبب دعاء هود عليهم ثمّ قال تعالى: **لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا**. **الخِزي** بكسر الخاء الهون و الذُّل قسَّم اللّه تعالى العذاب على قسمين، عذاب الدّنيا و عذاب الأخرة و جعل العذاب في الأخرة أشدَّ و أخزى منه في الدُّنيا.

و قوله تعالى: **وَ هُمْ لاٰ يُنْصَرُونَ** أي لا ناصر لهم يوم القيامة يدفع عنهم العذاب و بعد ذكره تعالى قصّة عاد و العذاب النّازل عليهم أشار إلى قصّة ثمود فقال.



وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمىٰ عَلَى ٱلْهُدىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ ٱلْعَذابِ ٱلْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

كان بنو ثمود بوادي القرى بين المدينة و الشّام و قد أرسل اللّه تعالى إليهم صالحاً و هو إبن ستّة عشر سنة يدعوهم إلى التّوحيد و رفض الأصنام و كانوا في العدد كالذّر و الحصى الغنى و الثّروة و طول أعمارهم أكثر ما يكون و كانوا يبنون في السّهول قصوراً عالية مزخرفة و ينحتون الجبال بيوتاً لأيّام شتائهم لأنّ

السُّقوف و الأبنية كانت قبل فناء أعمارهم و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا**(١) ولَقد قام صالح بين أظهرهُم يدعوهم إلى اللّه و ترك عبادة الأصنام و أظهر لهم بقدرة اللّه كرامات و آيات بيّنات تدُّل على نبُّوته إلى أن بلغ عمره مائة و عشرين سنة و هم لم يألوا جهداً في تكذيبه و طرده و إيذائه و نسبة الجنون و السِّحر إليه و يقولون له كنّا نرجوا منك الخير و قد يئسنا منك ببدعتك ديناً جديداً و أنت تأكل و تشرب مثلنا فكيف صرت أولى منّا بالنُّبوة ثمّ أصاب القوم قحط و أحتبس عليهم المطر فكانوا يقولون لصالح ما أصابنا هذا القحط و الجوع إلاّ من شؤمك و لّما طالت المشاجرات و المخاصمات بينه و بينهم و لم يؤمن به أحد منهم إتَّفقت كلمتهم على أن يهجموا عليه في داره بياتاً و يقتلوه ثمّ ينكروا ذلك فلّما أن كان اللّيل قام جماعة منهم و دخلوا على صالح في ظلمة اللّيل ليقتلوه فأنزل اللّه عليه ملائكة من السّماء رموا كلّ واحدٍ من أولئك الكفرة بحجرٍ فمات بساعته حتّى قتلوهم على آخرهم و قد مرَّ الكلام في قوم ثمود و عاد سابقاً في سورة الأحقاف و هود و غيرهما و سيأتي الكلام في قصتّهما في المستقبل أيضاً و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية قوله تعالىٰ: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ** بواسطة صالح النَّبي، فأستحبّوا العمى على الهدى، أي إختاروا الكفر و الضّلال على طريق الحَّق بعبادتهم و خضوعهم للأصنام و إعراضهم عن اللّه الّذي خلقهم و تركهم عبوديّته و إهتمامهم بقتل صالح كما مرَّ.

فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ بإختيارهم من إنكارهم التّوحيد و متابعتهم الكفر، و أمّا صاعقة العذاب الهون، فقد أشار اللّه تعالى إليها حيث قال: **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**(٢) و قد

١- الأعراف = ٧۴
٢- الأعراف = ٧٨

فسرّنا الآية هُناك فلا نعيده حذراً من الإطالة و فى قوله: **بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ** إشارة إلى أنّ العذاب النازل عيلهم كان معلولاً و مسَّبباً عن أعمالهم و إنكارهم الحَّق و إستمرارهم على الكفر **مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبيدِ**.

وَ نَجَّيْنَا ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ

و هم صالح النّبي و من آمن معه روي أنّه لما كان موعد العذاب من الليلة الرّابعة و حلَّ نصف اللّيل منها و كان صالح قد خرج بمن معه من المؤمنين من بين أظهرهم نزل على القوم جبرئيل بأمر الملك الجليل و صرخ بهم صرخةً خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم و هلكوا بأجمعهم بأقلّ من طرفة عين ولم يبق متنفّس لا منهم و لا من مواشيهم و أنعامهم و أصبحوا في ديارهم موتى هالكين ثمّ أرسل اللّه عليهم بعد الهلاك ناراً من السّماء فأحرقتهم أجمعين ولم يترك لهم أثراً و ذلك جزاء الظّالمين.

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰآءُ ٱللّٰهِ إِلَى ٱلنّٰارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

الجمهور على قراءة الياء في يحشر، و منهم من قرأ بِالنُّون، فعلى قراءة النُّون هو من الأخبار من اللّه نفسه و على قراءة الياء المضمومة فهو من الأخبار عمّا سيقع و هو يوم البعث و على التّقديرين أخبر اللّه تعالى عن سوء عاقبة الكفّار و أنّ مأواهم النّار، و هم يوزعون، أي يمنعون من التّفرق و التّشتت بل بأجمعهم يدخلون النّار.



حَتّٰىٓ إِذٰا مٰا جٰآءُوهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

الضّمير في جاؤها، راجع على النّار و المعنى حتّى إذا جاؤا هؤلاء الكفّار النّار شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بأعمالهم الّتي عملوا بها في الدّنيا فلا يمكن لهم الإنكار.

قال السّدي و الفرّاء و عبيد اللّه بن أبي جعفر، المراد بالجلود في الآية الفروج على سبيل الكناية و الجمهور حملوا الجلود على ظاهرها و هو الحّق.

وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اَللّٰهُ اَلَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

أي قال الكفّار لجلودهم و أبصارهم و أسماعهم لم شهدتم علينا، و إنّما قالوا ذلك لأنّ شهادة الأعضاء على صاحبها خلاف الإنتظار منها و لم يعلموا أنّ الأعضاء لا تقدر على مخالفة الخالق و لذلك لماّ قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّه الّذي نطق كلّ شيءٍ فلم نقدر على عدم الجواب، و هو خلقكم أوّل مرّةٍ و إليه ترجعون، قيل هو إخبار منه تعالى و خطابٌ لخلقه بأنّه الّذي خلقهم في الإبتداء و يحتمل أن يكون من تتّمة قول الجلود أي أنطقنا اللّه الّذي أنطق كلّ شيءٍ و هو خلقكم أيضاً و إليه ترجعون و هذا الوجه أقوى عندي ممّا ذكروه إذ لو كان المراد منه إخبار اللّه تعالى و اللّه خلقكم أوّل مرّةٍ و لم يقل ذلك بل قال و هو خلقكم.

و الظّاهر أنّ **الواو** للعطف و مرجع الضّمير، اللّه الّذي أنطق كلّ شيءٍ أيالّذي خلقكم أوّل مرّةٍ و إذا كان هو الخالق لكم فهو القادر على الإنطاق أيضاً هذا ما خطر ببالي و اللّه أعلم.

إن قلت الشُّهود في الآية السَّمع و البصر و الجلود و المخاطب هو الجلود فقط حيث قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ولم يقولوا لسمعهم و أبصارهم و جلودهم جميعاً و بعبارةٍ أخرى المخاطب في الآية بعض الشُّهود لا جميعها.

قلت لعلَّ المراد بالجلود الأجساد و الأبدان و السَّمع و البصر داخلان فيها إذ الجلد بما هو جلد لا ذنب له و لا شهادة و أنّما الشّهادة لما يحتوي عليه الجلد و هو الأعضاء و على هذا فالمعنى قالوا لأجسادهم هى تشمل السَّمع و البصر، و

يحتمل أن يكون المخاطب الجلود لأنّها بعض الشُّهود و حكم الأمثال واحد ففي الحقيقة قالوا لجميعها لم شهدتم علينا و اللّه أعلم.

و أمّا إجراء حكم ذوي العقول عليها حيث قال تعالى: **قٰالُوٓا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ** و لم يقل قالت مثلاً، لأنّها لمّا خاطبت و خوطبت أجريت مجرى من يعقل.

وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لآ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمّٰا تَعْمَلُونَ

يحتمل أن يكون هذا، من قول اللّه تعالىٰ أي أنّ اللّه قال لهم أي للكفّار ما كنتم تستترون، و يحتمل أن يكون هذا من قول الجوارح و على التّقديرين فالمعنى واحد، فأن كان من قول اللّه فالمعنى أنّ اللّه يقول لهم يوم القيامة بعد شهادة الجوارح عليهم و إعتراضهم عليها بالشّهادة، **مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ** أي تخفون أعمالكم عن الجوارح.

و قيل لم تكونوا في دار الدّنيا تستخفون عن معاصي اللّه بتركه و ظننتم أنّ اللّه لا علم له بما تعملون، و إن كان من قول الجوارح فالمعنى أيضاً كذلك فرق فيه على القولين.

وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ ٱلْخٰاسِرِينَ

و المعنىٰ أنّ ظنّكم بربّكم أنّه لا يعلم كثيراً ممّا تعملون، **أَرْدٰيكُمْ** أي أهلكم و أوقعكم في العذاب فأصبحتم من الخاسرين يوم القيامة في نار جهنّم، و حاصل الكلام أنّ اللّه لا يخفى عليه شيءٌ من أفعال العباد و أقوالهم لأنّه قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً و من ظنّ به غير ذلك فقد خسر خسراناً مبيناً.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوًى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ

الإستعتاب طلب الرّضا، و المعنى فأن يصبروا هؤلاء الكفّار فالنّار مثوى لهم و أن يستعتبوا أي طلبوا الرّضا لم ينفعهم ذلك بل لابدّ لهم من النّار، و قيل معنى الكلام إن يصبروا أو يجزعوا فالنّار مثوىً لهم.

و قوله: **فَمٰا هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ** أي ليس بمرّضيٍ عنهم لأنّ السّخط من اللّه تعالى بكفرهم قد لزمهم و زال التّكليف عنهم فليس لهم طريق إلى الإعتاب و الى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **اِصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوٓا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوٰآءٌ عَلَيْكُمْ**[1].

و إعلم أنّ قراءة الجمهور فتح الياء في يستعتبون، و فتحها في المعتبين و قرأ عبيد بن عمر و أبو العالية، و أن يستعتبوا، بضّم الياء بصيغة المجهول و فتح التّاء و كسر التّاء في المعتبين، و علهيا فالمعنى إن أقالهم اللّه و ردّهم إلى الدّنيا لم يعملوا بطاعته أيضاً، لكن هذه القراءة لا يعتمد عليها.

وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰآءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ

التقييض، إحواج بعض العباد إلى بعضٍ كحاجة الرّجل إلى المرأة و بالعكس و كحاجة الفقير إلى الغنّي و بالعكس و قيل التقييض المماثلة، و المقايضة المقايسة.

و قال بعضهم التقيّض الإبدال و منه المقايضة يقال قايضت الرّجل مقايضة أي عاوضته بمتاعٍ و هما قيّضان كما نقول بيّعان و قيل التقييض التّسليط، التهيّؤا.

قال النّقاش، و قيّضنا لهم قرناء، أي هيّأنا لهم قرناء، و قال الأخر سلّطنا عليهم القرناء، و **القُرناء** بضّم القاف و فتح الرّاء جمع قرين و هو الجليس و بالفارسيّة (هَم نشين) و المراد بالقرناء، القرناء من الجنّ و الشّياطين و الإنس أيضاً و حاصل الكلام في معنى الآية يقول اللّه تعالى أنّا قيّضنا، وهيّأنا، لهم، أي لهؤلاء الكفّار،

١- الطّور = ١٦

قرناء من الجنّ و الإنس و الشّياطين، فزيّنوا، أي القرناء، لهم، أي للكفّار ما بين أيديهم، من الأعمال و الأفعال الّتي يعملون بها في دار الدّنيا، و ما خلفهم، من أمر الأخرة و ذلك بدعاءهم الى أنّه لا بعث و لا جزاء و قيل، ما بين أيديهم، من أمر الأخرة فقط فأنّهم قالوا لا جنّة و لا نار و لا بعث و لا حساب، و ما خلفهم، من أمر الدُّنيا فزّينوا لهم اللّذات و جمع الأموال، و حقّ عليهم القول، بتصييرهم الى العذاب و العقاب و الخلود في النّار، في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ و الإنس، أي حقّ على هؤلاء الكفّار و على الأمم السّالفة من الجنّ و الإنس، أنّهم، أي هؤلاء الكفّار و الأمم الماضية كلّهم كانوا من الخاسرين هكذا قيل في معنى الآية.

و نحن نقول معنى الآية لا يحتاج الى هذه التكلّفات الّتي توجب الإختلال في فهمه.

فأنّ اللّه تعالى يقول أنّ للكفّار قرناء و أمثال من شياطين الجنّ و الإنس في دار الدُّنيا يزّينون أعمال الكفّار في أعينهم و عقائدهم الباطلة بالنّسبة الى ما خلفهم و هو الأخرة بإنكار البعث و الحساب و العقاب كما كان الأمر على هذا المنوال في الأمم السّالفة و لذلك حقّ القول و هو كلمة العذاب عليهم أسلافهم لأنّهم كانوا من الخاسرين و على هذا فالّذي حصل لنا من الآية هو الإجتناب عن قرناء السُّوء في دار الدُّنيا ففي الآية إرشادٌ من اللّه تعالى لمن كان له عقل و فهمٌ و أنّ الإنسان ينبغي أن لا يغتّر بعمله و لا يجالس قرناء السُّوء يعتني بوساوسهم الّتي توجب البعد عن الحقّ و القرب الى الباطل فأنّ ذلك هو الخسران المبين نعوذ باللّه منه.

■

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ وَ ٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللّٰهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِاٰيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِي ٱلْاٰخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَآ إِلَى ٱللّٰهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَ لَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَ لَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَ مَا يُلَقَّيْهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلَقَّيْهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَ مِنْ اٰيَاتِهِ ٱللَّيْلُ

وَ ٱلنَّهٰارُ وَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ لاٰ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لاٰ لِلْقَمَرِ وَ ٱسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَالَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْئَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خٰاشِعَةً فَإِذٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا ٱلْمٰآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ ٱلَّذيٓ أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتٰىٓ إِنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ يُلْحِدُونَ فيٓ اٰيٰاتِنٰا لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنٰآ أَفَمَنْ يُلْقٰى فِي ٱلنّٰارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتيٓ اٰمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ ٱعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰآءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزيزٌ ﴿٤١﴾ لاٰ يَأْتيهِ ٱلْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ ﴿٤٢﴾ مٰا يُقٰالُ لَكَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقٰابٍ أَليمٍ ﴿٤٣﴾ وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْاٰنًا أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْلاٰ فُصِّلَتْ اٰيٰاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذينَ اٰمَنُوا هُدًى وَ شِفٰآءٌ وَ ٱلَّذينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فيٓ اٰذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰٓئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعيدٍ ﴿٤٤﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فيهِ وَ لَوْلاٰ

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿۴۵﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿۴۶﴾

◀ اللّغة

ٱلْغَوْا: اللَّغو من الكلام ما لا يعتدّ به و هو الّذي يورد لا عن رويّةٍ و فكرٍ.

أَسْوَأَ: أفعل التَّفضيل من السُّوء و هو القبح.

حَمِيمٌ: بفتح الحاء القريب الصَّديق.

حَظٍّ: الحظّ النَّصيب.

يَنْزَغَنَّكَ: يقال نزغ ينزغ نزغاً بين رجلين إذا دعاه إلى خلاف الحقّ و قيل معناه الإغواء و الوسوسة.

لا يَسْـَٔمُونَ: السّأم الملال أي لا يفترون و لا يملُّون.

خَاشِعَةً: الخشوع الخضوع.

ٱهْتَزَّتْ: الإهتزاز الحركة إلى العلو.

رَبَتْ: أي إرتفعت.

يُلْحِدُونَ: الإلحاد الميل عن الحقّ و الإعراض عنه.

لَقُضِيَ: القضاء الحكم.

◀ الإعراب

ٱلْغَوْا فِيهِ بفتح الغَين من لغي يلغى و بضمّها من لغا يلغو و المعنى سواء ٱلنَّارُ هو بدلٌ من جزاء أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ و ما بعده الخبر، و جزاء مصدر

أي جوزوا جزاء و يجوز أن يكون حالاً **نُزُلًا** مصدر في موضع الحال من الهاء المحذوفة أو من ما و قيل هو جمع نازل مثل صابر و صبر فيكون حالاً من الواو في تدعون أو من الكاف و الميم في، لكم، **كَأَنَّهُ وَلِيٌّ** هو حالٌ من، الّذي بصلّته، و الّذي مبتدأ، و إذا للمفاجأة و هى خبر المبتدأ، و قيل هو خبر المبتدأ و، إذا، ظرف لمعنى التّشبيه و الظّرف يتقدّم على العامل المعنى **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** خبر (إن) محذوف أي معاندون أو هالكون **ءَأَعْجَمِيٌّ** على الإستفهام و يقرأ بهمزةٍ واحدة **عَمًى** مصدر عمى مثل صدىً و صدى **فَلِنَفْسِهِ** خبر مبتدأ محذوف أي فهو لنفسه **أَسَآءَ** فعل ماضٍ و المصدر منه إساءة.

◄ التّفسير

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ وَ ٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

حكى اللّه تعالى عن الكفّار أنّه قال بعضهم لبعضٍ لا تسمعوا لهذا القرأن و ألغو فيه لعلّكم تغلبون أي لكي تغلبون.

إختلف المفسّرون في قوله: **وٱلْغَوْا** بعد إتفاقهم على أنّه مشتّق من اللّغو الكلام الّذي لا فائدة فيه و لا يعتّد به، فمنهم من قال و ألغوا فيه بالمكاء و التّصفيق والتّخليط في المنطق حتى يصير لغواً، قاله مجاهد.

و قال إبن عبّاس قال أبو جهل إذا قَرأ محمّد فصيحوا في وجهه حتىٰ لا يدري ما يقول.

و قال الضّحاك معناه أكثروا الكلام ليتّخلط عليه ما يقول و قال أبو العالية قعوا فيه و عيّبوه، و قيل انّهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرأن، و غرضهم من هذا الكلام أنّ محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يستميل القلوب بقراءة القرأن.

و قوله تعالىٰ: **لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** أي لكي تغلبون فأنّ التّرجي في حقّ اللّه تعالى

لا معنى له و عليه إتّفاق المفسّرين، هذا كلّه بناءً على الفتح، في الغَين كما عليه الجمهور و هو على هذا من لغي يلغي، و قرأ بعضهم بضمّ الغين من لغى يلغوا و على هذه القراءة معناه عارضوه بكلامٍ لا يفهم.

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقّل تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل و هذا هو الفرق بين الذّوق و الأكل ثمّ أنّ الذَّوق يختصّ بالمحسوسات كما أنّ الأكل أيضاً كذلك فإذا أستعمل في المعقولات فهو مجاز كما يقال فلان لم يذق حلاوة العلم مثلاً و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ العذاب و أن كان محسوساً إلاّ أنّه لا يدخل في الطّعوم فأنّ الطَّعم لايدرك إلاّ بالفم، و كيف كان فقد أختير في القرأن لفظ الذَّوق في العذاب في أكثر الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَ لَا شَرَابًا**[٥] والأيات كثيرة.

و يستعمل في الرّحمة أيضاً مثل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّآءَ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا**[٧].

١- الدُّخان = ٤٩
٢- أل عمران = ١٨١
٣- الأنعام = ٣٠
٤- الأعراف = ٣٩
٥- النّبأ = ٢٤
٦- يونس = ٢١
٧- الرّوم = ٢٦

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ إِذآ أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**[1].

و غيرها من الأيات إلاّ أنّ إستعمال اللّفظ في العذاب أكثر منه في الرَّحمة.

فقوله تعالى: **فَلَنُذِيقَنَّ** مؤكّداً بالنُّون الثّقيلة يدلّ على أنّ العذاب واقعٌ عليهم قطعاً لأنّهم كفروا باللّه و جحدوا آياته.

وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ من المعاصي، و قيل أراد بذلك الكبائر من المعاصي دون الصغائر.

أقول يظهر من الآية أنّ الجزاء و العقاب يوم القيامة على اسوا الأعمال، مثلاً النَّظر الى الأجنَّبية بقصد الشَّهوة حرام و معصية، و تقبيلها أيضاً حرام و معصية، و الزّنا بها أيضاً معصية، و قتلها بغير حقٍّ معصية، فالجزاء يوم القيامة على القتل لأنّه في المثال أسوء الأعمال و أكبر المعاصي، و هكذا سبَّ المؤمن فسوقٌ فهو معصية، و ضرب المؤمن ظلماً معصية و قتل المؤمن ظلماً معصية فالعقاب على القتل الّذي هو أسوء الأعمال و هكذا فأنّ كلّ الصَّيد في جوف الفراء.

ذٰلِكَ جَزٰآءُ أَعْدٰآءِ ٱللّٰهِ ٱلنّٰارُ لَهُمْ فِيهٰا دٰارُ ٱلْخُلْدِ جَزٰآءً بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ

ذلك، إشارة الى ما تقدَّم من الوعيد و قوله: **ٱلنّٰارُ** بدَل من، ذلك و لذلك رفعت و المعنى ذلك الّذي أشرنا اليه من الوعيد جزاء أعداء اللّه ثمّ بيَّنه بقوله: **ٱلنّٰارُ**.

أقول الحقّ أنّ النّار خبر مبتدأ محذوف و تقدير الكلام هو النّار فكأنّه قيل ما جزاء أعداء اللّه فقال هو النّار، إلاّ أنّ المبتدأ محذوف لدلالة الكلام عليه، و يحتمل أن تكون النّار مبتدأ، و لهم فيها دار الخلد خبره و المعنى النّار لهؤلاء الكفّار في جهنّم الّتي هي دار الخلد لهم جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون، و المراد بالأيات

١- الرّوم = ٣٣

الأيات القرآنية الّتي يعبّر عنها بالتّشريعيات أو الأعمّ منها و التّكوينيات و في رأسها النّبي و معجزاته و من المعلوم أنّ إنكار الأيات في الحقيقة إنكار اللّه لأنّ إنكار الأثر إنكار المؤثّر و قال الشّاعر:

و في كلّ شيءٍ له آيةٌ تدُلّ على أنّه واحدُ

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ

ذكر المفسّرون أنّ المراد بالّذين أضّلانا، إبليس و قابيل، و الأوّل من الجنّ و الثّاني من الإنس و أنّما خصَّ الكلام بهما لأنّهما سنَّا الكفر و القتل بغير حقٍّ في أولاد أدم و قال بعضهم هما إبليس الأبالسة و هو رأس الشّياطين و إبن أدم الذّي قتل أخاه و هو قابيل حيث قتل هابيل.

أقول ما ذكروه لا بأس به إذ لا شكّ أنّهما سنَّا الكفر و القتل فهما من أظهر مصاديق الآية إلاّ أنّ تخصيص الكلام و تعيين المراد بهما لا دليل عليه فأنّ شياطين الجنّ و الإنس موجودان في كلّ عصرٍ و زمانٍ فحمل الآية على معناها العامّ الشّامل لهما و لغيرهما من أتباعهما إلى يوم القيامة أولى.

و الدّليل على ما ذكرناه من عموم المعنى:

قال اللّه تعالى: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ**(١).

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ، مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَ ٱلنَّاسِ**(٢).

و إذا كان كذلك فالشّياطين في كلّ زمانٍ على صنفين، جنّيٌ و هو الّذي لا يرى بالعين و إنسّيٌ و هو الّذي يرى بها لأنّه من أولاد أدم، إلاّ أنّ الثّاني من عمّال الأوّل

١- الأنعام = ١١٢ ٢- النّاس = ٦ / ٥

و ليس شيطاناً برأسه فالتَّقسيم بإعتبار الظّهور و الوسوسة لا بإعتبار الحقيقة و الماهيّة ضرورة أنّ الشّيطان في الحقيقة واحدٌ لا ثاني له و ما سواه من أعوانه و أنصاره أو ذريته و كيف كان لا شكّ أنّ الشّيطان أضَّلهم و أوقعهم في العذاب و لذلك قالوا أرنا الّذين أضَّلانا إلى قولهم نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين أي في الدَّرك الأسفل من النّار.

و أنّما قالوا ذلك بعد الموت و رؤية العذاب و هذا الكلام لا فائدة فيه بعدهما و أنّما حكى اللّه تعالى عنهم ليعتبر به من بعدهم ممّن سلك مسلكهم و أنّما قلنا لا فائدة فيه لأنّ للشّيطان أن يقول في جوابهم أنا دعوتكم إلى عبادة الأصنام أو مطلق المعاصي و الأنبياء دعوكم إلى التَّوحيد و ترك المحرّمات و اللّه تعالى قد أعطاكم العقل في الدُّنيا و العقل يحكم بأنّ متابعة الشّيطان توجب خسران الدّنيا و الأخرة مضافاً إلى الأيات التّي تؤيّد حكم العقل.

و متابعة الأنبياء توجب سعادة الدّارين و حلاوة النشأتين فلم إخترتم مسلك الشّيطان و تركتم مسلك الأنبياء و إذا كان كذلك فأنتم مقصّرون و العجب أنّ البشر بسوء سريرته و حبّه للدُّنيا و زخارفها يعصي اللّه و يطيع الشّيطان ثمّ يدّعي أنّه أضلّنا و لا ذنب لنا مع أنّ الشّيطان لم يجبر أحداً على معصية اللّه و ترك طاعته و أنّما تبع الشّيطان و عصى اللّه بإختياره و إرادته مع علمه بأنّ الشّيطان ضالٌ و مضلّ أعاذنا اللّه منه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن المؤمنين الّذي إستقاموا على إيمانهم قولاً و فعلاً و إعتقاداً بأنّ الملائكة تتنزّل عليهم على لسان الأنبياء و الأيات و يقولون لهم لا تخافوا من الموت و ما بعده من الحساب و لا تحزنوا و أبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون بها من قبل اللّه و أخبركم بها أنبياء.

فقوله تعالى: **قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ** إشارة إلى الإقرار باللّسان بأن يقول أشهد أن لا إله إلاّ اللّه و قوله: **ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا** إشارة إلى الإعتقاد الرّاسخ و الثّبات عليه و الإستمرار به عملاً فأنّ الإستقامة الثُّبات و عدم الإضطراب في الإعتقاد و يظهر من الآية أنّ مجرّد القول باللّسان لايكفي فأنّ المنافق يقرّ و يعترف باللّسان، ألا ترى أنّ أباسفيان و معاوية و يزيد و أمثالهم أقرُّوا بالتّوحيد و النبوّة لساناً و أنكروهما قلباً و إعتقاداً فلما وجدوا أعواناً و أنصاراً أظهروا ما كان في قلوبهم و فعلوا ما فعلوا فالمراد بالإستقامة الثُّبات على الإيمان و الإقرار اللّساني إعتقاداً و عملاً و بعبارةٍ أخرى حفظ الإيمان صعبٌ عسير و أمّا إظهاره فلا.

و الحاصل أنّ بشارة الملائكة بدخول الجنّة و عدم الخوف و الحزن في الدّارين تتوقّف على أمرين:

أحدهما: الإيمان الّذي يتحقّق بالإقرار و الإعتقاد.

الثّاني: الإستقامة و الثُّبات عليه قولاً و فعلاً في طاعة اللّه.

و قال بعضهم المراد بالإستقامة الإستمرار عليه بأن إستمرّوا على ما توجبه الرُّبوبية و أنت ترى أنّ المآل واحدٌ و اللّفظ مختلف و ذلك لأنّ الثُّبات لا يحصل إلاّ بالإستمرار و يظهر من بعض الأخبار أنّ المراد بالإستقامة الموت على الإيمان لا الإستمرار إلى حين الموت فمن مات على الإيمان فقد إستقام عليه.

كما روي في مجمع البيان في هذه الآية عن أنس، قال: قرأ علينا رسول اللّه هذه الآية ثمّ قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: قد قالها ناسٌ ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتّى يموت فهو ممّن إستقام عليها إنتهى.

و يظهر من أخبار أهل البيت أنّ المراد بالإستقامة الولاية

فقد روي عن محمّد بن الفضيل قال: سئلت أبا الحسن الرّضا عليه السلام عن الإستقامة قال عليه السلام: هي و اللّه ما أنتم عليه إنتهى.

و في تفسير أهل البيت عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام



قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا قال عليه السلام: هي و اللّه ما أنتم عليه إنتهى.

و عن أصول الكافي بأسناده عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: إستقاموا على الأئمّة واحداً بعد واحدٍ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنّة التّي كنتم توعدون إنتهى.

إن قلت ليس في الآية ذكرٌ من الولاية ولو كان المراد بالإستقامة الولاية و الإستقامة على الأئمّة واحداً بعد واحدٍ فينبغي أن يذكر فيها.

قلت ليس في الآية ذكرٌ من النّبوة أيضاً فلو كانت الآية على ظاهرها فمن قال بالتّوحيد و أنكر النّبوة يدخل الجنَّة و لا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم، و أنّما قلنا ذلك لأنّ الآية تقول أنّ الّذين قالوا ربّنا اللّه، و هو قال به و إستقام عليه إلى أخر عمره و أمّا النّبوة فليست داخلة في الآية و إلاّ قال ربّنا اللّه و إعتقد النّبوة و لم يقل ذلك و قد إتّفق المسلمون على أنّ منكر النّبوة كافرٌ و إن أقّر بالتّوحيد و لذلك حكموا بإرتداد من أنكر النّبي و إن أقّر بالتّوحيد و ظاهر الآية يدُّل على عدم إشتراط النّبوة و مجرّد التّوحيد يكفي و ليس كذلك، فما تقول في دخول النّبوة في الآية نقول به في دخول الولاية فيها، و حلُّ الإشكال أنّ القائل بالتّوحيد لابدّ له من القول بالنبوّة أيضاً لأنّ معنى قوله: **رَبُّنَا ٱللَّهُ** إطاعة الرَّب لا مجرّد اللّفظ و إطاعة الرّب لا تتحقّق إلاّ بإطاعة الرّسول الّذي أرسله اللّه إلى خلقه و لذلك قرنت شهادة النّبوة بشهادة التّوحيد و بهما معاً يحكم بإسلام الكافر لا بأحدهما فلو قال الكافر أشهد أن لا إله إلاّ اللّه ولم يقل أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه لم يحكم بإسلامه بل نقول أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يتضمّن التّوحيد و أشهد أن لا إله إلاّ اللّه لا يتّضمن النّبوة فثبت أنّ القائل بالتّوحيد بقوله: **رَبُّنَا ٱللَّهُ** لابدّ له من القول

بالنّبوة أيضاً فلا إحتياج إلى ذكر النّبوة في الآية و لذلك قال تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ** ولم يذكر النّبوة لعدم الإحتياج إليها في اللّفظ و مع ذلك دلّت الأيات الكثيرة على أنّ إطاعة الرّسول إطاعة اللّه و بالعكس.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ ٱلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ ٱللّٰهَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزًا عَظِيمًا**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ**(۵) والأيات كثيرة.

و أنت ترى أنّ اللّه تعالى قرن طاعة الرّسول بطاعته و بالعكس فلا طاعة للّه إلاّ بطاعة رسوله و لا طاعة للرّسول إلاّ بطاعة اللّه و محصّل الكلام أنّ طاعة اللّه طاعة رسوله و طاعة الرّسول طاعة اللّه و على هذا فقول القائل ربّنا اللّه مع إنكار الرّسالة لا معنى له و وجوده كالعدم.

إذا عرفت هذا فنقول، إطاعة الرَّسول لا تتّحقق إلاّ بمتابعته قولاً و فعلاً لأنّه ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى، فمن قال بلسانه أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه و خالفه في قوله و فعله فلم يطعه و من لم يطعه فقد لم يطع اللّه بالبيان المتّقدم و دلالة الأيات، و قد ثبت أنّ الرَّسول نصّ على خلفاءه واحداً بعد واحدٍ أوَّلهم علّي بن أبي طالب و أخرهم حجّة بن الحسن العسكري في غدير خمّ و غيره و

١- النّساء = ١٣
٢- النّساء = ۶٩
٣- النّساء = ٨٠
۴- الأحزاب = ٧١
۵- النّساء = ۶۴

قد تظافرت الرّوايات من العامّة و الخاصّة بذلك في كتب الفريقين مثل قوله: **من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه الخ.**

و قوله: **ياعلّي من أطاعك فقد أطاعني و من عصاك فقد عصاني و من أبغضك فقد أبغضني و من أنكرك فقد أنكرني، ياعلّي حربك حربي و سملك سلمي... .**

و قد صرح رسول اللّه في خطبة الغدير بأسماء خلفاءه بعد علّي عليه السلام واحداً بعد واحدٍ و لا نحتاج إلى ذكر الأخبار الواردة في المقام لأنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث و قد إستوفينا الكلام في هذا الباب في شرحنا على نهج البلاغة و لا سيّما في الخطبة الشقشقيّة أن أردت الوقوف على ما ذكرناه هناك من الأيات و الأخبار من العامّة و الخاصّة و الدّلائل العقليّة فعليك بمراجعته[١].

و إذا كان الأمر على هذا المنوال فمن لا يقول بالإمامة لا يقول بالنّبوة و من لا يقول بالنّبوة لا يقول بالتّوحيد فمن لا يقول بالإمامة لا يقول بالتّوحيد المطلوب فتحقّق ممّا ذكرناه أنّ قوله تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا** معناه قالوا ربّنا اللّه و محمّداً رسول اللّه و علّيٌ و أولاده الأئمّة واحداً بعد واحدٍ أولياء اللّه **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ** إلى أخر الآية و نحن نعتقد بذلك و عليه نحيا و نموت إن شاء اللّه.

و حيث إنجّر الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بالإشارة إلى ما ذكره الزّمخشري بالكشّاف لتعرف أهل الإيمان و الإنصاف قال في تفسير الآية ما لفظه:

ثمّ، للتّراخي أي تراخي الإستقامة عن الإقرار في المرتبة و فضلها عليه لأنّ الإستقامة لها الشّأن كلّه و نحوه قوله: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**[٢] و المعنى ثمّ أثبتوا على الإقرار و مقتضياته.

و عن أبي بكر الصّديق رضي اللّه عنه إستقاموا فعلاً كما إستقاموا قولاً و عنه أنّه

١- مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة.　　٢- الحجرات = ١٥

تلاها ثمّ قال ما تقولون فيها، قالوا لم يذنبوا، قال حملتم الأمر على أشدَّه.قالوا فما تقول قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان.

و عن عمر رضي اللّه عنه إستقاموا على الطّريقة و لم يروغوا روغان الثّعالب، و عن عثمان رضي اللّه عنه، أخلصوا العمل و عن علّي رضي الله عنه أدُّوا الفرائض.

و قال سفيان بن عبد اللّه الثَّقفي رضي الله عنه قلت يا رسول اللّه أخبرني بأمرٍ أعتصم به قال صلى الله عليه وآله وسلم قل ربّي اللّه ثمّ أستقم، قال فقلت ما أخوف ما تخاف علّيّ فأخذ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بلسان نفسه فقال هذا إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله: ثمّ للتّراخي لأنّ الإستقامة لها الشّأن كلّه فهو حقّ لا كلام فيه و هكذا قوله: ثمّ أثبتوا على الإقرار و مقتضياته، فأنّه أيضاً حقّ لا خلاف فيه، و لكنّه لم يبيّن معنى المراد بالمقتضيات فأن كان المراد بمقتضيات الإقرار ما ذكرناه من النّبوة و الولاية و متابعة النّبي قولاً و فعلاً فهو حقّ و أن كان غيره فكان عليه أن يبيّنه.

و أمّا ما نقله عن أبى‌بكر أنّه قال إستقاموا فعلاًكما إستقاموا قولاً، فنحن أيضاً نقول به إلاّ أنّا نقول إستقاموا على فعل النّبي كما إستقاموا على قوله أي عملوا بما عمل النّبي لا أنّهم إستقاموا على أفعالهم و أقوالهم كما شاءوا و أرادوا.

و أمّا نقله عنه أنّه تلاها، إلى أن قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان، فهذا كلامٌ باطل لا معنى له.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الآية لم تنزّل في المشركين بل نزّلت في جميع المؤمنين، و على فرض نزولها فيهم أيضاً لا معنى لكلام أبى‌بكر، لأنّ المشرك لو آمن بـاللّه و لم يرجع إلى عبادة الأوثان و أرتكب المعاصي من قتل النّفس و الزّنا و شرب الخمر و غيرها من المحرّمات و لم يأت بألواجبات يدخل النّار بلاكلام و يحرم عليه الجنَّة و لو لم يرجع إلى عبادة الأوثان و الحاصل أنّ دخول النّار لا يختصّ بالكافر العابد للوثن و أمّا على قول أبى‌بكر يلزم أن يكون أبو سفيان و معاوية و يزيد بن

معاوية و عبد الملك و الحجّاج بن يوسف الثّقفي كلّهم من مصاديق المؤمنين الّذين إستقاموا على إيمانهم لأنّهم لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان أظنّ عاقلاً يقول به فضلاً عن أبى بكر الّذي هو أفضل النّاس بعد النّبي على مذهب صاحب الكشّاف و غيره من العامّة. و هل يقول أفضل النّاس ما لا يقوله أجهلهم.

و هكذا ما نقله عن عمر و هو أفضل و أعلم بعد أبي بكر عن غيره بزعم الزّمخشري و أنّ كلامه أحسن من كلام أبي بكر لأنّ الإسقامة على الطّريقة لها وجهٌ وجيه، و أمّا نقله عن عثمان أنّه قال: أخلصوا العمل، ففيه أنّ الإستقامة على الأمر الثّبات عليه و الإستمرار فيه، و أمّا الإخلاص في العمل فهو أمرٌ قلّبيٌ لا ربط له بما نحن فيه.

و أمّا نقله عن علّي في آخر كلامه أنّه قال أدُّوا الفرائض، فهو بهتانٌ عليه و مع ذلك لا يشبه بكلام علّي أصلاً و العاقل لا يقول أنّ إداء الفرائض فقط هو الإستقامة، فضلاً عن أميرالمؤمنين و مع ذلك أهل البيت أدرى بما في البيت فكلامه عليه‌السلام كلام الصّادق و الباقر و الرّضا و قد نقلناه و أمّا الحديث الّذي رواه عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و هو أنّه أخذ بلسان نفسه و قال هذا.

فيلزم منه أنّ المقرّ بالتّوحيد لو كف لسانه عن الكفر طول حياته و عمل عمل الكفّار فهو ممن إستقام على توحيده و دخل الجنّة كما ترى.

و إنّما نقلنا كلام صاحب الكشّاف لتعلم أنهّم كيف فسّروا كلام اللّه في هذه الآية و أمثالها فأقض ما أنت قاض، و إلى اللّه عاقبة الأمور.

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بنزول الملائكة على المؤمنين الّذين إستقاموا على طاعة ربّهم و بشارتهم ايّاهم بالجّنة ذكر في هذه الآية أنّهم يقولون

لهم، **نَحْنُ أَوْلِيٰآؤُكُمْ** أي أنصاركم في الحياة الدّنيا و الآخرة و يقولون لهم أيضاً على سبيل البشارة **وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيٓ أَنْفُسُكُمْ** أي ولَكُم في الجّنة ما تشتهي أنفسكم من أنواع المأكولات و المشروبات **وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ** أي ما تستدعونه و تحّبونه و لا شكّ أنّ في هذه البشارة حجَّةٌ على شرف الإستقامة على الايمان و فى الحقيقة فيها بشارة إلى أنهّم سعدوا و فازوا في الدّارين.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **نَحْنُ أَوْلِيٰآؤُكُمْ** أي نحن قرناءكم الّذين كنّا معكم في الدّنيا و حفظنا أعمالكم فإذا كان يوم القيامة لا نفارقكم حتّى ندخلكم الجّنة، و أحتمل بعض المفسّرين أنّ قوله: **نَحْنُ أَوْلِيٰآؤُكُمْ** إلى آخر الآية، من قول اللّه تعالى لا من قول الملائكة، و لكن ظاهر سياق الآية و الإتيان بكلمة، **نَحنُ** الّتي تفيد الجمع يقتضي أن يكون من كلام الملائكة اللّهم إلاّ أن يقال أنّ، نحن، للتّعظيم و قد عبَّر اللّه تعالى عن نفسه بهذه الكلمة كثيراً مثل قوله: **إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ**[١] والّذي يقوي في النَّظر هو أنّ المآل في الإحتمالين واحد فأنّ الملائكة ملائكة اللّه و البشارة في الحقيقة بشارة اللّه لكونهم مأمورين من قبله فلا فرق بين أن يكون الكلام من قول اللّه أو من قول الملائكة الا أنّ الظّاهر أنّه من كلام الملائكة و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى، و قد رأيت في بعض التّفاسير إحتمالاً أخر لا بأس بذكره و هو أنّ المراد بقوله: **مٰا تَشْتَهِيٓ أَنْفُسُكُمْ** البقاء لأنّهم كانوا يشتهون البقاء في الدُّنيا أي لكم فيها أي في الجنّة ما كنتم تشتهونه من البقاء في الدُّنيا و لكم في الجنَّة ما كنتم تتَّمنونه من النّعيم إنتهى.

و أنت ترى أنّ هذا الإحتمال ينافي مقام المؤمن الّذي إستقام على إيمانه فأنّه لا يشتهي البقاء في الدُّنيا و هو ظاهرٌ.

١- الحَجر = ٩

و قد روى في البحار بأسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال رسول اللّه عليه السلام أخبرني جبرئيل أنّ ريح الجنّة توجد من مسير ألف عامٍ، ما يجدها عاق، و لا قاطع رحمٍ، و لا شيخ زان و لا جارّ أزاره خيلاء فتّانٌ و لا منّانٌ و لا جعظريٌ قال قلت فما الجعظري قال صلى الله عليه وآله وسلم الّذي لا يشبع مِن الدّنيا إنتهى.

و على هذا فكيف يقال ما إحتمله هذا القائل من أنّ المراد بقوله: **مٰا تَشْتَهِيٓ أَنْفُسُكُمْ** البقاء في الدّنيا لأنّهم كانوا يشتهون البقاء مضافاً إلى أنّ حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة و لا فرق بين حبّ الدّنيا و إشتهاء البقاء فيها.

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ

نزلاً، نصب على المصدر أو على الحال.

فَعلىٰ الأوّل: معنى الكلام أنزلكم ربّكم ما تشتهون من النّعمة نزلاً.

علىٰ الثّاني: لكم في الجنّة ما تشتهي أنفسكم منزلاً كما تقول جاء زيد مشياً تريد ماشياً و يحتمل أن يكون (نزلاً) جمع نازل أي لكم ما تدّعونه و تتمنّونه نازلين و على هذا فيكون حالاً من الضّمير المرفوع في(تدّعون) أو من المجرور في (لكم).

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعٰآ إِلَى ٱللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحًا وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

كلمة، من، إستفهاميّة و معناها النّفي أي ليس أحسن قولاً ممّن دعا إلى اللّه أي إلى طاعته، و عمل الصّالحات من الأعمال و يقول مع ذلك إنّني من المسلمين أي المستسلمين المنقادين لأمر اللّه و نهيه.

و قال بعضهم أنّ المراد بمن دعا إلى اللّه، النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه الدّاعي إلى اللّه حقّاً و مخلصاً، و قيل نزلت الآية في المؤذّنين لأنّهم يدعون النّاس إلى اللّه في أذانهم.

أقول و الأحسن حمل الكلام على العموم أعني به كلّ داع إلى اللّه و طاعته و لا شكّ أنّه من أحسن الأقوال و الوجه في كونه أحسن الأقوال أنّ المدعوّ أعظم و أشرف و أكمل الموجودات و هو اللّه تعالى و اللّفظ بما هو هو لا حكم له حسناً و قبحاً و أنّما يحكم عليه بالحسن و القبح بإعتبار ما يراد منه و يدعوا إليه فإذا كان المدّعو باللّفظ أشرف الموجودات و أكملها فاللّفظ أيضاً كذلك.

و أمّا قوله: **وَ عَمِلَ صٰالِحًا** إشارة إلى أنّ الأمر بالمعروف و الدّاعي إليه ينبغي أن يكون عاملاً بما يدعو إليه و إلاّ يكون منافقاً إذ لا نعني بالمنافق إلاّ من كان ظاهره غير باطنه و قوله على خلاف فعله، فالدّاعي إلى اللّه إذ لا يعمل بما يدعو إليه يعدّ منافقاً.

قال اللّه تعالى: **لِمَ تَقُولُونَ مٰا لاٰ تَفْعَلُونَ**[١] فالعمل الصّالح يكشف عن صدق الدّاعي و إخلاصه في الدّعوة.

و أمّا قوله: **إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** أي من المطيعين المنقادين للّه تعالى فهو في الحقيقة تفسير لقوله: **وَ عَمِلَ صٰالِحًا** فأنّ العمل الصّالح لا يصدر إلاّ من المطيع المنقاد و محصّل الكلام في الآية أنّ الدّاعي إلى اللّه قولاً و العامل بما أمر اللّه على سبيل الإخلاص و الإنقياد فعلاً، و هو مؤمنٌ حقّاً.

وَ لاٰ تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَ لاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

كلمة، لا، في قوله تعالى: **وَ لاَ ٱلسَّيِّئَةُ** للتّأكيد؛ و المعنى أنّهما لا يتماثلان، عقلاً و نقلاً، و المراد بالحسنة كلّ ما يحسنّه العقل و الشّرع كالطّاعات و العبادات و الإحسان إلى الغير و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و إعانة المظلوم و الإنفاق في سبيل اللّه و الجهاد كذلك و بالجملة جميع أفعال الحسنة، و المراد بالسّيئة خلافها من قبائح الأفعال كالكذب و الغيبة و التّهمة و أمثالها من الأقوال و إرتكاب

١- الصّف = ٢

الأعمال القبيحة من الزّنا و شرب الخمر و الظُّلم بأنواعه من الأفعال و أنّما حكم بأنّهما لا يستويان، لأنّ الحسنات توجب سعادة الدّارين و السَّيئات توجب خسران النّشأتين و لظهور أثارهما لا نحتاج إلى تفصيل الكلام فيهما فأنّ كلّ عاقلٍ يعلم و يقطع بأنّ الحسنات خيرٌ من السَّيئات و لا يقاس أحدهما بالأخر.

و قوله: **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ** أمر نبيّه أن يدفع السّيئة بالتّي أي بالحسنة التّي هي أحسن من السَّيئة و بعبارةٍ أخرى أجب السَّيئة بالحسنة.

و قيل المراد بالحسنة هاهنا المداراة، و بالسَّيئة الغلظة، و على هذا فالمعنى إدفع الغلظة بالمداراة و كيف كان أدَّب اللّه نبيَّه بهذا الأدب، و الخطاب و أن كان للنّبي ظاهراً إلاّ أنّ المراد جميع الأمّة فأنّ المسلم الحقيقي ينبغي أن يكون كذلك و المقصود من هذا الكلام حسن العشرة و الإحتمال و الإغضاء.

قال إبن عبّاس أي إدفع بحلمك من يجهل عليك و عنه أيضاً هو الرَّجل يسبّ الرّجل فيقول الأخر أن كنت صادقاً فغفر اللّه لي و أن كنت كاذباً فغفر اللّه لك.

و قوله: **فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ** فحاصل معناه أنّ المداراة مع القوم توجب المحبّة حتّى بالنّسبة إلى من كان بينك و بينه عداوة فأنّ العدوّ يصير بذلك وليّاً و حميماً لك.

فعن أمالي الصّدوق بأسناده إلى عبد اللّه بن وهب بن زهير قال وفد العلاء بن الحضرمي على النّبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه أنّ لي أهل بيت أحسن إليهم فيسيئون و أصلهم فيقطعون؟ فقال رسول اللّه ﷺ: إدفع بالتّي هي أحسن فإذا الّذي بينك و بينه عداوة كأنّه وليٌّ حميمٌ فقال العلاء بن الحضرمي أنّي قد قلت شعراً هو أحسن من هذا فاقل ﷺ و ما قلت فأنشد:

وحيٌّ ذوي الأضغان تسب قلوبهم ... تحيّتك العظمى فقد يرفع النَّفل

فأن أظهروا خيراً فجاز بمثله ... و إن خسُّوا عنك الحديث فلا تسل

فأنّ الّذي يؤذيك منه سماعه ... فأنّ الّذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ من الشّعر لحكماً و أنّ من البيان لسحراً و إنّ شعرك لحسن وأنّ كتاب اللّه أحسن إنتهى.

و عن كتاب الخصال فيما علّم أميرالمؤمنين أصحابه من الأربع مائة باب ممّا يصلح للمسلم في دينه و دنياه، صافح عدُّوك وإن كره فأنّه ممّا أمر اللّه به عباده و يقول إدفع بالتّي هي أحسن فإذا الّذى بينك و بينه عداوة كأنّه ولّيٌ حميمٌ، إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة.

وَ مٰا يُلَقّٰيٰهٰآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰيٰهٰآ إِلّٰا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

أي و ما يلَّقيها، هذه الفعلة الكريمة و الخصلة الشّريفة، إلاّ الّذين صبروا، بكظم الغيظ و إحتمال الأذى **وَ مٰا يُلَقّٰيٰهٰآ إِلّٰا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** أي ذو نصيب و أمرٍ من الخير، قيل المراد بالحظّ العظيم الجنَّة، و قيل الكناية في (يلَّقيها) أي عن الجنَّة، و قيل الضّمير فى **يُلَقّٰيٰهٰآ** يرجع على البشرى، أي و ما يلَّقى البشرى من الملائكة إلاّ ذو نصيبٍ وافر، و ذلك لأنّ كظم الغيظ صعبٌ جدّاً.

وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

إمّا بكسر الألف مركّبة من، إن و ما، و إن، شرطيّة، و ما، زيدٌ عليها تأكيداً و لذلك قيل هو أشبه القسم و لذلك دخلت نون التّأكيد في قوله: **يَنْزَغَنَّكَ** كما تقول و اللّه ليخرجنّ، و النّزغ النَّخس بما يدعو إلى الفساد من الشّيطان وسوسته و دعاءه إلى معصية اللّه بإيقاع العداوة بين من يجب موالاته يقال نزغ ينزغ نزغاً، و فلان ينزغ فلاناً كأنّه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصّواب قاله في التّبيان.

خاطب اللّه نبيّه و قال له فأن منعك و صرفك الشّيطان عمّا وصيت به من الدَّفع بالتّي هي أحسن، فإستعذ باللّه من شرّه و أمض على شأنك و لا تطعه، هكذا فسَّر الكلام في الكشّاف، و الظّاهر من الآية هو المعنى العامّ إختصاص له بالدَّفع بالتّي

هي أحسن في الإستعاذة من الشّيطان إلى اللّه و ذلك لأنّ الشّيطان يغوي من كلّ طريقٍ و يوسوس بأنحاء مختلفة، فالمعنى و أن ما يدعوك إلى المعاصي بالإغواء و الوسوسة أيّة معصيةٍ كانت فإستعذ باللّه من شرّه أنّه أي أنّ اللّه هو السَّميع العليم أي أنّه يسمع بمعنى علمه بالمسموعات و يعلم فلا يخفى عليه شئ و فى الآية نقاط و لطائف لا بأس بالإشارة إليها على سبيل الإجمال:

أحدها: أنّ نزغ الشّيطان لا يختصّ بقومٍ دون قومٍ و لا بشخصٍ دون شخصٍ بل هو عامّ بالنّسبة إلى جميع أولاد أدم حتّى الأنبياء و الأوصياء إلاّ إنّه لا سلطانٍ له عليهم، أمّا أنّ نزغه و وسوسته عامّ للجميع:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ كٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوًّا مُبِيناً**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**[٢].

قال اللّه تعالى: **يا بَنِيٓ اٰدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطٰانُ كَمآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ**[٣].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ**[٤].

قال اللّه تعالى: **وَ كٰانَ ٱلشَّيْطٰانُ لِلْإِنْسٰانِ خَذُولاً**[٥].

و الأيات كثيرة و هذا أي أنّ الشّيطان عدّوٌ لأولاد أدم كائناً من كان لا كلام فيه بصريح الأيات و إذا ثبت عداوته ثبتت نزغته و وسوسته كما هو شأن العدّو.

و أمّا أنّه لا سلطان له عليهم:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ عِبٰادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغٰاوينَ**[٦].

قال اللّه تعالى: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ**

١- الإسراء = ٥٣
٢- يُوسف = ٥
٣- الأعراف = ٢٧
٤- الإسراء = ٥٣
٥- الفرقان = ٢٩
٦- الحَجر = ٤٢

يَتَوَكَّلُونَ[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكيلاً**[٢].

و من المعلوم أنّ الأنبياء و الأوصياء لم يكونوا من الغاوين بل كانوا من رؤس المؤمنين الّذين كانوا على ربّهم يتوكّلون و الحاصل أنّ الشّيطان لا سلطان له عليهم.

أن قلت إذا كان الأمر على هذا المنوال فما معنى الآية حيث قال تعالى: **وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطانِ نَزْغٌ** النَّزغ إلاّ الوسوسة و الإغواء عن طريق الصّواب.

قلت أنّ اللّه تعالى نفى عنه السُّلطان ولم ينف عنه الإغواء و الوسوسة فلا تنافي بين الآيات و المعنى أنّه ينزع و يوسوس كما هو دأبه إلاّ أنّ نزغه و وسوسته لا يؤثّر في الأنبياء و الأوصياء و الأولياء و ذلك لإستعاذتهم باللّه و توكلّهم عليه في جميع أمورهم فنفى السُّلطة مستندٌ إلى اللّه في الحقيقة لا إليهم من عند أنفسهم و لذلك قال تعالى حكاية عن يوسف الصّديق:

وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلّا ما رَحِمَ رَبّي[٣].

و الّذي يستفاد من الآية أنّ الإنسان لا يمكن له التخلُّص عن كيده و وسوسته إلاّ أنّ النّجاة من إغواء الشّيطان و وساوسه في ترتُّب الأثار عليه تحصل بالإستعاذة و التّوكل على اللّه و هو المطلوب.

فالآية و أن كان المخاطب فيها النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم إلاّ أنّ المراد بها العموم فهي قاعدة كليّة للخلاص من شرٌّ الشّيطان و لا مخلص للإنسان إلاّ بما ذكره في الآية من الإستعاذة به تعالى، بل نقول إذا كان النبيّ مع علُّو شأنه محتاج إلى الإستعاذة باللّه في التَّخلص من شرَّه فما ظنَّك بغير النَّبي فهذا الحكم في غير النَّبي ثابت بطريق

١- النّحل = ٩٩
٢- الإسراء = ۶۵
٣- يُوسُف = ٥٣

أولى و هو واضح لا خفاء فيه.

وَ مِنْ اٰياتِهِ ٱللَّيْلُ وَ ٱلنَّهارُ وَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ ٱسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ اللّيل و النّهار و الشَّمس و القمر من آياته الدّالة على خالقيّته ثمّ نهى عن عبادة الشّمس و القمر، ثمّ أمر بعبادة من خلقهنّ دون غيره فالبحث حول الآية في فصولٍ:

الفصل الأوّل: أنّ اللّيل و النّهار و الشَّمس و القمر من آياته، فالآيات جمع آية و هى العلامة الظّاهرة و حقيقته لكُلّ شئٍ ظاهر هو ملازم لشيئٍ لا يظهر ظهوره فمتى أدرك مدركٌ الظّاهر منها علم أنّه أدركً الآخر الّذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما سواء و ذلك ظاهرٌ في المحسوسات و المعقولات فمن علم ملازمة العلم للطّريق المنهج ثمّ وجد العلم علم أنّه وجد الطّريق و كذا إذا علم شيئاً مصنوعاً علم أنّه لابُد له من صانعٍ و أختلفوا في إشتقاقها، فقيل أنّها مشتقّة من، أيّ فأنّها هي الّتي تبيّن أنّه من أيٍّ.

و قيل أنّها مشتقّةٌ من التّأبّي الّذي هو التَّثبت و الإقامة على الشّئ يقال، تأي أي ارفق أو من قولهم، أوي إليه و قيل للبناء العالي أية و منه قوله تعالى: **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ اٰيَةً تَعْبَثُونَ**[1].

إذا عرفت هذا فنقول، لكلّ جملةٍ من القرأن دالّةٍ على حكمٍ أية، سورةً كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورة و قد يقال لكلّ كلامٍ منه منفصلٍ بفصلٍ لفظي أية فقوله تعالى: **وَ مِنْ اٰياتِهِ** كلمة، من، للتّبعيض، و فيه إشارة إلى أنّ اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر من بضع أيات اللّه فأنّ الأيات الدالّة على وجوده و وجوبه و خالقيّته كثيرة لا تحصى كما قيل:

١- الشّعراء = ١٢٨

وفـي كـلّ شـيءٍ له أيـةُ تـدُّل عـلى أنّـه واحـدُ

و أنّما خصَّ اللّيل و النّهار بالذّكر لأنّهما من عجائب خلقه مضافاً إلى كونهما محسوسين لكلّ أحدٍ فلا سبيل إلى إنكارهما أصلاً و إذا كانا موجودين فلابدّ لهما من موجدٍ و خالقٍ أوجدهما و هو اللّه تعالى و أنّما قلنا لابدّ لهما من موجدٍ لأنّ الأثر يدلّ على المؤثّر.

فأن قلت أيّ دليلٍ دلَّ على أنّهما من الأثار حتّى يقال بإحتيجهما إلى المؤثّر.

قلت الدّليل على أنهما من الأثار حدوثهما فأنّ الأثـر لا يكـون إلاّ حـادثاً، و بالعكس فكلّ أثرٍ حادث و كلّ حادث أثر، و المراد بالحدوث تـغيُّرهما فـاللّيل يوجد بذهاب النّهار و النّهار توجد بذهاب اللّيل و لا نعني بالحدوث إلاّ هذا، فإذا ثبت التَّغير ثبت الحدوث و إذا ثبت الحدوث فهما مخلوقان لغيرهما لأنّ الحادث مسبوقٌ بالعدم و إلاّ لا يكون حادثاً إذ الحدوث عبارة عن وجود الشّئ بعد أن لم يكن موجوداً، وكلّ مسبُوقٍ بالعدم يحتاج إلى غيره فـثبت أنّ اللّـيل و النّـهار و الشَّمس و القمر خلقهنّ اللّه و هو المطلوب.

و محصّل الكلام أنّ الموجود المتغيّر الحادث لا يكون إلاّ مخلوقاً لغيره و هذا ممّا لا خلاف فيه عقلاً و نقلاً.

الفصل الثّانى: في تفسير قوله: **لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ** السّجود في الأصل التّطامن و التَّذلل و جعل ذلك عبارة عن التَّذلل للّه و عبادته و هو عامّ في الإنسان و الحيوانات و الجمادات إذا عرفت هذا فنقول:

الشّمس و القمر مخلوقان للّه تعالى كما عرفت فـي الفـصل الأوّل و المـراد بالسُّجود في الآية سجدة العبادة أي لا تجعلوهما معبودين لأنـفسكم لا مـطلق الخضوع و التَّذلل و أن كان الخضوع أيضاً قبيحٌ كما سيتّضح لك إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ أنّ المخلوق لا يكون معبوداً عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل فلأنّه يحكم بأنّ حكم الأمثال واحد و قد ثبت أنّهما مخلوقان كما أنّ

الإنسان أيضاً مخلوق و على هذا فسجود المخلوق لمخلوقٍ أخر لا معنى له إذ لا ترجيح لأحدهما من حيث أنّه مخلوق على الأخر و من المعلوم أنّ المسجود أفضل و أشرف من السّاجد و فى المقام ليس كذلك و قد ثبت أنّ التَّرجيح بلا مرَّجحٌ قبيحٌ عقلاً مضافاً إلى أنّ الشّمس و القمر من أصناف الجمادات و الإنسان من أصناف الحيوانات و الحيوان أشرف من الجماد فكون الجماد معبوداً للحيوان معناه تقديم المفضول على الفاضل بمرتبتين توضيح ذلك أنّ المخلوقات على أصنافٍ:

الأوّل: الملائكة.

الثّانى: الجنّ.

الثّالث: الإنسان.

الرّابع: الحيوان.

الخامس: النَّبات.

السّادس: الجماد و قد يعبّر عن غير الملائكة بالمواليد و كيف كان لا شكّ أنّ الجمادات أخسّ الموجودات و ذلك لأنها لا حيات لها فلا تكامل فيها بخلاف النّباتات و الحيوانات و الإنسان و السِّر فيه أنّ في الجماد روحٌ واحدٌ و هو روح الجمادي و فى النّبات روحان، جمادىّ و نباتيّ.

و في الحيوان ثلاثة، جماديّ و نباتيّ و حيوانىّ.

و في الإنسان أربعة، جماديّ و نباتيّ و حيوانيّ، و النّفس النّاطقة القدسيّة فالإنسان أفضل من الحيوان و الحيوان أفضل من النَّبات و النَّبات أفضل من الجماد فخضوع الإنسان و عبادته للشّمس و القمر اللّذين من الجمادات من أقبح القبائح.

و إن شئت قلت هو سقوط الإنسان عن مقام الإنسانيّة و لذلك قلنا أنّ العقل يحكم بقبح العبادة لكلّ مخلوقٍ فضلاً عن مخلوقٍ هو أخسَّ المخلوقات و حيث

أنّ الشّمس و القمر من أخسَّها فالمطلوب ثابت و المقصود حاصل هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول إتّخاذ المعبود و الخضوع له لا يخلو، إمّا أن يكون لأجل الشُّكر على النِّعمة الّذي يحكم العقل بوجوبه فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً، و إمّا لدفع الضَّرر دنيويّاً كان أو أخرويّاً.

و أمّا لجلب النَّفع كذلك و أمّا في غير هذه الصُّور فلا معنى لإتّخاذ المعبود و الخضوع و العبادة له عقلاً و لا شكّ أنّ الشّمس و القمر بل كلّ مخلوقٍ غير متصّفٍ بواحدٍ منها فضلاً عن جميعها لا يصلح للعبادة و هو واضح لا يحتاج إلى توضيح أكثر ممّا ذكرناه فالخضوع لهما لغوٌ و عبث فثبت و تحقّق أنّ السّجود لهما محكومٌ عقلاً و لذلك نهى اللّه عنه.

الفصل الثّالث: قوله **وَ ٱسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ** و هذا الحكم أيضاً مؤيّدٌ بالعقل، لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و لا خلاف فيه بين العقلاء و لا نعمة أشرف و أفضل من نعمة الوجود و اللّه تعالى هو المعطي للوجود فهو المنعم بقولٍ مطلق لا غيره كائناً ما كان فالعقل السّليم يحكم بشكر العبد لخالقه الّذي خلقه و لا نعني بالشُّكر إلاّ معرفته و من عرفه فقد عبده.

و إن شئت قلت أنّ اللّه تعالى خلق الشّمس و القمر و غيرهما فإذا أراد العبد أن يتّخذ لنفسه معبوداً ينبغي أن يتَّخذ الخالق معبوداً دون المخلوق الّذي لا يقدر على شئ و هو محتاج في بقاءه الى خالقه و لعلّه لهذه الدقيقة قال: **إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ**.

و قال بعض المفسّرين، معناه، إن كنتم تقصدون بعبادتكم اللّه فوجِّهوا العبادة اليه تعالى دون الشّمس و القمر الّذين هما مخلوقان مثلكم، و هذا قريبٌ ممّا ذكرناه و أنما الإختلاف في الألفاظ و ما ذكرناه أولى و أكمل.

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْـَٔمُونَ

أي فإن إستكبروا، يعني عبدة الشّمس و القمر أو جميع الكفّار و المشركين على أصنافهم عن عبادة اللّه الّذي لا إله إلاّ هو خالق السّموات و الأرض و ما بينهما، فالّذين عند ربّك، و هم الملائكة، يسبّحون له باللّيل و النّهار يعني في جميع الأوقات و هم لا يسأمون، أي لا يملّون و لا يفترون عن عبادته.

و في هذا الكلام نكتة خفيَّة لا بأس بالإشارة اليها و هى أنّ اللّه تعالى لا يحتاج الى عبادة العبّاد لأنّه غنيّ عمّا سواه و لا ينفعه طاعة من أطاعه كما لا تضرّه معصية من عصاه ولو كان محتاجاً الى التَّسبيح و التّقديس ففي تسبيح الملائكة و تقديسهم أيّاه كفاية لكثرتهم و دوام تسبيحهم فأنّ عدد الملائكة لا يعلمه إلاّ اللّه.

إن قلت، أن كان ما ذكرت من عدم إحتياجه تعالى تسبيح الخلق فلم هدَّدهم و وبخّهم على كفرهم في كثيرٍ من الأيات كما لا يخفى على أحدٍ.

قلت أنّ اللّه تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّاً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم و لكنّه رؤفٌ بعباده و قاعدة اللُّطف تقتضي أن يرشدهم الى الكمال المترقّب و البلوغ الى المقصد الأعلى و لذلك بعث اليهم الأنبياء واحداً بعد واحدٍ و كلفّهم بالتّكاليف الشّرعية من الصّوم و الصّلاة و الحّج و الجهاد و بالجملة فعل الواجبات و ترك المحرمات كلّ ذلك لأجل إيصالهم الى الكمال و بلوغهم الى سعادة الدّارين لا لأجل الإنتفاع بعبادتهم فأنّ فوائد الطّاعة و الإنقياد ترجع اليهم لا اليه فالعاصي المتمرّد مبغوضٌ له لأنّه لم يعرف ربّه ولم يطعه فيّما أمره به ونهاه عنه فالتّهديد و التَّوبيخ و العذاب يوم القيامة على تمرُّد العبد و طغيانه على ربّه الّذي خلقه لا على عدم تسبيحه و تقديسه.

و أن شئت قلت التّهديد و العذاب على السَّبب لا على المسَّبب و السَّبب ليس إلاّ كفران النّعمة تبركه شكر المنعم الّذي حكم عقله بوجوبه عليه و من كان كذلك يستحقّ العقاب قطعاً.

وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خٰاشِعَةً فَإِذٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا ٱلْمٰآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيٰاهٰا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتىٰٓ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

ثمّ قال تعالى: **وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ** مرّ الكلام في معنى الآية و قلنا هي العلامة في المحسوسات و الدّلالة في العقليّات و كلمة، من، أيضاً للتّبعيض فأنّ الأيات كثيرة: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[1].

أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خٰاشِعَةً يعني دراسة و أن شئت قلت ميتة لا نبات فيها: **فَإِذٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا ٱلْمٰآءَ** و هو المطر، **ٱهْتَزَّتْ** أي تحرّكت هكذا قيل و الأحسن أن يقال إرتفعت و علت و تزّينت و ربت يعني عظمت.

إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيٰاهٰا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتىٰٓ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ يعني أنّ الّذي أحيى الأرض بسبب المطر بعد أن كانت ميتة لمحيي الموتى أيضاً لأنّه قادرٌ على كلّ شيء، في هذا الكلام إشارة الى أنّ إحياء الموتى يوم البعث ليس أصعب من إحياء الأرض بعد موتها فكما أنّ اللّه تعالى أحياها يحيي الموتى أيضاً.

شبّه إحياء الأرض بإحياء الموتى و حكم بأنّ حكم الأمثال واحد و لا فرق في الإحياء بين إحياء الأرض و إحياء الموتى و إستدّل على ذلك بعموم قدرته و قال: **إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** و تقريب الإستدلال أنّه لو لم يقدر على إحياء الموتى فهو عاجزٌ عنه و العجز الضّعف و هو ضدّ القدرة و كلّ ضعيفٍ يحتاج الى غيره و كلّ محتاج ممكن الوجود و كلّ ممكنٍ مخلوق و قد فرضناه خالقاً قادراً على كلّ شيءٍ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ اٰيٰاتِنٰا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنٰآ أَفَمَنْ يُلْقىٰ فِى ٱلنّٰارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِىٓ اٰمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ ٱعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ

١- ابراهيم = ٣۴

بَصِيرٌ

الإلحاد الإعراض عن الحقّ و الميل الى الباطل يقال الحد يلحد إلحاداً فهو ملحد، أي معرض عن الحقّ، و حيث أنّ الأيات التكوينية و الأنفسية كلّها دالات على خالقها بلسان الإشارة فالإلحاد فيها الإعراض عنها و عدم التّدبر و التّفكر فيها عمداً أو إنكارها بعد العلم بدلالتها و أنمّا قلنا عمداً إذ الإعراض لا يكون بغير عمدٍ فأن كان من غير عمد فهو غفلة و الغافل لا يدخل تحت الإلحاد وستفاد من كلمة الإلحاد أنّ المراد المعرضين عن الحقّ بعد وضوحه عناداً و ليس المراد المعرض عن جهلٍ و غفلةٍ و كيف كان أخبر اللّه في الآية أنّ الملحدين لا يخفون عليه أي أنّه تعالى يعرفهم فأنّ الخالق أعرف بالمخلوق من المخلوق نفسه و إلاّ لا يكون خالقاً، ثمّ قسّم اللّه النّاس على قسمين فقال تعالى: **أَفَمَنْ يُلْقَى فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ اٰمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ** لأنّ الحصر عقلّي فأنّ الإنسان أمّا ملحدٌ أو غير ملحدٍ و بعبارةٍ أخرى إمّا أن يكون الإنسان معرضاً عن الحقّ أو لا يكون فالأوّل ملحدٌ و الثّاني غير ملحدٍ ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّ الملحد يلقى في النّار و غير الملحد يكون آمناً من العذاب يوم القيامة و من المعلوم أنّ الآمن العذاب خير ممّن يلقى في النّار و يعذّب فيها **ٱعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** أي إذا عرفتم معنى الإلحاد في آيات اللّه و علمتم أنّ الملحد يلقى في النّار و غير الملحد يكون آمناً يوم القيامة إعملوا ما شئتم في الدُّنيا ما تشاؤون من خيرٍ أو شرٍّ فأنّ اللّه بما تعملون فيها بصير لا يخفى عليه شئ من أعمالكم و أقوالكم و نيّاتكم، فإنّا هديناكم السَّبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً و بعبارةٍ أخرى إنّا لا نجبركم على عملٍ في الدُّ نيا بل نرشدكم الى ما هو الحقّ و أعطيناكم العقل لتمييز الحقّ عن الباطل و بعثنا اليكم الأنبياء بالبيّنات و بالجملة أتممّنا عليكم الحجّة الظّاهرة و الباطنة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيىٰ من حيَّ عنها **مٰا رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ** و هذا الكلام صريح في

الإختيار بل نصّ عليه إذ لو كان العبد مجبوراً في أفعاله لا معنى لقوله: **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** و هو واضح و قد تكلّمنا في هذا الباب سابقاً و سيأتي الكلام فيه أيضاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ

اتّفق المفسّرون على أنّ المراد بالذّكر القرآن و قيل سمّي ذكراً لأنّه تذكّر به وجوه الدّلائل المؤديّة الى الحقّ و المعاني الّتي يعمل عليها فيه و أصل الذّكر ضدّ السّهو و هو حضور المعنى للنّفس **لَمَّا جَاءَهُمْ** أي حين جاءهم و خبر **إِنَّ** محذوف و تقديره أنّ الّذين كفروا بالذّكر هلكوا و شقوا به.

و قيل تقديره إنّ الذّين كفروا بالذّكر لمّا جاءهم كفروا به فحذف لدلالة الكلام عليه هذا ما قاله في التّبيان، و قال في الكشّاف، إنّ الّذين كفروا بالذّكر، بدلٌ من قوله: **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا** و الذّكر القرآن لأنّهم لكفرهم به و طعنوا فيه و حرّفوا تأويله.

وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ أي منيعٌ محمى بحماية اللّه تعالى إنتهى.

أقول يظهر من كلام صاحب الكشّاف أنّ قوله: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** لا يحتاج إلى الخبر لأنّه بدل من قوله: **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا** فكأنّه قيل من الّذين يلحدون في الأيات، قيل أنّ الّذين كفروا هم الّذين يلحدون في آياتنا و أنّما قلنا ذلك لأنّه لم يتعرّض للخبر بعد قوله بالبدليّة و هذا ممّا لا إشكال فيه.

و في المقام قولٌ أخر غير ما ذكرناه من الأقوال و هو أن يكون الخبر قوله: **أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.**

و قولٌ أخر و هو أن يكون: **وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ** في موضع الخبر و لا يخفى على النّاقد البصير أنّ لكلّ واحدٍ من هذه الوجوه وجهٌ وجيه، و الذّي يقوّي في النّظر و اللّه أعلم بما قال هو أنّ الخبر قوله: **أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** و معنى الآية أنّ الّذين كفروا بالذّكر و هو القرأن و كفرهم به إنكارهم القرأن و أنّه لكتابٌ عزيز، بأنّه لا يقدر أحدٌ أن يأتي بمثله، أو أنّه عزيزٌ بإعزاز اللّه إيّاه إذ حفظه

من التّغيير و التّبديل، و لا يبعد أن يكون **الواو** في، أنّه، للحال أي و الحال أنّ القرأن لكتابٌ عزيز و ما كان كذلك فكيف أنكروه.

لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ

وصف اللّه القرأن بأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، ذكر المفسّرون في معناه أقوالاً نقلها في التّبيان:

أحدها: أنّه لا تعلّق به الشُّبهة من طريق المشاكلة و لا الحقيقة من جهة المناقضة و هو الحقّ المخلص و الّذي لا يليق به الدَّنس.

الثّاني: قال قتادة و السُّدي معناه لا يقدر الشّيطان أن ينقص منه حقّاً يزيد فيه باطلاً.

الثّالث: أنّ معناه لا يأتي بشئ يوجب بطلانه ممّا وجد قبله و معه و لا ممّا يوجد بعده، و قال الضّحاك لا يأتيه كتابٌ من بين يديه يبطله و لا من خلفه حديث من بعده يكذبه.

الرّابع: قال إبن عبّاس معناه لا يأتيه الباطل من أوّل تنزيله و لا من أخره.

الخامس: أنّ معناه لا يأتيه الباطل في إخباره عمّا تقدّم و لا من خلفه عمّا تأخّر إنتهى ما ذكره في التّبيان من الأقوال.

و قال في الكشّاف **لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ** مثلّ كأنّ الباطل لا يتطرّق الايه و لا يجد إليه سبيلاً من جهةٍ من الجهات حتّى يصل إليه و يتعلّق به إنتهى.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ماهذا لفظه، و قوله: **لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ** إتيان الباطل إليه وُرُوده فيه و صيرورة بعض أجزاءه أو جميعها باطلاً بأن يصير ما فيه من المعارف الحقّة أو بعضها غير

حقّة أو ما فيه من الأحكام و الشّرائع و ما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغي لا ينبغي العمل به و عليه فالمراد بقوله: **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لٰا مِنْ خَلْفِهِ** زمان الحال و الإستقبال أي زمان النُّزول و ما بعده إلى يوم القيامة و قيل المراد بما بين يديه و من خلفه جميع الجهات كالصباح و المساء كناية عن الزّمان كلّه فهو مصون من البطلان من جميع الجهات و ساق الكلام إلى أن قال و المدلول على أيّ حالٍ أنّه لا تناقض في بياناته و لا كذب في أخباره بطلان يتطرّق إلى معارفه و حكمه و شرائعه و لا يعارض و لا يغيّر بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف أيةٍ من وجهٍ إلى وجهٍ إنتهى.

هذا ما قالوه في تفسير الآية و الّذي يقوّى في النّفس أنّ المراد بما بين يديه، الحال و الإستقبال و معنى الآية لا يأتيه، أي لا يأتي القرأن **ٱلْبٰاطِلُ** و هو خلاف الحقّ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ** أي في زمان النّزول إلى يوم القيامة و لا من الكتب السّماوية الّتي أنزلت على الأنبياء قبل محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم كالتّوراة و الإنجيل و الصُّحف و غيرها.

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ وصف للقرأن ظاهراً ولجميع الكتب المنزلة واقعاً أي كيف يعقل أن يكون باطلاً ما أنزله اللّه الحكيم الحميد، و على هذا فالآية و أن كانت في الظّاهر دالّة على حقّانية القرأن و أنّه لا يأتيه الباطل إلاّ أنّها في الواقع تنفي البطلان عن جميع الكتب السّماوية بدليل قوله: **مِنْ خَلْفِهِ** لأنّ فيها بشارة بنبّوة الرَّسول و نزول القرأن.

أمّا أنّه أي القرأن لا يأتيه الباطل من بين يديه، لأنّ القرأن يصَّدق بعضه بعضاً، و أمّا أنّه لا يأتيه الباطل من خلفه فأنّ الكتب السّماوية السّابقة قد صدَّقته و بشّرت به، و هذا ممّا لا خلاف فيه هذا ما فهمناه من الآية و أظنّ أنّه أوفق بسياق الكلام و أنسب بظاهر ألفاظ الآية من غير تصرُّفٍ فيها و اللّه أعلم بكلامه.

مٰا يُقٰالُ لَكَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ

ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ

كلمة، ما، ما يقال نافية، بإتّفاق المفسّرين إلاّ أنّهم إختلفوا في القائل هل هو الكفّار، أم اللّه تعالى على قولين:

فعَلىٰ الأوّل: معنى الآية أنّ ما يقول لك المشكرون من التّكذيب و الجحد لنبوتّك و نسبة السّحر إليك لا يكون مختصاً بك بل قالوا مثل ذلك أو أفحش منه للأنبياء قبلك فليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ المنافقين و الكفّار المخالفين للحقّ لا يكونون مختّصين بزمانٍ دون زمان و ذلك لأنّ الحقّ مرٌّ و أمرّ منه العمل به و الكافر أو المنافق بعيدٌ عن متابعة الحقّ.

علىٰ القول الثّانى: معنى الآية ما يوحى اليك من اللّه تعالى إلاّ ما يوحى الى الرُّسل من قبلك فكما أنّ الكفّار كذّبوا من قبلك من الرُّسل كذلك كذّبك من كان بعدهم من أعقابهم و أتباعهم في زمانك فأنّ حكم الأمثال واحدالتّقديرين في الآية تسليةٌ للنّبي في تكذيب الكُفّار أيّاه ثمّ قال تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** أي أنّ ربّك يغفر و يعذّب، يغفر لمن آمن بـه و بـرسوله ثـمّ إهتدى، و يعذّب لمن بقى على الكفر و الإلحاد حتّى مات عليه.

تَنبيهٌ

يستفاد من الآية أمورٌ لا بأس بالإشارة اليها على سبيل الإجمال.

أحدها: أنّ أعداء الحقّ كثيرة في كلّ زمانٍ و أهل الحقّ قليل و النّزاع بين الحقّ و الباطل مستمرٌّ الى يوم القيامة ثمّ إنّ أهل الباطل حيث أنّه لا دين لهم و لا يخافون المعاد لعدم إعتقادهم به يؤذون أهل الحقّ بأفعالهم و ألسنتهم و إستهزاءهـم و غيرها و هذا ممّا لا شكّ فيه لأنّه محسوسٌ حتّى في زماننا هذا، و هذه السّيرة الرّديئة لا تنقطع الى يوم الوقت الموعود كما كانت في الأزمنة السّالفة، و إذا كان الأمـر عـلى هـذا المـنوال فـوظيفة المـؤمن الصّبر عـلى الأذى أو

ترك الإيمان و متابعة أهل الباطل في آراءهم و أفعالهم، لا سبيل الى الثّاني لأنّ الكفر باللّه و أنبياءه و شرائعه و متابعة الشّيطان يوجب خسران الدّارين و هلاك النّشأتين فلا محيص له إلاّ الصّبر في طريق الحقّ و تحمّل أنواع المشّاق من المخالف وللّه عاقبة الأمور:

الثّانی: أنّ اللّه تعالى غافر الذّنب و قابل التّوب كما دلّت عليه الأيات و إتّفقت عليه العقول فلا نحتاج الى ذكر الأيات و الأخبار الواردة في الباب لوضوح المدّعى و إتّفاق الكلّ عليه و فيه إشارة الى أنّ العبد ينبغي أن لا ييأس من رحمة ربّه على كلّ حال فأنّ اليأس من رحمة اللّه من أكبر الكبائر و أعظم الذّنوب.

الثّالث: أنّ اللّه تعالى مع سعة رحمته و مغفرته من أشدّ المعاقبين لأنّ العقاب و العذاب لا يكون إلاّ عن غضبه فكما أنّ رحمته و مغفرته و عفوه لا حدَّ له و لا نهاية كذلك غضبه لا نهاية له و حيث أنّ العقاب ثمرة الغضب فهو أيضاً لا حدَّ له فهو تعالى أرحم الرّاحمين في موضع اللُّطف و الرَّحمة و أشدّ المعاقبين في موضع الغضب و النّقمة.

وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْلاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفٰاءٌ وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ

أي ولو جعلنا الذّكر قرآناً أعجميّاً، أي بلغة غير العرب **لَقٰالُوا** هؤلاء الكفّار **لَوْلاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ** أي لولا بيِّنت آيات القرآن بلغة العرب فإنّنا عرب لا نفهم الأعجميّة (قُل) يامحمّد لهم، هو، أي القرأن **لِلَّذِينَ آمَنُوا** باللّه و رسوله **هُدًى وَ شِفٰاءٌ** هدىً لكلّ من أمن به إلى طريق الحقّ و شفاءٌ لقلوبهم من الرَّيب و الشكّ.

وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ باللّه و رسوله و الكتاب المنزل عليه **فِي آذٰانِهِمْ**

وَقْرٌ أي صممٌ من سماع القرأن و ذلك لعدم إيمانهم به و أنّه كلام اللّه **وَ هُوَ** أي القرأن **عَلَيْهِمْ عَمًى** حيث خلّوا عنه ولم يتدبّروا فيه فكأنّه عمىً عنهم.

أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ يُنادَون بفتح الدّال بصيغة المجهول و هو على وجه المثل أي كأنّهم يسمعون الصَّوت من مكانٍ بعيدٍ و لا يفهمون المعنى من حيث لا ينتفعون به إذا عرفت تفسير ألفاظ الآية فإعلم أنّ فيها أبحاث و فوائد:

أحدها: قرأ أبوبكر و حمزة و الكسائي، **ءَأعجميّ** بهَمَزتين مختصَّتين و قرأ الحسن و أبوالعالية و نصربن عاصم و المغيرة و هشام عن أبىعامر **أعجميّ** بهَمَزة واحدة.

فعلى قراءة الأولى هَمَزة الإستفهام للإنكار فأدخل حرف الإستفهام على ألف **أعجميّ** و هى ألف قطع و من حقَّقها فلأنّها الأصل و على هذا فمعنى الكلام ولو جعلنا الذِّكر قرأناً أعجميّاً لقالوا أي هؤلاء الكفّار (أعجمىّ و عربيّ) أي لا يكون كذلك و بعبارةٍ أخرى أيكون القرأن أعجميّ و النبيّ عربىّ، هذا ممّا لا يكون و لا يعقل.

و أمّا على القراءة الثّانية فليست في الكلام هَمزة الإستفهام، بل هي واحدة على الخبر و المعنى لولا فصلّت أياته أعجمىّ و عربىّ، فكان منها عربيّ يفهمه العرب و أعجمىّ يفهمه العجم.

و روي أنّ قريشاً قالت، لولا أنزل القرأن أعجميّاً و عربيّاً فيكون بعض أياته عجميّاً و بعض أياته عرّبياً فنزّلت الآية.

الثّانية: أنّ العجمي يقال لمن ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيحٍ و الأعجمي الّذي لا يفصح سواء كان من العرب أم من العجم فالعجم ضدّ الفصيحِ و هو الّذي لا يبيّن كلامه و يقال للحيوان غير النّاطق أعجم.

و الحاصل أنّ الرّجل العجَمي الّذي ليس من العرب قد يكون فصيحاً بالعربيّة،

و قد يكون العربيّ غير فصيح و إن شئت قلت كلّ إنسانٍ لا يكون من العرب فهو من العجم فالأعجمي و العرب متقابلان.

الثّالثة: أنّ قوله: **لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ** حكاه اللّه تعالى عن الكفّار أي لو جعلنا القرأن أعجّمياً لقالوا ذلك و فيه نكتةٍ خفيّة لم يتدبّروا فيها و هى أنّ هؤلاء الكفّار لعنادهم و خبث طينتهم لا يؤمنون بالقرأن و أنّه منزّل من عند اللّه أبداً و ذلك لأنّ القرأن أنزلناه عربيّاً قالوا هذا أساطير الأوّلين ولم يؤمنوا به فلو جعلناه أعجَّمياً لقالوا لولا فصلّت أياته أيكون القرأن أعجَّمياً و النّبي عربي.

الرّابعة: **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَ شِفَآءٌ** أثبت اللّه تعالى للقرأن وصفين لمن أمن به فقال أنّه هدىً و شفاء للمؤمنين.

أمّا أنّه هدىً، فلأنّه يهديهم إلى طريق الحقّ.

و أمّا أنّه شفاء، أي شفاء لمرض الجهل و الشكّ و أنّما خصَّ الوصفين بالمؤمن لأنّ غير المؤمن لا ينتفع به لعدم قابليّته و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ من شرائط تأثير العلّة في المعلول أن يكون المعلول قابلاً للتّأثر و مستعدّاً له يكفي في تحقّق التّأثير وجودهما فقط ألا ترى أنّ النّار لا تحرق الحجر و تحرق الخشب حتّى أنّ القابليّة الذّاتية أيضاً لا تكفي بل عدم المانع شرط في التّأثير فأنّ الخشب قابل للإحتراق ذاتاً و أمّا إذا كان رطباً لا يقبل الإحتراق لوجود المانع و هو الرُّطوبة إذا عرفت هذا فنقول:

قلب الإنسان بمنزّلة المعلول و القرأن بمنزلة العلّة، و القلب بما هو هو مستعّدٌ و قابلٌ للقبول ذاتاً و إلاّ يلزم التّكليف بما لايطاق و أن شئت قلت بالمحال و قد قال تعالى: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** فلو كان قلب الكافر غير قابلٍ للإهتداء ذاتاً بحسب الخلقة فلم يقبل الهداية فلا ذنب له و أنّما الذّنب ثابت لخالقه الّذي خلقه غير قابلٍ للإهتداء و قبول الإيمان و هو الجبر الّذي حكم العقل و النّقل بإستحالته و لا يجوز لخالقه أن يكلّفه بالتكليف لأنّ المفروض أنّه

خلقه غير قابلٍ للإهتداء ذاتاً.

و حيث أنّا نرى أنّ اللّه تعالى كلّف العبد بقبول الإيمان و لذلك أرسل الرُّسل و أنزل الكتب نعلم علماً قطعيّاً أنّه أي العبد قابل للإهتداء مستعدٌّ لقبول الإيمان ذاتاً، و أنّما المانع من قبول الإيمان و متابعته الحقّ هو كفره و عناده و هما عرضا على قلبه لا خلقهما اللّه فيه فيمكن للعبد إزالتهما عن قلبه بإختياره كما أثبتهما فيه كذلك و هذا أي وجود الكفر و العناد و اللّجاج هو المانع عن قبول التّأثر بأيات اللّه و مواعظ أنبياءه و لأجل ذلك كلّفهم اللّه بالإيمان.

فالإيمان شرط في قبول الإهتداء و الكفر مانعٌ منه و رفع المانع بإختيار العبد و بعد رفع المانع يتحقق الشّرط فيتحقّق التّأثير و التّأثر و لأجل ذلك قال تعالى: **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى** لا لغيرهم ممّن لم يؤمنوا.

الخامسة: قوله: **وَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** الوقر الثّقل و أنّما قال في أذانهم وقرٌ، لأنّ تأثير الكلام في القلب من طريق السَّمع فإذا لم يسمع الإنسان شيئاً كيف تأثّر قلبه.

و في التّعبير بالوقر إشارة إلى أنّهم بمنزلة ذلك من حيث عدم إنتفاعهم بالقرأن فإذاً لا فرق بينهم و بين من في أذانهم وقرٌ واقعاً لأنّ الملاك و هو عدم الإنتفاع فيهما على السّواء فأيُّ فرقٍ بين من لا يسمع أصلاً و بين من سمع ولم يترتّب على إستماعه أثر و لذلك قال هو، أي القرأن عليهم عمىً، حيث ضلّوا منه ولم يتدبرّوا فيه فكأنّه عمىً لهم و هذا حكمٌ ثابت في جميع الأعضاء من السَّمع و البصر و القلب و غيرهما فأنّ الغرض الأصلي في جعل هذه الأعضاء هو ترتيب الأثار عليها لا مجرّد الإدراك بها كيف إتّفق، و هذا هو الفرق بين الإنسان و الحيوان، و إلاّ فالإدراك ثابت للحيوان أيضاً بل هو في الحيوان أقوى منه في الإنسان كما هو ظاهرٌ.

و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ**

ٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ اٰذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهٰآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ(١).

و لذلك قال اللّه تعالى: **أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ** أنّما ذكره اللّه على وجه المثل، أي مثل هؤلاء الكفّار مثل من يسمع الصَّوت من مكانٍ بعيدٍ ولا يفهم المعنى و هو واضح.

وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

و لقد أتينا موسى الكتاب، و هو التّوراة **(فَاخْتُلِفَ فِيهِ)** في حياته بأن أمن به قومٌ و كذَّب قومٌ و فى مماته بتحريفه و تغييره عمّا كان عليه.

وَ لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ في إمهالهم في دار الدُّنيا (لقضي بينهم) بتعجيل العذاب عليهم **وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** أي شديد الرَّيبة في أنّه منزّلٌ من عند اللّه.

و المقصود من هذه الآية هو أنّ إختلاف النّاس في قبول الكتاب و الإيمان به و عدم القبول لا يختّص بقومك بل كان هذا في الأمم السّالفة أيضاً إلاّ أنّا نمهل قومك في الدّنيا و أخّرنا عذابهم إلى يوم القيامة و ذلك لأنّ الدنيا دار العمل و الأخرة دار الجزاء ولن تجد لسنّة اللّه تبديلاً.

قال بعض المفسّرين في الآية تسليةٌ للنّبي عن جحود قومه و إنكارهم نبوّته فقال له تسليةً له صلّی اللّه علیه وآله وسلّم لولا كلمة سبقت من ربّك، و هو تأخير العذاب إلى يوم القيامة، لقضي بينهم، يعني بحلول العذاب عليهم.

مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰآءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ

١- الأعراف = ١٧٩

لِلْعَبِيدِ

من عمل صالحاً، أي فعل فعلاً هو طاعة، هكذا قيل، و الحقّ أنّ العمل الصّالح أعمّ من ذلك و هو كلّ عملٍ يحكم بصلاحه العقل و الشّرع، **فَلِنَفْسِهِ** أي ثوابه يرجع إليه **وَ مَنْ أَسٰآءَ** أي عمل عملاً غير صالح فعليها، أي فعلى ضرر نفسه لأنّ ثمرة إساءة الفعل راجعة إليه **وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ** فأنّهم كانوا أنفسهم يظلمون.

و حاصل معنى الآية أنّ الثّواب في الأخرة و المدح في الدُّنيا و هكذا العقاب و الذّم يتّرتبان على العمل و يرجعان إلى صاحبه أن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشّراً فمن يعمل مثقال ذّرةٍ خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره و قد مرَّ نظير هذه الآية مراراً و تكلّمنا فيها فلا نحتاج إلى الإطالة في المقام.

هذا تمام الكلام في الجزء الرّابع و العشرين و يتلوه الجزء الخامس و العشرون إن شاء اللّه تعالى و نسأل اللّه أن يوّفقنا لإتمام بقيّة أجزاءه بمحمّدٍ و أله الطّاهرين.

■



الجزء

الخامس والعشرون

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ
مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثٰى وَ لٰا تَضَعُ
إِلّٰا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰاءِي قٰالُوٓا
اٰذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ ﴿۴۷﴾ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا
كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ
مَحِيصٍ ﴿۴۸﴾ لٰا يَسْئَمُ ٱلْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ
ٱلْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ ﴿۴۹﴾ وَ
لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰآ أَظُنُّ ٱلسّٰاعَةَ قٰآئِمَةً وَ
لَئِنْ رُجِعْتُ إِلٰى رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنٰى
فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ
مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ ﴿۵۰﴾ وَ إِذٰآ أَنْعَمْنٰا عَلَى
ٱلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَاٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
فَذُو دُعٰآءٍ عَرِيضٍ ﴿۵۱﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ
عِنْدِ ٱللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي
شِقٰاقٍ بَعِيدٍ ﴿۵۲﴾ سَنُرِيهِمْ اٰيٰاتِنٰا فِي ٱلْاٰفٰاقِ وَ
فِيٓ أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿۵۳﴾ أَلٰآ
إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰآءِ رَبِّهِمْ أَلٰآ إِنَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾

◀ اللّغة

ٱلسّٰاعَةِ: هي في الأصل جزء من أجزاء الزّمان و يعبّر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابه.

ثَمَرٰاتٍ: جمع ثمرة و التّاء للوحدة و الثّمر إسمٌ لكلّ ما يتّطعم من أعمال الشّجر الواحدة ثمرة و الجمع ثمار و ثمرات.

أَكْمٰامِهٰا: جمع كمّ بكسر الكاف و هو ما يغطّى الثّمرة و قيل واحدها كمّة، بكسر الكاف الطّرف المحيط بالشّئ و المراد بها هاهنا ليف النّخيل، قاله الحسن.

آذَنّٰاكَ: يقال أذن يؤذن، إذا أعلم و منه الأذان و هو الإعلام، و المعنى أعلمناك.

لاٰ يَسْئَمُ: السّأم الملالة أي لا يملّ من دعاءه بالخير.

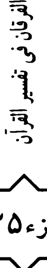
فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ: اليأس إنتفاء الطّمع و القنوط اليأس من الخير يقال قنط يقنط قنوطاً إذا يأس.

نَأىٰ: أي بعد بجانبه كبراً.

شِقٰاقٍ: الشّقاق الميل إلى شقّ العداوة لا لاجل الحقّ.

◀ الإعراب

وَ مٰا تَحْمِلُ ما، نافية لأنّه عطف عليها وَ لاٰ تَضَعُ ثمّ نقض النّفي بألاّ، ولو كانت بمعنى، الّذي، معطوفة على السّاعة لم يستقيم ذلك آذَنّٰاكَ هذا الفعل يتعدّى إلى مفعول بنفسه و إلى أخر بحرفٍ جرٍّ و دُعٰآءِ ٱلْخَيْرِ مصدر مضاف إلى المفعول و الفاعل محذوف لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي جواب الشّرط و الفاء محذوفة بِرَبِّكَ هو فاعل يَكْفِ و المفعول محذوف أي ألم يكفك ربّك أَنَّهُ في موضع البدل من الفاعل.



◀ التّفسير

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰاءِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ

الظّاهر أنّ الضّمير في، إليه، راجع إلى الرَّب في الآية السّابقة و المعنى إلى الرَّب أو إلى اللّه يردّ علم السّاعة الّتي يقع فيها الجزاء للمطيع و العاصي و معنى ردَّ العلم إليه تعالى أنّه لا يعلم حين وقت السّاعة إلاّ هو قيل أنّ الكفّار قالوا يا محمّد إن كنت نبيّاً فخبّرنا متى قيام السّاعة فنزّلت الآية أن يقول لهم علمها عند ربّي و قد أشار اللّه تعالى إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب.

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسّٰاعَةِ أَيّٰانَ مُرْسٰيهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبّى**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسّٰاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَمْرُ ٱلسّٰاعَةِ إِلاّٰ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْهُوَ أَقْرَبُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱلسّٰاعَةَ اٰتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فيهٰا وَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْئَلُكَ ٱلنّٰاسُ عَنِ ٱلسّٰاعَةِ قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ مٰا يُدْريكَ لَعَلَّ ٱلسّٰاعَةَ تَكُونُ قَريبًا**(٥).

و غيرها من الأيات و أنت ترى أنّ جميع الأيات مشعراً أو مصَّرحٌ بأنّ علم السّاعة عند اللّه و قد تظافرت الرّوايات أيضاً بذلك.

١- الأعراف = ١٨٧
٢- يُوسف = ١٠٧
٣- النّحل = ٧٧
٤- الحجّ = ٧
٥- الأحزاب = ٦٣

منها، ما رواه في البحار بأسناده عن الصّادق عليه السلام: قال عيسىٰ لجبرئيل متىٰ قيام السّاعة فإنتفض جبرئيل إنتفاضة أغمي عليه منها فلمّا أفاق قال ياروح اللّه ما المسئول أعلم بها من السّائل وله من في السّموات و الأرض لا تأتيكم إلاّ بغتةً إنتهى.

و الأخبار كثيرة سيأتي بعضها في المستقبل إن شاء اللّه تعالى.

وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا الواو للعطف أي و إليه يرَّد علم ما تخرج من أكمامها أيضاً من الثمرات قلنا في شرح اللّغات أنّ الأكمام جمع كمّ، بكسر الكاف أو جمع كمّة و هو الطّرف المحيط بالشّئ.

و قال الحسن الأكمام هاهنا ليف النَّخيل و قيل من أكمامها معناه خروج الطّلع من قشره و كيف كان لا علم بما تخرج من الأكمام إلاّ للّه تعالى و بعبارةٍ أخرى العلم به مختّص به.

وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ هذا أيضاً معطوف على ما قبله أي لا يعلم ما تحمل من أنثى إلاّ اللّه تعالى من ذكرٍ أو أنثى.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّٰاعَةِ وَ يُنَزِّلُ اَلْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلْأَرْحٰامِ وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ مٰاذٰا تَكْسِبُ غَدًا وَ مٰا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**[1].

و قوله: **وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ** هذا أيضاً معطوف على ما قبله أي كما أنّه عالمٌ بما تحمل أنثى كذلك هو عالمٌ بوضع حملها أي يعلمها حينه و زمانه، و يسمّى هذا العلم بالعلم المكنون و المخزون و المستور و أمثال ذلك.

و قوله: **وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ** أي يوم يناديهم، و هو يوم القيامة، منادٍ، إختلفوا في المنادي فقيل هو اللّه و قيل هو الملائكة، فيقول المنادي لهؤلاء المشركين، أين شركائي، قالوا في الجواب أذنّاك

١- لقمان = ٣٤

أي اعلمناك ما منّا من شهيدٍ، أي لا شاهد لنا و قيل معناه ما منّا أحد ليشهد بأنّ لك شريكاً و ذلك لأنّهم لمّا عاينوا القيامة تبرّأوا عن الأصنام و الأوثان و تبرّأت الأصنام منهم كما تقدَّم هذا المعنى في غير موضع.

وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ

قيل الظنّ في الآية بمعنى اليقين و المعنى، و ضلَّ عنهم، أي بطل عنهم، ما كانوا يدعون، أي يعبدون، من قبل، أي في الدّنيا و علموا و أيقنوا ما لهم من محيصٍ، أي من مخلصٍ و لات حين مناصٍ.

لاٰ يَسْـَٔمُ اَلْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ اَلْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ

أشار في هذه الآية إلى سرعة حال الإنسان و تقّلبه من حالٍ إلى حالٍ و ذلك لأنّه لا يسأم و لا يملّ من دعاء الخير من طلب المال أو صحّة الجسم و قيل معناه لا يملّ من الخير الّذي يصيبه في الدُّنيا، و أمّا إن مسَّه الشّر كالفقر و المرض و الإبتلاء بالمصائب فيؤسٌ قنوطٌ أي يقنط من رحمة اللّه و ييأس من روحه.

و حاصل المعنى عدم رضا العبد بقضاء اللّه و قدره بمعنى أنّه إذا كان القضاء موافقاً لطبعه و ميله فهو راضٍ به و إلاّ فلا و من المعلوم أنّ هذا الحكم بإعتبار الأغلب و الأكثر كما هو شأن أكثر الأحكام لولا جميعها و إلاّ فالمؤمن الرّاضي بقضاءه و قدره ليس كذلك لأنّه متوجّه إلى قوله تعالى:

وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ(١).

و على هذا فكلّ شيءٍ ممّا قدَّره اللّه لعبده فهو خيرٌ له فأنّ اللّه أعلم بمصالح العبد منه و أمّا من لا إيمان له أو ضعف إيمانه فهو كما أشار اللّه تعالى في الآية **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ اَلشَّكُورُ**.

١- البقرة = ٢١٦

وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ

الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلُّ تناوله دون ما يكثر فانّ ما تكثر منه يقال له الأكل و أختير في القرأن لفظ الذَّوق في العذاب لأنّ ذلك و أن كان في التّعارف للقليل فهو مستصلحٌ للكثير أيضاً فخصَّه بالذّكر ليعمّ الأمرين و كثر إستعماله في العذاب.

قال اللّه تعالىٰ: **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْكَرِيمُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِيقِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[٣].

و معنى الآية **وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ** أي أذقنا الإنسان **رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ** كالصِّحة بعد المرض و الغنى بعد الفقر و العزّ بعد الذّل **لَيَقُولَنَّ** الإنسان هذا لي، أي أنا حقيقٌ بهذه النِّعمة و هى حقٌّ لي و من أحقّ بها منّي.

وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَةَ و القيامة **قٰائِمَةً** للحساب و الثّواب و العقاب **وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي** بعد الموت **إِنَّ لِي عِنْدَهُ** أي عند ربّي **لَلْحُسْنىٰ** يعني الجنَّة أو مطلق الثّواب.

فَلَنُنَبِّئَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا الإنباء الإخبار و منه النَّبي لأنّه يخبر عن اللّه تعالى أي و لنخبرنَّ الكفّار بما عملوا في الدّنيا **وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ** أي و لنجزيّنهم بعد أن نعلمهم ما عملوه من كفرهم و معاصيهم ثمّ نجازيهم عليها بأن نذيقهم من عذابٍ غليظٍ أي شديد موجع.

١- الدّخان = ٤٩
٢- أل عمران = ١٨١
٣- الأنعام = ٣٠

وَ إِذٰآ أَنْعَمْنٰا عَلَى ٱلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأْ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ

الواو للعطف فأنّ هذه الأيات تحكي عن حالات الإنسان و تطوّراته و إنتقاله من حالٍ إلى حالٍ و عدم ثباته على حالةٍ واحدة و إلى ذلك أشار تعالى بقوله: **وَ إِذٰآ أَنْعَمْنٰا** أيّة نعمةٍ كانت **عَلَى ٱلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ** الإعراض الإدبار أي أعرض عن الحمد و الشُّكر لخالقه و منعمه **وَ نَأْ بِجٰانِبِهِ** أي بعد بجانبه كبراً و تجبّراً عن الإعتراف بنعم اللّه و الشُّكر له و قيل معناه، بعد عن الواجب عليه.

و لعلّ المراد وجوب شكر المنعم عقلاً **وَ إِذٰا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ** و هو النِّقمة كالمرض و الفقر **فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ** أي يدعو اللّه كثيراً عند ذلك فأنّ العريض كناية عن السّعة و الكثرة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ

قُلْ، يا محمّد لهؤلاء الكفّار **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ** ما أعطيتم من النِّعم **مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ** أي كفرتم بما أنعم اللّه عليكم **مَنْ أَضَلُّ** و أغوى **مِمَّنْ هُوَ فِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ** الشّقاق الميل الى شقّ العداوة، و قوله: **بَعِيدٍ** أي بعيدٌ عن الحقّ، و من أضلّ ممّن أنكر حكم العقل بوجوب شكر المنعم و أيّ شيءٍ أقبح من كفران النّعمة.

سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي ٱلْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

قد مرَّ الكلام في الآية و قلنا هي العلامة و الدّلالة في المحسوسات و الأيات كثيرة **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[1] إذا عرفت هذا فأعلم أنّ الألفاظ

١- ابراهيم = ٣٤

موضوعة للمعاني العامّة فالآية موضوعة لكلّ شيءٍ يدلّنا على المقصود و المدلول سواء كان الشّئ ماديّاً أم مجرّداً معقولاً أو محسوساً و على هذا فالآية الدالّة على وجود الخالق لا تنحصر بآيةٍ خاصّة و لذلك قيل.

و في كلّ شيءٍ له آيةٍ تدُل على أنّه واحدُ

ثمّ أنّ الأيات على قسمين:

تدوينيّ، و تكوينيّ:

فالتّدويني هو ما بين الدّفتين المسمّى بالقرآن، من قرأ إذا جمع بإعتبار وجودها الجمعي، و الفرقان بإعتبار وجوده الفرقي المنزل من عند اللّه عزّ و جلّ على نبيّه المرسل و أنّما سميّت بالتّدويني لأنّها دوّنت في الكتاب.

و أمّا الأيات التّكوينية فهي على قسمين:

آفاقيّ و أنفسيّ:

و المراد بالأفاقيّ كلية العالم و قيل هو كتاب المبين و أمّ الكتاب و كتاب الإثبات.

قال اللّه تعالىٰ: **يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتٰابِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ**[٢].

و المراد بالأنفسي النُّفوس الموجودة، في الأبدان قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **من عَرفَ نَفسه فقد عَرف ربّه**، و لا آية في عالم الوجود أظهر و أدلّ على وجود الخالق و صفاته من النَّفس، و لذلك قال الباقر عليه السلام: **و لا معرفة كمعرفتك نفسك**، وللحبث فيه مقام آخر، إذا علمت ما تلوناه عليك.

فنقول قوله: **سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي اَلْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ اَلْحَقُّ** معناه سنريهم آياتنا في الأفاق، يعني بالبصر و فى أنفسهم يعني بالبصيرة و الرؤية القلبيّة لأنّ الآيات الأنفسيّة لا يمكن رؤيتها بالبصر وإلى هذا

١- الرّعد = ٣٩
٢- الانعام = ٥٩

المعنى أشير في الكتاب بقوله: **وَ فيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**[١] أي أفلا تبصرون بالرّؤية القلبيّة الّتي تحصل للإنسان بعد التّفكر و التّدبر و إمعان النّظر و المقصود من الآية أنّ الإنسان كيف ينكر ربّه مع وجود هذه الآيات الكثيرة.

قال بعض المحقّقين في معنى هذه الآية ما هذا لفظه يعني سأكحل عين بصيرتهم بنور توفيقي و هدايتي ليشاهدوا بها في مظاهري الأفاقيّة و ألاّ نفسيّه مشاهدة عيانٍ حتّى يتبيّن لهم أنّه ليس في الأفاق و لا في الأنفس إلاّ الوصفاتي و أسمائي و أنا الأوّل و الآخر و الظّاهر و الباطن ثمّ أكّده بقوله أو لم يكف علىٰ سبيل التّعجب.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: أنّ اللّه تجلّ بعباده من غير أن رأوه وأراهم نفسه من غير أن يتجلّى لهم.

فقوله عليه السلام: تجلّى لعباده أي أظهر ذاته في مرآة كلّ شيٍ يمكن أن يرى رؤيته عيان من غير أن رأوهم بهذا التّجلّي رؤية عيانٍ لعدم معرفتهم بالأشياء من حيث مظهريّتها له، و أراهم نفسه أي أظهرها لهم في آيات الأفاق و الأنفس من حيث أنّها شواهد ظاهرة له دلالات باهرة عليه فرأوه رؤية علم و عرفان.

و قوله عليه السلام: (من غير أن يتجلّى لهم) أي من غير أن يظهر ذاته فيها عياناً بحيث يعرفون أنّها مظاهر له و مرايا لذاته و أنّه الظّاهر فيها بذاته إنتهى كلامه.

أقول قال أميرالمؤمنين عليه السلام: ما رأيت شيئاً إلاّ و رأيت اللّه قبله و بعده و معه.

و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

دلى كز معرفت، نور و صفا ديد به هر چيزى كه ديد أوّل خدا ديد

١- الذّاريات = ٢١

و قال سيّد الشُّهداء، الحسين إبن علّي (صلوات اللّه عليهما) في دعاء العرفة:
كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمٰا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفتَقِرٌ اِلَيْكَ، اَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مٰا لَيْسَ لَكَ حَتّيٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتيٰ غِبْتَ حَتّيٰ تَحْتٰاجَ اِليٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَ مَتيٰ بَعُدْتَ حَتّيٰ تَكُونَ الْآثٰارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ اِلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لاٰ تَرٰاكَ عَلَيْهٰا رَقِيباً وَ خَسِرَتْ صَفقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً.

و قد شرحنا هذه الكلمات في شرحنا على دعاء عرفة بما لا مزيد عليه.

و قال عليه السلام في موضع آخر: تعّرفت لكل شئٍ فما جهلك شئٍ.

و قال عليه السلام: تعَّرفت إلّي في كلّ شئٍ فرأيتك ظاهراً في كلّ شئٍ.

و روي الصَّدوق بِأسناده في كتاب التَّوحيد عن أبي بصيرٍ قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام أخبرني عن اللّه عزَّ وجَّل هل يراه المؤمنون يوم القيامة قال عليه السلام: نعم، و قد رأوه قبل يوم القيامة فقلت متى قال عليه السلام: حين قال لهم ألست بِرَّبكم قالوا بلى، ثمّ سكت عليه السلام ساعة ثمّ قال و أنّ المؤمنين ليرونه في الدّنيا قبل يوم القيامة ألست تراه في وقتك هذا قال: أبو بصير فقلت له جعلت فداك أفأحدّث بهذا عنك فقال عليه السلام: لا فأنّك إذا حدَّثت به فأنكره منكرٌ جاهل بمعنى ما تقول ثمّ قدَّر أنّ هذا تشبيه كفر و ليست الرُّؤية بالقلب كالرُّؤية بالعين تعالى عمّا يصفه المشبهون الملحدون إنتهى.

و عن الكاظم عليه السلام: ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حِجابٍ محجوب و أستتر بغير سترٍ مستور انتهى.

و لنعم ما قيل في الفارسيّة:

أز فريب نقش نتوان خامهٔ نقّاش ديد

ورنه در اين سقف زنگارى يكى در كار هست

قال بعض أهل المعرفة، أنّ العالم غيب لم يظهر قطّ و الحقّ تعالى هو الظّاهر ما غاب قطّ و النّاس في هذه المسئلة على عكس الصّواب فيقولون العالم ظاهر و الحقّ تعالى غيب و قد عافى اللّه تعالى بعض عبيده عن هذا الدّاء و قد قال اللّه تعالى في كتابه: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ** والكلام في الباب طويل و البحر عميق ولنعم ما قيل:

در أيـــن ورطـــة كشـــتى فـــروشد هـــزار

نـــباشد أزأن تـــختهٔ أى بـــر كـــنار

و قد ورد في الأخبار إذا بلغ الكلام إلى اللّه فأمسكوا فنحن أمسكنا من الكلام و قلنا لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً و الحمد للّه ربّ العالمين.

و أمّا قوله تعالى: **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ** معناه تبيّن لهم أنّه الحَق الّذي لا سبيل للبطلان إليه أو أنّه الحقّ الّذي قائم بذاته و ما سواه قائم به أو هو الّذي منزّهٌ عن التّغير و الحدوث و أمثال ذلك من التّعابير فأنّ الحقّ يطلق على جميعها و اللّه تعالى حقٌّ من جميع الجهات و قوله: **أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** فَالهَمزة للإستفهام الإنكاري أي يكفي بربّك.

قال بعضهم الباء زائدة و التّقدير أو لم يكف ربّك أنّه عالم بجميع الأشياء.

و قال الآخر معناه أليس في اللّه كفاية في معاقبة هؤلاء الكفّار على كفرهم إذ كان عالماً بكلّ شئٍ مشاهداً لجميع ما يفعلونه قادراً على مجازاتهم عليه و كما أنّه شهيدٌ على ذلك هوَ شهيدٌ على جميع الحوادث و مشاهدٌ لجميعها و عالمٌ بها لا يخفي عليه شئ من موضعها ذكره في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف **بِرَبِّكَ** في موضع الرَّفع على أنّه فاعل (كفىٰ) و **أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** بدلٌ منه و تقديره (أو لم يكفهم أنّ ربَّك على كلّ شئٍ شهيد) و معناه أنّ هذا الموعود من إظهار آيات اللّه في الأفاق أنفسهم سيرونه و يشاهدونه فيتبيّنون عند ذلك أنّ القرأن تنزيل عالم الغيب الّذي هو على كلّ شئٍ شهيد إلى أخر ما قال إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكروه في المقام لا بأس به إلاّ أنّه ليس من تفسير الآية بشيٍ، و ذلك لأنّ اللّه تعالى لمّا قال في صدر الأية، **سَنُرِيهِمْ** أي سنري الكفّار المنكرين للتّوحيد، أو سنري جميع المرتابين و الشاكّين في توحيد اللّه، أياتنا في الأفاق و فى أنفسهم، يعني سنريهم أياتنا الأفاقيّة و الأنفسيّة حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، أي حتّى يظهر أنّه تعالى هو الحقّ الثّابت الدّائم الّذي لا سبيل للبطلان إليه.

ثمّ قال على سبيل التعجُّب **أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** على سبيل الإنكار أي يكفي في إثبات وجوده و صفاته و أنّه خالق جميع الأشياء شهوده و حضوره معهم و أنّه ليس بغائبٍ عنهم كما قال تعالىٰ: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**.

و بعبارةٍ أخرى، و هو أقرب إليكم من حبل الوريد، و لتوضيح ذلك نقول، الشّهود و الشّهادة الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة و قد يقال للحضور مفرداً كقوله تعالى: **عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ** لكن الشّهود بالحضور المجرّد أولى كما أنّ الشّهادة مع المشاهدة أولى و لذلك قال أنّه على كلّ شئ شهيد ولم يقل أنّه شاهد على كلّ شيٍ، أو على كلّ شئ شاهد. فالمشهود في الآية بمعنى الحضور فقوله على كلّ شئ شهيد، أي حاضرٌ مع كلّ شئ و فى كلّ مكانٍ و زمانٍ لا غائبٌ عنه و هذا معنى قول سيّد الشّهداء عليه‌السلام: **متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليك و متى بعدت حتّى تكون الأثار هي التّي توصل إليك،** و إذا كان الأمر على هذا المنوال فمعنى الآية يكفي في كونه حقّاً حضوره معك أينما كنت فلا تحتاج إلى دليلٍ أخر لو كنت عاقلاً و لهذا جئ الكلام بالإستفهام الإنكاري ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

سالها دل طلب جام جم از ما مى‌كرد
آنچه خود داشت ز بيگانه تمّنا مى‌كرد
گوهرى كز صدف كون و مكان بيرون بود
طلب از گمشدگان لب دريا مى‌كرد

بـيدلى در هـمه أحـوال خـدا بـا او بـود
او نـمى‌ديدش و از دور خـدايـا مـى‌كرد

أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة ما تقدّم الكلام فيه أخبر في هذه الآية أنّ الكفّار المنكرين للحقّ في شكّ من لقاء ربّهم، أي من لقاء ثوابه و عقابه لإنكارهم البعث و النّشور فمن أنكر اللّه انكر البعث بطريقٍ أولى و أنّما فسَّر المفسّرون لقاء الربّ بلقاء ثوابه و عقابه لأنّ اللّقاء الحقيقي في حقّه تعالى محال في الدّنيا و الأخرة.

و قال بعض المفسّرين:

الذّي يفيده سياق الآية هو أنّ فيها تنبيهاً على أنّهم لا ينتفعون بالإحتجاج على وحدانيّته بكونه شهيداً على كلّ شيءٍ و هو أقوى براهين التّوحيد و أوضحها لمن تعقّل لأنّهم في مريةٍ و شكّ من لقاء ربّهم غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شيءٍ من خلقه إنتهى.

أقول: ما ذكره لا بأس به و قد تحصلّ من هاتين الأيتين أنّ الكفر إذا ضمَّ به العناد و اللّجاج لا فائدة في الإحتجاج و إقامة البرهان على إثبات المدّعى فأنّ المعاند كثيراً ما ينكر الحقّ بلسانه ولو كان معتقداً بقلبه و هذا داء لا دواء له إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم عن الأفات.

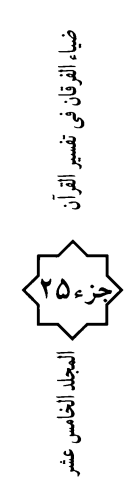
و أمّا قوله: **أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ** فمعناه واضح إذ الخالق محيطٌ بمخلوقه و إلاّ لا يكون خالقاً له.

■

سُورَةُ ٱلشّـُورٰى

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذٰلِكَ يُـوحِيٓ إِلَـيْكَ وَ إِلَـى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ٱللّٰهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ هُـوَ ٱلْـعَلِىُّ ٱلْـعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكٰادُ ٱلسَّـمٰوٰاتُ يَـتَفَطَّرْنَ مِـنْ فَوْقِهِنَّ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ أَلآٰ إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيٰآءَ ٱللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰآ أَنْتَ عَـلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرٰى وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُـنْذِرَ يَـوْمَ ٱلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّـةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ ٱلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَـصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيٰآءَ فَاللّٰهُ هُوَ ٱلْـوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتٰى وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ



﴿٩﴾ وَ مَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ
﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰجًا وَ مِنَ ٱلْأَنْعٰمِ أَزْوٰجًا
يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ
نُوحًا وَ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ
إِبْرٰهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَ
لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِىٓ إِلَيْهِ
مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَ مَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ
ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتٰبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ
مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَ قُلْ ءَامَنْتُ بِمَآ
أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتٰبٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمٰلُنَا وَ لَكُمْ أَعْمٰلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَ ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنْ

بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ﴿۱۶﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ ٱلْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ ٱلْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿۱۷﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمارُونَ فِى ٱلسّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿۱۸﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشآءُ وَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿۱۹﴾ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْاخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِى ٱلْاخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿۲۰﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ وَ لَوْلا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ ٱلظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴿۲۱﴾ تَرَى ٱلظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ ٱلْجَنّاتِ لَهُمْ ما يَشآؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿۲۲﴾ ذٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبادَهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ قُلْ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبىٰ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ

﴿٢٣﴾

◀ اللُّغة

يَتَفَطَّرْنَ: الفطر الشَّق.

أُمَّ ٱلْقُرَىٰ: أرض مكّة المكرّمة.

فَرِيقٌ: الفريق الطّائفة و الجماعة.

يَذْرَؤُكُمْ: الذَّرء في الأصل الظُّهور و المراد إظهار الشّئ بإيجاده.

مَقَالِيدُ: بفتح الميم المفاتيح.

شَرَعَ: بيَّن و أظهر.

يَجْتَبِيٓ: الإجتباء الإختيار.

يُنِيبُ: الإنابة الرُّجوع بالطّاعة و الإنقياد.

بَغْيًا: البغي التّجاوز عن الحدّ.

دَاحِضَةٌ: أي باطلة دحض الشّئ أي بطل.



◀ الأعراب

كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ يوحي بياء مضمومة على ما سمّي فاعله و الفاعل اللّه أي يوحي اللّه و ما بعده نعتٌ له و الكاف في موضع نصبٍ بيوحي، و قد يقرأ، بترك التَّسمية و فيه وجهان:

أحدهما: أن، كذلك مبتدأ، و يوحي الخبر، و اللّه فاعل لفعلٍ محذوف كأنّه قيل من يوحي، فقال، اللّه، و ما بعده نعتٌ له و يجوز أن يكون ٱلْعَزِيزُ مبتدأ و ٱلْحَكِيمُ نعتٌ له أو خبر لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ خبر أو خبر ثانٍ.

والوجه الثّانى: أن يكون كَذَٰلِكَ نعتاً لمصدرٍ محذوف و إِلَيْكَ قائم مقام

الفاعل أي وحياً مثل ذلك فَرِيقٌ هو خبر مبتدأ محذوف، أي بعضهم فريق في الجنّة و بعضهم فريق في السَّعير و يجوز أن يكون التّقدير منهم فريقٌ في الجنّة و منهم فريقٌ في السَّعير وَ ٱلظَّٰلِمُونَ مبتدأ و ما بعده الخبر ذَٰلِكُمُ مبتدأ و ٱللَّهُ عطف بيان أو بدل و رَبِّى الخبر فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بالجرّ بدلاً من الهاء في عليه و التّقدير، هو فاطر السّموات و الهاء في فِيهِ ضمير الجعل، و الفعل قد دلَّ عليه و الكاف في كَمِثْلِهِ زائدة و الباقي واضح.

◀ التّفسير

حمٓ، عٓسٓقٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة في أوائل السُّور غير مرّةٍ و قلنا و قالوا لا يعلم معناها إلاّ اللّه و الحقّ أنّها رموزٌ للسُّور و قيل غير ذلك و الحقّ ما ذكرناه لأنّها من المتشابهات الّتي لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و على هذا فما قال المفسّرون في معناها قالوا من عند أنفسهم نهينا عنه في تفسير الأيات، ثمّ أنّ القراءة المشهور في يُوحِيٓ ضمّ الياء و كسر الحاء على ما يسمّى فاعله و الفاعل هو اللّه، و ما بعده نعتٌ له و قرأ إبن‌كثير و مجاهد و ابن‌محيض، يوحى بفتح الياء على ما لا يسمّ فاعله و على هذه القراءة فيكون الجارّ و المجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل.

و قال بعضهم يجوز أن يكون، إسم مالم يسمّ فاعله، مضمراً أي يوحي اليك القرآن الّذي تضمّنته هذه السُّورة و يكون، إسم، اللّه، مرفوعاً بإضمار فعل، و التّقدير يوحيه اللّه اليك.

أقول الحقّ هو القرائة الأولى و الفعل على ما سمّي فاعله و أمّا ما نقلوه عن إبن كثير و مجاهد و هو فتح الياء على ما لا يسمّ فاعله فهو من قبيل الأكل من القفا فلا

يعتدّ به فالإعراض عنه أولى و على ما إخترناه فمعنى الآية كذلك يوحي اليك يا محمّد و الى الّذين من قبلك من الأنبياء، اللّه العزيز الحكيم، أي القادر الحكيم بمصالح الأمور و أمّا الوحي فقد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ و قلنا أنّه في الأصل الإشارة السّريعة و هو قد يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التّعريض و قد يكون بصوتٍ مجرّدٍ من التّركيب بإشارة بعض الجوارح و بالكناية، و يقال للكلمة الإلهية الّتي تلقى على أنبياءه و أولياء وحيٌ و ذلك إمّا برسولٍ مشاهدٍ ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل للنّبي في صورةٍ معيّنةٍ و أمّا بسماع كلامٍ من غير معاينة كسماع موسىٰ كلام اللّه بإلقاءٍ في الرّوح كما قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **أنّ روح القدس نفت في روعي.**

و أمّا بالهام نحو و أوحينا إلى أمّ موسى، و إمّا بتسخير نحو قوله تعالى: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**[1] أو بمنامٍ كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **أنقطع الوحي وبقيت المبشّرات رؤيا المؤمن،** و الحاصل أنّ الوحي إلى الأنبياء لم يكن على و تيرةٍ واحدة كما أشرنا إليه.

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ

اللاّم في **لَهُۥ** إمّا للملك أو الإختصاص و المآل فيهما إلى شئٍ واحد فأنّ الخالق يكون مالكاً لما خلقه و المخلوق أيضاً مملوك له أو مختصٌ به و حيث أنّ السّموات و الأرض و ما فيهما من المخلوق أوجدهم اللّه و خلقهم فصحّ قوله: **لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ و ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ** أي أنّه المُستَعلىٰ علىٰ كلّ قادرٍ و العظيم في صفاته الّتي لا يشاركه فيها أحد و من المعلوم أنّ المملوك مطيعٌ لمالكه منقادٌ له فمن تخلّف عنه يكون عاصياً و مذموماً عقلاً و نقلاً و هو ظاهر.

١- النّحل = ٦٨

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

قراءة العامّة، بِالتّاء و قرأ نافع و الكسائي بِالياء، في تكاد، و قوله: **يَتَفَطَّرْنَ** المشهور بِالياء و التّاء و التَّشديد و عليها المصاحف فعلاً.

و قرأ أبو عمرو و أبوبكر و المفضّل و أبو عبيد (يَنفِطَرن) من الإنفطار، و إمّا معنى الكلام فقال إبن عبّاس (يتفطَّرن) أي تكاد كلّ واحدةٍ منها تنفطر فوق الّتي تليها من قول المشركين **اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا** و قال السّدي و الضّحاك، يتفطَّرن أي يتثقفَّن من عظمة اللّه و جلاله فوقهنّ، و قيل معنى الكلام أنّ السّماوات تكاد تتفطَّرن من فوقهنّ إستعضاماً للكفر باللّه و العصيان له من خلقه مع عقوبته الواجبة على خلقه و ذلك على وجه التَّمثيل، لا انّ السّماوات تفعل شيئاً أو تنكر شيئاً و إنّما المراد أنّ السّموات لو إنشُّقت لمعصيةٍ إستعظاماً لها أو لشيٍ من الأشياء لتفطّرن إستعضاماً لكفر من كفر باللّه و عبد معه غيره المقام قول آخر ذكره بعض المفسّرين ممّن عاصرناه و حاصله أنّ سياق الآية يقتضي أن يكون الكلام مسروداً لبيان حقيقة الوحي و غايته و آثاره و أن يكون المراد من تفّطر السّموات من فوقهنّ تفطّرها بسبب الوحي النّازل من عند اللّه العليّ العظيم الماربّهنّ سماءٌ بعد سماء حتّى ينزل على الأرض فأنّ مبدأ الوحي هو اللّه سبحانه و السّموات طرائق إلى الأرض و ساق الكلام إلى أن قال على ما فيه من إعظام أمر الوحي و إعلائه فأنّه كلام العليّ العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السّموات يتفطّرن بنزوله و لكونه كلاماً نازلاً من عند ذى‌العلو المطلق يتفطَّرن من فوقهنّ لو تفطّرن فالآية في إعظام أمر كلام اللّه من حيث نزوله و مروره على السّموات إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره قدّس سرّه لا يرجع إلى محصّلٍ و إن أتعب نفسه في إبداع هذا القول و ذلك لوجوهٍ:

أحدها: أنّ قوله سياق الآية يقتضي أن يكون الكلام مسروداً لبيان حقيقة الوحي و غايته و أثاره، على خلاف السّياق و ذلك لأنّ مسألة الوحي قد تمّت بقوله: **كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَ إِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّ له ما في السّموات و ما في الأرض، أي أنّه تعالى خالقهما و مالكهما.

ثمّ بعد ذلك قال: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ** إلى أخر كلامه، و على هذا فلو إعتبرنا السّياق يكون الكلام مسروداً لبيان حقيقة المالكيّة و الإختصاص لهما لا لبيان حقيقة الوحي مضافاً إلى أنّ ما ذكره ليس لبيان حقيقة الوحي أثاره و غايته و أنّما هو شئ أخر لا ربط له بالوحي.

الثّاني: أنّ تفّطر السّموات بسبب الوحي النّازل من عند اللّه، لا معنى له و لا يقبله العقل و ذلك لأنّ الوحي ليس من الأجسام الثّقيلة حتّى يوجب تفّطرها و شقّها و و أوهنّ منه قوله، المارّ بهنّ سماءً بعد سماءٍ حتّى ينزّل على الأرض، وجه الضّعف و الوهن في هذا الكلام.

أمّا أوّلاً: لا ينسب إليه المرور فأنّ المرور من شئون الجسم.

ثانياً: أنّه ليس هناك سماء بعد سماء حتّى يمرّ الشّئ من سماء الى سماء حتّى ينزل على الأرض كما فصّلنا الكلام فيها سابقاً و على فرض التّسليم كيف يعقل مرور الوحي من سماء إلى سماء و على فرض تسليمه كيف يعقل أنّ الوحي الّذي ليس من الأجسام يوجب تفطرّ السّموات.

الثّالث: أنّ قوله فأنّ مبدأ الوحي هو اللّه سبحانه و السّموات طرائق إلى الأرض. ففيه أنّ مبدأ الوحي هو اللّه لا كلام فيه إلاّ أنّ اللّه ليس له مكان فوق السّموات بل جميع الأمكنة بالنّسبة إليه تعالى على حدٍّ سواء كما قال تعالى: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** و ليت شعري ما الّذي دعاهم إلى هذه التّأويلات الباردة و الإستخراجات الظّنية التّي لا فائدة فيها بل تضرّ و لا تنفع أصلاً و عدمها أولى من وجودها ولولا مخافة الإطناب لقلنا في الجواب غير ما ذكرناه.

و لذلك أعرضنا عمّا دركه صاحب الكشّاف في المقام فأنّه لفّق في تفسير الآية ما لم يلفّقه أحد أن شئت الإطّلاع عليه فعليك بكتابه و هكذا غيره ممَّن تبعه و قلَّده و بعد اللتيّا و اللّتي لم نر في تفاسيرهم ما تطمئنّ به النَّفس و يقبله العقل و فيما ذكرناه كفاية من نقل أقوالهم و الّذي خطر ببالنا بعد التأمُّل و التدبُّر في الآية هو أنّ اللّه تعالى أشار في الآية إلى أمورٍ:

أحدها: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ.**

الثّانى: **وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ.**

الثّالث: **وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ.**

و هذه الأمور لابة لها من أن يرتبط حدها بالأخر إذا عرفت هذا فنقول:

أشار بالأوّل: إلى كثرة الملائكة و بالثّاني إلى تسبيحهم و عبادتهم.

بالثّالث: إلى إستغفارهم لمن في الأرض و نحن نتكلّم في هذه الأمور إجمالاً:

أمّا الأمر الأوّل: و هو قوله: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ** بالملائكة ففيه إشارة إلى كثرة الملائكة فوق السّموات بحيث لا يعلم عددهم إلاّ اللّه تعالى و قوله: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ** أنّما جئ به على وجه التَّمثيل لا أنّ السّموات تفعل شيئاً أو تنكر شيئاً و لأجل هذا قال تعالى: **تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ**، أي تقرب فهذا اللّفظ كناية عن الكثرة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**[٢].

و الأمثال في القرأن كثيرة إذ المثل يقرّب المعنى المراد إلى الذّهن و من هذا القبيل.

١- الرُّوم = ٥٨ ٢- الزُّمر = ٣٧

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**(١).

أيظنّ العاقل أنّ الجبل صار كذلك مع كونه جماداً و الخشية من صفات القلب و كذلك الخشوع و الجماد لا قلب له فلا خشية له و أنّما الغرض من ذكر الجبل عظمة القرأن و بيان تأثيره لا أنّه لو نزل على الجبل صار الجبل خاشعاً متصدّعاً حقيقتاً و ذلك لأنّا علمنا بالضرورة أنّ القرأن لا ينزّل على الجماد أصلاً لعدم قابليّته و هكذا الكلام فيما نحن فيه فأنّا نعلم أنّ السّموات لا يتفطرّن من فوقهنّ بالملائكة لأنّ الملك لا جسم له ليكون له وزن فيتّصف بالثّقل نعم له جسم شفّاف على ما قيل و هو ممّا لا ثقل له و إذا لم يكن له ثقل فكيف يتفطرن السّموات.

فالغرض من هذا الكلام الإشارة إلى كثرة الملائكة و إن شئت قلت إن كان لهم أجسام ثقيلة صارت السّماء منفطرة لكثرة الملائكة و ثقلها و الدّليل على ما ذكرناه، قوله: **مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ ٱلْمَلاٰئِكَةُ**، و الباء للسَّبب أي بسبب وجود الملائكة على السّموات و يؤيد ما ذكرناه و حملنا الآية عليه.

ماروي عن رسول اللّه ﷺ حيث قال: أطّت السّماء و حقٌّ لها أن تئّط ما فيها موضع بشرٍ إلاّ و فيه ملكٌ قائم أو راكعٌ أو ساجدٌ إنتهى.

و هذا الحديث تفسير لقوله تعالى تكاد السّموات يتّفطرن من فوقهنّ بالملائكة بل كلام.

الأمر الثّاني: إشارة إلى أنّهم يسبّحون اللّه و يقدّسونه في جميع الأوقات و هم لا يفترون و قد مرّت الأيات الدّالة عليه.

١- الحشر = ٢١

قال اللّٰه تعالىٰ: **سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ**[١].

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلاٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**[٢].

قال اللّٰه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ**[٣].

قال اللّٰه تعالىٰ: **يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ**[٤].

قال اللّٰه تعالىٰ: **فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ**[٥].

و الأيات كثيرة فلا نحتاج إلى ذكر الأخبار الواردة في الباب.

الأمر الثّالث: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ أي للمؤمنين، لا لجميع أهل الأرض من الكفّار و الفّساق فاللّفظ عاّم و المعنى خاصّ ثمّ قال اللّه تعالى بعد ذلك.

أَلاٰ إِنَّ ٱللّٰهَ تعالى **هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** تارةً بالتّوبة و تارةً بالعفو كلّ ذلك تفضّلاً منه و رحمةً لهم، هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و اللّه من وراء القصد و الحمد للّه ربّ العالمين.

وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰآءَ ٱللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أي من دون اللّه، **أَوْلِيٰآءَ** و هم الكفّار الّذين إتّخذوا الأصنام و الأوثان و غيرهما من المخلوق آلهة لأنفسهم و وجّهوا عبادتهم في الدُّنيا اليها و أعرضوا عن عبادة خالقهم الّذي خلقهم، **ٱللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ** أي حافظٌ عليهم أعمالهم فلا يعزب عنه شئ منها **وَ مٰآ أَنْتَ** يا محمّد بوكيلٍ عليهم

١- الحديد = ١
٢- الرّعد = ١٣
٣- الأعراف = ٢٠٦
٤- الأنبياء = ٢٠
٥- فصّلت = ٣٨

أي لست وكيلاً بحفظ أعمالهم و أنمّا أنت منذرٌ لهم، و مـرشدهم الى الطّـريق السَّوي و حسابهم على اللّه ففي الآية دلالة على أنّ الأنبياء ليس لهم إلاّ إرشـاد النّاس و هدايتهم الى الحقّ فمن قبل منهم فلنفسه و من ردَّ عليهم و أنكرهم فعليها **مٰا رَبُّكَ بِظَلّٰامٍ لِلْعَبِيدِ** و قد مرَّ نظير الآية كثيراً فيما مضىٰ.

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ

قال المفسّرون معنى الأية، مثل ما أوحينا الى من تقدّمك من الأنبياء بالكتب الّذي أنزلنا عليهم أوحينا اليك أيضاً قرآناً عربيّاً.

أقول و الأحسن أن يقال في معنى الآية كما أوحينا الى من تقدّمك و أنـزلنا عليهم الكتب بلسان قومهم كذلك أوحينا اليك و أنزلنا عـليك الكـتاب القـرآن بلسان قومك أعني به لسان العرب **لِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرىٰ** أي أهل مكّة المكرّمة، و من حولها، أي و لتنذر به من حولها، و هم الأعراب الّذين كانوا في حوالي مكّة، و يحتمل أن يكون المراد بمن حولها جميع النّاس من العرب و العجم الّذين كانوا بلادهم ولم يكونوا من أهل مكّة و هذا الإحتمال أقرب من تـخصيص الحـول بأطراف مكّة و ذلك لأنّ رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان مبعوثاً الى شرق العالم و غربه و بعبارةٍ أخرى أرسله اللّه تعالى الى كافّة الخلق أينما كانوا في كرة الأرض و على هذا فقوله تعالى: **وَ مَنْ حَوْلَهٰا** يشمل جميع النّاس الّذين كانت بلادهم خارجة عن مكّة، و قوله: **وَ تُنْذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ** فالمراد به يوم الحشر، و قيل يوم القيامة و هو اليوم الّذي لا ريبَ فيه **فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ** ثمّ قسّم اللّه يوم القيامة فقال: **فَرِيقٌ** أي جماعة منهم في الجنّة و فريقٌ في السَّعير أي نار جهنّم جزاءً على معاصيهم الّتي إرتكبوها في الدُّنيا، و هذا تفسير ألفاظ الآية و الّذي حصل لنا منها أمورٌ لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً.

أحدها: أنّ القرآن كلام اللّه تعالى أنزله على نبيّه بطريق الوحي و ليس من كلام المخلوق.

الثّاني: أنّ القرآن المنزل على النّبي بلغة العرب لا بغيرها من اللّغات و فيه إشارة الى أنّ الكتب السّماوية الّتي أنزلها اللّه على الأنبياء قبل رسول الإسلام أيضاً كانت بلسان قومهم و الدّليل عليه قوله: **كَذٰلِكَ** كما أنّ الرّسول الّذي أرسله اللّه في كلّ زمانٍ كان بلسان قومه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**(۱).

الثّالث: أشار اللّه تعالى إلى وظيفة الرّسول و قال: **لِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا** و فى قوله: **وَ مَنْ حَوْلَهٰا** إشارة إلى أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم كان مبعوثاً إلى جميع الخلق و أمّ القرى، أرض مكّة الكرّمة سمّيت به لأنّ الأرض دحيت من تحتها و لذلك سمّي يوم الخامس و العشرين من شهر ذي القعدة يوم دحو الأرض، و كلمة، أمّ، في اللّغة الأصل كما قيل أمّ الشّئ أصله.

و **القُري** بضمّ القاف جمع قرية و هى كلّ بقعةٍ من الأرض إختارها النّاس للسّكنى، فأمّ القرى معناه أصل الأرض و لذلك يقال أنّ أرض مكّة أشرف بقاع الأرض، و لوقوع البيت فيها، و أنّما خصّ الإنذار بالذّكر دون الإرشاد و الهداية لأنّ الإنذار لا يكون إلاّ من النّبي و أمّا الهداية و الإرشاد و الموعظة و غيرها، فمشتركٌ بينه و بين وصيّه بل علماء أمّته أيضاً فأنّها من وظائف جميع أفراد الأمّة على أساس السُّنة.

و أمّا الإنذار فلا يتأتّى إلاّ منه هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الإنذار مقدّمٌ على جميع الأمور و فى تخصيص يوم الجمع بالذّكر مع أنّه كان داخلاً في الإنذار إشارة إلى أهمية القيامة و أنّها يومٌ على الكافرين عسيرٌ.

الرّابع: أنّ النّاس على قسمين صالحٌ و غير صالحٍ و هذا التّقسيم عقليٌ إذ الأمر

۱- إبراهيم = ۴

دائرٌ بين النَّفي و الإثبات فإذا كان الإنسان صالحاً فهو من أهل الجنّة و إلاّ فهو من أهل النّار و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ** فمن أقرّ بالتّوحيد و إعتقد به و عمل صالحاً فهو من أهل الجنّة و من أنكر التّوحيد ولم يعمل عملاً صالحاً فهو من أهل النّار و هو واضح.

وَ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واٰحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰآءُ فِى رَحْمَتِهِ وَ ٱلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قدرته بأنّه لو شاء أن يلجأهم إلى الإيمان و دين الإسلام لكان قادراً على ذلك.

و قال الضّحاك لجعلهم أمّة واحدة أي أهل دين واحد، و أهل ضلالةٍ أو أهل هدىً.

أقول في هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى أمرين:

أحدهما: أنّه تعالى قادرٌ على كلّ شيٍ و هذا ممّا لا شكّ فيه.

الثّاني: أنّ إختلاف الأمم في الإيمان و الكفر و ما يتفرّع عليهما أنّما هو معلول إختيارهم و إرادتهم فمنهم من يختار الكفر و منهم من يختار الإيمان ولو شئنا وحدة كلمتهم و إعتقادهم لفعلنا ذلك و لكن لم نفعل ذلك لأنّه يبطل الغرض بالتّكليف و توضيحه أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان و كلّفه بالتّكاليف الشّرعية بإختياره و إرادته ولم يجبره على قبول التّكليف و عدمه بل جعله مختاراً في ذلك ليستحقّ الثّواب على الطّاعة و العقاب على المعصية بسبب فعله و هذا هو الغرض من التّكليف و ذلك لأنّ اللّه غير محتاج إلى عبادة العبد فإذا كان الغرض من التّكليف أن يفعل العبد العبادة على وجهٍ يستحقّ بها الثّواب فلابدّ أن يكون العبد مختاراً في فعله إذ لو كان مجبوراً عليه لم يستحقّ الثواب فأنّ الثواب يترتّب على الفعل الإختياري كما أنّ العقاب أيضاً كذلك.

و حيث أنّ اللّه أراد أن يكون الفعل الصّادر من العبد عن إختياره ليترتّب عليه

الجزاء لم يجعله مضطرا فيه.

إذا عرفت هذا فإعلم أنّ الجعل في إصطلاح الفلاسفة على قسمين، بسيطٌ و مركّبٌ، فالجعل البسيط إيجاد الشّئ فقط.

و المرّكب جعل الشّئ شيئاً فالجعل البسيط ما كان متعلّقه الوجود النّفسي و الجعل المؤلَّف ما كان متعلّقه الوجود الرّابط فأنّ الأوّل جعل الشّئ و إفاضة نفس الشّئ و بلسان الأدباء الجعل المتعدّي إلى الواحد.

الثّاني: جعل الشّئ شيئاً و الجعل المتعدّي لأثنين إذا عرفت هذا الإصطلاح في الجعل، فالجعل المركّب أو المؤلَّف يختصّ تعلّقه بالعرضيّات المفارقة، لخلوّ الذّات عنها و لا يتصوّر بين الشّئ و نفسه و لا بينه و بين ذاتيّاته ولا بينه و بين عوارضه اللازمة كالإنسان إنسانٌ و الإنسان حيوان لأنّ الإنسانيّة من ذاتيّاته و الحيوانيّة من عوارضه اللاّزمة له و هكذا الأربعة زوج و الثّلاثة فرد لأنّها نسبٌ ضروريّة و مناط الحاجة هو الإمكان، و الوجوب و الإمتناع مناط الغنا.

و لذا قال الشّيخ إبن سينا ما جعل اللّه المشمش مشمشاً و لكن أوجده يدلّ هذا الكلام من الشّيخ على عجز الخالق و ضعف قدرته بل يدلّ على أنّ المشمشيّة للمشمش و الزّوجية للأربعة و الفرديّة للثلاثة و الحرارة للنّار و الرُّطوبة للماء بعضها من الذاتيات و بعضها من العوارض اللاّزمة الّتي لاتنفكّ عن معروضاتها و هى غير قابلة للجعل مستقلاً و أنّما هي مجعولات بتبع الذّات و المعروض و هما مجعولان بالجعل البسيط أعني به الإيجاد فإيجاد الإنسان يكفي في إنسانيّته أو حيوانيّته كما أنّ إيجاد الأربعة يكفي في زوجيّته و هكذا إيجاد النّار يكفي في حرارته و قس على هذا غيره و بعد بيان هذه المقدّمة نرجع إلى ما نحن بصدد إثباته و هو أنّ الإنسان موجود مركّبٌ من الماهيّة و الوجود و أنّما قلنا ذلك لأنّ الإنسان ممكن الوجود.

و قد قالوا في تعريف الممكن أنّه زوجٌ تركيبيّ و نسبته الماهيّة إلى الوجود و العدم على حدٍّ سواء فهي محتاجة إلى غيرها في خروجها عن حدّ الإستواء، ثمّ أنّ

المخرج لها عن حدّ الإستواء لا محالة يكون موجوداً إذ المعدوم لا يكون علّة للوجود و الإيجاد، و الموجود لا يخلو إمّا أن يكون واجباً او ممكناً، لإنحصار الموجود فيهما عقلاً، لا سبيل إلى الثّاني لأنّ حكم الأمثال واحد فلو كان المخرج ممكناً نقل الكلام إليه لوجود المناط و هو الإحتياج فيه إلى غير النّهاية و هذا هو التّسلسل الّذي إتّفقوا على إستحالته، فالمخرج ليس إلاّ الواجب تعالى و هذا ممّا لا كلام فيه عقلاً و نقلاً كما ثبت في محلّه.

فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ الخالق هو الواجب في جميع الموجودات و منها الإنسان، و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في كفره و إيمانه و بعبارةٍ أخرى ليس الكلام في خالق الإنسان و أنّما الكلام في أنّ الإنسان الكافر مخلوقٌ أو مجعولٌ بما هو هو مع قطع النّظر عن الكفر و هكذا المؤمن تعلّق به الجعل بما هو هو أو تعلّق بهما و بكفرهما أو إيمانهما و أن شئت قلت مجعول بالجعل البسيط و هو الإيجاد المجرّد أو مجعولٌ بالجعل المركّب و هو جعل الشّئ شيئاً أعني به جعل الإنسان كافراً أو مؤمناً فأن قلنا بالجعل البسيط كما هو الحقّ فاللّه تعالى أوجده و الكفر و الإيمان ليسا بمجعولين.

على الثّاني: فهما أيضاً مجعولان بمعنى أنّ اللّه تعالى خلقه أو جعله أو أوجده كافراً أو مؤمناً و هذا غير معقولٍ، و ذلك لأنّ الكفر و الإيمان ليسا من الذّاتيين للإنسان و لا من العوارض اللاّزمة لمعروضاتها و هو واضح إذ لو كان الكفر و الإيمان من الذاتيات للإنسان فلم يمكن للكافر أن يؤمن باللّه و لا للمؤمن أن يكفر به و نحن نرى الكافر يصير مؤمناً و المؤمن يصير كافراً و ليسا أيضاً من العوارض اللاّزمة التّي لا تنفكّ عن معروضاتها كالزّوجية للأربعة و الفرديّة للثلاثة، لما ذكرناه من إمكان الإنفكاك و إذا كان كذلك فجعل الإنسان و إيجاده ليس جعل كفره و إيمانه و إذا لم يكن الكفر و الإيمان من المجعولات للّه تعالى فهما مجعولان للإنسان نفسه و لا نعني بالإختيار إلاّ هذا و إذا ثبت هذا فلنرجع إلى

تفيسر الآية و نقول قوله تعالى: **وَ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واٰحِدَةً** معناه أمّةً واحدة على الكفر أو أمّة واحدة على الإيمان بأن جعلهم اللّه كافرين أو مؤمنين إلاّ أنّه تعالى لم يشأ ذلك لا أنّه لم يكن قادراً عليه بل لمصلحةٍ إقتضاها التّكليف و بعبارةٍ أخرى لو شاء اللّه لجعل الكفر و الإيمان من ذاتيّات الإنسان كالحيوانيّة او من عوارضه اللازمّة له كالزوجيّة للأربعة و لكنّه لم يشأ لما ذكرناه من المصلحة فالآية دالّة على كمال قدرته و أنّ أعمال القدرة على أساس المصلحة.

و لعمري أنّ الآية و أمثالها من أدلّ الدّلائل على الإختيار و نفي الجبر فإفهم هذا و إغتنم فأنّ هذا التّحقيق حول الآية لا تجده في غير هذا الكتاب و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

و قوله: **وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰآءُ فِي رَحْمَتِهِ** إلى أخر الأية، فأنّه حقّ لا مرية فيه و ذلك أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له، فمن أعطى الإختيار إلى عباده هو أولى بالإختيار منهم فيدخل من يشاء في رحمته و هو العبد المطيع، و لا يدخل غير المطيع و هو الظّالم في رحمته.

و من المعلوم أنّ العبد الكافر أو العاصي الّذي طرده اللّه عن رحمته و أخرجه من الولاية الّتي ثبتت للخالق بحكمٍ الخالقيّة لا وليّ له و لا نصير.

أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَاللّٰهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتٰى وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

قيل، أم، بمعنى، بل، أي بل إتّخذ هؤلاء الكفّار من دون اللّه أولياء، لمّا قال تعالى في الآية السّابقة ما لهم من ولّيٍ و لا نصير قال في هذه الآية بل إتّخذوا من دون اللّه أولياء من الأصنام و الأوثانٍ و غيرهما.

فَاللّٰهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ لا غيره لأنّ تقديم المسند إليه يفيد الحصر.

وَ هُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتٰى وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي أنّ الوليّ يحي الموتى و هو على كلّ شئٍ قدير، فمن لا يقدر على إحياء الأموات و لا يقدر على

كلّ شئٍ فهو ليس بوليٍّ و حيث أنّ هاتين الصَّفتين أعني بهما إحياء الموتى و القدرة المطلقة ممّا لا يوجد في غير اللّه فالولاية على الخلق منحصرةٌ به تعالىٰ.

وَ مَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ

ما، موصولة بمعنى الّذي و الإنابة الرُّجوع و معنى الآية أنّ الّذي إختلفتم فيه في أمر دينكم و دنياكم فحكمه إلى اللّه تعالى لأنّه الحاكم على عباده و الفاصل بين الحقّ و الباطل، و قيل معناه، و ما خالفكم فيه الكفّار من أهل الكتاب و المشركين من أمر الدِّين فقولوا لهم حكمه إلى اللّه لا إليكم.

أقول ما ذكره هذا المفسِّر لا دليل عليه و ذلك لأنّ المستفاد من الآية عموم الحكم في موارد الإختلاف فتخصيصه بأهل الكتاب و الكفّار لا دليل عليه، و قد أشار اللّه تعالى إلى عموم هذا الحكم في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا**(١).

و أنّما قال تعالى ذلك لئلّا يتحاكموا إلى الطّاغوت في موارد الإختلاف:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوٓا إِلَى ٱلطّٰغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوٓا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِۦ وَ يُرِيدُ ٱلشَّيْطٰانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلٰالًا بَعِيدًا**(٢).

١- النّساء = ٥٩

٢- النّساء = ٦٠ / ٥٩

فمن زعم أنّ الحكم في الآية راجع إلى الأخرة، فقد أخطأ و ذلك لأنّ الإختلاف بين النّاس في الدّنيا و أمّا في الأخرة فلا إختلاف فيها بين النّاس.

و قوله تعالىٰ: **فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** في الأخرة لا في الدّنيا إذ الحكم في الأخرة مختصٌّ به، لا يثبت مدّعاه فأنّ الحكم في الدّنيا أيضاً مختصٌّ به تعالى إلاّ أنّه في الدّنيابواسطة الرّسول وأوصياءه فأنّ حكمهم حكم اللّه و هوواضح.

و قوله: **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى** أي الموصوف بهذه الصّفات و هو أنّه الوليّ و محي الموتى و على كلّ شيءٍ قدير، ربّي، الّذي خلقني و ربّاني و إليه أنيب، و أرجع بعد الموت بعد توكّلي عليه في الدنيا في جميع أموري و من يتوكّل على اللّه فهو حسبه.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَ مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ

قوله: **فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ** بالرّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف أي هو فاطر السّموات، أو أنّه بدل من، اللّه في قوله: **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ** و الفطر في الأصل الشقّ طولاً و فطر اللّه الخلق هو إيجاده الشّيء و إبداعه على هيئةٍ مترشّحةٍ لفعلٍ من الأفعال و أنّما عبّر عن الخلق بالفطر الّذي هو في الأصل الشقّ، لأنّ الممكن من شأنه أن يكون ليساً و من علّته أن يكون أيساً، و الأيس الوجود، و اللّه تعالى أخرج المخلوق من اللّيسيّة المحضة إلى الوجود فكأنّه شقّها و لا يقدر على ذلك غيره، و يحتمل أن يكون المراد أنّ السّموات و الأرض كانتا رتقاً ففتقهما أي شقّهما، و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالى خالق السّموات و الأرض.

جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا يعني أشكالاً مع كلّ ذكرٍ أنثى ليسكن إليها و يألفها و فى قوله: **مِّنْ أَنفُسِكُمْ** إشارة إلى وحدة النّوع أي أنّ الأزواج من جنس البشر.

و قال القرطبي و غيره من مفسّري العامّة، **أَزْوَاجًا** أي أناثاً، و من أنفسكم، لأنّه خلق حوّاء من ضلع أدم، و قد مرَّ الكلام في هذا الباب عند البحث في كيفيّة خلق أدم و حوّاء و قلنا هناك أنّ القول بأنّ حوّاء خلقت من ضلع أدم، من الأقوال السخيفة الموهومة لا يساعده العقل و النقل الصحيح فلا نطيل الكلام بذكره ثانياً.

وَ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا و المراد بالأنعام الإبل و البقر و الضّأن و المعز، و أزواجها أناثها، فجعل من الإبل اثنين و من البقر أثنين و من الضّأن أثنين و من المعز أثنين ذكوراً و أناثاً فجعل اللّه لكلّ حيوان زوجاً من شكله على ما تقتضيه الحكمة فيه و هي التّي أشار إليها بقوله: **يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ** أي يخلقكم و يكثركم فيه يعني في التّزويج و في ما حكم فيه، و الذَّرء في الأصل إظهار الشّئ بإيجاده يقال ذرأ اللّه الخلق ذرا أي أظهرهم بالإيجاد من العدم.

و المقصود من قوله: **يَذْرَؤُكُمْ** هو كثرة النّسل في الإنسان و الحيوان ممّا لا خفاء فيه إذ لولا خلق الأزواج لإنتفى النَّسل و هو خلاف الحكمة و المصلحة ثمّ وصف نفسه فقال: **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** الكاف زائدة بإتّفاق المفسّرين و التّقدير ليس مثله شئ، هكذا قالوا، و الحقّ أنّها ليست بزائدة بل الكاف لتّأكيد النّفي تنبيهاً على أنّه لا يصحّ إستعمال المثل و لا الكاف فنفى، بليس، الأمرين جميعاً و قيل المثل هاهنا بمعنى الصّفة و معناه ليس كصفته صفة تنبيهاً على أنّه و إن وصف بكثير ممّا يوصف به البشر فليس تلك الصّفات له تعالى على حسب ما يستعمل في البشر لأنّ الصّفات في الخالق عين الذّات و في المخلوق زائدة عليها، و المشهور عند المحقّقين أنّ المراد بالمِثل الذّات و ذلك لأنّ المِثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنىً من المعاني أيُّ معنىً كان و هو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، فأنّ النّد يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، و الشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، و المساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط، و الشكل يقال فيما يشاركه في القدر و المساحة فقط.

و أمّا المثل فهو عامّ في جميع ذلك فلمّا أراد اللّه تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجهٍ خصّه بالذّكر فقال: **لَيس كَمِثله شيءٌ** و لمّا نفي المثليّة أشار إلى وصفين ثابتين له و هو أنّه سميعٌ أي عالمٌ بالمسموعات بصير أي عالمٌ بالمبصرات لا أنّه يسمع بألة السّمع و يبصر بألة البصر لأنّ السّمع و البصر بهذا المعنى من لوازم الأجسام التّي لها أجزاء و كلّ جسمٍ مركّب من الأجزاء فهو محتاج إلى أجزاءه و كلّ محتاج ممكن الوجود وكلّ ممكن مخلوق.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

مَقاليد، بفتح الميم جمع مقلد كمنجل، و مقلاد كمصابيح جمع مصباح و قيل أنّه جمع لا واحد له و الأقليد المفتاح لغةٌ يمانيّة معرّب و أصله بالرّومية إقليدس و الجمع أقاليد و القلائد ما يقلّد به الهدى من نعلٍ أو غيره ليعلم بها أنّه هدى، و المعنى له، أي للّه تعالى مقاليد السّموات أي مفاتحها، و قيل خزائنها، و قيل أي ما يحيط بها و الحقّ أنّ كلّها يرجع إلى معنى واحد و هو قدرته عليها و حفظه لها، فالمقاليد كناية عن القدرة و أنّ الأمور بيده يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ** أي يضيق فأنّ توسعة الرّزق و تقديره معناه يمحو اللّه ما يشاء و يثبت و عنده أمّ الكتاب، و ذلك لأنّ الرّزق قسمان، مقدّرٌ و غير مقدّرٌ و بعبارةٍ أخرى معيّنٌ محتوم و غير معيّنٌ.

فالأوّل: لا زيادة فيه و لا نقصان.

الثّاني: ليس كذلك لأنّه من فضله و هو الّذي يبسطه لمن يشاء و يقدر، و الأدعية الواردة في طلب زيادة الرّزق يحتمل على هذا المعنى و لذلك ورد، **أُطلبوا الزّيادة من فضله** و أنّ بعض الأعمال يوجب زيادة الرّزق و بعضها يوجب نقصانه كما ورد ذلك في الأجال أيضاً.

و قوله تعالى: **أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** إشارة إلى أنّ اللّه يعلم مصالح العباد و

مفاسده و لا يخفى عليه شيئ فمن بسط في رزقه أو قدر فيه فالمصلحة إقتضت ذلك و اللّه تعالى يحكم بما يشاء و يحكم بما يريد و لا رادّ لقضائه لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

حاصل الكلام في الآية الشّريفة أنّ اللّه الّذي خلق السّموات و الأرض وما فيهما من المخلوق يدّبر الأمر كيف يشاء و له الحكم بما أراد في خلقه أو يريد كما هو مقتضى الإيجاد و الخلق فينبغي للعبد أن يعرف خالقه و يعبده و أن لا يشرك بعبادة ربّه أحداً و لا يطلب حاجةً من غيره و لا يستعين بغيره، و هذا هو المقصود من ذكر الآية و أمثالها.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ

الشَّرع نهج الطّريق الواضح يقال شرعت له طريقاً فقوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا** إشارة الى الأصول الّتي تتساوى فيها الملل يصحّ عليها النّسخ كمعرفة اللّه و معرفة أنبياءه و معرفة المعاد و غير ذلك ممّا دلَّ عليه قوله تعالى: **وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَ مَلَآئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ**[1].

و قال بعضهم معنى، شرع، أظهر و بيّن.

أقول لمّا بيّن اللّه تعالى فيما مضى أنّه فاطر السّموات و الأرض و هو الّذي جعل لكم من أنفسكم أزواجاً و من الأنعام كذلك و هو الّذي بيده مقاليد السّموات و الأرض و يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر هذه النّعم كلّها من سنخ الماديات الّتي يحتاج الموجود اليها في حياته لبقاء جسمه و إدامة حياته المّادية

١- النسّاء = ١٣٦

المشتركة بين الإنسان و الحيوان.

أشار في هذه الآية الى ما يتعلّق بكمال الرُّوح و هو الّذي يكون الإنسان بالإتّصاف به إنساناً واقعاً و من لا يتَّصف به لا يكون له من الإنْسانية حظٌّ نصيبٌ و هو الكمالات الّتي بها يمتاز الإنسان من الحيوان من العلم و الجود و الشجاعة و العدالة و الصَّبر و غير ذلك من الصّفات و يعبّر عن مجموعها بالدِّين فأنّ الدِّين حاوٍ لجميع الكمالات و نافٍ لجميع النّقائض فالأعمال و الأفعال الّتي لها دخلٌ في صعود البشر الى مقام الإنسانيّة و القرب الى ما خلق لأجله فهو مأمورٌ به في الدِّين و ما ليس كذلك فهو منهيّ عنه و لذلك قلنا أنّ الدِّين جامعٌ لجميع الكمالات و الصفّات الّتي تحصل السّعادة للبشر فمن لا دين له لا يكون إنساناً واقعاً إذا عرفت هذه المقدّمة النّافعة فنقول.

قوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا** الخطاب للرسول و الأمّة جميعاً و قوله ما وصّى به نوحاً، فيه إشارة الى أنّ نوح النّبي كان أوّل من شرع له الدِّين أعني به الأحكام الشّرعية فأنّ الشَّريعة مشتملة على عقائد و أحكام و يقال أنّ نوحاً أوّل من أتى بها هكذا قيل و عليه المفسّرون من العامّة و الحقّ أنّ ما ذكروه لا يعتمد عليه فأنّ لازم ذلك أن يكون البشر غير مكلّفٍ بالتّكاليف الشرعية من زمان آدم الى زمان نوح و هو كما ترى.

قال القرطبي و هو من أعيان العامّة في تفسيره لهذه الآية ما لفظه.

قال القاضي أبو بكر بن العربّي ثبت في الحديث الصّحيح أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الحديث المشهور، و لكن إئتوا نوحاً فأنّه أوّل رسولٍ بعثه اللّه الى أجل الأرض فيأتون نوحاً فيقولون له أنت أوّل رسولٍ بعثه اللّه إلى أهل الأرض، و هذا صحيحٌ لا إشكال فيه كما أنّ أدم أوّل نبّيٍ بغير إشكال لأنّ أدم لم يكن معه إلاّ نبّوة ولم تفرض له الفرائض و لا شرعت لَهُ المحارم و أنّما كان تنبيهاً على بعض الأمور و إقتصاراً على ضرورات المعاش و أخذاً بوظائف الحياة و البقاء و إستمرّ المدى

إلى نوح فبعثه اللّه بتحريم الأمّهات و البنات و الأخوات و وظّف عليه الواجبات و أوضح له الأداب في الدّيانات ولم يزل ذلك يتأكّد بالرُّسل و يتناهى الأنبياء (و يتناثر خ ل) صلوات اللّه عليهم واحد بعد واحدٍ و شريعة أثر شريعة حتّى ختمها اللّه تعالى بخير الملل ملّتنا على لسان أكرم الرُّسل نبّينا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فكان المعنى أوحيناك يا محمّد و نوحاً ديناً واحداً يعني في الأصول التّي لا تختلف فيها الشّريعة و هى التّوحيد و الصّلاة و الزّكوة الخ إنتهى.

و تبعه على ذلك أكثر العامّة أو جميعهم و أنّما قالوا ذلك لأنّهم قالوا في كيفيّة إزدواج أولاد أدم بصّحة تزويج الأخ مع الأخت كما مرَّ الكلام فيه سابقاً في كيفيّة كثرة النَّسل في أولاد أدم و قلنا هناك ما هو الحقّ في المسألة و الذّي نقول به في المقام أنّ ما ذكره القرطبي من أنّ أدم لم يكن معه إلاّ نبّوة ولم تفرض له الفرائض و لا شرعت له المحارم.

و أنّ نوحاً أوّل من بعثه اللّه بتحريم الأمّهات و البنات و الأخوات كلامٌ بلا محصل و كيف يعقل أن يكون أدم نبيّاً ولم تفرض له الفرائض و لا شرعت له المحارم أليس النّبي مخبراً عن اللّه تعالى إلى خلقه فإذا لم يكن حكمٌ من اللّه تعالى فما معنى نبوّة أدم هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لازم ذلك عدم التكليف في أولاد أدم إلى زمن نوح و أن يكون الإنسان كالحيوان يفعل ما يشاء من عند نفسه و قد ثبت في الأخبار أنّ أدم عاش في الدّنيا تسع مائة و ثلاثون سنة (٩٣٠ سنة) و لمّا حان أجله أوصى إلى إبنه شيث بأمرٍ من اللّه تعالى و هو عاش في الدّنيا (٩١٢ سنة) ولمّا إنقضت أيّامه أوصى إلى إبنه أنوش و هو عاش (٧٠٥ سنة) و قام بعده بالأمر (قينان) و بعده (مهلائيل) و بعده (يرد) و بعده إدريس النّبي و بعده (متوشلخ) و بعده (لمك) و هو والد نبّي اللّه نوح و قد عاش في الدّنيا (٩١٩ سنة) ثمّ بعده قام بالأمر نوح النّبي جدّ إدريس بالنبوّة و كان إسمه عبد الغفّار أنّما سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكاءه مدّة خمس

مائة سنة خوفاً من اللّه على ضلالة أمّته أوّل الأنبياء الخمسة أولي العظم المبعوثين إلى الجنّ و الإنس كافّة و هم أفضل الأنبياء و الأربعة بعد نوح هم إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد و هو سيّدهم و أفضلهم صلوات اللّه عليهم أجمعين.

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول خصّ اللّه تعالى هذه الخمسة بالذّكر لأنّهم أفضل الأنبياء و أولوا العظم منهم و قدَّم نوح النّبي في اللّفظ لأنّه كان أقدمهم و أسبقهم و أن شئت قلت أوَّلهم لما ذكروه من أنّه لم يكن قبله فرائض و أحكام فأنّ الأرض لا تخلو من حجّةٍ إلى يوم القيامة.

قال الصّادق عليه السلام: الحجّة قبل الخلق و مع الخلق و بعد الخلق.

قال عليه السلام:، لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها.

و لا نعني بالحجّة إلاّ النّبي أو وصيّ النبيّ ففي الآية إشارة إلى أنّ أصول الأحكام في جميع الأديان واحدة و هى التّوحيد و النبوّة و المعاد و أمّا الأحكام الفرعيّة فهي تختلف بإختلاف الأزمنة حسب ما تقتضيه المصلحة.

و قال بعض المفسّرين المراد بالأصول التّي لا تختلف هي التّوحيد و الصّلاة و الزّكوة و الحجّ و التقرُّب بصالح الأعمال و الصّدق و الوفاء بالعهد و أداء الأمانة و صلة الرّحم و تحريم الكبر و الزّناء إلى أخر ما قال و كيف كان فالأمر سهلٌ لأنّ جميع الأصول و الأحكام يرجع إلى التّوحيد.

قال اللّه تعالى لرسوله: **قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ**[1].

و أمّا قوله تعالى: **أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** قيل في موضع **أَنْ أَقِيمُوا** دوجوهٌ من الإعراب:

١- أل عمران = ۶۴

أحدها: أن يكون نصبا بدلاً من، ما، في قوله: **مٰا وَصّٰى**.

الثّاني: أن يكون جرّاً بدلاً من الهاء في (به).

الثّالث: أن يكون رفعاً على الإستئناف و التّقدير (هو أن أقيموا) أي ما وصّى به نوحاً هو أن أقيموا الدِّين قيل المراد بإقامة الدِّين الإخلاص له تعالى و عبادته، و الأظهر أنّ المراد بها العمل بالأحكام و الإتيان بها على ما ينبغي.

و قال مجاهد لم يبعث نبيٌّ إلاّ أنّه أمر بإقامة الصّلاة و إيتاء الزّكوة و الإقرار باللّه و طاعته فهو إقامة الدّين.

و قوله: **وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** من إقامة الدّين بل تفسير له من وجهٍ فأنّ التّفرق فيه ينافي إقامته بل يوجب إعوجاجه و إنحرافه و لذلك قال اللّه تعالى:

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعًا وَ لاٰ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰانًا وَ كُنْتُمْ عَلٰى شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا[١].

و لا نعني بإقامة الدّين إلاّ إجراء الأحكام على وجهها فأنّه يوجب تأليف القلوب في الدنيا و النّجاة من العذاب في الأخرة و هذا الحكم عامّ يشمل جميع الأمم.

و قوله: **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** أي ما تدعوهم إليه من التّوحيد و النبوّة و المعاد و معنى، كبر، ثقل، و ذلك لكفرهم و عنادهم و خبث طينتهم، و يحتمل أن يكون المعنى، كبر عليهم كونك داعياً إلى اللّه و مدّعياً للنبّوة و أنت مثلهم بشر و من قبيلتهم أنّك نبيّ و ليس لهم ذلك و لم يعلموا أنّ أمر النبّوة بيد اللّه كما قال: **اَللّٰهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** الإجتباء الإختيار أي أنّ اللّه تعالى يختار من يشاء للنبّوة و الرّسالة و يهدي إلى طريق الحقّ من يرجع إليه بالتّوبة و الإنابة، ففي هذا الكلام إشارة

١- أل عمران = ١٠٣

إلى أنّ إختيار الرّسول من اللّه و قبول التّوبة أيضاً منه.

وَ مٰا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْلاٰ كَـلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

«ما» نافية؛ بمعنى ليس، إختلفوا في المراد بالمتّفرقين من هم، فقال بعضهم المراد بهم الكفّار و المشركين و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار لم يختلفوا عليك إلاّ بعد أن أتاهم طريق العلم بصحّة نبوّتك فعدلوا عن النّظر فيه بغياً منهم للحسد و العداوة و الحرص على طلب الدّنيا و إتباع الهوى، و قيل أنّ هؤلاء لم يختلفوا إلاّ عن علم بأنّ الفرقة ضلالة و لكن فعلوا ذلك للبغي هذا ما ذكره في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين الضّمير يعود على أمم الأنبياء جاءهم العلم فطال عليهم الأمد فأمن قومٌ و كفر قومٌ، و قيل الضّمير يعود على أهل الكتاب و المشركين.

أقول الظّاهر أنّ الضّمير يرجع على أهل الكتاب من اليهود و النّصارى فأنّهم بعد موسى و عيسى عليهما السلام تفرّقوا في دينهم فالمراد بالتفرُّق التفرُّق في الدّين ففي بعض الأخبار أنّ قوم موسى إفترقوا، على إحدى و سبعين فرقة و أمّة عيسى على أثنين و سبعين فرقة و ستتفرّق أمّتي على ثلاث و سبعين فرقة.

و في قوله تعالى: **بَغْيًا بَيْنَهُمْ** إشارة إلى أنّ إفتراقهم لم يكن عن جهلهم بل كانوا عالمين بضلالته و مع ذلك إفترقوا بغياً و ظلماً و حبّاً للدّنيا و عناداً للحقّ،

إن قلت كيف يقال هذا و نحن نرى أكثر أهل الضّلال من العوام و الجهّال الّذين لا يعلمون شيئاً.

قلت نعم و لكن هؤلاء الجهّال ليسوا من المخاطبين في الكلام بالإصالة و أنّما المخاطب به من أضلّهم و أغواهم عن طريق الحقّ فأنّ العوام كالأنعام و الأغنام و أنّما الوزر على سائقهم و صاحبهم و هو العلماء في كلّ عهدٍ و زمانٍ.

و من المعلوم أنّ علماء أهل الكتاب في جميع الأمم كانوا عالمين بالحقّ و

لكن حبّ الدُّنيا دعاهم إلى الباطل فضلّوا و أضلّوا كثيراً و لعمري أنّ التفرّق في الدّين من أعظم الأفات و أسوء البليّات كما نرى و نشاهد في الإسلام أيضاً، كما أنّ الإتّفاق و الإتّحاد في الدّين يوجب عزّة الإسلام و المسلمين و هكذا في جميع الأديان و هذا ممّا لا يحتاج إلى إطالة الكلام لأنّه محسوسٌ و مشاهد و من أنكر حسّه أنكر حياته و وجوده.

وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ قيل المراد بالكلمة التّي سبقت، هو عدة التّأخر إلى يوم القيامة لأنّه يوم الجزاء و قيل المراد بها أنّ اللّه تعالى أخبر بأنّه يبعثهم و هو الأجل المسمّى.

و القول الأوّل أحسن و ذلك لأنّ اليوم عمل و لا حساب و غداً حسابٌ عمل و قوله تعالى: **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** أي لولا الأجل المضروب لهم على وجه المصلحة إلى زمانٍ خاصٍّ و زمانٍ معيّن لا يعلمه إلاّ اللّه، لقضي بينهم، و أنزل عليهم ما يستّحقونه من العذاب عاجلاً.

وَ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ و هو القرأن **مِنْ بَعْدِهِمْ** يعني من بعد اليهود و النّصارى **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** أي من الدّين، و قيل الّذين أورثوا الكتاب من بعد اليهود و النّصارى في شكّ من الدّين مريب و هم الكافرون بالقرأن و الشاكّون في صحته و أنّه من عند اللّه من سائر الكفّار و المنافقين.

و قال بعض المفسّرين المراد بالكتاب هنا التّوراة و الإنجيل و المعنى أنّ الّذين أورثوا الكتاب و هم اليهود و النّصارى **مِنْ بَعْدِهِمْ** أي من بعد المتخلّفين في الحقّ **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** أي من الّذي أوحى به الأنبياء إنتهى.

و الّذي خطر ببالي في معنى الكلام هو أنّ المراد بالّذين أورثوا الكتاب، هم اليهود و النّصارى و قوله: **مِنْ بَعْدِهِمْ** أي من المتّفرقين في الحقّ عن علم بغياً منهم.

و قوله: **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** أي أنّهم بعد ما رأوا تفرُّق السّابقين صاروا شاكّين في حقّانيّة التّوراة و الإنجيل و قالوا لو كان الكتاب حقّاً و منزلاً من عند اللّه

لما تفرّقوا علماؤنا فيه فلمّا تفرّقوا مع كونهم أعلم بالكتاب منّا فلا نسلّم أنّه من عند اللّه، و على هذا فكان منشأ شكّهم تفرّق علماؤهم فيه و هذا كما نرى في زماننا هذا أنّ العوام إذا رأوا أنّ العلماء أو بعضهم لا يعملون بما في الكتاب من العمل بالأحكام و مراعاة شئونه قالوا بهذه المقالة و أنكروا ما في الكتاب و قالوا لو كان الكتاب من عند اللّه واجب الإتّباع العمل به العلماء.

و الوجه في ذلك أنّ العوام ينظرون في كلّ زمانٍ إلى علمائهم و لذلك قال رسول اللّه: **إذا فسد العالِم فسد العالَم.**

فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰآءَهُمْ وَ قُلْ اٰمَنْتُ بِمٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنْ كِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ لَنٰآ أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ لاٰ حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ ٱللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا وَ إِلَيْهِ ٱلْمَصيرُ

قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان عند تفسيره لهذه الآية معناه، فإلى ذلك فأدع كما قال تعالى: **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحىٰ لَهٰا**[1] أي أوحىٰ إليها يقال دعوته، لذا، وبذا، و إلىٰ ذا، و قيل معناه، فلذلك الدّين فأدع إنتهى.

و قال القرطبي أي إلى ذلك الدّين فأدع، فاللاّم بمعنى، إلى، و ذلك، بمعنى هذا.

و قال صاحب الكشّاف **فَلِذٰلِكَ** أي فلأجل التفرُّق و لما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعباً **فَادْعُ** إلى الإتّفاق و الإئتلاف على الملّة الحنيفيّة القديمة **وَ ٱسْتَقِمْ** عليها و على الدَّعوة إليها كما أمرك اللّه إنتهى ما ذكره.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف أوفق بسياق الآية مضافاً إلى أنّ اللاّم في **فَلِذٰلِكَ** على هذا التّفسير على بابه و لا نحتاج إلى تأويله بإلى، و أنّما قلنا هذا التّفسير أوفق بسياق الآية لأنّ هذه الأيات من قوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ**

١- الزّلزال = ٥

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا إلى هذه الآية تدور مدار التفرُّق في الدِّين و عدمه فأنّ هذا هو الّذي وصّى به نوحاً و إبراهيم و موسى و عيسى و أوحى إلى محمّد أيضاً و إذا كان كذلك فالفاء، في قوله: **فَلِذٰلِكَ** للتّفريع و المعنى فلأجل ما ذكرناه من إقامة الدّين و وصينا بذلك نوحاً و من بعده من الأنبياء **وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** بقولنا (و أوحينا إليك) و أدع النّاس إلى هذا الأصل الأصيل و إستقم على دعوتك إيّاهم من غير فشلٍ و إضطراب ففي الكلام حثٌّ على الدّعوة إلى الحقّ أوّلاً، و على الإستقامة و الثّبات و التجُّب عن الشكّ و الإضطراب و التّزلزل في الأمر ثانياً فالأمر بالإستقامة بعد الدّعوة إشارة إلى أنّ الدّعوة بدون الإستقامة لا فائدة فيها سواء كان الدّاعي على الحقّ أم على الباطل.

و إلى ذلك أشار اللّه تعالى:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفُ عَلَيْهِمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَآءً غَدَقًا**[٣].

و غيرها من الأيات و المقصود أنّ مجرّد الدَّعوة من الدّاعي لا تكفي إذا لم يكن الدّاعي على الإستقامة و الثّبات فيما يدعوا إليه و إلى هذا أشار الشّاعر بقوله:

١- فُصّلت = ٣٠
٢- الأحقاف = ١٣
٣- الجنّ = ١٦

چـــو كـــرد او بـــر صـــراط حـــقّ إقـــامت

بـــه امـــر فـــإستقم مـــىداشت قـــامت

ثمّ أنّ المراد بالإستقامة الإستقامة على الحقّ لأنّها هي الّتي تتنزّل الملائكة الرَّحمة و تبشّر صاحبها بالجنّة و أمّا الإستقامة على الباطل فهي مذمومة و صاحبها ملعون، و الدّليل على ذلك بعد حكم العقل قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا** و أمّا الّذين قالوا ربّنا الشّيطان فلا، و فى الآية أيضاً قال **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ** أي فأدع إلى الحقّ و إستقم عليه، و قد إستقام النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم على دعوته إلى أخر عمره كما هو لا يخفى على من مارس خلال هذه الدّيار و أخرج التَّعصب و العناد عن قلبه هذا إذا قلنا أنّ المراد بالإستقامة المأمور بها هو الثّبات و عدم الإضطراب في ما يدعو إليه، و يحتمل أن يكون المراد بها المشي على طريق الحقّ و الإنحراف عن التَّعدي المعبّر عنه بالعدالة في جميع الشّئون و بعبارةٍ أخرى عدم الإلتفات إلى اليمين و الشّمال و التَّوجه إلى طريق المستقيم الّذي لا عوج فيه و قد يعبّر عنه بالطّريق الوسطى الّذي

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدٰآءَ عَلَى ٱلنّاسِ**(۱).

و قد قال أميرالمؤمنين عليه السّلام: **اليمين والشّمال مَضلّة والطّريق الوُسطىٰ هي الجادّة**، و هذا أيضاً صادقٌ في حقّه صلّى الله عليه و آله و سلّم فأنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يعدل عن الحقّ في عمره أبداً و قد مرَّ الكلام في هذا الباب في سورة هود عند قوله تعالى: **فَاسْتَقِمْ كَمآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا**(۲) و قلنا هناك ما قُلنا من صعوبة المشي على هذا الأمر و لذلك قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: **شيّبتني سورة هود** لمكان هذه الآية أي لصعوبة المشي عليها و قوله: **وَ لا تَتَّبِعْ أَهْوٰآءَهُمْ** أي

۱- البَقرة = ۱۴۳ ۲- هُود = ۱۱۲

أهواء الكفّار، و هذا الكلام بمنزلة التّفسير لقوله: **وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** إذ لاشكّ أنّ أهواء الكفّار تكون على الباطل دائماً أو غالباً فمن تبع أهوائهم لا يكون على طريق الحَّق و هو خلاف المأمور به و لذلك أمر اللّه نبيّه بالإستقامة و نهاه عن متابعة أهواء الكفّار، ثمّ أمر اللّه نبيّه ثانياً.

و قال: **وَ قُلْ اٰمَنْتُ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** أي قل لهؤلاء الكفّار إنّي مؤمنٌ بما أنزل اللّه علّي و على الأنبياء من قبلي و أمرت، من قبل اللّه تعالى لأعدل بينكم، أي أنّ اللّه تعالى أمرني بالقسط و العدل بينكم.

قال اللّه تعالى: **اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَ اتَّقُوا اَللّٰهَ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذاٰ حَكَمْتُمْ بَيْنَ اَلنّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**[2].

و الحكم عامّ يشمل المؤمن و الكافر و ذلك لأنّ الظّلم قبيح و لا سيّما من الأنبياء و قبحه من المستقّلات العقليّة (اللّه ربّنا و ربّكم) أي إلهنا واحدٌ لا شريك لهالّذي خلقنا و خلقكم و بعث أنبيائه إلى الخلق لإجراء العدالة بينهم:

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ اَلنّٰاسُ بِالْقِسْطِ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُقْسِطِينَ**[4].

و لم يفرق اللّه تعالى في إجراء العدالة بين المؤمن و الكافر **لَنٰآ أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ** إذ لا تزر وازرةٌ وزر أخرى **لٰا حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ** اختلف المفسّرون في معنى هذا الكلام.

فقيل معناه لا خصومة بيننا و بينكم و ذلك لأنّ الحقّ قد ظهر فسقط الجدال و الخصومة بيننا و بينكم، و قيل معناه أنّ الحجَّة لنا عليكم لظهورها و ليست بيننا

١- المائدة = ٨
٢- النّساء = ٥٨
٣- الحَديد = ٢٥
٤- المائدة = ٤٢

بالإشتباه و الإلتباس، و قيل معناه لا حجَّة بيننا و بينكم لظهور أمركم في البغي علينا و العداوة لنا ذكر هذه الوجوه في التّبيان، و لكلٍّ منها وجهٌ وجيه و الّذي يخطر بالبال في معنى الكلام هو أنّ الحجَّة في الآية بمعنى دفع الخصومة و المعنى لا الدافع للخصومة بيننا و بينكم في الدُّنيا فأنّها باقية فيها حتّى يجمع اللّه بيننا و بينكم يوم القيامة و إنّما عبَّر عن رفع الخصومة بين المؤمنين و الكفّار بالحجَّة لأنّها تفصل بين الحقّ و الباطل بحكم الحقّ بين العباد في يوم الميعاد و أيَّة حجَّةٍ أكبر و أعظم بين المتخاصمين من حكم اللّه تعالى الّذي لا مردّ له و على هذا فقوله لا حجَّة بيننا و بينكم، معناه لا رافع للخصومة في الدّنيا أحد من آحاد النّاس لأنّ المعاند لا يقبل قول غيره و لذلك قال: **ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ**.

وَ ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

قال صاحب الكشّاف **يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ** يخاصمون في دينه **مِنْ بَعْدِ** ما أستجاب له النّاس و دخلوا في الإسلام، ليردُّوهم إلى دين الجاهلَّية.

كقوله تعالى: **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا**[1].

كان اليهود و النّصارى يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم و نبينّا قبل نبيّكم و نحن خيرٌ منكم و أولى بالحقّ و قيل من بعد ما أستجاب اللّه لرسوله و نصره يوم بدر و أظهر دين الإسلام إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال بعض المفسّرين المراد بهم المشركون و قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ**.

قال مجاهد من بعد ما أسلم النّاس و هؤلاء قد توهَّموا أنّ الجاهلَّية لتعود.

و قال قتادة الّذين يحاجُّون في اللّه اليهود و النّصارى ثمّ ذكر ما نقلناه عن

١- البقرة = ١٠٩

صاحب الكشّاف هذا ما ذكروه في تفسير الآية و الّذي يقوّي في النّفس أنّ المراد بالّذين يحاجُّون في الآية ليس جماعة خاصّة من اليهود أو النّصارى أو المشركين بل المراد جميع المحاجّين من الكفّار الّذين طلبوا المعجزة عن النّبي و بعد الإتيان بها حملوها على السّحر و كذّبوا النّبي في دعوته إيّاهم إلى التّوحيد فقوله تعالى: **مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ** بصيغة المجهول يدلّ على أنّ الكفّار إستدعوا المعجزة و النّبي أتى بها و مع ذلك لم يؤمنوا به تعالى: **حُجَّتُهُمْ داٰحِضَةٌ** أي باطلة مشعر بأنّ الإحتجاج بعد تماميّة الحجّة لا فائدة فيه و لذلك قال: **وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذاٰبٌ شَدِيدٌ** يوم القيامة لأنّهم في الحقيقة كانوا كالمستهزئين باللّه و رسوله و اللّه أعلم.

ٱللّٰهُ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ ٱلْكِتاٰبَ بِالْحَقِّ وَ ٱلْميزاٰنَ وَ ماٰ يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسّاٰعَةَ قَرِيبٌ

المراد بالكتاب القرآن ثمّ وصفه بالحق لأنّه كلام الحقّ و كلام الحقّ حقٌّ ولا سبيل للبطلان إليه و قوله: **وَ ٱلْمِيزاٰنَ** الظّاهر أنّ الواو للعطف أي و أنزل الميزان الفارق بين الحقّ و الباطل.

قال المفسّرون المراد بالميزان، العدل لأنّ الميزان إظهار التّسوية من خلافها فيما للعباد إليه حاجة في المعاملة أو التّفاضل، و عند مقايسة القرأن بغيره من الكتب المنزلة تعرف فضيلته و بانت حجّته فلذلك وصفه بالميزان و على هذا فالعطف تفسيرّي و وصف للكتاب و معنى الآية أنّ اللّه تعالى هو الّذي أنزل القرأن المتّصف بكونه حقّاً و ميزاناً.

و قوله: **وَ ماٰ يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسّاٰعَةَ قَرِيبٌ** أي لا تعلم أنت يا محمّد غيرك متى تجئ السّاعة فأنّ العلم بوقتها عند اللّه تعالى و هو من العلم المخزون الّذي لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى، و أنّما قال قريب و لم يقل قريبة مع تأنيث السّاعة لأنّ تأنيثها ليس بحقيقي و قيل التّقدير،مجيئها قريب، و قيل في وجه إخفاء السّاعة، و وقت مجيئها

عن العباد، أنّ ذلك ليكونوا على خوفٍ و يبادروا بالتّوبة و اللّه أعلم.

يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ

الضّمير في، بها، يرجع على السّاعة قسّم اللّه تعالى النّاس على قسمين:

أحَدهما: الّذين لا يؤمنون بالسّاعة.

الثّاني: الذّين يؤمنون بها، و الحصر عقلّيٌ دائرٌ بين النّفي و الإثبات لأنّ الإنسان إمّا مؤمنٌ بالقيامة أو لا.

ثمّ حكم اللّه على غير المؤمنين بها بأنّهم يستعجلون بها أي يقولون متى تجيئ السّاعة مثلاً أن كانت حقّاً و لم يعلموا أنّ لكلّ شيئٍ أجلٌ و وقتٌ معيّن على ما إقتضته المصلحة، و أمّا الّذين أمنوا بها فهم مشفقونً أي خائفون منها لعلمهم بما فيها من الأهوال.

وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ فلا يستعجلون بها لأنّهم علموا أنّ وعد اللّه حقّ و أنّ السّاعة أتيةٌ لا ريب فيها ثمّ هدَّد اللّه غير المؤمنين و خوفهم و قال: **أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** أي أنّ الّذين يشكّون و يخاصمون في قيام السّاعة لفي ضلالٍ، أي بعيد عن الحقّ و طريق الإعتبار إذ لو تذكّروا و تفكّروا في أنفسهم لعلموا أنّ الّذي أنشأهم و أوجدهم و أخرجهم من العدم إلى الوجود قادرٌ على أن يبعثهم فأنّ الإحياء بعد الموت مع فرض بقاء المادّة التّرابية أسهل من الإيجاد الأوّل و هو ظاهرٌ.

ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ وَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

اللّطيف إذا وصف به الجسم فهو ضدّ الضّخامة يقال جسمٌ لطيفٌ أي غير

ضخيم، يعبّر باللّطافة و اللُّطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطي الأمور الدّقيقة، و قد يعبّر باللّطائف عمّا لا تدركه الحاسّة و يصحّ أن يكون وصف اللّه تعالى به على هذا الوجه.

و أن يكون لمعرفته به دقائق الأمور.

و أن يكون لرفقه بالعباد لهدايتهم إلى الحقّ و كيف كان فهو من أسماء اللّه تعالى و هو الرَّفيق بعباده الّذي يوصل إليهم ما ينتفعون به في الدّارين و يهيّئ لهم ما ينتسبون به إلى المصالح من حيث لا يعلمون و من حيث لا يحتسبون بل نقول إيجاد الإنسان من اللُّطف و بعثه الأنبياء و الشّرائع و التكاليف كلّها من اللُّطف و إعطاء الرِّزق من اللُّطف و بالجملة جميع ما يصل من اللّه إلى العبد منشأه اللُّطف و لذلك وصف اللّه تعالى نفسه به في كثير من الأيات و الأمر أوضح من أن يخفى على أحدٍ.

و قوله: **وَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ** يعني هو القادر الذّي لا يعجزه شئ و العزيز الّذي لا يغالب.

مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْاٰخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ

الحَرث بفتح الحاء في الأصل إلقاء البذر في الأرض و تهيوها للزّرع و يسمّى المحروث حرثاً، و تصوّر منه العمارة التّي تحصل منه و قد ذكر في مكارم الشّريعة كون الدُّنيا محرثاً للنّاس و كونهم حرّاثاً فيها كيفيّة حرثهم.

و روي: **أصدق الأسماء الحارث.** و ذلك لتُصور معنى الكسب منه.

و روى: **أحرث في الدّنيا لأخرتك.** و يقال أحرث القرأن أي أكثر تلاوته.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **الدُّنيا مزرعة الأخرة**، أي مكان حرثها.

إذا عرفت معنى الحرث فنقول، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الحرث تارةً

يكون في الدُّنيا للدُّنيا و أخرى يكون فيها للأخرة ثمّ حكم بأنّ الحارث للأخرة نزد له في حرثه بالخير و البركة أي نجزيه بأحسن ممّا عمل به كما قال: **مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا**(١) فأنّ المراد بالحرث للأخرة ليس إلاّ العمل الصّالح فالعمل بمنزلة البذر، و الأجر بمنزلة الثّمرة، ثمّ حكم اللّه تعالى بأنّ الحارث للدُّنيا نؤته منها أي من الدُّنيا و ذلك لأنّه حرث لها.

و من المعلوم أنّ الدُّنيا لا خير فيها لعدم بقاءها مضافاً إلى أنّها دارٌ بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة، و نعمها محفوفة بالأحزان و الهموم و هذا بخلاف الأخرة فأنّها باقية لا زوال لها.

و في قوله تعالى: **نُؤْتِهِ مِنْهٰا** إشارة إلى نقطةٍ خفيّة و هى أنّ اللّه تعالىٰ بمقتضى عدله لا يضيع عمل عاملٍ في الدُّنيا إلاّ أنّ الثّمرة المتّرتبة عليه تارةً تكون الدُّنيا و ما فيها و تارةً تكون الأخرة.

و حاصل الكلام أنّ طالب الدُّنيا يصل إليها و طالب الأخرة أيضاً يصل إليها و الأخرة خيرٌ من الدُّنيا فطالبها رابحٌ و طالب الدُّنيا خاسرٌ قل كلٌّ يعمل على شاكلته.

روي في مشكاة الأنوار عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: من أصبح و أمسى و الدُّنيا أكبر همّه جعل اللّه الفقر بين عينيه و شتّت أمره ولم ينل من الدُّنيا إلاّ ما قسم له، و من أصبح و أمسى و الأخرة أكبر همّه جعل اللّه الغنى في قلبه و جمع له أمره إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: كم من طالبٍ للدُّنيا لم يدركها، و مدركٌ لها قد فارقها فلا يشغلّنك طلبها عن عملك و إلتمسها من معطيها ومالكها فكم من حريصٍ على الدُّنيا قد صرعته و إشتغل بما أدرك منها من عملٍ أخر حتّى إنقضى عمره و أدرك أجله إنتهى.

إن قلت هذا الحديث ينافي الآية و ذلك لأنّه عليه السلام قال: **كم من طالبٍ للدّنيا لم**

١- الانعام = ١٦٠

يدركها و الآية تقول **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** فكيف التّوفيق بينهما.

قلت كلاًّ لا منافاة بينهما لأنّ الآية لا تقول من كان يريد حرث الدُّنيا نؤته ما أراد بل قالت نؤته منها، و كلمة، من، للتّبعيض أي نؤته بعض ما طلب و أراد، و الحديث أيضاً يقول به و الدّليل على ما ذكرناه أنّ طالب الدُّنيا لا يصل إلى مطلوبه أبداً و في قوله تعالى: **وَ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** فالنَّصيب الحظّ و المعنى أنّه عمل للدُّنيا و نال منها ولم يعمل للأخرة فلا نصيب له منها و الأعمال بالبيّنات.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ وَ لَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أَمْ للاضراب بمعنى (بل) و المعنى بل لهم، أي لهؤلاء الكفّار **شُرَكَٰٓؤُا** للّه من الأصنام و الأوثان و يحتمل أن يكون المعنى بل لهم شركاء فيما يفعلونه أي أشركوهم معهم في أعمالهم من الإنس **شَرَعُوا** هؤلاء الشُّركاء **لَهُمْ** أي لهؤلاء الكفّار **مِنَ ٱلدِّينِ** الّذي قلّدوهم فيه **مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ** أي لا يأمر به اللّه و لا أذن فيه **وَ لَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ** أي الحكم بتأخير عقوبتهم إلىٰ يوم الوقت المعلوم **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** و فصلّ الحكم و عوجلوا بما يستحقّونه من العذاب لظلمهم و تعدّيهم عن الحقّ **وَ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** أي شديدٌ موجع.

أقول يظهر من الآية أنّ المراد بالظّالمين في هذه الأية، الّذين إبتدعوا في دين اللّه أي أدخلوا في الّدين ما ليس منه بمعونة شركائهم و ليس المراد بهم الكفّار و بالشُّركاء الأصنام و الأوثان و من المعلوم أنّ المبتدع فيه لا يكون إلاّ من كان داخلاً فيه ظاهراً و هو المنافق الّذي يظهر الإسلام و يبطن الكفر، و يحتمل أن يكون المراد بالشُّركاء شركائهم في الكفر الّذين كانوا في الأمم السّالفة من اليهود و

النّصارى و على هذا فالمقصود منها أنّ التّشريع في الدّين ليس منحصراً بهؤلاء الكفّار الّذين في زمانك يا محمّد بل لهم شركاء في الأديان السّابقة أيضاً و كيف كان فأنّهم من الظّالمين الّذين يستحقّون العذاب يوم القيامة.

تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَآؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال الكفّار أو الظّالمين و أن كانوا من المسلمين ظاهراً، فحمل الآية على الكفّار و أنّ المراد بالظّالمين الكفّار لا دليل عليه و لا نعلم بأيّ دليلٍ حملوا الآية على الظّالمين من الكفّار، مع أنّ الظّالم كما يصدق على الكافر لكفره يصدق على المسلم أيضاً لظلمه و الحاصل أنّ المذكور في الآية الظّالمون و الحكم ثابت لهم و هو أي الظُّلم لا يختصّ بالكافر فالآية يحمل على العموم و لا يبعد أن يكون المراد بهم المبتدعين من هذه الأمّة الّذين أشار اليهم في الآية السّابقة على ما فسّرناها و على هذا فالظّالمون في هذه الآية هم الّذين حكم اللّه عليهم في الآية السّابقة بالعذاب الأليم، و على أيّ تقدير فمعنى الآية أنّ الظّالمين مشفقين أي خائفين ممّا كسبوا بأيديهم في الدُّنيا (وهو) أي الخوف أو العذاب واقع بهم لا محالة فلا ينفعهم إشفاقهم منه لأنّ السَّبب أي سبب العذاب قد تحقَّق منهم في الدُّنيا فالمسبّب و هو العذاب و الخوف منه مترتّبٌ على السَّبب و هذا حكمٌ عقليّ لا محيص عنه و هو ظاهر.

إن قلت ما الدّليل على أنّ الظّالم يكون مشفقاً خائفاً ممّا كسب ولو كان خائفاً ممّا فعل ما فعله قطعاً و حيث أنّه فعل ما فعل من المعاصي فهو دليل على عدم خوفه.

قلت العقل يحكم بوجوب دفع الضّرر المحتمل و إحتمال الضّرر ثابتٌ للظّالم

مسلماً كان أو كافراً، أمّا الظّالم المسلم فواضحٌ و أمّا الكافر فهو أيضاً داخل في الحكم لأنّ الحكم عقليٌّ و الكافر مسلوب الإيمان لا مسلوب العقل فكما أنّ الكافر لا قطع له بالحساب و القيامة و الثّواب و العقاب كذلك لا قطع له بعدمه فهو أي الجزاء محتملٌ عند عقله و إن لم يكن مقطوعاً به و إذا كان العقاب محتملاً فالخوف ثابت له و إذا كان هذا الإحتمال ثابتاً له عقلاً فثبوته للمسلم بطريقٍ أولى فظهر أنّ الظّالم مسلماً كان أو كافر خائف و هو المطلوب.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى أحوال المؤمنين و قال: **وَ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ في رَوْضاتِ ٱلْجَنّاتِ** قد مرَّ منّا مراراً أنّ المؤمن، من آمن باللّه و رسوله و جميع ما جاء به الرّسول إعتقاداً و لساناً، ثمّ العمل بما أمر اللّه و رسوله به جوارحاً و أركاناً و بعبارةٍ أخرى المؤمن هو المقرّ بالّسان و المعتقد بالجنان و العامل بالأركان و العمل الصّالح كلّ عملٍ كان مرضيّاً عند اللّه و رسوله فمن كان مؤمناً و عمل صالحاً فهو في روضات الجنّات بعد الموت و أيُّ مكانٍ أحسن منها و هى مكان الأنبياء و الأوصياء و الأولياء و قد ثبت أنّ شرف المكان بالمكين.

لَهُمْ ما يَشاۤؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبيرُ أي لهؤلاء المؤمنين في روضات الجنّات ما يشاؤن و يميلون اليه من أنواع النّعم و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين و أفضل من هذا كلّه مقام العنديّة الّتي ثبتت لهم بقوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ** و لعمري ذلك هو الفضل الكبير الّذي لا يتصوّر فضلٌ فوقه و لمثل ذلك فليعمل العاملون و الى ذلك أشار اللّه بقوله:

ذٰلِكَ ٱلَّذي يُبَشِّرُ ٱللّٰهُ عِبادَهُ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ قُلْ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبىٰ وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسْنًا إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ

ذٰلِكَ ٱلَّذي يُبَشِّرُ ٱللّٰهُ عِبادَهُ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ ذلك إشارة الىٰ ما أعطاهم اللّه في روضات الجنّات من الكون عند ربّهم و أنّ لهم

ما يشاؤن من أنواع النِّعم و أن شئت قلت إشارة الى الفضل الكبير فهذا هو الّذي يبشّر اللّه عباده المؤمنين العاملين عملاً صالحاً به و هو من أحسن البشارات ثمّ أمر اللّه نبيّه و قال: **قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** أي قل يا محمّد لهم لا أسئلكم عليه، أي على تبليغ رسالتي اليكم من قبل اللّه أجراً منكم **إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**.

قال صاحب الكشّاف يجوز أن يكون إستثناءً متصّلاً أي لا أسئلكم أجراً إلاّ هذا و هو أن تودّوا أهل قرابتي و لم يكن هذا أجراً في الحقيقة لأنّ قرابته قرابتهم فكانت صلتهم لازمة لهم في المروة، و يجوز أن يكون الإستثناء منقطعاً أي لا أسئلكم أجراً قطّ و لكنّني أسألكم أن تودّوا قرابتي الّذين هم قرابتكم تؤذوهم.

و قال الشّيخ قدس سره في التّبيان قيل في هذا الإستثناء قولان:

أحدهما: أنّه منقطعٌ لأنّ الموّدة في القربى ليس من الأجر و يكون التّقدير لكن أذكركم اللّه الموّدة في قرابتي.

الثّاني: أنّه إستثناء حقيقةً و يكون أجري الموّدة في القربى كأنّه أجرٌ و أن لم يكن أجراً و إختلفوا في معنى المودّة في القربى فقال عليّ إبن الحسين عليه السلام و سعيد بن جبير و عمرو بن شعيب معناه أن تودّوا قرابتي و هو المرّوي عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه عليه السلام و قال الحسن معناه، إلاّ الموّدة في القربى، الى اللّه تعالى و التودّد بالعمل الصّالح اليه، و قال إبن عبّاس و مجاهد و السدي و إبن زيد و عطاء بن دينار معناه، إلاّ أن تؤدّوني لقرابتي منكم و قالوا كلّ قريشيٍّ كانت بينه و بين رسول اللّه قرابة و يكون المعنى إن لم تودّوني لحقّ النبوّة أفلا تودّوني لحقّ القرابة و الأوّل هو الإختيار عندنا إنتهى كلامه.

و قال بعضهم معناه، إلاّ أن تصلوا قرابتكم.

و قال القرطبي، في تفسيره لهذه الآية ما لفظه، قال الزّجاج، إلاّ المودّة إستثناء ليس من الأوّل، أي إلاّ أن تؤدّوني لقرابتي فتحفظوني و الخطاب لقريش خاصّة

وبه قال إبن عبّاس و مجاهد و أبومالك و الشعبّي و غيرهم قال الشعبّي أكثر النّاس علينا في هذه الآية فكتبنا الى إبن عبّاس نسأله عنها فكتب أنّ رسول اللّه صلّی الله علیه و آله و سلّم كان أوسط النّاس في قريش فليس بطنٌ من بطونهم إلاّ ولده، فقال اللّه له: **قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** أي إلاّ أن تودّوني في قرابتي منكم أي تراعوا ما بيني و بينكم فتصدّقوني فالقربىٰ ها هنا قرابة الرَّحم و ساق الكلام الى أنّ قال فالقربى قرابة الرِّحم و المعنى قل لا أسألكم عليه أجراً لكن أذكركم قرابتي ثمّ نقل القرطبي ما نقلناه عن التّبيان من قول عليّ بن الحسين عليه السّلام و هو أنّ المراد أن تودّوا قرابتي و أهل بيتي إنتهى موضع الحاجة من كلامه و قد أطال المفسّرون البحث حول الآية و نقل الأقوال فيها و من أراد الوقوف على أقوالهم فعليه بالمراجعة الى تفاسيرهم و الّذي حصل لنا في المقام بعد الفحص في كلماتهم هو أنّ المتعصّبين من العامّة قد أتعبوا نفوسهم لإطفاء نور اللّه بأفواههم و أقلامهم ولم يعلموا أنّ اللّه متمّ نوره و لو كره الكافرون، و ذلك لأنّ الآية لا خفاء فيها و لا تحتاج الى هذه التّأويلات الباردة و الاستنباطات السّخيفة فأنّ معنى الكلام أوضح من الشّمس و أبين من الأمس.

و المراد بالقربى في الآية أهل بيت الرّسول الّذين أذهب اللّه تعالى عنهم الرّجس و طهَّرهم تطهيراً.

أمّا عندنا معاش الشّيعة فلا خلاف فيه و لا نحتاج الى نقل الأخبار الواردة عن أهل البيت في الباب ولنشر الى بعض ما ورد في المقام من طرق العامّة إتماماً للحجّة على الخصم المعاند فنقول.

روي الشّيخ سليمان الحنفي البلخي في كتابه ينابيع الموّدة و هو من أعيان العامّة و كتابه من أشهر الكتب بينهم ما هذا لفظه.

الباب الثّاني و الثّلاثون في تفسير قوله تعالىٰ: **قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**

إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ أخرج أحمد في مسنده بسنده عن سعيد بنِ جبير عن إبن عبّاس رضي اللّه عنهما قال لمّا نزلت **قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْـرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** قالوا يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين وجبت لنا موَدتهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: **عليٌّ وفاطمة والحَسَن والحُسين،** أيضاً أخرج هذا الحديث الطَّبراني في معجمه الكبير، إبن أبي حاتم في تفسيره، الحاكم في المناقب، الواحدي في الوسيط، أبونعيم الحافظ في حلية الأولياء، الثَّعلبي في تفسيره، الحمويني في فرائد السّمطين و فى صحيحي البخاري و مسلم، سئل إبن عبّاس عن هذه الآية فقال سعيد بن جبير هي قربى آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، جواهر العقدين أخرج أبو الشّيخ إبن حيّان في كتابه الثّواب من طريق الواحدي عن إبن هاشم الرمّاني عن زازان عن عليٍّ كرّم اللّه وجهه قال عليه السلام:

فينا آل حمعسق، آية لا يحفظها من مودَّتنا إلاّ كلّ مؤمنٍ ثمّ قرأ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى.

أخرج الملاّ في سيرته و قاله المحبّ الطّبري أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أنّ اللّه جعل أجري عليكم المودّة في القربى و إنّي سائلكم غداً عنها.

و في المناقب عن محمّد الباقر رضي اللّه عنه في قوله تعالى: قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم يقول الأجر الّذي هو المودّة في القربى الّتي لم أسألكم غيرها فهو لكم تهتدون بها و تسعدون بها و تنجون من عذاب اللّه يوم القيامة فالمودّة مشتّقةٌ من الودّ و هو الحبّ القوّي الدّائم الثّابت.

أخرج أبو المؤيّد موّفق بن أحمد الخوارزمي عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه و الّذي نفسي بيده لا يزول قدم عبدٍ يوم القيامة حتّى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن ماله ممَّ كسبه وفيم أنفقه و

عن حبّنا أهل البيت إنتهى[1].

و روي الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسّمى بشواهد التّنزيل بأسناده عن إبن عبّاس قال: لمّا نزلت قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ قالوا يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين أمرنا اللّه بمودّتهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: علّيٌ و فاطمة و ولدهما إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس قال: لمّا نزّلت هذه الآية قالوا يا رسول اللّه من قرابتك الّتي إفترض اللّه علينا مودّتهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: علّيٌ و فاطمة و ولدها إنتهى.

و بأسناده عن الاعمش عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس قال: لمّا نزّلت قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ قالوا يا رسول اللّه من قرابتك الّذين وجبت علينا مودّتهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: علّيٌ و فاطمة و أبينهما.

و قال الإسماعيلي و ابنيهما و قال الزّمخشري في الكشّاف عند تفسيره لهذه الأية، و القربى مصدر كالزُّلفى و البشرى بمعنى القرابة و المراد في أهل القربى.

و روي أنّها لمّا نزّلت قيل يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الّذين وجبت مودّتهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: علّيٌ و فاطمة و إبناهما.

و يدّل عليه ما روي عن علّي رضي اللّه عنه شكوت الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حسد النّاس لي فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما ترضَ أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنّة أنا و أنت و الحسن و الحسين و أزواجنا عن إيماننا و شمائلنا و ذريّتنا خلف أزواجنا.

١- ص ٩١

و عن النّبي ﷺ: حرّمت الجنّة على من ظلم أهل بيتي و آذاني في عترتي ومن إصطنع صنيعةً الى أحدٍ من ولد عبد المطّلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة.

و روي أنّ الأنصار قالوا فعلنا و فعلنا كأنّهم إفتخروا فقال عبّاس أو إبن عبّاس رضي اللّه عنهما لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذّلة فأعزّكم اللّه بي قالوا بلى يا رسول اللّه، قال ﷺ: ألم تكونوا ضلاّلاً فهداكم اللّه بى؟ قالوا بلى يا رسول اللّه. قال ﷺ أفلا تجيبونى؟ قالوا ما نقول يا رسول اللّه قال ﷺ ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك، أو لم يكذّبوك فصدّقناك، أو لم يخذلوك فنصرناك، قال: فما زال يقول حتّى حثّوا على الركب و قالوا أموالنا و ما في أيدينا للّه و رسوله فنزلت الأية رسول اللّه ﷺ من مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مغفوراً له ألا و من مات على حبّ آل محمّد مومناً تائباً، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مؤمنً مستكمل الإيمان، ألا و من مات على حبّ آل محمّد، بشّره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر و نكير، ألا و من مات على حبّ آل محمّد يزُّف الى الجنّة كما تزُّف العروس الى بيت زوجها، ألا و من مات على حُبّ آل محمّد فتح في قبره بابان الى الجنّة، ألا و من مات على حُبّ آل محمّد جعل اللّه قبره مزار ملائكة الرّحمة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة و الجماعة ألا ومن مات على بغض آل مُحمّد جاء

يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة اللّه، ألا و من مات على بغض آل محمّد مات كافراً، ألا و من مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة إنتهى.

ما ذكره الزّمخشري في الكشّاف.

و إنّي أظنّ أنّ فيما ذكرناه و نقلناه عن العامّة في الباب كفاية في معنى المراد من الآية و لا نحتاج الى إطالة الكلام في نقل الأحاديث من طرق الخاصّة بقي في المقام شئ لا بدّ لنا من التّنبيه عليه و هو أنّ المراد بالموّدة ليس مجرّد الحبّ كيف إتّفق بل المراد حبّ أهل البيت على الولاية و بعبارةٍ أخرى، الحبّ يتصوّر على قسمين:

أحدهما: لأجل الكمالات النفسانية كالعلم و السخاوة و الشجاعة و العدالة و أمثال ذلك فأنّ هذه الصّفات محبوبة مطلوبة للبشر العاقل فكلّ من إتّصف بها فهو محبوبٌ للنّاس مؤمناً كان أو كافراً و حيث أنّ أهل البيت عليهم السّلام كانوا واجدين لها منصفين بها كانوا محبوبين عند جميع النّاس أو أكثرهم.

الثّاني: أن يكون الحُبّ لأجل كون المحبُوب من أولياء اللّه وحُبّه حُبّ اللّه و بغضه بغض اللّه و من أطاعه أطاع اللّه و من أبغضه أبغض اللّه و هذا الحبّ عبّر عنه بالموّدة في الآية و نعبّر عنه بالحبّ للّه و فى سبيل طاعة اللّه و لأجل هذه الدقيقة قال تعالى: **إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** ولم يقل إلاّ الحبّ في القربى فأنّ الحبّ المطلق غير مقصودٍ في الآية قطعاً ألا ترى أنّ الكافر العادل محبوبٌ عند النّاس حتّى عند المؤمنين، و المؤمن العادل أيضاً محبوبٌ عند النّاس حتّى عند الكافر، و الفرق بينهما أنّ الكافر العادل محبوبٌ لعدله لا لذاته و أن شئت قلت عدله محبوبٌ لا ذاته و هذا بخلاف المؤمن العادل فأنّه محبوبٌ لإيمانه الّذي نشأ منه عدله و صدقه فهو محبوب لذاته و إيمانه و لذلك قال حبّ المؤمن حبّ اللّه و

بغضه بغضه فمن أحبَّ عليّاً عليه السلام مثلاً لأنّه كان شجاعاً أو عالماً او عادلاً فهو في الحقيقة أحبَّ الشّجاعة و العلم و العدل لا عليّاً من حيث أنّه ولّي اللّه و مظهر صفاته و هكذا في سائر الأئمّة.

و الحاصل أنّ المراد بالمودّة في الآية هو الحبّ على أساس الولاية كما أنّ حبّ النَّبي ينفع إذا كان الحبّ لأجل النبُّوة لا لغيرها من الصّفات و إذا كان كذلك فهذه الأحاديث التّي نقلناها عن العامّة و غيرها ممّا لم نذكرها حجَّة عليهم يوم القيامة و لا سيّما ما ذكره صاحب الكشّاف في تفسيره لهذه االآية و قد نقلناه عنه بطوله و تفصيله و هو من فحول العلماء عندهم و كلامه حجَّة لهم و نحن لا ننكر فضله و دقَّته و مهارته و لكن نقول له أنت رويت عن النَّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: **حرمّت الجنَّة على من ظلم أهل بيتي و آذاني في عترتي** و معنى آذاني في عترتي أنّ من آذاهم آذاني، و على هذا الحديث فالجنَّة حرامٌ على من ظلم و آذى فاطمة بنت النّبي لأنّه آذى النّبي في عترته، و إذا كانت الجنَّة عليه حرام فهو أهل النّار قطعاً، و من أحَّب أهل النّار فهو منهم.

ثمّ نقول هل كانت فاطمة مظلومة بعد أبيها، أم لا، فأن لم تكن مظلومة فلم أوصت أن تدفن ليلاً، و إن كانت مظلومة فمن ظلمها و غصب حقّها و أذاها و إذا كان كذلك فمن أحبَّ أعداء ذوي القربى كيف يدّعي المودَّة في القربى و الكلام طويل و ليس كتابنا هذا موضوعاً لهذه الأبحاث و على هذا فقطع الكلام أولى و من أراد الوقوف على هذا الموضوع و أمثاله فعليه بمراجعه شرحنا على الخطبة الشّقشقية من كتابنا المسمّى بمفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة فأنّه يجده بحراً لا ساحل له أن كان من أهل الإنصاف و بعد اللتيا و اللّتي نرجع إلى تفسير الآية.

و نقول الحقّ أنّ الإستثناء في قوله تعالى: **إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** مُتّصلٌ و المعنى قل يا محمّد لهؤلاء المسلمين لا أسألكم أجراً على تبليغ الرّسالة إلاّ هذا و

هو أن تؤدُّوا أهل قرابتي، و المودّة لذوي القربى و أن لم تكن أجراً و جزاءً على تبليغ الرّسالة حقيقتاً لأنّ الأجر و الجزاء الحقيقي على تبليغ الرّسالة من اللّه تعالى و أن شئت قلت الأجر على المرسل و هو اللّه، إلاّ أنّه أجرٌ و جزاء من ناحية المبعوث إليهم و قد يعبّر عنه بالشّكر على النّعمة فأنّ من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق و حيث أنّ الشكر لسانىّ و عملىّ و قلبىّ فهو من الشّكر القلبي فهو داخل في الأجر مجازاً لا حقيقةً و بعبارةٍ أخرى قرابته قرابتهم فكانت صلتهم لازمة لهم في المروّة أداءً لحقّ الشُّكر و هذا هو المراد من الآية إلاّ أنّ المسلمين بعد الرّسول لم يراعوا ذلك و سيعلم الّذين ظلموا أيُّ منقلبٍ ينقلبون إنّا للّه و إنّا إليه راجعون و نعم الحكم، اللّه تعالى.

وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيهٰا حُسْنًا إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ

الإقتراف الإكتساب و أصل القرف الكسب يقال فلان يقترف لعياله أي يكسب و هو مأخوذ من قولهم رجلٌ قرفة إذا كان محتالاً، و المعنى من يكتسب حسنةً أيّة حسنةٍ كانت، نزد له، أي لفاعلها حسناً أي نضاعفها.

و نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن إبن عبّاس أنّه قال الحسنة في المقام المودّة لأل محمّدٍ ﷺ و قوله: **نَزِدْ لَهُ فيهٰا حُسْنًا**، أي نضاعف له الحسنة بعشر فصاعداً، أنّ اللّه غفورٌ، للذُّنوب، شكورٌ للحسنات.

أقول ما ذكره لا بأس به و أيُّ حسنةٍ من مودّة أل محمّدٍ و سياق الكلام أيضاً يؤيّد ما ذكره إبن عبّاس لأنّ اللّه تعالى ذكر الحسنة بعد المودّة في القربى فكأنّه فسّر المودّة بالحسنة و هو من تفسير الكلام بأحسن مصاديقه و اللّه أعلم.

■

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ ٱللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ ٱللّٰهُ ٱلْباطِلَ وَ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ ٱلصُّدُورِ «۲۴» وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ «۲۵» وَ يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱلْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ «۲۶» وَ لَوْ بَسَطَ ٱللّٰهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ «۲۷» وَ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ «۲۸» وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ ٱلسَّماواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ «۲۹» وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ «۳۰» وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ «۳۱» وَ مِنْ آياتِهِ ٱلْجَوارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ «۳۲» إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ «۳۳» أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ «۳۴» وَ يَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجادِلُونَ

فِيٓ اٰيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمٰآ أُوتيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتٰاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ مٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَ ٱلَّذينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰآئِرَ ٱلْاِثْمِ وَ ٱلْفَواٰحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَ ٱلَّذينَ ٱسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورٰى بَيْنَهُمْ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَ ٱلَّذينَ إِذٰآ أَصٰابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَ جَزٰآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّهُ لٰا يُحِبُّ ٱلظّٰالِمينَ ﴿٤٠﴾ وَ لَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰٓئِكَ مٰا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبيلُ عَلَى ٱلَّذينَ يَظْلِمُونَ ٱلنّٰاسَ وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَليمٌ ﴿٤٢﴾ وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى ٱلظّٰالِمينَ لَمّٰا رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبيلٍ ﴿٤٤﴾

◀ اللّغة

ٱفْتَرٰى: الإفتراء الكذب و الظُّلم و الشِّرك و قد أستعمل في كلّ واحٍ منها في

القرأن، و قيل الإفتراء البهتان و التُّهمة.

بَسَطَ: البسط السِّعة.

لَبَغَوْا: البغي طلب تجاوز الإقتصاد يقال بغيت الشّئ إذا طلبت أكثر ما يجب و إبتغيت كذلك.

قَنَطُوا: القنوط اليأس.

بَثَّ: البَّث الإنتشار و الدّابة يقال لكلّ ما يدُّب في الأرض.

ٱلْجَوَارِ: بفتح الجيم جمع جارية و المراد بها السُّفن الجارية في البحر.

الْأَعْلَامِ: واحدها، علم قيل الإعلام القصور، و قيل البال. و قال الخليل كلّ شئٍ مرتفع عند العرب فهو علمٌ.

رَوَاكِدَ: واحدها راكد يقال ركد الماء ركوداً إذا سكن و كذلك الرّيح و السَّفينة و قيل كلّ ثابتٍ في مكانٍ فهو راكد.

يُوبِقْهُنَّ: يقال وَبق إذا تثَّبط فهلك، و أوبقه أهلكه.

مَحِيصٍ: أصل المحص تخليص الشّئ ممّا فيه من عيبٍ كالفحص لكن الفحص يقال في إبرار الشّئ من أثناء ما يختلط به و هو منفصلٌ عنه و المحص يقال في إبراره عمّا هو متصظلٌ به و المراد به في المقام الملجأ اى مالهم من ملجأ يلتَّجئون به و الباقي واضح.

◀ الإعراب

يَخْتِمْ هو جواب للشّرط وَيَمْحُوا مرفوع مستأنف و ليس من الجواب ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مفعول به إذا يَشَاءُ العامل في إِذَا جَمْعِهِمْ لا، قدير وَ مَآ أَصَابَكُمْ ما، شرطيّة في موضع رفع بالإبتداء فَبِمَا كَسَبَتْ جوابه ٱلْجَوَارِ مبتدأ فِى ٱلْبَحْرِ حال منه و العامل فيه الإستقرار و كَالْأَعْلَامِ حال ثانية أو هو حال من الضّمير في الجوار يُسْكِنِ جواب الشّرط فَيَظْلَلْنَ معطوف على الجواب وَ يَعْلَمَ ٱلَّذِينَ

يجوز فيه النَّصب على تقدير و، أن يعلم، لأنّه صرفه عن الجواب و عطفه على المعنى، و يجوز فيه الكسر على أنّه مجزومٌ حرِّك لإلتقاء السّاكنين، و يجوز فيه الرَّفع على الإستئناف مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ الجملة المنفيّة تسَّد مسدّ مفعولي، عملت وَ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ معطوف على قوله تعالى لِلَّذِينَ آمَنُوا و يجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار، أعني، أو رفع على تقدير، هم، هُمْ يَغْفِرُونَ مبتدأ و خبر و الجملة جواب، إذا وَ لَمَنْ صَبَرَ من، شرطيّة و، صبر، في موضع جزم بها و الجواب إِنَّ ذٰلِكَ و قيل، من، بمعنى الّذى و العائذ محذوف اى انّ ذلک منه.

◀ التّفسير

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ ٱللّٰهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ ٱللّٰهُ ٱلْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

قال بعض المفسّرين الميم، صلة و التّقدير أيقولون، إفترى على اللّه كذباً.

قال صاحب الكشّاف، أم، منقطعة و معنى الهَمَزة فيه التَّوبيخ كأنّه قيل أيتما لكون أن ينسبوا مثله على الإكتراء ثمّ إلى الإفتراء على اللّه الّذي هو أعظم الفرى و أفحشها.

و قال بعضهم أم، للإضراب بمعنى، بل و المعنى بل يقولون هؤلاء الكفّار يامحمّد إفتريت على اللّه كذباً في إدّعائك رسالةً على اللّه، و هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و إن كان للوجهين الأوّلين أيضاً وجهٌ وجيهٌ كما لا يخفى.

فَإِنْ يَشَإِ ٱللّٰهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ إختلفوا في معناه فقال قتادة معناه على قلبك فينسيك القرأن فأخبرهم اللّه أنّه لو إفترى عليه لفعل بمحمّدٍ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أخبرهم به في هذه الآية.

و قال مجاهد و مقاتل معناه، إن يشأ اللّه يربط على قلبك بالصَّبر على أذاهم

حتّى لا يدخل قلبك مشقّة من قولهم، و قيل المعنى، إن يشأ يزلّ تمييزك معناه لو حدّثت نفسك بأن تفتري على اللّه كذباً لطبعت على قلبك و أذهبت الوحي الّذي أتيتك لأنّي أمحوا الباطل و أحقّ الحقّ.

و قال صاحب الكشّاف معناه فأن يشأ اللّه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتّى تفتري عليه الكذب فأنّه لا يجتريُ على إفتراء الكذب على اللّه إلاّ من كان في مثل حالهم إنتهى.

و قال البيضاوى **فَإِنْ يَشَإِ اَللّٰهُ يَخْتِمْ عَلٰى قَلْبِكَ** إستبعاد للإفتراء عن مثله بالإشعار على أنّه أنّما يجتريُ عليه من كان محتوماً على قلبه جاهلاً بربّه فأمّا من كان ذا بصيرةٍ و معرفةٍ فلا و كأنّه يقال إن يشأ اللّه خذلانك يختم على قلبك لتجتريُ بالإفتراء عليه إلى أخر ما قال من نقل الأقوال و قد ذكرناها، فهذه هي كلمات القوم في تفسير الآية و عليك بالتّأمل فيها.

و عندي أنّ أحسن الأقوال المذكورة هو قول البيضاوي و إن كان قوله هذا مأخوذاً من قول صاحب الكشّاف كما هو دأبه في تفسيره و لذلك يقال أنّه خلاصة الكشّاف، و الّذي يخطر ببالي في تفسير الآية هو أنّ اللّه تعالى ردّ على الكفّار القائلين بالإفتراء و توضيح ذلك أنّهم أنكروا القرأن و أنّه من عند اللّه و إدّعوا أنّ النّبي إفترى على اللّه و قال هذا كلام اللّه، فقال تعالى مخاطباً لنبيّه **فَإِنْ يَشَإِ اَللّٰهُ يَخْتِمْ عَلٰى قَلْبِكَ** كما ختم على قلوب الكفّار.

قال اللّه تعالىٰ: **خَتَمَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ**[1].

و ذلك لأنّ القلوب بيد اللّه و تحت قدرته لأنّه مقلّب القلوب و الأبصار، و قد ذكرنا عند الكلام في تفسير الآية هناك أنّ المراد بالختم على قلوب الكفّار ليس

١- البقرة = ٧

الخلق على ذلك لأنّه مستلزم للجبر بل المراد أنّهم سوّدوا قلوبهم بسبب المعاصي ولم يقبلوا الحقّ فوكلهم اللّه إلى أنفسهم فصاروا عبيد الشّيطان و أطاعوه و حيث أنّ اللّه تعالى خالق الكلّ نسب الختم الى نفسه و قال: **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**.

فقوله تعالىٰ: **فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ** كلمة أن، شرطيّة، و يختم، جواب الشّرط و المعنى إن شاء اللّه و أراد لفعل، لأنّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و هو على كلّ شيءٍ قدير لكنّه لم يفعل ذلك بل نوّر قلبك بالوحي و هو أدلّ دليلٍ على أنّ اللّه إصطفاك و إختارك من الخلق للنّبوة و الرّسالة و من كان كذلك كيف يفتري على اللّه و حيث أنّ هؤلاء الكفّار لم يفرقوا بينهم و بينك فقالوا ما قالوا من الإفتراء.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ يَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ففيه إشارة إلى نقطةٍ أخرى و هى أنّ الإفتراء على اللّه ليس مثل الإفتراء على الخلق و ذلك لأنّ الإفتراء على اللّه يوجب إضلال النّاس في دينهم بخلاف الإفتراء على الخلق، فلو كان القرأن من سنخ الإفتراء كما زعمه الكفّار يجب على اللّه تعالى ردع المفتري من باب قاعدة اللّطف.

و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ**[١] و لذلك قال يمحو اللّه الباطل و يحقّ الحقّ بكلماته الآية و حيث أنّه تعالى أثبته و أيدّه فهو ليس من الإفتراء بل هو حقٌّ حقيقٌ بالإتّباع فما قاله الكفّار كذبٌ محض و هو المطلوب هذا ما إستفدناه من الآية و اللّه تعالى أعلم بما قال.

وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ

١- الحَجر = ٩

أصل التَّوب رجوع الشّئ إلى حالته الأولى التّي كان عليها أو إلى الحالة المقدّرة المقصودة بالفكرة و هى الحالة المشار إليها بقولهم، أوَّل الفكرة أخر العمل يقال، تاب يتوب توباً إذا رجع.

قال بعض المحققين من علماء الأخلاق التّوبة هي الرّجوع عن الذّنب القولي و الفعلي و الفكري و بعبارةٍ أخرى هي تنزيه القلب عن الذّنب و الرّجوع من البعد إلى القرب و بعبارةٍ أخرى ترك المعاصي في الحال و العزم على تركها في الإستقبال و تدارك ما سبق من التّقصير و توضيح حقيقة التّوبة أنّه إذا علم العبد أنّ ما صدر عنه من الذّنوب حائلة بينه و بين محابّه ثار من هذا العلم تألّم القلب بسبب فوات المحبوب و صار متأسّفاً على ما صدر عنه من الذّنوب سواء كانت أفعالاً أو تروكاً للطّاعات و يسمّى تألّمه بسبب فعله أو تركه لمحبوبه ندماً، و إذا غلب هذا النّدم على القلب إنبعثت منه حالة أخرى تسمّى إرادةً و قصداً إلى فعلٍ له تعلّق بالحال بترك الذّنب الّذي كان ملابساً له و بالإستقبال بعزمه على ترك الذّنب المفوّت لمحبوبه إلى أخر عمره و بالماضي بتلافيه ما فات بالجبر و القضاء فالعلم بكون الذّنوب سموماً مهلكة هو الأوّل و مطلع البواقي إذ هو الّذي يثمر نار النّدم على القلب بسبب الذّنب الّذي صدر منه، فالعلم و النّدم و القصد المتعلّق بالتّرك في الحال و الإستقبال و التّلافي للماضي ثلاثة معانٍ في الحصول و يطلق إسم التّوبة على مجموعها و ربّما أطلقت التّوبة على مجّرد النّدم.

و الى هذا المعنى أشار النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بقوله: **النّدم تَوبة** إذا عرفت معنى التّوبة فاعلم أنّ اللّه تعالى هو الّذي يقبل التّوبة عن عباده و قد ثبت أنّ تقديم المسند إليه يفيد الحصر و هذا ممّا لا يحتاج إلى دليلٍ من العقل و النّقل لأنّ المفروض أنّ العبد عصى ربّه فالقبول و عدم القبول منه تعالى لا من غيره و هذا معنى قوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ثمّ أنّ التّوبة من الذّنوب واجبة إجماعاً و عقلاً

و نقلاً.

أمّا الإجماع فلا ريب في إنعقاده من جميع علماء الإسلام ولم يخالف فيه أحد.

أمّا العقل فلأنّ من علم معنى الوجوب و معنى التَّوبة فلا يشكّ في ثبوته لها، و بيان ذلك، أنّ معنىٰ الواجب وحقيقته هو ما يَتوقّف عليه الوصول إلىٰ سعادة الأبد و النّجاة من هلاك السَّرمد ولولا تعلّق السّعادة و الشّقاوة بفعل الشّئ و تركه لم يكن معنى لوجوبه فالواجب وسيلة و ذريعة الى سعادة الأبد و لا ريب في أنّه لا سعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء اللّه و الأنس به فكلّ من كان محجوباً عن اللّقاء و الوصال محروماً عن مشاهدة الجمال و الجلال فهو شقيّ لا محالة محترقٌ بنار الفراق و نار جهنّم و من المعلوم أنّه لا مبعدّ عن لقاء اللّه إلاّ إتّباع الشّهوات النّفسانية و الأنس بهذا العالم الفاني و الأكباب على حبّ ما لا بدّ من مفارقته قطعاً و يعبّر عن ذلك بالذُّنوب كما لا مقرّب من لقاء اللّه إلاّ قطع القلب من زخرف هذا العالم و الإقبال بالكلّية على اللّه طلباً للأنس به بدوام الذّكر و المحبّة له بدوام الفكر في عظمته و جلاله و جماله على قدرة طاقته ريب أنّ الإنصراف عن طريق البعد الّذي هو الشّقاوة واجب الوصول الى القرب الّذي هو السّعادة و لا يتمّ ذلك إلاّ بالتّوبة الّتي عبارة عن العلم و النّدم و العزم و لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب عقلاً فالتّوبة واجبة قطعاً المطلوب.

قال بعض المحققين كيف لا تكون التّوبة من المعاصي واجبة مع أنّ العلم بضرر المعاصي و كونها مهلكة من أجزاء الإيمان و وجوب الإيمان ممّا لا ريب فيه و العالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فلا يكون له هذا الجزء من الإيمان فالعلم بضرر الذُّنوب يكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد هذا الجزء من الإيمان و هو المراد بقول النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: **لا يزني الزّاني حين يزني و هو مؤمن**، و ما أراد به نفي الإيمان باللّه و وحدانيّته و صفاته و كتبه و رسله فأنّ ذلك لا ينافي الزّنا و المعاصي و أنّما أراد به نفي الإيمان باللّه لكون الزّنا مبعّداً عن اللّه و

موجباً لسخطه و ليس الإيمان باباً واحداً بل هو كما ورد نيّف و سبعون باباً أعلاها الشّهادتان و أدناها إحاطة الأذى عن الطُّرق و مثاله قول القائل ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيِّف و سبعون موجوداً أعلاها الرُّوح و القلب و أدناها إحاطة الاذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشّارب مقلوم الأظافر في البشرة من الخبث حتّى يتميّز عن البهائم المرسلة المتلّوثة بأرواثها المستكرهة الصُّور بطول مخالبها و أظفارها فالإيمان كالإنسان و فقد الشّهادتين كفقد الرُّوح الّذي يوجب البطلان بالكليّة و ّالذي ليس له إلاّ شهادة التّوحيد و الرّسالة و يترك سائر أجزاءه من الإيمان فهو كإنسانٍ مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أجزاءه الظّاهرة و الباطنة إلاّ أصل الرّوح الى آخر ما قاله و حقَّقه و يظهر ممّا ذكره و حقّقه أنّ التّوبة واجبة على الفور و لا يجوز فيها التّراخي فأنّ في التأّخير آفات، فيجب على كلّ مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً و لذلك قال لقمان لأبنه و هو يعظه يا بنيّ لا تؤّخر التّوبةً فأنّ الموت يأتي بغتةً و من ترك المبادرة الى التّوبة بالتّسويف كان بين خطرين عظيمين.

أحدهما: تراكم الظلّمة على قلبه من المعاصي حتّى يصير ديناً و طبعاً فلا يقبل المحو.

الثّاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد المهلة بالإشتغال بالمحو و لذلك ورد أنّ أكثر صياح أهل النّار من التّسويف فما هلك من هلك إلاّ به ثمّ أنّ التّوبة تجب على العموم لقوله تعالى: **وَ تُوبُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ جَمِيعًا**[١] و الدّليل عليه من العقل أنّ كلّ فردٍ من أفراد النّاس إذا بلغ سنّ التّكليف و التّمييز قام القتال و النّزاع في مملكة بدنه بين الشّهوات التّي هي جنود الشّياطين و بين العقول أحزاب الملائكة و إذا قام القتال بينهما يحكم العقل و الشّرع أن يغلب جنود اللّه على

١- النّور = ٣١

جنود الشّيطان بكسر الشّهوات و ردّ النّفس على سبيل القهر و الغلبة على الصّفات المحمودة و العبادات و لا نعني لوجوب التّوبة على كلّ مكلّف عاقل إلاّ هذا.

و أمّا الدّليل النّقلي على وجوبها فلا نحتاج الى ذكره بعد نصوص القرآن و مع ذلك نشير الى شطرٍ من النُّصوص تكميلاً للبحث فمن الأيات.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَ يُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا**(٤).

قال اللّه تعالى: **فَتُوبُوٓا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا أَنْفُسَكُمْ**(٥).

و الأيات كثيرة جدّاً و كفى في مدح التّوبة و وجوبها أنّ اللّه تعالى خصّ في كتابه سورةً بها.

و أمّا الأخبار فهي أيضاً كثيرة و لنشر الى شطرٍ منها.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: التّائب حبيب اللّه و التّائب من الذَّنب كمن لا ذنب له إنتهى.

قال الباقر عليه السلام: أنّ اللّه تعالى أشدَّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ أضلَّ راحلته و زاده في ليلةٍ ظلماء فوفجدها فاللّه تعالى أشدَّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرّجل براحلته حين وجدها إنتهى.

و قال عليه السلام: التّائب من الذَّنب كمن لا ذنب له و المقيم على الذّنب و هو مستغفرٌ منه كالمستهزء إنتهى.

قال الصّادق عليه السلام: أنّ اللّه يحبّ من عباده المفتّن التّواب يعني كثير

١- البقرة = ٢٢٢
٢- الحجرات = ١١
٣- المائدة = ٣٨
٤- الفرقان = ٧١
٥- البقرة = ٥٤

الذّنب كثير التّوبة إنتهى.

و قال عليه السلام: إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أحبَّه اللّه فستر عليه فقلت فكيف يستر عليه قال عليه السلام ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه و يوحي الى جوارحه و الى بقاع الأرض أن أكتمي عليه ذنوبه فيلقى اللّه عزّ وجلّ حين يلقاه و ليس شيء يشهد عليه بشيءٍ من الذّنوب إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: أنّ اللّه عزّ وجلّ أعطى التّائبين ثلاث خصال لو أعطي خصلة منها جميع أهل السموات و الأرض لنجوا بها قوله عزّ وجلّ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوّٰبِينَ**[1].

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا رَبَّنٰا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تٰابُوا** الى قوله: **هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**[2].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰامًا، يُضٰاعَفْ لَهُ ٱلْعَذٰابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰانًا، إِلَّا مَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صٰالِحًا فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا**[3] إنتهى.

و قال أبو الحسن عليه السلام: أحبّ العباد الى اللّه المنيبون التّوابون إنتهى.

قال الباقر عليه السلام: لمحمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب عنها

١- البقرة = ٢٢٢

٢- غافر = ٧ الى ٩

٣- الفرقان = ٦٧ الى ٧٠

مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التّوبة و المغفرة أما و اللّه أنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان، فقال له عليه السلام فأن عاد بعد التَّوبة و الإستغفار من الذّنوب و عاد في التّوبة قال عليه السلام يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه و يستغفر منه و يتوب ثمّ لا يقبل اللّه توبته، قال فأنّه فعل ذلك مراراً يذنب ثمّ يتوب و يستغفر فقال عليه السلام كلمّا عاد المؤمن بالإستغفار و التّوبة عاد اللّه عليه بالمغفرة و أنّ اللّه غفورٌ رحيم يقبل التّوبة و يعفوا عن السّيئات فأيّاك أن تقنط المؤمن من رحمة اللّه، و قال عليه السلام إذا بلغت النّفس هذه و أهوى بيده الى حلقه لم تكن للعالم توبة و كانت للجاهل توبة، و قال عليه السلام أنّ آدم صلّى اللّه عليه قال يا ربّ سلَّطت علّي الشّيطان و أجريته منّي مجرى الدَّم فأجعل لي شيئاً فقال تعالى يا آدم جعلت لك أنّ من همَّ من ذريّتك سيّئة لم تكتب عليه فأن عملها كتبت عليه سيّئة و من همَّ بحسنةٍ فأن لم يعملها كتبت له حسنة فأن عملها كتبت له عشراً، قال يا ربّ زدني.

قال جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ إستغفر غفرت له، قال يا ربّ زدني، قال جعلت لهم التّوبة و بسطت اليهم التّوبة حتّى تبلغ النّفس هذه قال يا ربّ حسبي إنتهى.

و الأحاديث في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية[١].

و بما ذكرناه في معنى التّوبة علمت أنّ اللّه تعالى هو الّذي يقبل التّوبة و لازم ذلك هو العفو عن السّيئات و محو آثارها و لا نعني بقوله تعالى: **وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ** إلاّ هذا و أمّا قوله في آخر الآية **وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** إشارة الى أنّ اللّه

١- جامع السّعادات ج ٣ ص ٥٥ الى ص ٤٨

تعالى لا يخفى عليه شيء.

وَ يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱلْكٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ

الإستجابة و الإجابة بمعنى واحد قال الشّاعر:

وداعٍ دعا يا من يجيب الى النّداء فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ

لمّا أخبر اللّه تعالى أنّه يقبل التّوبة من عباده و يعفوا عن السيّئات بعد التّوبة و أنّه يعلم ما يفعلونه من طاعةٍ أو معصيةٍ و أنّه يجازيهم بحسنها ذكر في هذه الآية أنّه يستجيب الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات، أي يجيبهم إذا دعوه ثمّ أفاد أنّه من فضله و فيه إشارة الى أنّ قبول التّوبة و إجابة الدّعوات من العباد لا يجب عليه عقلاً و أنّما هو من فضله و رحمته الّتي وسعت كلّ شيءٍ لأنّه تعالى دائم الفضل على البريّة باسط اليدين بالعطيّة و خصّ الإجابة بالمؤمنين الّذين عملوا الصّالحات لأنّ غير المؤمن لا يدعوه و إذا دعاه لم يستجب له لأنّ شرط الإجابة الإيمان و الإيمان لا يحصل إلاّ بالعمل الصّالح.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **مِنْ فَضْلِهِ** معناه و يزيدهم من فضله زيادةً على ما يستحقّونه من الثّواب، و قيل معناه يستجيب دعاء المؤمن يستجيب دعاء الكافر لأنّه ثواب و لا ثواب للكافر و لذلك قال و لهم عذابٌ شديد.

و عن معاذ بن جبل أنّ اللّه يجيب الذّين أمنوا و عملوا الصّالحات في دعاء بعضهم لبعضٍ، و قال بعضهم، قوله تعالى: **وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** يدلّ على أنّ الزّيادة من فضله لا أصل الثّواب فأنّه على الإستحقاق، و كيف كان فالأمر سهلٌ و المعنى واضح.

وَ لَوْ بَسَطَ ٱللّٰهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰآءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لو بسط الرِّزق لعباده أي لو وسَّع عليهم أرزاقهم و سوَّى بينهم في سعة الرِّزق لبغوا في الأرض أي لبطروا النّعمة و تنافسوا و تغالبوا و كان ذلك يؤدّي إلى وقوع الفساد بينهم و القتل و تغلب بعضهم على بعضٍ و إستعانه بعضهم ببعضٍ ببذل الأموال قاله بعض المفسّرين و لا مشاحة فيه و ذكر بعضهم أنّ الآية نزلت في قومٍ من أهل الصفّة تمنُّوا سعة الرّزق.

و قال خناب بن الأرت فينا نزلت، نظرنا إلى أموال بني النَّضير و قريظة و بني قينقاع فتمنّيناها فنزلت.

أقول ما ذكروه في شأن نزول الآية لا بأس به إلاّ أنّ الآية بصدد بيان حكم عامّ في جميع النّاس و أنّ بسط الرّزق أعني به كثرة المال يوجب البغي غالباً ألا ترى أنّ قارون كان من أقرباء موسى و قارياً للتّوراة فلمّا كثر ماله فعل ما فعل و ذلك لأنّ الغنى مبطرة.

و إلى هذا المعنى أشار النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم على ما روي عنه: **أنّ أخوف ما أخاف على أمّتي زهرة الدّنيا و كثرتها و هذا ممّا لا شكّ فيه**، و قصّة الثّعلبة مشهورة.

و من المعلوم أنّ الحكم ناظرٌ إلى الأغلب و الأكثر و لا يضرّه خروج بعض الأغنياء عنه إذ ما من عامٍّ إلاّ و قد خصَّ ألا ترى أنّ سليمان بن داود سخَّر اللّه له ملك الجنّ و الإنس و أعطاه ما أعطاه من المال و المقام و الملك و مع ذلك كان من أعبد النّاس و أزهدهم و أتقاهم و نظائره كثيرة إلاّ أنّ أكثر الأغنياء و السلاطين على خلاف ذلك.

و في قوله: **وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰآءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** إشارة إلى أنّ الأرزاق مقدّرة على طبق المصلحة التّي لا يعلمها إلاّ اللّه فأنّ الخالق أعرف بحال مخلقوه منه نفسه.

و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ الدّينار و الدّرهم أهلكا من كان قبلكم و هما مهلكاكم إنتهى.

و عن الباقر عليه السّلام قال: رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللّه عزّ وجلّ أنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالغنى و السّعة و الصّحة في البدن فأبلوهم بالغنى و السّعة و صحّة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، و أنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح أمر دينهم إلاّ بالفاقة و المسكنة و السُّقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة و المسكنة و السُّقم فيصلح عليهم أمر دينهم و أنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين إنتهى[١].

و محصّل الكلام في الآية أنّ العبد ينبغي أن يكون راضياً بقضاء اللّه و قدره في جميع شئونه و أنّ ما أعطاه اللّه من النّعم قلّ أو كثر كان موافقاً للمصلحة الّتي فيها خير الدّنيا و الأخرة و أنّ المعطي و هو اللّه تعالى لا يكون فقيراًبخيلاً و لا ظالماً و هو بعباده رؤوفٌ رحيمٌ بل هو أرحم الرّاحمين و على هذا فطوبى لمن ذكر المعاد و عمل للحساب و قنع بالكفاف و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

وَ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ



القُنُوط بضّم القاف و النُّون اليأس و الحرمان و الغيث بفتح الغين المطر أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قدرته و أنّ النِّعم و البركات تنزل بأذنه و هذا ممّا لا شكّ فيه لأحدٍ من العقلاء فأنّ البركات السماويّة خارجة عن قدرة البشر و منها المطر الّذي يحي الأرض بعد موتها و من يقدر على إنزال المطر من السّماء غير اللّه تعالى و أنّما قال بعد ما قنطوا مع أنّ نزول المطر بأذن اللّه و إرادته تعالى و لا

١- مشكاة الأنوار ص ١٢٧

ربط له بالقنوط و عدمه لنقطةٍ خفيّة و هى أنّ إنزال المطر بعد اليأس عنه أدعى إلى شكر الشّاكر و تعظيمه و المعرفة بمواقع إحسانه الشّدائد التّي تمُر بالإنسان و يأتي الفرج بعدها فأنّ نزول الرّحمة من اللّه تعالى بعد اليأس عنها ألّذ و أحلى و أوقع في القلب منه قبل اليأس و السرّ فيه أنّ العبد يعلم علماً قطعيّاً أنّه لا ملجأ له إلاّ اللّه و لا يقدر على دفع الكربات و الشّدائد و رفعها إلاّ هو و العبد لا يصل إلى مطلوبه إلاّ بعد اليأس عن جميع ما سوى اللّه و الإلتفات و التّوجه بجميع شراشر وجوده إلى خالقه و لأجل هذا قال تعالى: **بَعْدِ مٰا قَنَطُوا** أي قنطوا عن نزول الرّحمة أو قنطوا عن غيره.

و في قوله: **وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ** إشارة إلى أنّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ و لا إختصاص لها بقومٍ دون قوم فأنّ نشر الرَّحمة بسطها وسعتها بحيث يستفيد كلّ مخلوقٍ منها و ذلك لأنّه تعالى خلق الخلق بمقتضى جوده و كرمه فهو الجواد المطلق الّذي لايبخل بمعروفه و ينشر الرَّحمة لجميع خلقه ثمّ يضاعفها لمن يشاء كلّ ذلك على مقتضى الحكمة و حسن التّدبير الّذي ليس شيء أحسن منه و هو الولّي الحميد، أي هو الأولى بكم و بتدبير أموركم المحمود على جميع أفعاله لكونها منافعاً و إحساناً فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰآبَّةٍ وَ هُوَ عَلٰى جَمْعِهِمْ إِذٰا يَشٰآءُ قَدِيرٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه هو الّذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا، ذكر في هذه الآية أنّ خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات أيضاً من علائم توحيده و حججه الدّالة على ربوبيّته و ذلك لأنّه لا يقدر على خلق السّموات و الأرض و ما فيهما إلاّ اللّه تعالى لما فيهما من عجائب الخلقة ما لا يخفى و قوله: **وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰآبَّةٍ** أصل البثّ التّفريق و إثارة الشّيء كبثّ

الرّيح التّراب، و بثّ النّفس ما إنطوت عليه من الغمّ و السِّر يقال بثّته فإنبثّ.

فقوله عزّوجلّ إشارة إلى إيجاده تعالى ما لم يكن موجوداً و إظهاره إيّاه، و الدّابة تطلق على كلّ ما يدبّ على الأرض و حاصل الكلام أنّ خالق السّموات و الأرض و ما فيهما من الموجودات هو اللّه تعالى.

و أمّا قوله: **وَ هُوَ عَلٰى جَمْعِهِمْ إِذٰا يَشٰآءُ قَدِيرٌ** قيل في معناه أنّه تعالى على جمعهم يوم القيامة و حشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادرٌ، لأنّ الجمع أسهل من الخلق فمن لا يقدر على الجمع كيف يقدر على الخلق و هو ظاهر.

وَ مٰآ أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ

إختلفوا في معنى المراد بهذه الآية فقال بعضهم أنّ المراد بالمصيبة في الآية الحدود على المعاصي مثل حدَّ شرب الخمر و حدّ الزّناء و حدَّ السّرقة و أمثالها قاله الحسن.

و قال الضّحاك أنّها نسيان القرأن بعد حفظه و أيّ مصيبةٍ أعظم من نسيان القرأن.

و قيل، ما، بمعنى الّذي و المعنى الّذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم.

و نقل القرطبي في تفسيره عن علّي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: ألا أخبركم بأفضل أيةٍ في كتاب اللّه حدَّثنا بها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وَ مٰآ أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ قال صلى الله عليه وآله وسلم ياعلّي ما أصابكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدّنيا فبما كسبت أيديكم، و اللّه أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة في الأخرة وما عفا عنه في الدّنيا فاللّه أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه.

و قد ذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية وجوهاً كثيرة و الحقّ أنّ هذه الوجوه كلّها عاطلة باطلة لا يعتمد عليها فالإشكال و هو أن تكون المصائب معلولة

للاعمال المكتسبة باق على حاله، فما نقلوه عن الحسن من أنّ ذلك خاصّ في الحدود التّي تستحقّ على وجه العقوبة كلامٌ لا طائل تحته و ذلك لأنّ الآية بظاهرها تدلّ على العموم و التخصيص بالحدود أو غيرها يحتاج إلى دليلٍ دليل عليه.

و هكذا قول من قال أنّ المصيبة في المقام هو نسيان القرأن و من المعلوم أنّ العقل لا يساعده مضافاً إلى أنّ اللُّغة أيضاً تأباه إذ لم يقل أحدٌ من أهل اللُّغة من عرف العقلاء أنّ نسيان القرأن من المصائب.

و أمّا ما نسبه القرطبي إلى علّي عليه السلام من أنّ النّبي قال له يا علّي ما أصابكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدّنياً فبما كسبت أيديكم، فهو لا يشبه كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و أظنّ أنّه من الموضوعات و يؤيّد هذا الإحتمال إذعانه بأنّ الحديث مرفوعٌ لا مسند، و كيف قال رسول اللّه ذلك مع أنّا نرى نزول أكثر المصائب على من لا ذنب له لعصمته كالأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام من أدم الصّفي إلى خاتم الأنبياء فأنّ جميع الأنبياء و الأوصياء إبتلوا بأعظم المصائب في الدُّنيا مع عصمتهم و طهارتهم.

أليس أدم عليه السلام إبتلي بمصيبة ولده هابيل بعد قتل قابيل إيّاه مع أنّ أدم عليه السّلام لم يصدر منه ذنبٌ أصلاً و هكذا نوح النّبي و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلى اللّه عليهم أجمعين ثمّ تصل النَّوبة إلى أوصيائهم في نزول المصائب عليهم و أنت إذا تأمَّلت فيما نزل على محمّدٍ صلى الله عليه و آله و سلم و أوصياءه من المصائب لدريت صدق كلامنا.

ألا ترى أنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: **ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت.**

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **فَصَبرتُ وَفِى الْعَيْنِ قَذىً، وَفِى الْحَلْقِ شَجَىً**[1] إلىٰ أخر... .

١- الخطبة ٣

مع أنّ النّبي كان معصوماً من الذّنب إلاّ ذنب الرّسالة و النّبوة و هداية الخلق إلى طريق الصّواب و هكذا أوصيائه، و أشدَّ المصائب و أوجعها ما نزل بالحسين عليه السّلام في أرض كربلاء و أشدَّ منها ما نزل بأولاده و عياله و أهل بيته من الضّرب و الشتم و الأسر و غيرها ممّا لايقدر اللّسان على بيانه و لا القلم على تحريره و كتابته، و أيُّ ذنب صدر من الحسين عليه السلام إلاّ عدم بيعته ليزيد الفاسق الكافر فأن كان هذا ذنبٌ فلا كلام لنا و أن لم يكن فبأيّ ذنب قتل الحسين و أصحابه و أنصاره و سبيت أهل بيته و هكذا الكلام في غير الأنبياء و الأوصياء من أولياء اللّه الصّالحين الّذين قتلوا أو حبسوا أو ظلموا في كلّ عصرٍ و زمانٍ من غير جرمٍ و لا ذنب، و إذا كان كذلك فما معنى الحديث الّذي نقله القرطبي، و حاصلُ الكلام أنّ الآية على ما فسَّروها في تفاسيرهم لا يساعده العقل السليم و الإنصاف أنّ المفسّرين لم يتأملّوا في معنى الآية حقّ التأمُّل و أنّما نقلوا في تفاسيرهم بعضهم عن بعضٍ و أنّي بعد الفحص في تفاسيرهم و التأمُّل في كلماتهم لم أجد شيئاً أعتمد اليه في حلّ الإشكال و حيث إنجرّ الكلام الى هنا لا بأس بنقل ما ذكره بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية فأنّه قدس سره قد أتعب نفسه لرفع الإشكال و نحن نذكر ما ذكره بعين عباراته و ألفاظه إداءً لحقّ الأمانة ثمّ نتكلّم فيه بما عندنا.

قال المصيبة النّائبة تصيب الإنسان كأنّها تقصده و المراد بما كسبت أيديكم المعاصي و السّيئات، قوله: **وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ** أي عن كثيرٍ بما كسبت أيديكم و هى السّيئات و الخطاب في الآية إجتماعي موجبة الى المجتمع غير منحلٍ الى خطابات جزئيّة و لازمة كون المراد بالمصيبة الّتي تصيبهم المصائب العامّة الشّاملة كالقحط و الغلاء و الوّباء و الزلزال و غيرها فيكون المراد أنّ المصائب و النّوائب الّتي تصيب مجتمعكم و يصابون بها أنمّا تصيبكم بسبب معاصيكم و اللّه يصفح عن كثيرٍ منها فلا يأخذ بها، فالآية في معنى:

قال اللّه تعالى: **ظَهَرَ اَلْفَسادُ فِي اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي اَلنّاسِ**

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[١].

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا**[٢].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللّٰهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**[٣].

و غير ذلك من الأيات الدالّة على أنّ بين أعمال الإنسان و بين النّظام الكوني إرتباطاً خاصّاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الإعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم، هذا ما تقتضيه هذه السنّة الإلهية إلاّ أن ترد عليه سنّة الإبتلاء أو سنّة الإستدراج و الإملاء فينقلب الأمر.

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَ ٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ**[٤].

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآية عامّاً منحلاً الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كلّ إنسانٍ بمصيبةٍ في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلّق به مستنداً إلى معصية أتى بها و سيئةٍ عملها و يعفو اللّه عن كثيرٍ منها، و كيف كان فالآية خطاب لعامّة النّاس من المؤمن و الكافر و هو الّذي يفيده السّياق و يؤيّده الآية التاليّة هذا أوّلاً.

و المراد بما كسبته الأيدي المعاصي و السّيئات دون مطلق الأعمال، ثانياً و المصائب التّي تصيب أنّما هي أثار الأعمال في الدّنيا لما بين الأعمال و بينها من الإرتباط و التّداعي دون جزاء الأعمال، و هذا ثالثاً.

و بما ذكر يندفع أوّلاً ما إستشكل على عموم الآية بالمصائب النّازلة على الأنبياء عليهم السّلام و هم معصومون لا معصية لهم و المصائب النّازلة على

١- الرّوم = ٤١
٢- الأعراف = ٩٦
٣- الرّعد = ١١
٤- الأعراف = ٩٥

الأطفال و المجانين و هم غير مكلّفين بتكليفٍ فلا معصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء و مصائب الأطفال و المجانين.

وجه الإندفاع أنّ إثبات المعصيته لهم في قوله: **فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** دليل على أنّ الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين و غير المكلّفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التّخصص دون التّخصيص.

ثانياً: ما قيل أنّ مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً فأنّها بين ما يجزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها.

وجه الإندفاع أنّ الآية مسوقة لبيان إرتباط المصائب بالمعاصي و كون المعاصي ذوات أثارٍ دنيويّة سيّئة منها ما يصيب الإنسان و لا يخطي و منها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة و حكمٍ مانعة كصلة الرّحم و الصدقة و دعاء المؤمن و التوبة و غير ذلك ممّا وردت به الأخبار.

و أمّا جزاء الأعمال فالآية غير ناظرةٍ إليه كما تقدّم على أنّ الخطاب في الآية يعمّ المؤمن و الكافر كما تقدّمت الإشارة إليه و لا معنى لتبعضها في الدّلالة فتدلّ على المغفرة في المؤمن و عدمها في الكافر و بعد ذلك كلّه فالوجه الأوّل هو الأوجه إنتهى كلامه[١].

و أنّما نقلنا كلامه بطوله و تفصيله لأنّه لا يخلو عن الفائدة في بعض موارده هذا أوّلاً.

ثانياً: لأنّ النّاظر إلى كلامه لعلّه يستفيد منه غير ما إستفدناه و يفهم منه غير ما فهمناه، و الّذي حصل لنا ممّا ذكره قدّس سرّه هو أنّ كلامه يدور مدار التّخصص لا التخصيص بالنّسبة إلى الأنبياء و الأطفال و المجانين و غير المكلّفين و هذا غير

١- تفسير الميزان ج ١٨ ص ٥٩

معقول لأنّ التَّخصص لا يكون إلاّ بعد خروج الأنبياء عن مورد الحكم و شموله إيّاهم.

و مجّرد عدم المعصية لا يدلّ على خروجهم لأنّهم كانوا قادرين على السَّيئات إلاّ أنّهم لم يعملوها بإختيارهم لمكان عصمتهم و قد ثبت أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار و إذا كانوا قادرين على كسب السّيئات فالحكم أعني به نزول المصيبة في صورة تحقّق العصيان يشملهم مثل غيرهم من أفراد النّاس و هذا لا يسمّى تخصّصاً لدخولهم في النّاس نعم لو كان النّبي غير قادرٍ على فعل السَّئ فهو خارج عن الحكم تخَّصصاً و إذ ليس فليس و إذا إنتفى التَّخصص يحتاج خروج النّبي إلى التّخصيص و المفروض عدمه في الآية فالأنبياء حالهم في شمول الحكم إيّاهم كحال غيرهم في ترَّتب المصيبة على العمل.

و أمّا الأطفال و المجانين فهم أيضاً داخلون في الحكم لقدرتهم على السّيئات و أن لم يكونوا مكلّفين بالتّكاليف الشّرعية من الصّوم و الصّلاة و الزّكوة و غيرها و ذلك لأنّ الحكم في الآية ليس من الأحكام التكليفيّة المشروطة بالعقل و البلوغ حتّى يقال بخروجهم عن مورد الحكم تخَّصصاً، بل الحكم نزول العذاب مترتب على نفس العمل من أيّ شخصٍ صدر.

و أن شئت قلت نزول المصيبة على ظاهر الآية معلولٌ لكسب السّيئات فإذا وجدت العلّة وجد المعلول و محصلّ الكلام أنّ الحكم في الآية عامّ يشمل الكلّ و لا تخصيص و لا تخّصص في الآية أصلاً و على المدّعي الدّليل على ما إدّعاه و إذ ليس فليس فالإشكال باقٍ على حاله و هو أنّ من لا ذنب له كيف كالأنبياء و الأطفال و المجانين كيف تنزل المصيبة عليهم و العلّة مفقودة على الفرض و بعبارةٍ أخرى منطوق الآية أنّ كلّ مصيبةٍ معلولة للعمل السَّئ و مفهومها أنّ من لم يعمل عملاً سيّئاً لا مصيبة له.

و نحن نرى نزول المصائب على الأنبياء و الأطفال و المجانين مع أنّهم لم يذنبوا على الفرض و هذا خلاف ما يستفاد من الآية منطوقاً و مفهوماً و العجب من المفسّرين حيث أنّهم قنعوا في تفسير الآية بنقل الألفاظ أو إدّعاء التّخصيص و التّخصص أو أنّ الحكم مخصوص بالحدود و أمثال ذلك من الأقوال التّي لا دليل على صحتّها إذا عرفت هذا فنقول:

المصائب الواردة على البشر على قسمين:

أحدهما: ما يرد عليه من قبل اللّه تعالى بقضاءه و قدره كالفقر و المرض و فقد الأولاد و الجنون و أمثالها.

الثّاني: ما يرد عليه من ناحية أعماله و أفعاله كما ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

من حفر بئراً لأخيه وقع فيه.

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **من دقَّ دقَّ، و قال اللّه تعالىٰ: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْمٰاكِرِينَ.**

قال الصّادق عليه السّلام: برّوا أبائكم يبُّركم أبنائكم و غضُّوا عن النّساء يغضّ عن نسائكم.

و غيرها من الأخبار و آلأثار الدّالة على من ظلم ظلم، و من نظر إلى إمرأة غيره عن شهوةٍ ينظر إلى إمرأته كذلك فهذه الأخبار تدلّ على أنّ الأفعال و الأعمال الصادرة عن الإنسان بمنزلة البذر للآثار المترتّبة عليها على ما سيأتي الإشارة إليها تفصيلاً.

أمّا القسم الأوّل: من المصائب فهو خارج عن محّل البحث و مورد الآية قطعاً ضرورة أنّ القضاء و القدر الإلّهي تعّلق بها قبل خلق الإنسان في هذه الدّنيا و لا دخل لعمل الإنسان و فعله و قوله و حركاته في دار الدّنيا في تعّلق القضاء و عدمه و هذا ممّا لا شكّ فيه لأنّ المصائب المتعلّقة بالقضاء و القدر قدّرت له قبل خلقه، و أمثلته كثيرة، كالإنسان الّذي خلق متّصفاً بالعمى أو الصَّم من حين ولادته

أو خلق مفلوجاً معلولاً في أعضائه و جوارحه أو مجنوناً في عقله و دركه، أو لا يقدر على الحركة و المشي و التكلّم و غير ذلك من الأمراض الّتي من أعظم المصائب في الحياة الدنيَّوية، فلا يمكن أن يقال أنّ هذه المصائب بما كسبت أيديهم بل يقال أنّها بقضاء اللّه و قدره على طبق المصالح الّتي لا يعلمها إلاّ اللّه تعالى فحمل المصيبة المعلولة عمّا كسبت أيدي النّاس في الآية على تلك المصائب غير معقولٍ و لا مشروعٍ لأنّه من فعل الخالق في خلقه فقوله تعالى ناظراً إلى المصائب الّتي هي معلولة لأعمال النّاس و أفعالهم و نيّاتهم و هى القسم الثّاني من القسمين أعني به المصائب النّازلة على النّاس من ناحية أعمالهم في دار الدّنيا.

و إذا حملنا المصائب في الآية على هذا المعنى كما هو الحقّ لا نحتاج إلى التّخصيص أو التَّخصص لأنّ مصائب الأنبياء و الأوصياء من القسم الأوّل الّذي هو خارج عن شمول الآية إيّاه و بعبارةٍ أخرى الآية ناظرة بل مصرّحة بالمصائب المعلولة عن إكتساب النّاس بأيديهم، لا بالمصائب على سبيل العموم.

ألا ترى أنّه تعالى يقول: **وَ مَآ أَصَٰبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** و المصيبة بالمعنى الأوّل ليس من المكتسب بالأيدي بل هي مكتسبة من القضاء الإلهي قبل خلق الأيدي فالآية أجنبيّة عن المصائب المقدّرة بقضاء اللّه.

إن قلت أي دليلٍ على هذا التّخصيص و لا مخصّص في المقام.

قلت خروج مصائب المقدّرة كمصائب الأنبياء و الأوصياء تخَّصصي تخصيصي لأنّها ليست ممّا كسبته أيدى النّاس، و يمكن أن يستدلّ على إثبات المدّعى من الآية أيضاً و هو أنّه تعالى قال: **وَ مَآ أَصَٰبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** و لم يقل ما أصابتكم مصيبة فبما كسبت أيديكم، و لا يبعد أن تكون كلمة من، للتّبعيض و المعنى ما أصابكم من بعض المصائب فبما كسبت

أيديكم لا كلّ المصائب و المراد ببعض المصائب ما ذكرناه من المصائب المعلولة عن كسب الأيدي، هذا ما فهمناه من الآية و أظنّ أنّه حقّ حقيق بالإتّباع و اللّه أعلم بما قال و أنّما فصّلنا الكلام حول الآية لأنّها من المعضلات.

و أمّا قوله تعالى: **وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ** فمعناه واضح إذ لولا عفو اللّه عن أكثر المعاصي و الأخذ بما كسبت أيدي النّاس لم يبق على الأرض دابّة فضلاً عن الإنسان.

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**[2].

و هذا معني قوله: **وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ** و الحمد للّه ربّ العالمين.

ثمّ أنّي أوصيكم يا إخواني بالتأمّل في الأيات فأنّها كلام الخالق و قد أمرنا اللّه بالتّدبر فيها في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا**[3].

تنبيهٌ

و أعلم أنّي بعد ما فسرت الآية بما فسّرت من أنّ المصائب على قسمين و حملت الآية على القسم الثّاني منهما، فكنت مضطرباً خائفاً، لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **من فسّر القرآن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار**، و قلت في نفسي ظاهر الآية الإطلاق فحملها على بعض المصائب دون بعضها يمكن أن يكون من قبيل التّفسير بالرّأي و لا سيّما أنّ ما ذكرته في تفسير الآية و حملتها عليه لم يقل به أحد

۱- النّحل = ۶۱ ۲- فاطر = ۴۵
۳- محمّد = ۲۴

من المفسّرين و لذلك تتبّعت و تفحصّت الأخبار فوقفت على بعض الأخبار الواردة عن المعصومين و رأيتها مطابقة لما الهمني اللّه في تفسير الآية فصارت نفسي مطمئنة بما قلت و شكرت اللّه تعالى على ذلك و نشير الى شطرٍ منها في المقام ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس المتنافسون.

ما رواه علّي إبن إبراهيم في تفسيره قال: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علّي بن رباب قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: مَآ أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ الخ قال عليه السلام: أرأيت ما أصاب علّياً و أ هل بيته هو بما كسبت أيديهم و هم أهل الطّهارة معصومون، قال عليه السلام: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوب الى اللّه و يستغفره في كلّ يومٍ و ليلة مئة مرّةٍ من غير ذنبٍ أنّ اللّه يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنبٍ.

قال الصّادق عليه السلام: لمّا أدخل علّي بن الحسين على يزيد نظر اليه ثمّ قال: يا علّي بن الحسين وَ مٰآ أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ فقال علّي بن الحسين عليهما السّلام: كلاّ، ما فينا هذه نزلت و أنمّا نزلت فينا (ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض و لا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها أنّ ذلك على اللّه يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم) فنحن الّذين لا نأسوا على ما فاتنا من أمر الدُّنيا و لا نفرح بما أوتينا[١].

ما رواه في قرب الأسناد عن إبن بكير قال سألتُ أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ مٰآ أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فقال هو: ويعفوا عن كثيرٍ، قال قلت ما أصاب علّياً و أشياعه من أهل بيته ذلك،

١- ج ٢ ص ٢٧٧

فقال عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كان يتوب الى اللّه عزّ وجلّ كلّ يومٍ سبعين مرَّةٍ من غير ذنبٍ.

أقول هذه الأخبار كما ترى تنادي بأعلى صوتها بصّحة ما ذكرناه في تفسير الآية و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ

الخطاب للكفّار قاله الشّيخ قدس سره في التّبيان و لا نعلم وجه تخصيصه بهم و الحقّ أنّه عاّم يشمل الجميع فأن بعدم الإعجاز في الأرض و الفرار من حكومة اللّه لا يختصّ بالكفّار فقط كما هو ظاهر و أنمّا هو صادق في حقّ الجيمع و المعنى لستم تفوتون اللّه بالهرب منه في الأرض و لا في السّماء، كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام: و **لا يمكن الفرار من حكومتك** و الوجه فيه ظاهر فأنّ المخلوق كيف يقدر أن يخرج عن ملك خالقه و المفروض أنّه مخلوق له محتاج اليه موجودٌ بوجوده و منه يظهر معنى قوله تعالى: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ** و ذلک لأنّ جميع ما سوى اللّه مخلوق له و حكم الأمثال واحدٍ فكيف يعقل أن يكون المخلوق وليّاً و ناصراً لمخلوقٍ آخر مثله و إذا كان كذلك ينبغي للمخلوق التَّوجه الى خالقه و معبوده لا غيره لأنّ الغير في الضّعف مثله.

و قال بعض المفسّرين معنى الكلام ليس لكم من يدفع عقاب اللّه عنكم إذا أراد فعله بكم.

وَ مِنْ ءَايَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ

الجَوار بفتح الجيم جمع جارية و هى السّفينة الّتي تجري في البحر، فالجوار، السُّفن و المعنى من آياته الدالّة على قدرته السُّفن الجارية في البحر الّتي كأنّها من عظمها كالأعلام و الجبال و ذلك لأنّ اللّه تعالى يسيّرها بالرّيح و لا يقدر على

تسييرها كذلك إلاّ هو.

قال بعض المفسّرين في توضيح الكلام أنّ اللّه خلق الماء العظيم و عدل الرّيح بما يمكن أن يجري فيه على حسب المراد لأنّه إذا هبَّت الرّيح في جهة و سارت بـها السّـفينة فـيها فـلو إجـتمعت الخـلائق عـلى صرفها الى جـهةٍ أخـرى لما قدروا و كذلك لو سكنت الرّيح لوقفت و ما قدر أحد عـلى تـحريكها و لا إجراءها غيره تعالى.

أقول ما ذكره قدس سره لا بأس به إلاّ أنّه ليس من التّعليل بشئ كما لا يخفى.

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلٰى ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ

ثمّ بيَّن اللّه تعالى ذلك و قال: **إِنْ يَشَأْ** أي إن يشاء اللّه و أراد وقوف السَّفينة، **يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ** أي إن يشاء أن يسكنها سكنت **فَيَظْلَلْنَ** السّفن **رَوٰاكِدَ عَلٰى ظَهْرِهِۦٓ** رواكد، جمع راكد و هو الواقف و المعنى تظلّ السُّفن واقفة على ظهر الماء لا تقدر على الحركة لعدم وجود الرّيح المحّرك لها.

و الحاصل أنّ محرِّك السَّفينة الرّيح و هی تحت أمر اللّه و قدرته، **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ** و علامات على قدرته **لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ** يعني في تسخير البحر و جريان السُّفن فيها لأيات واضحات لكلّ من كان صابراً على أمر اللّه شاكراً على نعمه الّتي لا تحصى كما قال: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لا تُحْصُوهٰآ**[1].

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ

قوله: **أَوْ يُوبِقْهُنَّ** معطوف على قوله: **فَيَظْلَلْنَ** و التّقدير إن يشاء اللّه يسكن الرّيح فيظللن أي تظل السُّفن واقفة على ظهر الماء لا تتَّحرك و إن يشاء يوبقّهن،

١- ابراهيم = ٣٤

أي يهلكهنّ بالغرق في البحر، بما كسبوا، أي بسبب ما كسبت أيديهم من المعاصي و إن شئت قلت جزاءً على المعاصي، و يعف عن كثيرٍ، من معاصيهم التّي فعلوها فأنّ اللّه لا يعاجلهم بعقوبته و المقصود أنّ الحياة و الموت بيد اللّه و هو ظاهر.

وَ يَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ

قيل هو إخبار من اللّه تعالى بأنّ الّذين يجادلون في إبطال أيات اللّه و يدفعونها و ينكرونها سيعلمون أنّه ليس لهم محيصٌ أي ملجأ و ملاذٌ غير اللّه تعالى و أنّ أزمّة الأمور بيده و تحت قدرته.

فَمَآ أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

يقول اللّه تعالى مخاطباً لأهل الدُّنيا **مَآ أُوتِيتُمْ** و أعطيتم **مِنْ شَيْءٍ** أي من الأموال **فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** تنتفعون به عاجلاً، قيل المتاع يخبر به عن الإمتاع و يعبّر به عن الأناث ففي ذلك تزهيد في الدّنيا و حثٌّ على العمل للأخرة، **وَ مَا عِنْدَ ٱللَّهِ** من الثّواب **خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ** من هذه المنافع العاجلة الفانية التّي هي قليلة و الأخرة باقية دائمة لا زوال لها، و العقل السّليم يحكم بأنّ الباقي خير من الفاني.

أقول ما ذكره تعالى حقّ لا مرية فيه فأنّ الدّنيا و ما فيها لا بقاء لها أصلاً مضافاً إلى أنّه نعمها و متاعها و لذائذها محفوفة بالبلاء:

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: الدّنيا دارٌ بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: في وصّية لقمان لإبنه، يابنّي إعلم أنّ الدّنيا قليل و عمرك منها قليل من قليل و يقّر من القليل قليلٌ إنتهى.

و قال عليه السلام: سبحان من لو كانت الدنيا خيراً كلّها لما إبتلى فيها من

أحبَّ، سبحان من لو كانت الدّنيا شرّاً كلّها لما نجى منها من أراد إنتهى.

و عن أبان بن عثمان قال: شكى رجلٌ إلى أبي عبد اللّه عليه السلام ألضّيق، فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام: ما ذنبي أنتم إخترتموه قال الرّجل و متى إخترناه فقال عليه السلام: أنّ اللّه تعالى عرض عليكم الدّنيا و الأخرة فإخترتم الأخرة على الدّنيا و المؤمن ضيفٌ على الكافر في هذه

الدُّنيا و أنتم الآن تأكلون و تشربون و تلبسون و تنكحون و هم في الأخرة لا يأكلون ولا يشربون و لا يلبسون و لا ينكحون.

و عن كتاب روضة الواعظين، قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما الدّنيا في الأخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليّم فلينظر بم يرجع إنتهى.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: الدئُنيا دار من لا دار له و مال من لا مال له و لها يجمع من لا عقل له و شهواتها يطلب من لا فهم له و عليها يعادي من لا علم له و عليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له إنتهى.

رُوي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: قرأ، أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ النُّور إذا وقع في القلب إنفتح له و إنشرح فقالوا يا رسول اللّه هل لذلك علامة يعرف بها قال صلى الله عليه وآله وسلم التّجافي عن دار الغرور و الإنابة إلى دار الخلود و الإستعداد للموت قبل نزول الموت إنتهى[1].

١- مشكاة الأنوار ص ٢٦٣ إلىٰ ص ٢٧٠

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: اَيُّهَا النَّاسُ اِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عَنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَاَخْرِجُوا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا اَبْدانُكُمْ...[١].

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: مٰا اَصِفُ مِن دٰارٍ اَوَّلُهٰا عَنٰاءٌ، وَاٰخِرُهٰا فَنٰاءٌ، فِي حَلاٰلِهٰا حِسٰابٌ، وَفِي حَرٰامِهٰا عِقٰابٌ، مَنِ اسْتَغْنىٰ فِيهٰا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهٰا حُزِنَ، وَمَن سٰاعٰاهٰا فٰاتَتْهُ، وَمَن قَعَدَ عَنْهٰا وٰاتَتْهُ، وَمَنْ اَبْصَرَ بِهٰا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ اَبْصَرَ اِلَيْهٰا اَعْمَتْهُ...[٢].

و الأخبار و آلأثار في ذمّها كثيرة تكلّمنا فيها غير مرّةٍ.

و أمّا قوله: **لِلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** فهو إشارة الىٰ أنّ ما وصفه اللّه من نعم الأخرة و أنّها أبقى، فهو مختّصٌ بالمؤمن المتوكّل على اللّه في الدُّنيا و أمّا الكافر فلا حظّ له ممّا عند اللّه من الخير و بعبارةٍ أخرى ما عند اللّه خير للمؤمن و أمّا للكافر فليس له إلاّ العذاب و أن شئت قلت خير للمؤمن و شرٌّ للكافر ثمّ أشار اللّه تعالى الى أوصاف المؤمنين الّذين قال فيهم و ما عند اللّه خيرٌ لهم و أبقى.

وَ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰآئِرَ ٱلْاِثْمِ وَ ٱلْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ

الواو للعطف على قوله: **لِلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** أي وما عند اللّه خيرٌ لهم و للذّين يجتنبون كبائر الاثم ذكر فيها لهم ثلاث خصال:

الأولىٰ: إجتنابهم كبائر الإثم.

الثّانية: إجتنابهم عن الفواحش.

١- من كلام له ٢٠٢

٢- الخطبة ٨١

الثّالثة: العفو حين الغضب.

أمّا كبائر الإثم، فالإثم الذّنب و الكبائر جمع كبيرة و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ الذّنوب على قسمين كبيرةٌ و صغيرة.

قال بعض المحققين، إعلم أنّ صاحب الشّرع قسّم الذُّنوب الى كبيرة و صغيرة و حكم بأنّ إجتناب الكبائر يكفّر الصّغائر.

ثمّ أنّ الكبيرة من حيث اللّفظ مبهمٌ ليس له موضوع خاّص في اللُّغة و لا في العرف و لا في الشّرع لأنّ الكبير و الصغير من المضافات و ما من ذنبٍ إلاّ كبير بالإضافة الى ما دونه و صغير بالإضافة الى ما فوقه و قد إختلف العلماء في تعيين الكبائر إختلافاً لا يكاد يرجى زواله و إختلفت الرّوايات فيها أيضاً و الأظهر بالنّظر الى الرّوايات و الى.

الجمع بنها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنّار على فعله أو ما ورد في نصّ الكتاب النّهي عنه.

و يعني بوصفه بالكبيرة أنّ العقوبة بالنّار عظيمة أو أنّ تخصيصه بالذّكر فـي القرآن يدلّ على عظمه و يمكن أن يقال أنّ الشَّرع لم يعنيّنها و أبهمها ليكون العباد على وحلٍ منها فيجتنبون جميع الذّنوب كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ النّاس في طلبها و يواظبون في ليالٍ متعدّدة على العبادات و كما أبهم إسم و الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء اللّه و الحاصل أنّ كلّ ما لا يتعلّق به حكم في الدُّنيا جاز أن يتطرّق اليه الإبهام و الكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدُّنيا من حيث أنّها كبيرة فأنّ موجبات الحدود معلومةٌ بأساميها و أنّ حكم الكبيرة أنّ إجتنابها يكفر الصّغائر و أنّ الصلوات الخمس لا تكفرها و هذا أمرٌ يتعلّق بالأخرة و الإبهام أليق به حتّى يكون النّاس على وجل و حذرٍ فلا يتجرؤن على الصّغائر إعتماداً على الصّلوات الخمس و إجتناب الكبائر إنتهى ما ذكره قدّس سرّه و الإنصاف أنّ ما ذكره و

حقّقه لا مرية فيه إذا عرفت هذا.

فنقول أنّما قال تعالى: **يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ ٱلْإِثْمِ** ولم يقل يجتنبون الإثم مثلاً، لأنّ إجتناب الإثم بقولٍ مطلق غير مقدورٍ للمؤمن فأنّ الإنسان جائز الخطأ إلاّ من عصمه اللّه كالأنبياء و الاوصياء و أمّا غيرهم كائناً من كان قد يذنب و يخطأ لأنّه غير معصومٍ منه و أمّا الإجتناب عن الكبائر و هى الذّنوب الّتي توعد عليها بالنّار فهي لا حرج في تركها أو الإستغفار عنها بعد فعلها كما قال الصّادق عليه السلام: **و لا صغيرة مع الإصرار و لا كبيرة مع الإستغفار.**

و قال بعضهم الكبائر مثل القتل بغير حقٍّ، و الزّناء و شرب الخمر، و القمار، و الغيبة، و الكذب، و أكل مال الغير غصباً، و أمثال ذلك على إختلافٍ فيها.

و أمّا الفواحش فهي جمع فاحشة و هى أقبح القبيح، قال السُّدي يعني الزّناء و قيل الكبائر و الفواحش بمعنى واحد و كرّر لتّعدد اللّفظ أي يجتنبون المعاصي لأنّها كبائر و فواحش و قال مقاتل، الفواحش موجبات الحدود و قوله: **وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** معناه، أنّهم يتجاوزون ممّا يفعل بهم من الظُّلم و الإساءة.

فمن كتاب المحاسن بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: ثلاثة من مكارم الدُّنيا و الأخرة، أن تعفو عمّن ظلمك، و تصل من قطعك، و تحلم إذا جهل عليك إنتهى.

و عن الباقر عليه السلام: ثلاثة لا يزيد الله بهنّ المرء المسلم إلاّ عزّاً، الصّفح عمَّن ظلمه، و إعطاء من حرجه، و صلة من قطعه إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: عليكم بالعفو فأنّ العفو لا يزيد العبد إلاّ عزّاً فتعافوا يعزّكم اللّه إنتهى(١).

هذا إذا كان المراد العفو عن المسيئ كما ذهب اليه المفسّرون و يحتمل أن

١- مشكاة الأنوار ص ٣٢٨

يكون المراد به كظم الغيظ بدليل قوله: **إِذٰا مٰا غَضِبُوا** فأنّ العفو عند الغضب يعبّر عنه بكظم الغيظ و العفو بعده أشدّ و أصعب و على هذا فقوله تعالى: **وإِذٰا مٰا غَضِبُوا** إشارة الى أنّ المؤمن يكظم غيظه و غضبه و يغفر للمسيئ يعمل بمقتضى غضبه و هو أيضاً من أحسن الصّفات بل هو أحسن و أفضل من العفو عند عدم الغضب و قد وردت الأخبار بمدحه أيضاً.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام للحسين عليه السلام: يا بنيّ ما الحلم قال عليه السلام كظم الغيظ و ملك النّفس.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علّي بن الحسين عليه السلام يقول أنّه ليعجبني الرّجل أن يدركه حلمه عند غضبه إنتهى.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من جرعةٍ يتجرّعها عبدُ أحبَّ الى اللّه عزّ وجلّ من جرعة غيظٍ يردّها في قلبه و ردّها بصبرٍ أو ردَّها بحلمٍ.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما ظلم أحد بظلامة فقدر أن يكافئ بها و لم يجعل إلاّ أبدله اللّه مكانها عزّاً إنتهى.

و قال أبو عبد اللّه عليه السلام: ما من عبدٍ كظم غيضاً إلاّ زاده اللّه عزّ وجّل به عزّاً في الدّنيا و الآخرة و قد قال اللّه تبارك وتعالى: وَ ٱلْكٰاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَ ٱلْعٰافِينَ عَنِ ٱلنّٰاسِ وَ ٱللّٰهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ وأَتاه اللّه الجنَّة مكان غيظه ذلك.

و قال أيضاً: من كظم غيظه و هو يقدر على إنفاذه ملأ اللّه قلبه أمناً و إيماناً إلى يوم القيامة.

و قال أيضاً: نعمت الجرعة الغيظ لمن صبر عليها.

و الأحاديث كثيرة[١].

وَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورٰى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

هذا وصفٌ ثالث أثبته اللّه تعالى للمؤمنين الّذين وعدهم اللّه أن يعطيهم ما عنده ممّا هو خيرٌ و أبقى يوم القيامة و قد ذكر اللّه تعالى لهم أوصافاً:

أحدها: أنّهم يستجابون لربَّهم في ما دعاهم إليه أي يطيعونه في أوامره و نواهيه كما هو شأن العبد المؤمن باللّه و من المعلوم أنّ إستجابة الرّسول و وصيَّه، إستجابة اللّه كما أنّ معصيته و مخالفته معصية اللّه.

الثّاني: **وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ** قيل إقامة الصّلوة الإتيان بها مع جميع شرائطهامرَّ البحث في الصّلاة و اجزائها و شرائطها فيما مضى و نقلنا الأخبار الواردة في فضلها و شرفها و قلنا أنّها من أفضل القربات و لا شئ بعد الإيمان باللّه أفضل و أعظم من الصّلاة.

الثّالث: **وَ أَمْرُهُمْ شُورٰى بَيْنَهُمْ** الشُّوار بضّم الشّين ما يبدوا به المتاع يقال شرت العسل و أشرته أخرجته، و شرت الدّابة إستخرجت عدوه تشبيهاً بذلك، و التَّشاور و المشاورة و المشورة، إستخراج الرّأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم شرت العسل إذا إتَّخذته من موضعه و إستخرجته عنه، و الشُّورى الأمر الّذي يتشاور فيه، ذكره الرّاغب في المفردات إذا عرفت هذا فنقول:

لا شكّ أنّ المشورة ممدوحةٌ مرَّغب فيه و الدّليل عليه من النّقل نصّ الكتاب و قد أمر اللّه نبيّه بذلك حيث قال تعالى: **وَ شَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**[٢].

و أمّا العقل فأنّه يحكم بحسن المشورة قطعاً و ذلك لأنّها توجب إستخراج

١- مِشكاة الأنوار ص ٢١٦ ٢- أل عمران = ١٥٩

أحسن الأراء و لذلك أمرنا بالمشورة في الأمور عقلاً و شرعاً و هذا ممّا لا كلام فيه عند جميع العقلاء و أنّما الكلام في أمرين:

أحدهما: أهل الشُّورى.

الثّانى: الأمر الّذي تعلّق به المشورة و بعبارةٍ أخرى يتشاورون فيه.

أمّا الأمر الأوّل: أعني به أهل الشّورى فهم عقلاء القوم فأنّ إستخراج الرّأي السَّديد لا يمكن إلاّ من طريق العقل و العقل لا يوجد إلاّ في العاقل فالمشورة مع الجاهل لا فائدة فيها و هو لا يحتاج إلى دليل لوضوحه.

أمّا الأ مر الثّانى: و هو الأمر يتشاور فيه فالظّاهر أنّه من الأمور الدُّنيوية المتعلّقة بمصالح الإجتماع و مفاسدها كالنّكاح و الطّلاق و البيع و الشّراء و أمثال ذلك و أمّا الأمور الدّينية فهي خارجة عن مفاد الآية و حكم العقل فلا تجوز المشورة فيها نفياً و إثباتاً، و ذلك لأنّ حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك و يستفاد ذلك من الآية أيضاً و ذلك لأنّه تعالى قال: **وَ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** لا كلّ أمرٍ من الأمور حتّى يشمل أمر اللّه فإضافة الأمر في الآية إلى ضمير، هم، أعني به المؤمنين إشارة إلى ما ذكرناه أي أمر المؤمنين شورى بينهم، أي بين المؤمنين فالمقصود من الآية أنّ المؤمن غير مستبدٍّ برأيه في أمر دنياه.

قال صاحب الكشّاف في تفسيره لهذه الأية، كانوا قبل الإسلام و قبل مقدم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم المدينة إذا كان بهم أمرٌ إجتمعوا و تشاوروا فأثنى اللّه عليهم أي لا ينفردون برأيٍ حتّى يجتمعوا عليه.

و عن الحسن ما تشاور قومٌ إلاّ هدوا لأرشد أمرهم و الشّورى مصدر كالفتيا بمعنى التّشاور و معنى قوله: **وَ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** أي ذو شورى قولهم ترك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه الخلافة شورى، هو أن يقتصروا في الإنتصار على ما جعله اللّه لهم و لا تعيدوا.

و عن النّخعي أنّه كان إذا قرأها قال كانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترئ

عليهم الفسّاق.

فأن قلت أهم محمودون على الإنتصار.

قلت نعم لأنّ من أخذ حقّه غير متّعدٍ حدَّ اللّه و ما أمر به فلم يسرف في القتل أنّه كان ولّي دمٍ إلى أخر ما قال إنتهى كلامه.

أقول العجل من الزّمخشري في قوله في معنى الأية، و كذلك قولهم ترك رسول اللّه و عمر بن الخطّاب الخلافة شورى، و نحن نقول أمّا عمر بن الخطّاب فلا كلام لنا في أنّه جعل الخلافة شورى بين ستّة رجال إلاّ أنّ عمله كان كسائر أعماله و لا حجّة فيه و قد تكلّمنا في شورى عمر، في شرح الخطبة الشّقشقية بما لا مزيد عليه في كتابنا المسمّى بمفتاح السّعادة في شرح نهج‌البلاغة عند قول أميرالمؤمنين **فيالِللّه والشُّورىٰ** و قلنا هناك أنّ عمر بن الخطّاب أراد تفويض الحكومة إلى عثمان و لذلك جعل إختيار الشُّورى لعبد الرّحمن بن عوف لعلمه بأنّه أي عبد الرّحمن لا يبايع عليّاً أبداً لقرابته لعثمان و عداوته لعلّي عليه‌السلام فما فعله و سمّاه الشُّورىٰ، في الحقيقة لم يكن شورى، بل كان مكراً و خدعةً لإخراج أميرالمؤمنين عن الزّعامة و الحكومة و مع ذلك كلّه نقول بأنّ شورى عمر كان على خلاف الشّرع و العقل كما بيّناه في موضعه و لا كلام لنا فيه فعلاً لبطلانه عندنا.

و أنّما الكلام في قولهم ترك رسول اللّه الخلافة شورى فأنّ القائل بهذا القول نسب الكذب إلى اللّه و رسوله، و من كذب على اللّه و رسوله فليتّبوأ مقعده من النّار، توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ مسألة الخلافة كمسألة النّبوة فكما أنّ النّبي منصوبٌ من اللّه للنّبوة كذلك وصيّه و خلفيته و لا فرق بين المقامين من هذه الجهة فليس للنّبي تعيين خليفته فضلاً عن النّاس فكيف ترك رسول اللّه الخلافة شورى، فأن كانت الخلافة شورى فما معنى قوله تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ**

تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[1] يوم الغدير و ما الّذي أنزل عليه فأن كان المنزل عليه الصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها من الأحكام فالمفروض أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قد بلّغها من قبل نزول الآية و أن كان غير الأحكام فما هو و نحن قد تكلّمنا حول الآية سابقاً و لا سيّما في شرحنا على نهج البلاغة فلا نعيد الكلام بذكره ثانياً حذراً من الإطالة مضافاً إلى أنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث.

و الّذي نقول في هذا المقام هو أنّ أمر الخلافة بيد اللّه تعالى لا غيره كائناً من كان فالحقّ أن يقال أنّ النّاس جعلوا الخلافة شورى و تبعهم في ذلك عمر بن الخطّاب، ثمّ نقول لصاحب الكشّاف أن كان الرّسول جعل الخلافة شورى كما إدّعيت ففعل الرّسول حجّة على أمّته و ذلك لأنّ السُّنة عبارةٌ عن قول الرّسول و فعله و تقريره فما قاله الرّسول أو فعله أو قرّره و امضاه متّبعٌ لأمّته و من أعرض عن فعله أعرض عن سنّته و من أعرض عن دينه و من أعرض عن دينه فهو كافر باللّه و رسوله و على هذا فسنّة الرّسول ترك الخلافة شورى، فلم يترك أبو بكر الخلافة شورى ليكون تابعاً لسنّة رسول اللّه بل عيَّن عمر للخلافة بعده من غير أن يجعلها شورى، هذا كلّه على ما إدّعاه الخصم و إعتقد به.

و أمّا على مذهب الحقّ فالخلافة ليست من أمور الدُّنيا و أهلها بل هي من مواهب اللّه يعطيها من يشاء و يصلح لها كالنّبوة و لتفصيل الكلام في هذا الباب مقام أخر، و الآية لا ربط لها بمسألة الخلافة أصلاً و الحقّ أنّ خروجها عن عموم الآية تخصُّصيٌ لا تخصيصيّ فأنّ اللّه قال أمرهم شورى بينهم لا أمر اللّه و هو واضح.

و أمّا قوله تعالى: **وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** فقد مرَّ الكلام فيه غير مرَّةٍ فأنّ المؤمن لا يكون بخيلاً.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لم نبعث لجمع

١- المائدة = ٦٧

المال ولكن بعثنا لإنفاقه إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ اللّه إذا أنعم على عبدٍ نعمة لم يسلبه إيّاها ما إستقام حتّى يتّغير عن طاعة اللّه فإذا تغيّر عن طاعة اللّه تغيّر اللّه له عند ذلك إنتهى[١].

و الأخبار في مدح الإنفاق و ذمّ الإمساك و البخل كثيرة.

وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ

وصفٌ أخر لهم أنّهم إذا أصابهم البغي و الظُّلم من غيرهم ينتصرون ممّن بغى عليهم من غير أن يعتدوا فيها فيقتلوا غير القاتل و يجنوا على غير الجاني هكذا فسّروا الكلام بعض المفسّرين.

و قال صاحب الكشّاف في معناه هو أن يقتصروا في الإنتصار على ما جعله اللّه لهم و لا يعتدوا، و هذا الّذي ذكره يوافق ما نقلناه عن غيره.

و قال القرطبي أي أصابهم بغي المشركين و ذلك أنّهم بغوا على رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و أصحابه و أذوهم و أخرجوهم عن مكّة فأذن اللّه لهم بالخروج و مكّن لهم في الأرض و نصرهم على من بغى عليهم، و على هذا فالحكم خاصٌّ و به قال إبن عبّاس على ما نقلوا عنه و قيل هو عامّ في بغي كلّ باغٍ من كافرٍ أي إذا نالهم ظلمٌ من ظالم لم يستسلموا لظلمه و هذه إشارة إلى الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و إقامة الحدود.

و قال إبن العربي، ذكر اللّه الإنتصار في البغي في معرض المدح، و ذكر العفو عن الجرم في موضع أخر في معرض المدح فإحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للأخر و إحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى حالتين:

أحدهما: أن يكون الباغي معلناً بالفجور مؤذيّاً للصّغير و الكبير فيكون الإنتقام منه أفضل.

١- مشكاة الأنوار ص ١٨٣

الثّانية: أن تكون الفلتة أو يقع ذلك ممّن يعترف بالزلّة و يسأل المغفرة فالعفو هاهنا أفضل و فى مثله نزلت **وَ أَنْ تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى** إنتهى. كلامه هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

أقول النّصر و النُّصرة العون و الإنتصار و الإستنصار طلب النُّصرة و البغي هو طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتَّحرى تجاوزه أو لم يتجاوزه يقال بغيت الشّئ إذا طلبت أكثر ما يجب ثمّ أنّ البغي على جزئين:

أحدهما: محمودٌ و هو تجاوز العدل إلى الإحسان و الفرض إلى التطوّع.

الثّاني: مذموم و هو تجاوز الحقّ إلى الباطل و تجاوزه إلى الشبّه كما قال عليه السلام: **الحقّ بيّنٌ، و بين ذلك أمور مشتبهات و من رتع حول الحمى أو شكّ أن يقع فيه** إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ البغي ليس في جميع الموارد مذموماً بل قد يكون مذموماً و قد يكون ممدوحاً.

نعم من فسَّر البغي بالظّلم فلا يكون ممدوحاً أبداً لأنّ الظّلم مذمومٌ على كلّ حالٍ و لا إستثناء فيه و الّذي يدلّ على ما ذكرناه من تقسيم البغي إلى الممدوح و المذموم هو قوله تعالى: **إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَ يَـبْغُونَ فِـى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**[1] و سيأتي الكلام فيها فأنّها تدلّ على أنّ البغي بالحقّ و هو الممدوح منه لا إشكال فيه إذا عرفت هذا فنقول:

دلّت الآية على من أصابه البغي و هو ينتصر أي يطلب النُّصرة على دفع الظُّلم عنه لا إشكال فيه بل هو من أوصاف المؤمن فيستفاد من الآية أنّ الإنتصار ممدوحٌ مطلوبٌ إذا كان البغي مذموماً أي ظلماً و توضيح ذلك:

أنّ الظُّلم منكرٌ في حدّ نفسه من أيّ شخصٍ صدر و إذا كان الظّـلم مـذموماً فالمظلوم ممدوحٍ بحكم المقابلة و قد حكى العقل و الشّرع بأنّ دفع المـنكر واجبٌ حتّى الإمكان، فإذا كان المظلوم قادراً بشخصه على دفع الظّلم أو رفعه عن

١- الشُّورىٰ = ٤٢

نفسه يجب عليه دفعه و إذا لم يقدر وجب عليه الإنتصار أي طلب النُّصرة على دفع الظُّلم لأنّه من المعروف و قد عدَّه الشّارع من وظائف المؤمن لئلاّ يصدق عليه الإنظلام فأنّه مذمومٌ و الإنظلام قبول الظُّلم من الظّالم و هذا هو الّذي أخبر عنه الرَّسول بأنّ بعض المظلومين يحشر يوم القيامة مع الظّالم الذّي ظلم عليه قيل له يارسول اللّه أمّا الظّالم فمعلومٌ فما بال المظلوم في حشره معه في العذاب، قال ﷺ: **لأنّه لم يدفع الظّلم عن نفسه وكان قادراً عليه**، فثبت و تحقّق أنّ المظلوميّة ممدوحة و أمّا الإنظلام فهو مذمومٌ.

و الحاصل أنّ دفع الظُّلم واجبٌ عقلاً و شرعاً سواءٌ كان الدَّفع بشخصه من غير الإستمداد عن الغير أم كان بالإنتصار و الإستعانة بالغير و طلب النُّصرة منه.

إن قلت ما فائدة الإنتصار إذا لم يجيبه النّاصر أو لا ينصره.

قلت فائدته إتمام الحجّة على النّاصر يوم القيامة و عمل المستنصر بوظيفته المقرّرة له من الشّارع فأنّ في السّكوت شائبة الإنظلام المذموم، و لأجل هذه الدّقيقة إنتصرت فاطمة الزّهراء سلام اللّه عليها من المسلمين لمّا ظلم عليها أبو بكر و غصب حقّها و منع ميراثها عن رسول اللّه ﷺ حيث قالت في خطبتها التّي خطبت بها في مسجد المدينة في محضر المهاجرين و الأنصار:

يا مَشْعَرَ لْفِتْيَةِ، وَأعْضادَ المِلَّةِ، وَ حَضَنَةَ الإسْلامِ! مٰا هٰذِهِ الْغَمِيزَةُ فِـى حَقِّى؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِى؟ أما كانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أبِى يَقُولُ: «الْمَرءُ يُحْفَظُ فِى وُلْدِهِ»؟ سَرْعانَ مااُحْدَثْتُمْ، وَ عَجْلانَ ذا إهالَةً، وَ لَكُمْ طاقَةٌ بِما أُحاوِلُ، وَ قُوَّةٌ عَلى ما اَطْلَبُ وَ أُزاوِلُ! إلىٰ أخر ما قالت.

و قالت سلام اللّه عليها في موضع أخر و هى تخاطب الأنصار:

أيْهاً بَنِىقَيْلَةَ! أأُهْضَمُ تُراثَ وَ ابى أنْتُمْ بِـمَرأى مَـنّى وَ مَسْـمَعٍ وَ مُـنْتَدىً وَ مَجْمَع؟! تَلْبَسُكُمْ الدَّعْوَةُ، وَ تَشْمُلُكُمْ الْخَبْرَةُ، وَ أنْتُمْ ذَوُ و الْعَدَدِ وَ الْعُدَّةِ، وَالأداةِ

وَ الْقُوَّةِ، وَ عِنْدَكُمْ السِّلاحُ وَ الْجُنَّةُ، تُوافِيكُمُ الدَّعْوةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَ تَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلاتُغِيثُونَ، وَ أَنْتُمْ مُوصُوفُونَ بِالْكِفاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَ الصَّلاحِ، ... إلىٰ أخرالخطبة.

و قد شرحناها مفصّلاً بالفارسيّة في كتاب مستقل إن شئت فراجعه فأنّك تجد فيه ما لا يوجد في غيره و قد طبع غير مرّةٍ.

و محصّل الكلام أنّ الزّهراء عليها السلام لمّا بغوا عليها إنتصرت بحكم الآية و عملت بوظيفتها إلاّ أنّهم لم ينصروها بل نصروا أعداءها ولم يخافوا اللّه و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

وَ جَزٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّهُ لٰا يُحِبُّ ٱلظّٰالِمِينَ

السّيئة الفعلة القبيحة و هى ضدّ الحسنة الّتي هي الفعلة الجميلة حكم اللّه تعالى في الآية بأنّ جزاء السّيئة سيّئة مثلها، لا أكثر منها، و هو مقتضى العدل فأنّ التّعدي عن المثل يوجب البغي المذموم لأنّ فاعله تجاوز عن حدّه، و هذا بخلاف الحسنة فأنّ التّجاوز عنها بعشر أمثالها هو التّجاوز من العدل إلى الإحسان و هو البغي الممدوح و على هذا فقوله تعالى: **وَ جَزٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا** على أساس العدل، و أمّا قوله: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا**(١) على أساس الإحسان و هو أعلى و أفضل من العدل، و هكذا قوله: **فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللّٰهِ** داخل في الإحسان و من أحسن فجزاءه على المحسن الحقيقي و هو اللّه تعالى و أنّما عبّرنا عنه تعالى بالمحسن الحقيقي لأنّ كلّ من أحسن إلى غيره من الخلق فهو بتّوفيقٍ منه بل يسند الإحسان إلى الخلق على سبيل المجاز.

١- الانعام = ١٦٠

و قوله: **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** لأنّ الظُّلم قبيحٌ و لا يحبّ القبيح إلاّ من إتّصف به و اللّه تعالى منّزهٌ عن القبائح فلا يحبّ القبيح.

وَ لَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ

إختلفوا في معنى الآية فقال قتادة معناه بعد ظلمه في ما يكون فيه القصاص بين النّاس في النّفس أو الأعضاء أو الجراح فأمّا غير ذلك فلا يجوز أن يفعل لمن ظلمه و لا ذمّ له على فعله.

و قال قومٌ معناه أنّ له أن ينتصر على يد سلطانٍ عادلٍ بأن يحمله إليه و يطالبه بأخذ حقّه منه لأنّ السّلطان هو الّذي يقيم الحدود و يأخذ من الظّالم للمظلوم.

و قال بعضهم، معناه أنّ المسلم إذا إنتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه بل يحمد على ذلك مع الكافر و لا لوم إن إنتصر من المسلم (إنتصر المظلوم خ ل) فالإنتصار من الكافر حتمٌ و من المسلم مباح و العفو مندوبٌ، قاله القرطبي في تفسيره.

و قال في التّبيان هذا إخبار من اللّه أنّ من إنتصر لنفسه بعد أن كان ظلم و تعدّى عليه، فأخذ لنفسه بحقّه فليس عليه من سبيل.

أقول معنى الآية لا يحتاج إلى هذه التكلّفات فأنّ قوله تعالى: **بَعْدَ ظُلْمِهِ** من إضافة المصدر إلى المفعول بدليل قراءة من قرأ بعد ما ظلم، فأولئك إشارة إلى معنى، من، دون لفظه و قوله: **مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** للمعاقب و معنى الآية و لمن إنتصر بعد ظلمه، أي بعد ما ظلم عليه لإستيفاء حقّه من الظّالم فلا سبيل عليه أي على المعاقب المستوفي حقّه لأنّه أخذ بحقّه و لم يتعدّ عنه و يمكن أن يستدلّ بذلك على من ظلمه غيره بأخذ ماله كان له إذا قدر أن يأخذ من ماله بقدره فلا إثم عليه و الظّالم هو الفاعل للظُّلم، فلمّا بيَّن أنّ للمظلوم أن يقتصّ منه و أنّه متى أخذ بحقّه لم يكن عليه سبيل بيَّن اللّه تعالى حكى السَّبيل و قال.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بيَّن اللّه تعالى أنّ السّبيل على الّذين يظلمون النّاس، أيّ ظلمٍ كان **وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** أي فيتعدُّون و يتّجاوزون عن حدودهم بغير الحقّ، و ذلك لأنّ البغي قد يكون بالحقّ كالتّجاوز من العدل إلى الإحسان، و العفو عن المذنب بدل إستيفاء الحقّ منه، **أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** لبغيهم و تجاوزهم عن حقّهم و أن شئت قلت لأخذهم أكثر من حقّهم و لا نعني بالظّلم إلاّ هذا.

وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ

أي و لمن صبر، على الظُّلم و الأذى و غفر، ولم ينتصر بأن فوَّض أمره إلى اللّه تعالى.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ جواب القسم الّذي دلَّ عليه **لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ** و قيل هي في موضع الخبر كأنّه قال أنّ ذلك لمن عزم الأمور، أي من ثابت الأمور التّي أمر اللّه بها و جعل عليها الأجر يوم الجزاء.

تنبيهٌ

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

و ذكر الكلبي و الفرّاء أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي اللّه عنه مع ثلاث أيات قبلها و قد شتمه بعض الأنصار فردَّ عليه ثمّ أمسك و هى المدنيّات من هذه السّورة، و قيل هذه الأيات في المشركين وكان هذا في إبتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثمّ نسختها أية القتال و هو قول إبن زيد و قد تقدّم.

و في تفسير إبن عبّاس (ولمن إنتصر من بعد ظلمه) يريد حمزة إبن عبد المطلّب و عبيدة و عليّاً و جميع المهاجرين رضوان اللّه عليهم.

فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ يريد حمزة و عبيدة و عليّاً **إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ**

عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ يريد عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و أبا جهل و الأسود و كلّ من قاتل المشركين يوم بدر.

وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يريد بالظّلم و الكفر **أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** يريد وجيع **وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ** يريد أبا بكر و عمر و أبا عبيدة بن الجرّاح و مصعب بن عمير و جميع أهل بدر **إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ** حيث قبلوا الفداء و صبروا على الأذى إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره القرطبي في تفسير الأيات بقوله يريد، يريد إلى أخر ما قال لا دليل عليه ولم يقل به أحد من المفسرين سوى الكلبي المجهول المتعصّب الجاهل و ما أقبح بالرَّجل الّذي يدّعي الإسلام و يفسّر كلام اللّه بزعمه أن يقول في تفسير كلام اللّه ما شاء و أراد ولم يعلم أنّ أبابكر و عمر و أبا عبيدة وجودهم في غزوة بدر كعدمهم و فسَّر قوله تعالى: **وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ** بأبى‌بكر و عُمر و أمثالهما و قال قبلوا الفداء و صبروا على الأذى.

و لقائلٍ أن يقول أنّ التّواريخ بين أيدينا فهذا تاريخ الطّبري، و الكامل لإبن‌أثير و المروج الذهب للمسعودي و قد نقلوا قصَّة بدر و غيرها في تواريخهم و لن يذكروا لأبي بكر و عمر و أبي عبيدة أثراً في غزوة بدر و غيرها سوى أنّهم كانوا من النّاظرين المنتظرين لأخذ الغنائم الحاصلة بأيدي المسلمين و سيوفهم، و العجب من القرطبي و أمثاله كيف يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

نعم، لو كان مراد القرطبي من قوله (أنهّم صبروا على الأذى) أنّ المسلمين صبروا على ما نالهم من الأذى فله وجهٌ، أو كان مراده أنّ أبا بكر و عمر و أباعبيدة نالهم الأذى يوم السّقيفة حتّى وصلوا إلى ما أرادوا، و أمثال ذلك من الوجوه المحتملة لا بأس به هذا، و الحَق أنّ الآيات بصدد بيان حكمٍ كلّي لأمَّة محّمد صلى الله عليه و آله و سلم و لا ربط لها بشخصٍ خاصّ أو أشخاصٍ خاصّة نعم من أظهر مصاديق المظلومين في الإسلام أهل بيت الرّسول عليهم السّلام و من أظهر

مصاديق الظّالمين من ظلم عليهم فأنّهم الّذين أصابهم البغي و كانوا ينتظرون، و لا ناصر لهم، و للّه عاقبة الأمور.

وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى ٱلظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و الّتي بعدها عن سوء عاقبة الظّالمين بعد رؤيتهم العذاب يوم القيامة و تمنّيهم الخروج منه، فقال: **وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ** أي وكله اللّه إلى نفسه و أعرض عنه لكفره و غوايته **فَمٰا لَهُ** أي لهذا الضالّ **مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ** أي من بعد ضلالته و كفره أو من بعد اللّه، و قيل معناه من أضلّه اللّه عن طريق الجنّة إلى عذاب النّار فليس له ناصر ينصره عليه و يرفعه عنه من بعد ذلك بالتّخليص منه.

و قال بعضهم، أنّ من حكم اللّه بضلالته و سمّاه ضالاً عن الحَق فما له من وليٍّ و لا ناصر يحكم بهدايته و يسمّيه هادياً.

أقول ما ذكروه، لا بأس به و الأحسن أن يقال معنى الكلام، أنّ من أضلّه اللّه فما له من بعد الضّلال من وليٍّ، و إن شئت قلت من أضلّه اللّه فلا هادي له و وليه الشّيطان لقوله تعالى:

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيٰآؤُهُمُ ٱلطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمٰاتِ أُولـٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ[1].

وَ تَرَى ٱلظّٰالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ يوم القيامة، **يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ** أي يقولون هل إلى الرّجوع و الرّدّ إلى دار، التّكليف من سبيلٍ و من المعلوم أنّه لا سبيل إليه فهو من قبيل قولهم: **رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلّىٓ أَعْمَلُ صٰالِحًا فِيمٰا تَرَكْتُ**[2] و الجواب: **كَلاّٰ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰآئِلُهٰا** كما قيل بالفارسية:

١- البقرة = ٢٥٧

٢- المؤمنون = ١٠٠ / ٩٩

ای که دستت می‌رسد کاری بکن　　　پیش از آن کز تو نیاید هیچ کـار

■

وَ تَرٰيهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ
يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا
إِنَّ ٱلْخٰاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ
أَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلآَ إِنَّ ٱلظّٰالِمِينَ فِي
عَذٰابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰآءَ
يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ
فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ مٰا لَكُمْ
مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ
أَعْرَضُوا فَمآَ أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ
عَلَيْكَ إِلاَّ ٱلْبَلاٰغُ وَ إِنّآَ إِذآَ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنّٰا
رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلّٰهِ مُلْكُ
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ يَهَبُ
لِمَنْ يَشٰآءُ إِنٰاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰآءُ ٱلذُّكُورَ
﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰانًا وَ إِنٰاثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ
يَشٰآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَ مٰا كٰانَ
لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللّٰهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرٰآءِ
حِجٰابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا
يَشٰآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰآ
إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا
ٱلْكِتٰابُ وَ لاَ ٱلْإِيمٰانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُورًا

نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

◀ اللّغة

خَاشِعِينَ: الخشوع الإنكسار و التّواضع.
مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ: الطَّرف الخفّي كناية عن الذّلة و الحقارة و قيل هو صفة الذّلة.
ٱسْتَجِيبُوا: الإستجابة و الإجابة بمعنى واحد أي أجيبوا.
مَلْجَإٍ: إسم مكان، أي مكاناً يلتجأون إليه.
نَكِيرٍ: بفتح النُّون بمعنى المنكر كالأليم بمعنى المؤلم.
عَقِيمًا: رجل عقيم أي لا يولد له و أصله القطع و منه الملك العقيم و الرّيح العقيم.

◀ الإعراب

يَنْصُرُونَهُمْ يجوز أن يكون في موضع جرّ حملاً على لفظ الموصوف و رفعاً على موضعه ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا هما حال والمعنى يقرن بين الصّنفين أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ أن و الفعل في موضع رفع بالإبتداء و ما قبله الخبر إِلَّا وَحْيًا إستثناء منقطع لأنّ الوحي ليس بتكليم أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ الجارّ متعلّق بمحذوف تقديره أو أن يكلّمه مَا كُنْتَ تَدْرِي الجملة حال من الكاف في إليك.

◀ التّفسير

وَ تَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ

الخطاب في قوله: **وَ تَرَىٰهُمْ** للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أي و ترى يا محمّد هؤلاء الظّالمين يوم القيامة **يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ** أي يعرضون على النّار في نهاية الذلّة و الحقارة و هو معنى قوله: **مِنَ ٱلذُّلِّ** و قوله تعالى: **يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ** أي ينظرون هؤلاء الظّلمة، من طرفٍ خفّي.

قال إبن عبّاس أي من طرفٍ ذليلٍ.

و قال قتادة يسارقون النّظر لأنّهم لا يجترؤن أن ينظروا إلى النّار بجميع أبصارهم لما يرون من هول النّار و ألوان العذاب، و قيل يرون النّاربقلوبهم لأنّهم يحشرون عمياء.

أقول قال الرّاغب في المفردات، طرف الشّئ جانبه و يستعمل في الأجسام و الأوقات و غيرهما و منه أستعير هو كريم الطّرفين أي الأب و الأمّ و طرف العين جفنه و الطرف بسكون الرّاء تحريك الجفن و عبّر به عن النّظر إذا كان تحريك الجفن لازمه النّظر و قوله: **فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ** عبارة عن إغضائهنّ لعفتهنّ إنتهى.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ باللّه و رسوله **إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ** أي أنّ الخسرين خسروا أنفسهم، بإستحقاق النّار و خسروا أهليهم لأنّ الأهل أن كانوا في النّار فلا إنتفاع منهم و أن كانوا في الجنّة فقد حيل بينه و بينهم **إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ** أي دائمٌ لا ينقطع، و يجوز أن يكون هذا الكلام من قول المؤمنين، و أن يكون من قول اللّه إبتداءً، و لبّ الكلام في معنى الآية أنّ الظّلم له عاقبة السوء أعاذنا اللّه منه و وفّقنا للتّوبة قبل

الموت بمحمّدٍ و أله الطّاهرين.

وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ

أي و ما كان لهؤلاء الظّالمين يوم القيامة من أولياء ينصرونهم و يدفعون عنهم العذاب من دون اللّه، أي أنّ الّذي يقدر على رفع العذاب أو رفعه هو اللّه تعالى لا غيره كائناً من كان **وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ** بسبب أعماله وكلّه إلى نفسه و أبعده عن جوار رحمته فما له من سبيلٍ، أي ما له طريق إلى الخروج عن العذاب لأنّه سدَّ أبواب الخير بأعماله في الدّنيا **مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ**.

اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ

هذه الآية كأنّها تفسير لما قبلها و ذلك لأنّ اللّه تعالى عيَّن فيها سبيل الخروج عن عذاب اللّه و هو إستجابة الرّب في دار الدّنيا من الإيمان به و العمل بما أمر اللّه به و نهى عنه و لذلك أتى بصيغة الأمر و المعنى أن كنتم أردتم الخروج عن ورطة الشّقاوة و الخسران فإستجيبوا لربّكم و أمنوا به و إتَّبعوا رسوله قبل وقوع الحادثة و العذاب يوم القيامة إذ لا دافع للعذاب إلاّ الإيمان و العمل الصّالح في الدُّنيا التّي هي مزرعة الأخرة و هذا ممّا يحكم به العقل قبل الشّرع فأنّ دفع الضّرر المحتمل واجب عقلاً فضلاً عن الضّرر المقطوع.

و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إغتنموا الفرص فأنّها تمُّر مرَّ السّحاب.

و من المعلوم أنّ الفرصة قبل الموت لا بعده و قوله: **لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ** قيل معناه لا مرجع له بعد ما حكم به و قيل لا يمكن لأحدٍ ردَّه و هو اليوم الّذي (لا

ملجأ) و لا ملاذ يومئذٍ لأحدٍ **وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكيرٍ** أي من ناصرٍ ينصركم قاله مجاهد.

و قيل النَّكير بمعنى المنكر أي لا تجدون يومئذٍ منكراً لما ينزّل بكم من العذاب، و لمثل هذا فليعمل العاملون.

فَاِنْ أَعْرَضُوا فَمآ أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّاٱلْبَلاٰغُ وَ إِنّآ إِذآ أَذَقْنَا ٱلْاِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ فَإِنَّ ٱلْاِنْسٰانَ كَفُورٌ

لمّا أمر اللّه النّاس في الآية السّابقة بإجابة الدّاعي و قال إستجيبوا لربّكم، قال في هذه الآية **فَاِنْ أَعْرَضُوا** عن قبول الدَّعوة أعني بها إستجابة الرّب **فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفيظًا** أي حافظاً تمنعهم عن الكفر و الظُّلم **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّاٱلْبَلاٰغُ** إن، نافية أي ليس عليك إلاّ البلاغ، أي تبليغ الرّسالة وإبلاغ الأحكام الالهيّة إلى عباده و هذا الكلام صريحٌ في أنّ النّبي مبلّغٌ للحكم فقط فمن شاء قبل و من شاء أنكر، و هو دليل على أنّ العبد مختار في القبول و عدمه و فائدة التَّبليغ من الرّسول هو إتمام الحجّة على العبد ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيا من حيّ عنها.

فالنّبي مبلّغ الحكم لا جاعله و لا مجريه، بل الجعل بيد اللّه و الإجراء بيد العبد ألا ترى أنّ اللّه تعالى يقول في قصّة الغدير: **يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**[١] حيث أمره بتبليغ حكم الولاية و صرَّح أنّه ممّا أنزل إليه من ربّه و لم يأمره بتعيين الولّي بعد لأنّ الولاية من الأحكام و جعلها بيد اللّه فالنّبي لم يعيّن الخليفة بعده بل بلّغها و عرَّفها للنّاس بقوله: **من كنت مولاه فهذا علّيٌ مولاه الخ.**

و السِّر فيه أنّ خليفة الرّسول لابدّ له من مقام الولاية و الولاية من أحكام اللّه

١- المائدة = ٦٧

يعطيه من يشاء فمن ليس له مقام الولاية لا يكون خليفة للرّسول و لا كلام لنامعه.

وَ إِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا أي فرح بالنّعمة لأنّها موافقة لطبعه و غريزته كما أنّ الحيوان أيضاً كذلك فلا فرق بين الإنسان و الحيوان من هذه الجهة.

وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ أي و إن تصبهم بليّة كالمرض و الفقر و أمثالهما فأنّه كفور أي كافر بالنّعمة و الكفور مبالغة في الكفران و المراد بالكفران عدم الشّكر على كلّ حالٍ أو عدم الرّضا بقضاء اللّه و قدره، و لا يبعد أن يكون قوله: **بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** إشارة إلىٰ نقطةٍ خفيّةٍ التّي قدّمنا ذكرها سابقاً و هى أنّ البلايا على قسمين:

قسمٌ منها معلول للأعمال الصّادرة من العبد.

قسمٌ أخر ليس كذلك بل هو مستندٌ إلى القضاء و القدر، و الآية ناظرة إلى القسم الأوّل و أمّا القسم الثّاني فلا، فالمقصود من الآية أنّ البليّة إذا كانت معلولة لأعمال المبتلي بها بمعنى أنّه فعل ما ترّتب عليه البلاء فهو المقصّر لا غيره و مع ذلك يكون كفوراً.

لِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ ٱلذُّكُورَ

اللاّم في لِلّٰه، للإختصاص أو الملك أي خلق السّموات و الأرض مخصوصٌ به تعالى أو أنّ السّموات و الأرض ملكه التّقديرين هو الخالق المالك لهما و إذا كان كذلك فيخلق ما يشاء كما خلقهما.

و في قوله: **يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثًا** إلى أخر... إشارة إلى أنّ مراتب الخلقة و الإيجاد مختلفة تابعة للمصالح و المفاسد و مع ذلك هو دليل على أنّ الخالق مختارٌ في فعله و فى قوله: **يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ** إشارة إلى أنّ الخلق و الإيجاد

بمقتضى الجود و الكرم و لذلك عبَّر عن الإيجاد بالهبة و قال يهب، ولم يقل يخلق أو يوجد.

قال في المفردات الهبة أن تجعل لملك لغيرك بغير عوض و يوصف اللّه تعالى بالواهب و الوّهاب بمعنى أنّه يعطي كلاً على إستحقاقه و قد إتّفق العلماء على أنّ الهبة إذا كانت بغير عوضٍ فهي باقية على ملك المالك و إذا كانت معوّضة فهي خارجة عن ملكه لأنّه أخذ العوض عمّا أعطاه و حيث أنّ الهبة من اللّه بغير عوض فهي باقية على ملكه فإذا أراد أن يأخذ ما أعطاه فهو له إعتراض عليه فالموهوب أمانةٌ في يد المتّهب من قبل الواهب و على هذا فالوجود لكلّ مخلوقٍ ملك اللّه و هو مالكه أن شاء أبقاه و أن شاء أفناه و هكذا في أصل الإيجاد إن شاء أوجد أناثاً و إن شاء ذكوراً و ليس للمخلوق إلاّ الرّضا بقضاءه و قدره.

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

معطوفة على الآية السّابقة و التّزويج هاهنا هو الجمع بين البنين و البنات و المعنى أو يجمع الذُّكور و الأناث مثل أن تلد المرأة غلاماً ثمّ تلد جارية ثمّ تلد جارية ثمّ تلد غلاماً ثمّ تلد جارية و هكذا و قيل معناه أن تلد المرأة توأماً غلاماً و جارية.



و قال إبن زيد المراد أن يرزقه توأماً، ذكراً و أنثى، أو ذكراً و ذكراً أو أنثى و أنثى و الحاصل أنّ اللّه يخلق ما يشاء بأي نحوٍ كان، كما أنّه يجعل من يشاء من الرّجل و المرأة عقيماً لايكون له ولد و كلّ ذلك لأنّه تعالى عليمٌ بالمصالح قديرٌ، أي قادرٌ على كلّ شيءٍ و هذا ممّا لا شكّ فيه.

وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللّٰهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ

يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ

لمّا أشار اللّه تعالى في الأيتين السّابقتين إلى أنّه مالك السّموات و الأرض و هو الّذي يخلق ما يشاء أشار في هذه الآية إلى كيفيّة تكلُّمه مع البشر و هو النّبي و الرّسول لأنّ أصل التكلُّم ثابت بنصّ القرأن و لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في كيفيّته.

و أنّما قلنا بثبوت الأصل لقوله تعالى: **وَ كَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**(١) و أيضاً أنّ الأنبياء قد أخبروا عن اللّه تعالى كما هو معنى النّبي فلقائلٍ أن يقول كيف أخبروا عنه تعالى فقال اللّه تعالى: **وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ** و أنّما خصّ الحُكم بالبشر مع أنأّه جارٍ في حقّ الملك أيضاً لأنّ مورد السّؤال البشر لقولهم: **مَآ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**(٢).

و قال بعض المفّسرين في سبب نزول الآية أنّ اليهود قالوا للنبيّ ألاّ تكلّم اللّه و تنظر إليه إن كنت نبيّاً كما كلّمه موسى و نظر إليه فأنّا لن نؤمن لك حتّىٰ تفعل ذلك فقال النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ موسى لن ينظر إليه فنزّلت الآية.

و حاصل ما يستفاد من الآية أنّ التكلّم لم يكن من طريق النَّظر بل كان من طريق الوحي أو من وراء حجاب، أو إرسال رسولٍ، أمّا أنّه لم يكن من طريق النَّظر لأنّ المنظور إليه لابدّ أن يكون من الأجسام القابل للرُّؤية أولاً.

و أن يكون في الوضع و الجهة ثانياً.

و اللّه تعالى منزّهٌ عن الجسم و الوضع و الجهة و ما شابه ذلك من النّقائص الإمكانيّة و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه فالنَّظر إلى اللّه معناه النَّظر إلى أثاره و آياته الدالّة على وجوده و قد ورت في الحديث: **أنّ المؤمن ينظر بنور اللّه** أي ينظر إليه بسبب نوره أعني الإيمان الثّابت في قلبه أو بنور علمه و إذا كان

١- النّساء = ١٦٤ ٢- يس = ١٥

كذلك فالتكلّم مع اللّه لا يكون بالمواجهة بل يكون بسبب من الأسباب و قد عدَّه اللّه تعالى في الآية و يعبّر عنه بالحجاب فليس المراد بالحجاب الشّئ المانع عن الرُّؤية من الأجسام الخارجيّة كما توّهمه بعض ضعفاء العقول و بعبارةٍ أخرى لا شئ هناك مانعاً عن الرُّؤية حين التكلُّم إلاّ المانع العقلي فهذا هو الحجاب لا غيره و أن شئت قلت أنّ اللّه يوجد الصّوت في الجبل أو الشَّجر مثلاً و المخاطب يسمع كلامه من الجبل أو الشَّجر و هكذا و محَّصل الكلام أنّها أسباب و آلات لإستماع كلام الحَّق فتأمّل فيه فأنّه دقيقٌ، ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ حصر الأسباب في ثلاثة:

الوَي، و الحجاب، و إرسال الرّسول، أعني به الملك.

أمّا الوحي فهو في الأصل الإشارة السّريعة و لتضمُّن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز و التَّعريض و قد يكون بصوت مجرّد عن التَّركيب و قد يكون بإشارة بعض الجوارح و بالكتابة و على ذلك حمل قوله تعالى عن زكريا حيث قال:

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا[١].

فقد قيل زمر و قيل إعتباراً و قيل كتب و على هذه الوجوه:

قال اللّه تعالى: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا**[٢].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ**[٣].

فذلك بالوسواس، و يقال للكلمة الإلهيّة التي تلقى على أنبيائه و أوليائه وحيٌ، و هذا هو المراد في الآية الشّريفة إلاّ أنّه على أضربٍ و ذلك أمّا برسل مشاهدٍ ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل عليه السلام للنّبي في صورة دحية الكلبي.

١- مريم = ١١
٢- الأنعام = ١١٢
٣- الأنعام = ١٢١

و إمّا بسماع كلام من غير معاينةٍ كسماع موسى كلام اللّه، و أمّا بالقاءٍ في الرَّوع كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **(أنّ روح القدس نفث في روعي)** و أمّا بإلهامٍ نحو قوله: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ**(١).

و أمّا بتسخيرٍ نحو قوله: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**(٢).

أو بمنامٍ كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: **إنقطع الوحي وبقيت المُبشّرات رُؤيا المؤمن** فالالهام و التَّسخير و المنام دلَّ عليه قوله: **إِلَّا وَحْيًا** و سماع الكلام دلَّ عليه قوله: **مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ** و تبليغ جبرئيل في صورةٍ معيّنة دلَّ عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ.**

قال اللّه تعالى: **وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ**(٣).

فهذا الوحي عامّ في جميع أنواعه:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ**(٤).

فذلك وحيٌ بوساطة عيسى عليه السلام:

قال اللّه تعالى: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ**(٥).

فذلك وحيٌ الى الأمم بوساطة الأنبياء، و ممّا ذكرناه قد ظهر لك أنّ الحجاب، و إرسال الرّسول في الآية من شئون الوحي العام أي أنّ الوحي يتحقّق بهما و ليس المراد أنّ إستماع الكلام من وراء حجابٍ أو بوساطة الملك، شئ آخر غير الوحي بل هما من مصاديقه كغيرهما من الأقسام المذكورة هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بما قال.

و أمّا قوله: **إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** معناه أنّ اللّه تعالى هو العلّي عن الإدارك

١- القصص = ٧
٢- النّحل = ٦٨
٣- الأنبياء = ٢٥
٤- المائدة = ١١١
٥- الأنبياء = ٧٣

بالأبصار و هو الحكيم في جميع أفعاله لأنّه وضع كلّ شيءٍ في موضعه اللائق به على أساس الحكمة و المصلحة.

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرى مَا ٱلْكِتابُ وَ لَا ٱلْإيمانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْناهُ نُورًا نَهْدي بِهِ مَنْ نَشآءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدىٓ إِلٰى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ

قد مرَّ الكلام في معنى الوحي و المعنى كما أوحينا الى الأنبياء من قبلك كذلك أوحينا اليك يا محمّد و هذا الكلام و أمثاله في القرآن نصٌّ صريح في أن الأنبياء.

كانوا مبعوثين الى الخلق من قبل اللّه تعالى و أنّ ما قالوه لأممهم كان على أساس الوحي من اللّه تعالى اليهم كما أشار اللّه تعالى الى هذا المعنى في حقّ نبيّنا حيث قال: **وَ ما يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحىٰ**[1].

و قوله: **رُوحًا مِنْ أَمْرِنا** فقيل المراد بالرُّوح النُّور الذّي يهدي به من يشاء من عباده الى صراطٍ مستقيم بصاحبه الى الجنّة و الصّراط المستقيم الطّريق المؤدّي اليها، و قيل المراد به النبوّة، و قيل القرآن، و قيل جبرئيل، و أحسن الأقوال أنّ القرآن عبّر عنه بالرُّوح لأنّ حياة الجسم بالرُّوح و سمّاه روحاً لأنّ في القرآن حياة لموت الجهل فكما أن حياة الجسم بالرُّوح و حياة الأرض بالمطر كذلك حياة القلب بالقرآن و قوله تعالى: **ما كُنْتَ تَدْرى مَا ٱلْكِتابُ وَ لَا ٱلْإيمانُ** فهو إشارة الى أنّ القرآن و الإيمان من مواهب الرّب كما أنّ الوجود منه، و قيل، معناه لم تكن تعرف الطّريق الى الإيمان، و أنت ترى أنّ ظاهر هذا الكلام يدلّ على أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ما كان قبل الإيحاء متصّفاً بالإيمان، و من لم يتصّف به فهو متصّفٌ بالكفر لعدم الواسطة بين الإيمان و الكفر نعوذ باللّه منه.

نقل بعض المفسّرين في تفسيره لهذه الآية عن القيشري أنّه قال و الّذي صار

١- النّجم = ٤

اليه المعظّم أنّ اللّه تعالى ما بعث نبيّاً إلاّ كان مؤمناً به قبل البعثة فيه تحكمٌ إلاّ أن يثبت ذلك بتوقيفٍ مقطوع به، و قال القاضي أبو الفضل عياض، و أمّا عصمتهم من قبل النبوّة فللنّاس فيه خلاف، و الصّواب أنّهم معصومون قبل النبوّة من الجهل باللّه و صفاته إنتهى قوله.

أقول و قد تعاضدت الأخبار و الأثار من الأنبياء بتنزيههم من هذه النّقيصة منذ ولدوا و نشأتهم على التّوحيد و الإيمان بل على إشراق أنوار المعارف و نفحات ألطاف السعادة و من طالع سيرهم منذ ولدوا الى مبعثهم حقّق له ذلك كما عرف من حال موسى و عيسى و يحيى و سليمان و غيرهم و كفانا في ذلك قوله تعالى في حقّ يحيى مع أنّه كان من الأنبياء ولم يكن رسولاً فضلاً عن أولي العظم منهم **وَ اٰتَيْنٰاهُ اَلْحُكْمَ صَبِيًّا** و قد أطبق المفسّرون على أن المراد بالحكم النبوّة و هو كان إبن سنتين أو ثلاث على ما قيل، و قال تعالى في عيسى إبن مريم و هو في المهد قال: **إِنِّى عَبْدُ اَللّٰهِ اٰتٰينِىَ اَلْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**[1] و أمثال ذلك من الأيات والأخبار الدّالة علىٰ المُدّعىٰ كثيرة و نحن قد فصّلنا الكلام في هذا الباب في كتاب مفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة[2] و أثبتنا هناك أنّ النبيّ و الوصيّ مؤمن باللّه في بطن أمّه قبل الولادة فمن قال غير ذلك لم يعرف النبيّ و الوصيّ، و الّذي نقول به أنّ معنى قوله: **مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتٰابُ وَ لاَ اَلْإِيمٰانُ** أنّ ما عندك من العلم بالكتاب و تنوّر قلبك بالإيمان فهو ممّا أعطاك اللّه تعالى و ليس من عند نفسك، و هذا ممّا لا شكّ فيه و لا يحتاج الى إطالة الكلام و إقامة الدّلائل و البراهين عليه و ذلك لأنّ المخلوق كائناً من كان نبيّاً كان أو غيره محتاج الى ربّه في جميع شئونه فإذا كان الإيجاد و هو الأصل بيد اللّه و قدرته فما يتوقّف وجوده عليه من العلم و القدرة والإيمان و غير ذلك من الصّفات بطريقٍ أولى و هذا حكمٌ

١- مريم = ٣٠
٢- مفتاح السعادة فى شرح النحج البلاغة نشر القائن

عامّ يشمل جميع الخلق و لا تخصيص فيه كأنّه حكمٌ عقليّ و الأحكام العقليّة غير قابلة للتّخصيص و محصّل الكلام هو أنّ ما عند النبيّ من العلم و ما يدعوا اليه أنّما هو من عند اللّه و إفاضاته لا من قبل نفسه و قوله: **وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فالضّمير في، جعلناه، أمّا راجع الى الرُّوح الموحي اليه و أمّا الى الإيمان و المعنى أنّ ما أوحينا اليك جعلناه نوراً و يحتمل أن يكون مرجع الضّمير القرآن بناءً على أنّ المراد بالرُّوح القرآن فالمعنى جعلنا القرآن نوراً، و التّعبير عنه بالنُّور إشارة الى نقطةٍ و هى أنّ النُّور ظاهرٌ بذاته و مظهرٌ لغيره كما هو خاصيّة الوجود بعينه و ذلك عبرّ حكماء الاشراق عن اللّه تعالى بنور الأنوار كما عبَّر عنه حكماء المشّائين بواجب الوجود، و إذا كان اللّه تعالى نوراً فكلامه أيضاً نور فنورانيّة القرآن بذاته لأنّه كلام اللّه تعالى و مع ذلك هو مظهرٌ لغيره أي يظهر الإيمان لمن تبعه و إقتدى به في أفعاله و أقواله بل الحقّ أنّه لا نور إلاّ نور القرآن إذ به حياة القلب و البلوغ الى مقام القرب و فى قوله: **مَنْ نَشٰآءُ** إشارة الى أنّ قبول الهداية بمشيّئة اللّه و إرادته لا بمشيّئة النّبي، قال اللّه تعالى: **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ**[1].

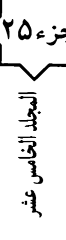
وَ إِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ أي أنّك لتهدي النّاس و تدعوهم الى صراطٍ مستقيم كما أمرك اللّه و فى هذا الكلام إشعار بأنّ وظيفة النّبي تبليغ الحكم و إرشاد النّاس الى طريق الحقّ و أمّا قبول الإرشاد فهو خارجٌ عن وظيفته.

صِرٰاطِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ أَلآ إِلَى ٱللّٰهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ

١- القصص = ٥٦

هذه الآية في الحقيقة تفسير و توضيح لقوله: **صِراٰطٍ مُسْتَقِيم** كأنّه قيل و ما الصّراط المستقيم الّذي يدعوا النّبي اليه، فقال تعالى هو: **صِراٰطِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ** أي هو صراط الحقّ الّذي خلق السمّوات و الأرض و ما فيهما و ليس هو إلاّ اللّه تعالى الّذي اليه تصير الأمور أي اليه ترجع الأمور و الى ربّك المنتهى هذا تمام الكلام في تفسير سورة الشّورى و الحمد للّه ربّ العالمين و صلّى اللّه على محمّد وآله الطّاهرين.

■



سُورَةُ ٱلزُّخْرُفِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ وَ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَ إِنَّهُ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَ كَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلّٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنٰآ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضٰى مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهٰا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَ ٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلٰى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ

ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿۱۳﴾ وَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿۱۴﴾ وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿۱۵﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَيٰكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿۱۶﴾ وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ ﴿۱۷﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿۱۸﴾ وَ جَعَلُوا ٱلْمَلَآئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ ﴿۱۹﴾ وَ قَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿۲۰﴾ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿۲۱﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿۲۲﴾ وَ كَذٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿۲۳﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿۲۴﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿۲۵﴾

اللّغة

أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ: أمّ الشّئ أصله.

صَفْحًا: الصَّفح بفتح الصّاد الإعراض.

بَطْشًا: البطش بفتح الباء و سكون الطّاء و الشّين تناول الشّئ بصولةٍ.

سُبُلًا: جمع سبيل و هو الطريق.

فَأَنْشَرْنَا: النَّشر بفتح النّون و سكون الشّين البسط يقال نشر الثّوب، بسطها.

ٱلْفُلْكِ: بضمّ الفاء و سكون اللاّم و الكاف السَّفينة و يستعمل ذلك للواحد و تقديرهما مختلفان فأنّ الفلك أن كان واحداً كان كبناء (قفل) و أن كان جمعاً فكبناء حمر.

ٱلْأَنْعَٰمِ: الأبل و البقر و ما جرى مجراهما من الدّواب و الحمير الّتي تصلح للرّكوب.

ٱسْتَوَيْتُمْ: أي ركبتم على وجه التّسلط عليه.

مُقْرِنِينَ: أي مطيقين يقال أقرنت كذا أي أطلقته و أقرن له أي قوى عليه و أطاقه كأنّه صار قرناً.

أَصْفَىٰكُمْ: أي أخصَّكم و أخلصكم الإصطفاء الإختيار يقال صفيته بكذا أي أثرته به و أصفيته الودّ أي أخلصته و إخترته.

كَظِيمٌ: الكظم الحزن و قيل الكرب.

يُنَشَّؤُا: مضارع، و ماضيه، نشّأ بالتّشديد و النّشوء التَّربية يقال نشأت في بني فلان نشأ و نشوءً إذا شببت فيهم.

ٱلْحِلْيَةِ: بكسر الحاء الزّينة.

ٱلْخِصَامِ: بكسر الخاء الجدال أي في المجادلة و الإدلاء.

أُمَّةٍ: بضمّ الألف الجماعة و قيل الطّريقة، و قيل الدِّين.

مُتْرَفُوهَآ: المترف بضمّ الميم و سكون التّاء و كسر الرّاء المتّنعم و الباقي واضح.

◀ الإعراب

وَ ٱلْكِتَٰبِ الواو للقسم فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ يتعلّق بعلى وَلَدَيْنَا بدل من الجار و المجرور و يجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من، أمّ صَفْحًا: مصدر من معنى نضرب لأنّه بمعناه، و يجوز أن يكون حالاً و قرئ بضّم الصّاد أيضاًلغة أَن كُنتُمْ من قرأها بفتح الهَمزَة فالمعنى لأن كنتم، و من قرأها بكسر الهَمَزة فهي على الشّرط و ما تقدّم بدل على الجواب وَكَمْ أَرْسَلْنَاكم، نصب بأرسلنا و بَطْشًا تمييز و قيل مصدر في موضع الحال من الفاعل أي أهلكناهم باطشين وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا إسم كان و خبرها وَ هُوَ كَظِيمٌ في موضع نصب على الحال من إسم، ظلّ أو من الضّمير في، مسوّداً أَوَمَن من، في موضع نصب تقديره أتجعلون من ينشّأ فِى ٱلْخِصَامِ يتعلّق بمبين قَٰلَ أَوَلَوْ و قد قرئ بلفظ الأمر و علىٰ التّقديرين هو مستأنف يعني النّذير المذكور.

◀ التّفسير

حمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة في أوائل السُّور و قلنا أنّها من الرُّموز التّي لا يعلمها إلاّ اللّه تعالى و ما قيل فيها أو يقال لا يعتمد عليه.

وَ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

هو القرأن و الواو للقسم، و قيل للعطف على قول من جعل **حٰمٓ** قسماً:

فعلىٰ الأوّل: معناه أقسم بالكتاب الظّاهر المظهر للحقّ.

علىٰ الثّانى: حٰمٓ، وَ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

أي إنّا جعلنا الكتاب كذلك و قوله: **عَرَبِيًّا** أي جعلناه بلسان العرب و قوله: **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** قيل معناه جعلناه على هذه الصِّفة لكي تعقلوا و تفكّروا في أياته فتعلموا صدق من ظهر على يده و هو النّبي.

و قال بعض المفسّرين المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء لانّ الكتاب إسم جنسٍ فكأنّه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنّه جعل القرأن عربيّاً.

أقول ما ذكره ليس بشيْءٍ إذ هو من قبيل الأكل من القفا و أيّ إحتياجٍ إلى ما ذكروه غير تسويد الأوراق ثمّ أيُّ إحتياجٍ إلى أن يكون القسم بالكتب المنزلة على إثبات المدّعى و هو كونه عربيّاً مع ظهور اللّفظ في معناه.

و الحقّ أن يقال في المقام أنّ اللّه تعالى جعله عربياً لأنّ النّبي المنزل عليه القرأن كان من العرب و سنّة اللّه قد جرت بإنزال الكتب السّماوية في كلّ عصرٍ و زمانٍ بلسان النّبي المبعوث و قومه و هذا ممّا لا خلاف فيه و هذا هو السِّر في قوله: **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** قال اللّه تعالى: **وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**[1].

و إذا كان الرّسُول بلسان قومه فالكتاب أيضاً كذلك، ونعت الكتاب بالمبين لأنّ اللّه بيّن فيه أحكامه و فرائضه و المراد بالتّعقُّل التّدبّر و التفكّر في أياته.

وَ إِنَّهُ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ

١- إبراهيم = ۴

و المراد بأمّ الكتاب قيل اللّوح المحفوظ و المعنى أنّه أي القرأن في أمّ الكتاب و أصله ثابت قبل النّزول و يظهر منه أنّ القرأن أنزل من مقام الرّبوبي على اللّوح المحفوظ أوّلاً.

و أنزل منه على النّبي ثانياً على سبيل التَّدريج و على هذا المعنى يحمل قوله تعالى: **إِنَّآ أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ** أي على اللّوح المحفوظ و سيأتي الكلام في معنى النّزول و كيفيّته هناك إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: **لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** أي رفيعٌ محكمٌ لا يوجد فيه إختلاف و لا تناقض، و قيل معناه أنّه محفوظ من نقصٍ أو تغييرٍ و قيل غير ذلك ممّا يقارب هذا المعنى.

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ

الهمزة للإنكار أي ليس كذلك، إختلفوا في المراد بالذّكر فقال الضّحاك المراد به القرأن، المراد به العذاب، و قيل الذّكر التَّذكره، و قوله: **أَفَنَضْرِبُ** أي أفنصفح و على هذا فقوله: **صَفْحًا** مفعول مطلق، و معنى الآية أفنصفح و نعرض عنكم صفحاً و إعراضاً **أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ**.

و قال إبن عبّاس معنى الآية أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب و لمّا تفعلوا ما أمرتم به.

أقول حاصل معنى الآية أفنترككم سدىً فلا أمر و لا نهي، و أمّا كلمة (أن) فالمشهور عند القرّاء فيها فتح الألف و عليه المصاحف، و منهم من قرأها بكسرها و عليه فهي شرطيّة و ما قبلها جواب لها لأنّها لم تعمل في اللّفظ الجواب محذوف دلَّ عليه ما تقدّم كما تقول أنت ظالمٌ إن فعلت و معنى الكسر عند الزّجاج الحال لأنّ في الكلام معنى التَّقرير و التّوبيخ.

وَ كَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ، وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كٰانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ

كم، هاهنا خبريّة و المراد بها التّكثير و ما، في **مٰا يَأْتِيهِمْ** نافية و معنى الآية ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأوّلين من عهد أدم إلى زمن خاتم الأنبياء و المشهور أنّ الانبياء و المرسلين كانوا (١٢٤٠٠٠) على إختلافٍ في عدّتهم أوّلهم أدم أبو البشر و أخرهم خاتم النّبيين ثمّ أخبر اللّه تعالى من تلك الأمم الماضية أنّه كان ما يجيئهم نبيّ من قبل اللّه إلاّ كانوا يستهزؤن به و الإستهزاء إظهار خلاف الإبطان إستغفاراً و إستحقاراً و فى هذه الآية تسليةٌ للنبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بإستهزاء قومه و المقصود أنّ الإستهزاء من القوم لا يختصّ بك بل كان دأبهم و ديدنهم إنكار الأنبياء و إيذاءهم و الإستهزاء بهم و ليس هذا أوّل قارروةٍ كسرت في الإسلام.

و السِّر فيه أنّ دعوة الأنبياء كانت على خلاف أميالهم النفسانية و طبائعهم الحيوانيّة و لذلك أنكروا نبوّتهم و لم يقبلوا دعوتهم و فعلوا بهم ما فعلوا أهلكهم اللّه بعد تماميّة الحجّة عليهم كما قال.

فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضٰى مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه تعالى أهلك الّذين هم أشدّ بطشاً و قوّةً من هؤلاء المشركين الّذين كانوا في عصر النبيّ فلذلك قال، و مضى مثل الأوّلين، أي و هو مثلٌ لهؤلاء الباقين.

و قال قتادة، و مضى مثل الأوّلين، أي عقوبتهم، و قيل معناه مضى صفة الأوّلين هكذا فسّروا الكلام و الّذي يخطر بالبال في معنى الكلام أنّه مضى في القرأن في مواضع كثيرة ذكر قصصهم و أحوالهم و كيفيّة العذاب النّازل بهم و حيث أنّ حكم الأمثال واحد فحال هؤلاء المشركين المستهزئين بك حالهم فهذا في الحقيقة وعدٌ للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و وعيدٌ للمنكرين و المستهزئين به و المراد بالأوّلين الذّين

أهلكهم اللّه قوم صالح و قوم هود و قوم نوح و قوم موسى و أمثالهم.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ

الخطاب للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم و لئن سألت من هؤلاء المشركين العابدين للوثن و الصّنم، من خلق السّموات و الأرض ليقولنَّ، لك في الجواب، خلقهنّ العزيز العليم، و ذلك لأنّه لا جواب لهم غيره، وتوضيح ذلك إجمالاً أنّه لا شكّ في وجود السّموات و الأرض لأنّه من المحسوسات فمن أنكر وجودها أنكر إحساسه و دركه و هو كما ترى ثمّ نقول لا شكّ أيضاً في حدوثهما و مسبوقيتهما بالعدم و بعبارةٍ أخرى كلّ موجود يوجد لابدّ له من موجدٍ فثبت أنّ لهما موجدٌ كغيرهما من المخلوق ثمّ أنّ الموجد للسّموات و الأرض و ما فيهما من الخلق لا يعقل أن يكون حادثاً متغيّراً لأنّ كلّ حادث محتاج إلى علّة لحدوثه و إذا لم يكن حادثاً فهو قديم لعدم الواسطة بين القديم و الحادث، فأنّ الموجود منحصر فيهما و الحصر عقلّي و لا نعني بالقديم سوى اللّه تعالى إذ لا قديم سواه فثبت و تحقّق أنّ خالق السّموات و الأرض هو اللّه تعالى و فى قوله: **ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ** إشارة إلى قدرة الخالق و علمه، وهاتان الصّفتان أيضاً ثابتان له عقلاًو نقلاً فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله:

ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

أي كيف لا يكون الخالق عزيزاً عليماً و هو الّذي جعل لكم الأرض مهداً، لتسكنوا فيها و جعل في الأرض سبلاً أي طرقاً لكي تهتدون بها في البلوغ إلى مقاصدكم في أسفاركم، و قيل معناه لتهتدوا بها إلى الحقّ في الدّين و الإعتبار الّذي جعل لكم بالنّظر فيها، و قيل، تهتدون بها إلى معايشكم، تعرفون نعمة اللّه عليكم،

و المآل في الكلّ واحدٍ.

و في قوله تعالى: **جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا** إشارة إلى حركة الأرض و أنّها ليست بساكنةٍ كما هو شأن المهد و كلّ متحرّكٍ يحتاج إلى محرّكٍ و هو اللّه تعالى و قد مرَّ الكلام في هذا المعنى سابقاً.

وَ ٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ

الواو للعطف و في الآية إشارة أخرى إلى قدرته و علمه و حيث أنّه تعالى أشار في الآية السّابقة إلى خلق الأرض و جعلها مهداً أشار في هذه الآية إلى حياتها و أنّها بسبب الأمطار النازلة عليها فأنّ حياة كلّ شيءٍ بحسبه فقال: **نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ** أي بقدر الحاجة لا زيادة عليها فيفسد و لا ناقصاً عنها فيضرّ و لا ينفع بل هو مطابق للحاجة و بحسبها و ذلك يدلّ على أنّ المطر ينزّل بأمرنا على مختار على ما تقتضيه الحكمة و المصلحة.

و قوله: **فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** فالإنشار الإحياء و منه يوم النُّشور أي يوم البعث و هو الحياة بعد الموت فكما أنّ اللّه تعالى يحيي الأرض بعد موتها كذلك يحيي الأموات من القبور بعد الموت إذ لا فرق في الإحياء بين المقامين و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ** ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنواع أخر من من مظاهر قدرته.

وَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَ ٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ

المراد من الأزواج الأشكال من الحيوان و الجماد، و من الحيوان الذّكر و الأنثى

ومن غير الحيوان ممّا هو متقابل كالحلو و الحامض و الحلو و المرّ و الرّطب واليابس و غير ذلك من الأشكال.

و قيل المراد بالأزواج الشّتاء و الصّيف و اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر و السّماء و الأرض و الجنّة و النّار، قاله الحسن.

و قال سعيد بن جبير المراد بالأزواج الأصناف كلّها، و قيل أراد أزواج النّبات كما:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْبَتْنٰا فيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنْبَتْنٰا فيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ**[2].

و قيل المراد ما يتقلّب فيه الإنسان من خير أو شرٍّ و إيمان و كفر و نفع و ضُرّ و فقرٍ و غنى و صحّة و سقم، هذا ما قاله المفسّرون في تفسير الآية.

أقول ما ذكروه في تفسير الأزواج لا بأس به فأنّ الأزواج عبارة عن الأشكال و الأقران و الأشباه و ذلك لأنّه يقال لكلّ واحدٍ من القرينين من الذّكر و الأنثى في الحيوانات المتزاوحة زوج و لكلّ قرينين فيها و فى غيرها زوج كالخفّ و النّعل و لكلّ ما يقترن بأخر مماثلاً له أو مضاداً زوج.

قال اللّه تعالىٰ: **فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ**[3].

و أمثالها من الأيات و هذا ممّا لا كلام فيه و بحسب ظاهر اللّفظ.

و لا يبعد أن يكون الأزواج التّي جعلها اللّه في الأشياء إشارة نقطةٍ أخرى أدقّ و أحسن ممّا ذكروه و حملوا اللّفظ عليه و هو أنّ الفرد منحصرٌ بذاته و ما سواه كائناً ما كان زوجٌ توضيح ذلك أنّ اللّه تعالى واجب الوجود و ما سواه ممكن الوجود.

١- ق = ٧ ٢- الشّعراء = ٧
٣- القيامة = ٣٩

و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ كلّ ممكنٍ زوجٌ تركيبي له ماهيّة و وجود و حيث أنّ ماهيّة الممكنة نسبتها إلى الوجود و العدم على حدٍّ سواء فهي محتاجة في خروجها عن حدّ الإستواء إلى موجدٍ يخرجها عنه و هو اللّه تعالى لا غيره لأنّ حكم الأمثال واحدٍ و معنى الإخراج هو إتّصاف الماهيّة بالوجود فتصير الموجود بذلك زوجاً له ماهيّة و وجود و هذا حكمٌ عامٌّ يشمل جميع الممكنات فصدق قوله تعالى أنّه خلق الأزواج:

قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحٰانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنٰا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**[٢].

أليس في قوله هذا تنبيهٌ على أنّ الأشياء كلّها مركبّة من ماهيّة و وجود و أن شئت قلت من جوهرٍ و عرضٍ و مادّةٍ و صورةٍ و أنّه لا شئ يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً مخلوقاً و أنّه لابدّ له من صانع تنبيهاً على أنّه تعالى هو الفرد و اللّه أعلم بما أراد.

و أمّا قوله: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ** عليها في أسفاركم **والفُلك** بضّم الفاء السَّفينة و الأنعام الإبل و البقر و ما جرى مجراهما من الدّواب و الحمير التّي تصلح للرّكوب و قوله: **لِتَسْتَوُوا عَلىٰ ظُهُورِهِ** فالإستواء الإستيلاء أي لتستقرُّوا على ظهور الأنعام و أنّما قال على ظهوره ولم يقل على ظهورها مع أنّ الأنعام جمع لوجهين:

أحدهما: أنّ مرجع الضّمير، ما، في قوله، ما تركبون.

الوَجه الثّاني: في إضافة الظُّهور إلى واحد أنّ المراد به الجنس فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش و الجند فلذلك ذكره و جمع الظُّهور أي على ظهور هذا الجنس ذكر هذا الوجه الفرّاء و الوجه الأوّل أقوى و أنسب بسياق

١- يٰس = ٣٦ ٢- الذّاريات = ٤٩

الكلام كما هو ظاهر على المتأمّل.

و قال بعض المفسّرين المراد بالأنعام في الآية الإبل خاصّة لأنّ البقرة خلقت للحرث لا للرّكوب عليها.

أقول الحقّ أنّ المراد بالأنعام كلّ حيوانٍ يصلح للرّكوب عليه كالحمار و البغل و الفرس و أمّا الإختصاص بالإبل لا دليل عليه و لا يساعده العقل و العرف و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى وظيفتة الرّاكب بعد إستواءه على ظهر المركوب أداءً لحقّ الشّكر الواجب عليه عقلاً فأمره أن يقول: **سُبْحٰانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ** و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** و الأصل في ذلك هو وجوب شكر المنعم عقلاً، و هذه القاعدة العقليّة ثابتة جارية عند كلّ نعمةٍ و لا شكّ أنّ خلق الأنعام من أحسن النِّعم فيجب الشّكر عليه عقلاً.

فيقول: **سُبْحٰانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا** المركب **وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ** أي مطيقين في قول إبن عبّاس و قيل ضابطين إختاره الأخفش و أبوعبيدة، مماثلين في الأيد و القوّة من قولهم هو قرن فلان إذا كان مثله في القوّة، كما يقال فلان مقرنٌ لفلان أي ضابط له قال عمرو بن معد يكرِّب:

ركبتم صعبتي أشراً و حيفاً و لستم للصّعاب بمقرنينا

و قال الأخر:

لقد علم القبائل ما عقيلٌ لنا في النّائبات بمقرنينا

وَ إِنّٰآ إِلىٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ

معناه واضح فهو من قبيل قوله إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فأنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله و إلى ربّك الرُّجعى.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ

ذكر المفسّرون فيه وجهان:

أحدهما: أنّهم جعلوا للّه جزاً من عبادته لأنّهم شركوا بينه و بين الأصنام.

الثّاني: زعموا أنّ الملائكة بنات اللّه و بعضه فالجزء الّذي جعلوه له من عباده هو قولهم (الملائكة بنات اللّه) ثمّ قال تعالى مخبراً عن حال الكفر لنعم اللّه فقال: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ**، لنعمه جاحدٌ إيّاها مظهرٌ لكفره غير مستترٍ به.

أقول أمّا الوجه الأوّل فهو ينافي سياق الكلام لأنّ اللّه تعالى لم يقل و جعلوا لعبادته جزءاً بل قال جعلوا له من عباده جزءاً، أي جعلوا بعض عباده جزءاً له و بعبارةٍ أخرى جعلوا بعض المخلوق جزاءً لخالقه، بمعنى أنّهم جعلوا الخالق مركّباً من الأجزاء ولم يعلموا أنّ كلّ مركّبٍ من الأجزاء محتاج إلى أجزاءه و كلّ محتاج مخلوق و ذلك لأنّ المركّب من الأجزاء بما هو هو مع قطع النّظر عن أجزاءه لا وجود له و أنّما وجوده بوجود أجزاءه فهو محتاج في بقاءه و وجوده إلى أجزاءه و لا نعني بالإفتقار إلاّ هذا فالقول الثّاني و هو أنّهم جعلوا الملائكة بنات اللّه هو المتّبع لأنّ الولد من أجزاء الوالد و لذلك قال رسول اللّه: **أنّ فاطمة بِضعة مِنّي من أذاها فقد أذاني ومن أَحَبّها فقد أحَبَّنى**.

و الوجه فيه ظاهر لأنّ الولد يوجد من نطفة أبيه و لذلك يقال الولد سرّ أبيه، فالولد في الحقيقة جزءٌ من أجزاء الوالد و لا فرق في ذلك بين أن يكون الولد ذكراً أو أنثى فإذا كانت الملائكة بنات اللّه لزم التّركيب في اللّه تعالى و هو كما ترى خلاف العقل لخروج الواجب عن كونه واجباً و دخوله في سلسلة الممكنات و قد ثبت بالدّلائل العقليّة تجّرده تعالى عن شائبة التّركيب و إلى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَيْكُمْ بِالْبَنِينَ

الميم صلةٌ الكلام إتَّخذ ممّا يخلق بناتاً كما زعمتم أنّ الملائكة بنات اللّه فاللّفظ لفظ الإستفهام و معناه التّوبيخ و في قوله: **أَصْفيٰكُمْ بِالْبَنِين** حجّة عليهم لأنّه ليس بحكيم من يختار لنفسه أدون المنزلّتين و لغيره أعلاهما فلو كان على ما يقول المشركون من جواز إتّخاذ الولد عليه تعالى لم يتّخذ لنفسه البنات و يصفيهم بالبنين فغلطوا في الأصل الّذي هو جواز إتّخاذ الولد عليه فمعنى أصفاكم، خصّكم و أثركم بالذّكور و إتّخذ لنفسه البنات ففي الحقيقة غلطوا في أصل إتّخاذ الولد أوّلاً.

و في إتّخاذه لنفسه البنات ثانياً تعالى اللّه عمّا يقوله المشركون ثمّ أشار اللّه تعالى إلى وجه إتّخاذهم البنين لأنفسهم دون البنات:

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ

أي أنّ هؤلاء الكفّار ما أنصفوا في نسبة البنات إلى اللّه و البنين إلى أنفسهم و ذلك لأنّه إذا بشّر أحدهم بما ضرب للرّحمن مثلاً، و هو إتّخاذه الملائكة بناتاً، ظلّ وجهه مسوّداً ممّا يلحقه من الغمّ بذلك و يصير حزيناً و هو دليلٌ على أنّ البنين عندهم أعزّ و أشرف من البنات و إذا كان كذلك فكيف يرضون للّه تعالى بما لا يرضون لأنفسهم و في هذا الكلام حجّة أخرى عليهم لو كانوا يعلمون.

أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي ٱلْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ

النّشأ التّربية و الحلية بكسر الحاء الزّينة و المراد به النّساء على قول أكثر المفسّرين و الإستفهام في قوله: **أَوَمَنْ** للإنكار و المعنى أو من ينشأ و يربّي في الزّينة المرأة فأنّ زيّها غير زيّ الرّجال و لذلك رخّص لها في الشّريعة إستعمال الذّهب و الحرير دون الرّجال.

و قوله: **وَ هُوَ فِي ٱلْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ** أي من ينشأ، فالضّمير يعود على

من، و الخصام المجادلة و الإدلاء و ملخّص الكلام أنّ من كان كذلك أي يتربّى في الزّينة و النّعمة و هو إذا إحتاج إلى بحاثات الخصوم و مجاراة الرّجال كان غير مُبين ليس عنده بيان و لا يأتي ببرهانٍ يحتجّ به من يخاصمه و ذلك لضعف عقول النّساء و نقصانهنّ عن فطرة الرّجال قاله صاحب الكشّاف.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

أي و جعلوا للّه سبحانه من ينشؤا في الحلية و هو في الخصام غير مبين أي يتربّى في الزّينة و هو في المخاصمة و المحاجّة غير مبين لحجّته لا يقدر على تقرير دعواه إنتهى.

أقول أكثر المفسّرين على أنّ المراد، بمن ينشأ في الحلية النّساء و قالوا في قوله: **وَ هُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** أنّ المرأة في المخاصمة و المحاجّة غير مبين لحجّته لا يقدر على تقرير دعواه و هذا كما ترى لا يمكن أن يحكم العقل بصحّته بطريق العموم فأنّا نرى كثيراً من النّساء على خلاف هذا الحكم اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الحكم ناظرٌ إلى النّوع.

و قال بعض المفسّرين المراد بمن ينشأ في الحلية، الأصنام و الأوثان لأنّ المشركين كانوا في عهد الجاهليّة يزيّنون الأصنام بأنواع الحلى و من المعلوم أنّ الصّنم و الوثن في الخصام غير مبين و هذا القول بعيدٌ عن الصّواب غاية البعد فالقول الأوّل هو المتّبع إلاّ أنّ الحكم فيه أغلبيّ لا شموليّ كما هو كذلك في أكثر الأحكام لولا جميعها و اللّه أعلم.

وَ جَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَ يُسْـَٔلُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الملائكة عباد الرّحمن، و الكفّار قالوا بأنوثيّتهم و أنّهم بنات اللّه أشهدوا خلقهم، الهَمَزة للإنكار أي لم يشهدوا خلقهم و

إذا كان كذلك فكيف حكموا ألم يعلموا أنّا سنكتب شهادتهم و يسألون عنها يوم القيامة.

وَ قٰالُوا لَوْ شٰآءَ ٱلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلّٰا يَخْرُصُونَ

أي قال المشركون لو شاء الرّحمن ما عبدناهم، أي ما عبدنا الملائكة و معنى هذا الكلام أنّ اللّه تعالى أراد كفرهم ولو لم يشأ ذلك لما كفروا فقال اللّه تعالى لهم على وجه التّكذيب، ما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يخرصون (إن) نافية أي ليس يعلمون صحّة ما يقولون به و أنّهم لكاذبون و بعبارةٍ أخرى ليس هم إلاّ كاذبين، و الدليل على كذبهم و عدم علمهم بما يقولونه أنّ قولهم هذا عين الجبر و معناه سلب الإختيار عن العبد و هو ينافي العدل فهذه الآية تدلّ على نفي الجبر و لازم ذلك ثبوت الإختيار للعبد و قد مرَّ الكلام في الباب غير مرّةٍ.

أَمْ اٰتَيْنٰاهُمْ كِتٰابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ

هذا معادل، أشهدوا خلقهم، و المعنى، أحضروا هؤلاء الكفّار خلق الملائكة و حكموا بأنوثيّتهم، **أَمْ اٰتَيْنٰاهُمْ كِتٰابًا مِنْ قَبْلِهِ** أي من قبل القرأن فهم مستمسكون به في قولهم هذا و بعبارةٍ أخرى من أين علموا ما حكموا به و المفروض أنّهم لم يشهدوا خلقهم ولم يكن قبل القرأن ما تمّسكوا به في صدق مقالتهم نعم أنّهم قالوا ذلك تبعاً لأبائهم و أسلافهم كما قال اللّه:

بَلْ قٰالُوٓا إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا عَلٰىٓ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلٰىٓ اٰثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ

أي قال المشركون أنّا وجدنا أباءنا على أمّةٍ أي على ملّةٍ أي ملّة الكفر و قرئ، إمّة بكسر الهَمزة و هى الطّريقة، و أنّا على أثارهم، أي أثار الأباء مهتدون، نهتدي بهداهم و هذا الّذي حكاه اللّه تعالى عنهم من تقليد الأباء و الأسلاف من أظهر

الدّلائل على أنّهم كاذبون في دعواهم و هو المطلوب.

تنبيه

هذه الآية و أمثالها تدلّ على ذمّ التّقليد في المسائل الإعتقاديّة كالتّوحيد و النّبوة و المعاد و الإمامة على إختلافٍ في الأخير أعني به الإمامة بين الخاصّة و العامّة فالشّيعة إتّفقت كلمتهم على ذمّ التقليد فيها أيضاً لأنّها من الأصول الإعتقاديّة كالتّوحيد و النبوّة و المعاد.

و العامّة لا تقول به و عدّوها من الفروع و أمّا التّوحيد و النّبوة و المعاد فإتّفق الكلّ على عدم جواز التّقليد فيها قولاً واحداً و المقصود من عدم جواز التّقليد فيها أنّه يجب على المكلَّف البالغ العاقل قبل العمل بالتّكاليف الشرعيّة الإعتقاد بالأصول الثّلاثة بالبراهين العقليّة و النقليّة بحسب إستعداده فمن أخذ أصول عقائده من أباءه و أسلافه تقليداً لا يقبل منه و هو في الأخرة من الخاسرين ولكن مع الأسف نرى و نشاهد في أكثر المسلمين من العامّة و الخاصّة أنّهم قلّدوا فيها غيرهم ولم يأخذوا عقائدهم عمَّن يعتمد عليه و تطمئنّ به النّفس بل يقولون بأفواههم ما لا يوافق العقل و لا النَّقل و ليس هذا إلاّ لعدم إعتناءهم بالأصول المعتمدة و قلّة مبالاتهم في الدّين أعاذنا اللّه تعالى منه.

وَ كَذٰلِكَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلّٰا قٰالَ مُتْرَفُوهٰآ إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا عَلٰىٓ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلٰىٓ اٰثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ تقليد الأباء و الأسلاف في التّوحيد و ما يتبعه من النّبوة و المعاد ليس منحصراً بأمّة خاصّة بل هذه الرّؤية الرّديئة عمَّت جميع الأمم الماضية أيضاً فالمشركون في عهد النّبي فعلوا ما فعل أسلافهم و أجدادهم، و أنّما خصَّ المترفين بالذّكر مع أنّ تقليد الأباء لا يختّص بهم لأنّهم بمنزلة الرّؤوس و سائر الأفراد بمنزلة الذّنوب و الذّنب تابع للرّأس في الحركة و السّكون

و لا إستقلال له فيهما ألا ترى أنّ ذنب الحيوان يتبع رأسه و لا عكس، فالعوام بمنزلة الذّنب و الرّؤساء و المترفون الذّين صارت النّعمة باعثاً على طغيانهم بمنزلة الرّؤوس و لذلك رؤوس المشركين في غزوة بدر و أحد و خيبر و خندق و غيرها من المترفين أمثال أبي سفيان و أبى جهل و عتبة و شيبة و هكذا.

والسَّر فيه أنّ المترف يريد أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، و الدِّين يمنعه عن الظُّلم و التَّعدي على الغير، و أمّا غيره فليس كذلك فالمترف في مخالفته للرّسول بصدد جلب منافعه و دفع مضّاره، و أمّا من تبعه لا يعلم شيئاً و ذنبه جهله و حماقته، هذا قال الشّاعر:

كـنّا عـلى أمّـةٍ أباؤنا　　　و يقتدي الأخـر بـالأوّل

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدٰى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ اٰبَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ

أي قال النَّذير و هو النّبي الّذي أرسل إليهم، أو لم جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه أباءكم، جواب، لو، محذوف أي فهل تقبلونه، قالوا في جواب النّذير، **إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ** أي لا نقبل قولكم أبداً، و هذا كمال العناد فأنّ العاقل يأخذ بالأحسن إذا تبع عقله إلاّ أنّ حبّ الدّنيا يعمي و يصمّ و لا سيّما إذا ضمَّ إليه العناد فأنّه لا يقبل الحقّ قطعاً ولو كان عالماً به، و أنّي رأيت في بعض البلاد مترفاً من أهل السنّة معانداً للحقّ مع وضوحه، قال لي أنّي لا أقبل قولك أصلاً و أن كان حقّاً بل لو أمرني النّبي بمتابعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام أقول له أنت لست بنبيٍّ و لا أقبل قولك و هذا هو العناد الّذي لا دواء له إلاّ الموت و دخول النّار و محصلّ الكلام في هذه الأيات هو أنّ اللّه تعالى جعل للنّاس في الدّنيا حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة.

أمّا الحجّة الظّاهرة فهي الأنبياء و الرُّسل و الأئمّة.

و أمّا الحجّة الباطنة فهي العقل و بذلك قد تمّت الحجّة فأنظر ماذا تكون.

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ

الفاء للتّفريع يعني بعد إتمام الحجَّة تصل النَّوبة إلى الإنتقام و حيث أنّهم لم يقبلوا الحّق بعد وضوحه فأنتقمنا منهم أي من هؤلاء الكفّار المعاندين فأهلكناهم بذنوبهم بما كسبت أيديهم **ما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ**.

■

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرآءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذي فَطَرَني فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً في عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هٰٓؤُلآءِ وَ آباءَهُمْ حَتّىٰ جاءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَ لَمّا جاءَهُمُ ٱلْحَقُّ قالُوا هٰذا سِحْرٌ وَ إِنّا بِهِ كافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَ قالُوا لَوْلا نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَ لَوْلآ أَنْ يَكُونَ ٱلنّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوابًا وَ سُرُرًا عَلَيْها



يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَ زُخْرُفًا وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتاعُ
اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا وَ اَلْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٣٥﴾ وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ اَلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ
شَيْطٰانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ
عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ
اَلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ اَلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ
اَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي اَلْعُمْيَ وَ
مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ
فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ اَلَّذِي
وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلٰى
صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ
وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰآ أَجَعَلْنٰا مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ
اٰلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسٰى
بِاٰيٰاتِنٰآ إِلٰى فِرْعَوْنَ وَ مَلاٰئِهِ فَقٰالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِاٰيٰاتِنٰآ إِذٰا هُمْ
مِنْهٰا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَ مٰا نُرِيهِمْ مِنْ اٰيَةٍ إِلاّٰ
هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا وَ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَ قٰالُوا يٰآ أَيُّهَا اَلسّٰاحِرُ

ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ ٱلْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَ نادىٰ فِرْعَوْنُ في قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ ٱلْأَنْهارُ تَجْري مِنْ تَحْتيَ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذي هُوَ مَهينٌ وَ لا يَكادُ يُبينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ ٱلْمَلآئِكَةُ مُقْتَرِنينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسِقينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمّآ آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْناهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرينَ ﴿٥٦﴾

◀ اللُّغة

بَرَآءٌ: أصل البرء و البراء و التَّبريْ التَّفصي ممّا يكره مجاورته و لذلك قيل برأت من المرض و بأت من فلان.

فَطَرَني: أصل الفطر الشّق طولاً يقال فطر اللّه الخلق أي أوجده، و أبدعه.

سُخْرِيًّا: السُّخرية بضمّ السّين الإستهزاء.

أُمَّةً: (أمّة) بضمّ الألف الملّة و الجماعة.

مَعارِجَ: العروج ذهابٌ في صعود يقال عرج عروجاً مشى مشي العارج أي الذّاهب في صعود كما يقال درج إذا مشىٰ مشي الصّاعد في درجة و لذلك قيل المعارج الدَّرج.

سُرُرًا: بضمّ السّين و الرّاء جمع سرير.

زُخْرُفًا: الزُّخرف ما يتخذّه النّاس في منازلهم من الأمتعة و الأثاث و قيل المراد به هاهنا الذّهب.

يَعْشُ: بضمّ الشّين و قرئ بفتحها أيضاً العمى أي يعمى.

نُقَيِّضْ: يقال قيَّض له كذا أي سهَّل و يسَّر.

لَيَصُدُّونَهُمْ: الصَّد المنع.

وَ مَلَإِيْهِ: الملاء القوم.

كَشَفْنَا: أي رفعنا.

يَنْكُثُونَ: النَّكث النَّقض.

مَهِينٌ: بفتح الميم و كسر الهاء الضّعيف و قيل معناه، فقير.

أَسْوِرَةٌ: جمع سوار و هو الّذي يلبس في اليد.

آسَفُونَا: الأسف التَّحسر و الحزن، و المراد به في المقام الغضب.

◀ الإعراب

بَرَآءٌ بفتح الباء و همزة واحدة و هو مصدر في موضع إسم الفاعل بمعنى بريئ و قد قرئ به أيضاً من ٱلْقَرْيَتَيْنِ أي من إحدى القريتين، مكّة، و الطّائف لِبُيُوتِهِمْ هو بدل بإعادة الجارّ أي لبيوت من كفرٍ سُقُفًا جمع سقف مثل رهن و رهن لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إختلفوا في فاعل الفعل على وجهين:

أحدهما: أنّكم، و ما عملت فيه أي لا ينفعكم تأسيّكم في العذاب.

الثّانى: أن يكون الفاعل، ضمير، التَّمني المدلول عليه بقوله يا ليت بيني و بينك، أي لن ينفعكم تمَّني التَّباعد فعلى هذا يكون أَنَّكُمْ بمعنى (لإنّكم) إِذْ ظَلَمْتُمْ إذ، ظرف زمانٍ ماضٍ، ولن ينفعكم و فاعله و اليوم المذكور ليس بماضٍ، فقيل أنّ، إذ، بدل من اليوم حتّى كأنّها مستقبله أو كأنّ اليوم ماضٍ الكلام محمولٌ على المعنى و المعنى أنّ ثبوت ظلمهم عندهم يكون يوم القيامة فكأنّه قال ولن ينفعكم اليوم إذ صحَّ ظلمكم عندكم فهو بدل أيضاً.

و قال أخرون التّقدير بعد إذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به، و قيل إذ، بمعنى أن أي لأن ظلمتم و قيل غير ذلك و ما ذكرناه أحسن الأقوال فيها **أَمْ أَنَا خَيْرٌ** أم هاهنا منقطعة في اللّفظ لوقوع الجملة بعدها و هى في المعنى متصلّة معادلة إذ المعنى أنا خيرٌ منه أم لا **أَسْوِرَةٌ** جمع سوار **سَلَفًا** واحد في معنى الجمع مثل النّاس و الرَّهط و أمّا سلفاً بضّمتين فهو جمع مثل أسد و أسد أو جمع سالف مثل صابر و صبر.

◀ التّفسير

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ

إبراهيم الخليل عليه‌السلام كان إبناً لتارخ و كان أبوه تارخ مؤمناً موّحداً للّه تعالى لم يسجد لصنم قطّ و شهد بذلك قوله تعالى: **اَلَّذي يَرٰيكَ حينَ تَقُومُ، وَ تَقَلُّبَكَ فِى اَلسّاجِدينَ**[1] و قد فسّر بأنّ روح نبيّنا و نطفته كانا ينتقلان من صلب ساجدٍ إلى صلب ساجدٍ و أنّ جميع أباءه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى أدم كانوا موّحدين ساجدين للّه تعالى وحده دون غيره و منهم إبراهيم الخليل و أبوه تارخ.

و قد ورد عن النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه قال: لم أزل أنتقل من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام الطّاهرات أنا و أخي علىّبن أبي طالب حتّى إفترقنا في أبي عبداللّه و عمّي أبىطالب و لم يكن أحد من أبائي مشركاً نجساً إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ آذر الّذي ذكره اللّه تعالى في الآية و سمّاه أباً له، هو عمُّ إبراهيم بعد موت أبيه تارخ في كفالته و أنّ إطلاق الأب على العمّ شائع عند العرب و خاصّة إذا كان العمّ قائماً بكفالة إبن أخيه و تربيته و من ذلك قوله تعالى حكايةً عن أولاد

١- الشّعراء = ٢١٩

يعقوب:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰآءَ إِذْ حَضَرَ يَـعْقُوبَ ٱلْـمَوْتُ إِذْ قٰـالَ لِـبَنِيهِ مٰـا تَـعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قٰالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ اٰبٰآئِكَ إِبْراٰهِيمَ وَ إِسْـمٰاعِيلَ وَ إِسْـحٰاقَ إِلٰهًا واٰحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(۱).

و من المعلوم أنّ إسماعيل كان عمّاً ليعقوب و قد عدُّوه في آباءه و على كلٍّ فقد إتفقّت كلمة أهل البيت و أتباعهم من الشّيعة على إسلام والد إبراهيم و إيمانه باللّه و أحاديثهم بذلك متواترة فلا إعتبار لقول الجاهلين وكان مولده في قريةٍ من قرى الكوفة بالعراق يقال لها (لوثاربا) وكان أبوه تارخ من أهلها و كانت أمّه و أمّ نبيّ اللّه لوط أختّين صالحتين و هما بنتان لنبيٍّ كان إسمه لاخج و كان منذراً و لم يكن مرسلاً وكانت ولادة الخليل في عصر الملك الجبّار نمرود بن كنعان و كان مع قومه يعبدون الأصنام و كان آذر عمّ إبراهيم منجّماً له و صاحب أمره و وزيره و كان يتّخذ الأصنام له و للنّاس و يدفعها الى ولده فيبيعونها فصادف أنّ نمرود رأى في منامه كان كوكباً طلع فذهب بضوء الشّمس و القمر و لمّا سأل المنجّمين عن رؤيّاه أخبروه عن طريق التّنجيم بأنّه يولد غلام يذهب ملك نمرود على يده و ينسخ دينه و يدعوا الى دين آخر، و قد مرَّ الكلام فيما مضى عند تفسير الأيات المربوطة ما يغنيك عن المراجعة الى كتابٍ آخر.

إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية و نقول: **وَ إِذْ قٰالَ إِبْراٰهِيمُ لِأَبِيهِ** أي لعمّه آذر لأنّ أباه تارخ مات قبل نبوّته و قيل قبل ولادته و الضّمير في (قومه) راجع الى آذر و قيل الى إبراهيم نفسه إذ قال لقومه: **إِنَّنِي بَرٰآءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ** معناه أنّي بريءٌ ممّا تعبدون من الأصنام و الأوثان.

إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

۱- البقرة = ۱۳۳

و التّقدير سيهديني حذفت الياء تخفيفاً و الإستثناء قيل أنه متصّل لأنّهم أي قومه كانوا يعبدون اللّه مع آلهتهم و يقولون اللّه ربّنا مع عبادة الأوثان، و قيل أنّه منقطعٌ أي لكن الّذي فطرني و خلقني فهو يهدين أي يهديني الى طريق الحقّ.

وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

قيل الضّمير، في، جعلها، عائد على قوله: **إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي** و ضمير الفاعل في، جعلها، للّه عزّ و جلّ، أي و جعل اللّه هذه الكلمة و المقالة باقية في عقبه أي أولاده و ذريّته أي أنّهم توارثوا البراءة عن عبادة غير اللّه و أوحى بعضهم بعضاً في ذلك و قال السُّدي هم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، قيل في الكلام تقديم و تأخير و المعنى أنّه سيهدين لعلّهم يرجعون، و جعلها كلمةً باقية في عقبه أي قال لهم ذلك لعلَّهم يتوبون عن عبادة غير اللّه.

و قال قتادة الكلمة الباقية، لا إله إلاّ الله، و لا يزال من عقبه من يعبد اللّه الى يوم القيامة، و قيل الكلمة، أن لا تعبدوا إلاّ اللّه، و قيل هي أسلمت لربّ العالمين، و قيل هي النبوّة، و قال إبن زيد هو الإسلام.

أقول ما ذكروه في معنى الكلمة لا بأس به إلاّ أنّ ظاهر الآية أنّ المراد بها ما قاله إبراهيم لأذر و قومه، و هو قوله: **إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي** فأنّه عليه السلام تبرأ عن عبادة الأصنام أوّلاً ثمّ إستثنى الّذي فطره و خلقه، و أثبت العبادة له و فى قوله هذا إشارة الى أنّ النّفي مقدّم على الإثبات بدليل أنّه قدَّم نفي عبادة الأصنام على عبادة الخالق، فقوله هذا من قبيل قوله تعالى: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** حيث قدّم النّفي على الإثبات ففي قوله: **لَآ إِلَٰهَ** نفي الألوهيّة عن كلّ شئ و فى قوله: **إِلَّا ٱللَّهُ** أثبتها، للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة فالتّوحيد لا يثبت إلاّ بعد التّبريّ عن كلّ ما سوى اللّه تعالىٰ و بعبارةٍ أخرى إثبات الألوهيّة على وجه الإحضار لا يمكن إلاّ بعد نفيها عن جميع ما سواه و هذا هو المراد بالكلمة

في الآية و أمّا قوله: **فِي عَقِبِهِ** أي فيمن تبعه على ما قاله من التّوحيد، و قول المفسّرين أنّ المراد به أولاده و ذريّته لا يمكن المساعدة عليه على الكلّية ضرورة أنّ كثيراً من أولاد إبراهيم لولا أكثرهم لم يكونوا من الموحّدين بل كانوا كافرين ظالمين فكيف يقال أنّها اى كلمة التّوحيد الحقيقي كانت مجعولة في ذريّته، و لا دليل عقلاً و نقلاً على أنّ المراد بالعقب هو الذرّية و الأولاد فقط بل الحقّ أنّ المراد به ما يتبعه سواء كان في الوجود أم في المسلك و المذهب و على فرض التّسليم فالحكم بإعتبار الأعمّ و الأغلب، و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أي لكي يرجعون عن الكفر الى الإيمان هذا و يحتمل أن يكون المراد بها دعوة إبراهيم قومه الى التّوحيد و المراد ببقائها في عقبه هو بقاء الدَّعوة في الأنبياء من ذريّته بعده و لعلَّ هذا المعنى أراد من قال الضّمير في جعلها راجعٌ على النبوّة فأنّ النبوّة كانت باقية في أولاده الى خاتم النَّبيين، و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** معناه لكي يرجعون أي يرجعون الى الأنبياء من ذريّته و صارت دعوته كاملة شاملة لجميع النّاس الى يوم القيامة، كما قال تعالى: **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ**(١).

اللّهم عجلّ لوليّك الفرج فأنّه عليه السلام من ذريّة إبراهيم، لعلّهم يرجعون.

بَلْ مَتَّعْتُ هٰٓؤُلَآءِ وَ اٰبَآءَهُمْ حَتّٰى جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ، وَ لَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كٰفِرُونَ

قال في المفردات المتوع الإقتداد و الإرتفاع يقال متع النّهار و متع النَّبات إذا إرتفع في أوّل النّبات و المتاع إنتفاع ممتد الوقت يقال متَّعه اللّه بكذا و أمتعه و تمتَّع إنتهى.

١- التّوبة = ٣٣

فقوله تعالى: **بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَ ءَابَآءَهُمْ** معناه أعطيتهم من المال و المتاع في الدُّنيا ما يتمتَّعون به، و قوله: **هَٰٓؤُلَآءِ** إشارة الى الكفّار الحاضرين في عصر النّبي و قال صاحب الكشّاف هم أهل مكّة و المراد بآباءهم أسلافهم و أجدادهم الّذين بقوا على الكفر حتّى ماتوا و لم يشكروا اللّه على نعمه مع أنّ الشّكر على النّعمة واجب عقلاً، و معنى الآية متّعت هؤلاء الكفّار و آباءهم حتّى جاءهم الحقّ، و هو الرّسول، أو هو الكتاب و الرّسول مبين لهم أحكامه و المقصود إنّا أتممنا عليهم الحجّة في الدُّنيا بإعطاء النِّعم و إرسال الرّسل بعده، و لمّا جاءهم الحقّ قالوا هذا سحرٌ مبين، أي ظاهر، أي لم يؤمنوا باللّه و كذَّبوا رسله و كفروا بما أنعم اللّه عليهم، و قالوا إنّا به، أي بما جئتم من التّوحيد وما يتعلّق به كافرون، و فى الآية إشارة الىٰ خبث ذواتهم و سوء سرائرهم و أنّ متاع الدُّنيا صار باعثاً على طغيانهم و إعراضهم عن الحقّ و من المعلوم أنّ أهل مكّة كانوا من عقب إبراهيم.

وَ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ

قيل المراد بالقريتين مكّة و الطّائف و بالرّجل العظيم الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي من أهل مكّة، و حبيب إبن عمرو بن عنير من الطّائف و هو الثّقفي.

و قال مجاهد يعني بالّذي من أهل مكّة عقبة بن ربيعة، و الّذي من أهل الطّائف إبن عبد باليل، و قال قتادة يريدون بالّذي من أهل مكّة الوليد بن المغيرة و الّذي من أهل الطّائف عروّة بن مسعُود الثّقفي، و قال السُّدي الّذي من أهل الطّائف كنانة بن عمرو و أنمّا قالوا ذلك لأنّ الرّجلين كانا عظيمي قومهما و ذوي الأموال الكثيرة فيهما فدخلت الشُّبهة عليهم فأعتقدوا أنّ من كان كذلك أولى بالنُّبوة فقال تعالى في جوابهم.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

الظّاهر أنّ المراد بالرَّحمة في الآية النُّبوة سمّيت بالرّحمة لأنّها أي النبوّة توجب إرشاد الخلق الى الحّق و إعراضهم عن الباطل و بالجملة سعادة الدّارين و أيّ رحمةٍ من اللّه أحسن منها و لذلك منَّ اللّه بها على الخلق دون غيرها من النِّعم حيث قال:

لَقَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(١).

نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا و إذا لم يكن أمر الدُّنيا اليهم فكيف أمر النبّوة اليهم و فى قوله: **وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ**

أي و جعلنا بعضهم مالكاً و بعضهم مملوكاً، و بعضهم غنيّاً و بعضهم فقيراً و هكذا **لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا** إختلف المفسّرون في المراد بقوله: **سُخْرِيًّا** على قولين:

أحدهما: أنّه من التَّسخير و التسليط و ذلك لأنّ الإختلاف في الرِّزق بين الخلق في الضّيق و السّعة زيادة على ما فيه من المصلحة فيه تسخير بعض العباد لبعضٍ آخر لسبب إحتياجهم اليهم و فيه حفظ النّظام و دوام العيش.

الثّاني: أنّه من السُّخرية بمعنى الإستهزاء أي ليستهزئ الغنّي بالفقير ثمّ قال: **وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** أي ممّا يجمعه هؤلاء الكفّار من متاع الدُّنيا و زخارفها.

١- أل عمران = ١٦٤

و محصّل الكلام أنّ جميع الأمور بيده تعالى فكأنّه يعطي المال و المقام لمن شاء و أراد يعطي النبوّة و الإمامة لمن شاء و أراد كلّ ذلك على أساس المصلحة الّتي لا يعلمها إلاّ هو إلاّ أنّ النِّعم الماديّة تعمّ المؤمن و الكافر بخلاف المعنويّات فأنّها تختصّ بالمؤمن و النُّبوة من هذا القبيل بل هي أصلها و أساسها.

وَ لَوْلَآ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واٰحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ

قيل معناه، لولا أنّهم يصيرون كلّهم كفاراً، لجعلنا لمن يكفر بالرّحمن لبيوتهم سقفاً من فضّةٍ و معارج أي درجاً عليها يظهرون، لكن لم نجعل ذلك لما ذكرناه من صيرورتهم كفّاراً حبّاً منهم للدّنيا و زخارفها و إذا كانت الدّنيا وما فيها عند اللّه من الهوان بحيث يجعل بيوت الكفرة و درجها ذهباً و فضّة فما ظنّك بها و متاعها.

و قال الحسن المعنى لولا أن يكفر النّاس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدّنيا و تركهم الأخرة لأعطيناهم في الدّنيا ما وصفناه لهوان الدّنيا عند اللّه عزّ وجلّ و على هذا أكثر المفسّرين.

و عن الكسائي أنّه قال المعنى، لولا أن يكون في الكفّار غنيٌّ و فقير المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفّار من الدّنيا هذا لهوانها.

أقول ما ذكره اللّه تعالى حقٌّ لا مرية فيه و من أصدق من اللّه قيلاً، و الدّليل عليه، من العقل و النّقل.

أمّا العقل فلأنّه يحكم بأنّ الدّنيا و ما فيها من النِّعم فانية زائلة و لا بقاء لها و ما لا بقاء له لا يعتمد عليه و هذا بخلاف الملكات الفاضلة و النِّعم الأخرويّة فأنّها باقية لا زوال لها فيجب الأخذ بها إذ فيها سعادة الدّارين و لذّة النّشأتين هذا كلّه مضافاً إلى أنّ النِّعم الدنيويّة محفوفة بالألام و الأوجاع كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **الدّنيا**

دارٌ بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و ما كان كذلك فتركه أولى.

أمّا النّقل فالأيات و الأخبار و الأثار في ذمّها و الإعتماد عليها كثيرة جدّاً نحتاج إلى إطالة الكلام فيها بعد نصوص القرأن.

قال اللّه تعالىٰ: **اِعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَ تَفٰاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكٰاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوٰالِ وَ ٱلْأَوْلٰادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفّٰارَ نَبٰاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰيهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطٰامًا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ رِضْوٰانٌ وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰآ إِلّٰا مَتٰاعُ ٱلْغُرُورِ، سٰابِقُوٓا إِلٰى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ ٱلسَّمٰآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ**(١).

و الإنصاف أنّه لولا في ذمّ الدّنيا و متاعها و الرّكون إليها في الكتاب إلاّ هذه الآية لكفى فضلاً عن الأيات الكثيرة و قد مرَّ الكلام في هذا الباب بما لا مزيد عليه و سيأتي الكلام فيها أيضاً في المستقبل.

وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰابًا وَ سُرُرًا عَلَيْهٰا يَتَّكِئُونَ، وَ زُخْرُفًا وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ

الواو للعطف في الموضعين و هاتان الأيتان معطوفتان على الآية السّابقة عليهما و هو قوله تعالى: **وَ لَوْلآ أَنْ يَكُونَ ٱلنّٰاسُ أُمَّةً واٰحِدَةً** أي و لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضّة و أبواباً و سرراً يتّكئون عليها و زخرفاً أي ذهباً، و قيل هو الفرش و متاع البيت و الزُّخرف المزيّن، و قيل الزُّخرف المنقوش، و كيف كان فأنّ الآية مصرّحة بأنّه تعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ إلاّ أنّه لم يفعل ذلك لأجل المصلحة التّي رأها فلا ينبغي للغنيّ أن يفتخر على الفقير بغناه و لا للفقير أن يظّن أنّ اللّه أعطى

١- الحديد = ٢١ / ٢٠

الغنيّ لحبّه إيّاه و لعمري أنّ الأيات المذكورة من أحسن المواعظ لمن تدّبر فيها و لكن قليل من عباده الشّكور و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

و أمّا قوله: **وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتٰاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا** فإن مخففّة من المثقلة و أدخل اللاّم في، لما، للفصل بين النّفس و الإيجاب، و ما، زائدة و المعنى و أن كلّ ذلك متاع الحياة الدّنيا **وَ ٱلْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** لا لغيرهم من الكفّار و الفسّاق و أتباع الشّيطان و هو واضح.

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ

قرأ إبن عبّاس و عكرمة، و من يعش، بفتح الشّين و قرأ الباقون بضّمها فمن قرأها بالفتح جعل الفعل من عشي يعشي مثل رضى يرضى و معناه يعمى يقال عشي يعشى عشّاً إذا عمى و رجلٌ أعشى و إمرأةٌ عشواء إذا كان لا يبصر و منه قول الأعشى:

رأت رجـــلاً غـــائب الوافـــد ين مختلف الخلق أعشى ضريراً

و من قرأها بالضّم و هى الأشهر و عليها المصاحف جعل الفـعل مـن عشـا يعشو مثل دعا يدعو إذ ألحقه ما يلحق الأعشى و قال الخليل العشو هو النَّظر ببصرٍ ضعيف و منه قول الشّاعر:

مـتى تأتـه تـعشو إلى ضـوء نـاره تجد خير نارٍ عندها خير مـوقدٍ

و معنى الآية من يعرض عن ذكر الرّحمن، نقيّض له شيطاناً فهو له قرين، في معناه أقوال:

أحدها: معناه نخليّ بينه و بين الشّيطان الّذي يغويه و يدعوه إلى الضلالّة فلا نمنعه منه، قاله الحسن.

الثّاني: معناه، نجعل له شيطاناً يقال قيّض له كذا أي سهل و يسّر.

الثّالث: قال قتادة نقيّض له شيطاناً في الأخرة يلزمه حتّى يصير به إلى النّار

فحينئذٍ يتمنّى البعد عنه ذكر هذه الوجوه الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين معناه نسبّب له شيطاناً جزاءً له على كفره، فهو له قرين، في الدُّنيا يمنعه من الحلال و يبعثه على الحرام و ينهاه عن الطّاعات و يأمره بالمعصية.

قال في المجمع **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا** أي نسبّب و نقدّر له شيطاناً من قيّض كذا أي قدَّره فجعل اللّه ذلك جزاءه.

و قال الرّاغب في المفردات، نقيّض له شيطاناً، أي ننجّ ليستولي عليه إستيلاء القيض على البيض و هو القشر الأعلى.

أقول هذه الكلمات حول تفسير اللّفظ متحدة المأل من حيث المعنى و أنّما الإختلاف في الألفاظ و أحسن الأقوال ما قاله الرّاغب و ذلك لأنّ في التّسبيب و التّقدير شائبة الجبر بخلاف التّنجي كما لا يخفى على المتأمّل فمعنى الآية من أعرض عن ذكر الرّحمن أعرض اللّه عنه و خلّى بينه و بين الشّيطان و فيه هلاك العبد في الدّارين وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الشّيطان عدوّمبين، بصريح الأيات و لا يمكن لأحدٍ التخلّص من شرّه إلاّ بتوفيقٍ من اللّه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**(٢).

فإذا أعرض الإنسان عن ربّه فلامحالة يستولي الشّيطان عليه لوجود المقتضى و فقد المانع و المراد بالذّكر في الآية ليس الذّكر باللّفظ فقط بل المراد الذّكر القلبي الذّي يسري إلى الأعضاء و الجوارح و بعبارةٍ أخرى التّوجه إلى ربّه في جميع شئونه و أنّه تعالى شاهدٌ و ناظرٌ بأعماله و أقواله و أن شئت قلت المراد به الذّكر

١- يُوسف = ٥٢ ٢- ص = ٨٢

العملي الّذي لازمه فعل الواجبات و ترك المحرّمات فمن كان كذلك لا سبيل للشيّطان عليه لقوله: **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**[١] و الإخلاص أعلى و أفضل منه.

و أمّا قوله: **فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** فمعناه أنّ الشّيطان لا يتركه و لا يدعه بل هو قرينه و جليسه و أنيسه في جميع أفعاله، و القرين الصّاحب و من كان له الشّيطان قريناً فساء قريناً لأنّه أقسم باللّه تعالى و قال: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ** فلا ينجو من شرّه انّ المخلص للّه فى طاعته و الاخلاص للّه لا يتحقق من المعرض عن ذكره و لذلك قال تعالى ما قال في هذه الآية و أمثالها، نعوذ باللّه منه.

وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

الضّمير في يصدُّونهم، راجع على الشّياطين أي أنّ الشّياطين ليصدُّونهم و يمنعونهم، أي الكفّار عن سبيل الحقّ الّذي هو الإسلام و الإيمان و يحسبون، الكفّار، أنّهم مهتدون، إلى طريق الحقّ و ذلك لأنّ كلّ حزبٍ لما لديهم فرحون، و المراد بالصدّ الّذي هو المنع، الإغواء بالوسوسة لأنّ الشياطين يوسوسون في صدور النّاس و يزيّنون أعمالهم في أعينهم فهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً و يستمرّ ذلك إلى يوم القيامة كما قال تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائي و حفص (جاءنا) على التّوحيد و هى المشهور و عليها المصاحف يعني حتّى إذا جاءنا الكافر يوم القيامة.

و قرأ الباقون جاءنا، على التّثنية يعني إذا جاءنا و هما الكافر و قرينه أعني به

١- الحجر = ۴٠

الشّيطان.

أقول الظّاهر أنّ قراءة التّوحيد أولى و أقوى من قراءة التَّثنية بدليل قوله تعالى بعد جاءنا، **قٰالَ**، ولم يقل، قالا، أي حتّى إذا جاءنا قال الّذي جاءنا، فلو كان الجائي أثنين لقال تعالى، قالا، اللّهم إلاّ أن يقال في الكلام حذف و تقديره، قال كلّ واحدٍ منهما ياليت كذا و كذا و هذا و أن كان ممكناً إلاّ أنّه خلاف الأصل بل خلاف العقل إذ لو أراد التّثنية من الفعل لقال، قالا، و هو أحسن من التّقدير، و كيف كان إذا جاء الكافر يوم القيامة و رأى العذاب و ندم عن متابعة الشّيطان في الدّنيا قال مخاطباً إيّاه، ياليت بيني و بينك بعد المشرقين، أي بعد المشرق و المغرب غلّب أحدهما على الأخر و قيل أراد مشرق الشّتاء و مشرق الصَّيف كما قال ربّ المشرقين و ربّ المغربين و كيف كان فالمقصود البعد، أي ياليت لم تكن لي قريناً و الدّليل عليه قوله بعد ذلك، فبئس القرين، أي أنت بئس القرين.

و من المعلوم أنّ النّدم يوم القيامة لا ينفع إذ للشّيطان أن يقول في جوابه، في الصَّيف ضيَّعت اللَّبن كما قال تعالىٰ:

وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ

كلمة، لَن للنّفي المؤيّد أي لا ينفعكم النّدم اليوم أبداً، إذ ظلمتم، في الدّنيا أنّكم في العذاب مشتركون، يقول اللّه تعالى أنّكم، أي التّابع و المتبوع و الإمام و المأموم في العذاب مشتركون، و ذلك لأنّ الظُّلم في الحقيقة صدر منهما فالعذاب أيضاً لهما أمّا الشّيطان فلإضلاله و أمّا الكافر فلقبوله الإضلال مع أنّه كان قادراً على عدم قبوله و قد ثبت أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ مَنْ كٰانَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم و الهَمَزة للإنكار، أي أنت لا تقدر على إسماع الصمّ الّذي لا يسمع، و هداية العمي و هو الّذي لا يبصر، و من كان في ضلالٍ ظاهرٍ.

إعلم أنّ قيمة كلّ موجودٍ و شرفه و فضيلته بالأثار المترتّبة عليه وإلاّ فالموجود بما هو هو مع قطع النَّظر عن الأثار لا قيمة له ألا ترى أنّ الشّيطان موجودٌ كغيره من الموجودات و لا فرق في الموجودات من حيث الوجود فلا يمكن أن يقال أنّ وجود الشّيطان غير وجود الإنسان و ذلك لأنّ الوجود واحدٌ في الجميع و هذا ممّا لا خلاف فيه عقلاً و أنّما الفرق في الأثار المترتّبة على الوجود من خيرٍ و شرٍّ و حسنٍ و قبحٍ.

فإذا قلنا، العالم خير من الجاهل ليس معناه أنّ وجوده خير من وجوده بل المعنى أنّ الأثار المترتّبة على وجوده من تعليم الجاهل وإرشاد النّاس خير من الأثار المترتّبة على وجود الجاهل من الأكل و الشُّرب و غيرهما و ذلك لأنّ هذه الأثار مترتّبة على وجود الحيوان أيضاً و كذلك إذا قلنا أنّ المؤمن خير من الكافر و الأمين خير من الخائن و الصّادق من الكاذب و العادل من الظّالم فأنّ جميع هذه الأوصاف يرجع إلى أثار الوجود لا إلى نفس الوجود بما هو هو بل نقول لا فرق بين الأنبياء و غيرهم إلاّ من جهة الأثار فالأثار المتّرتبة على وجود كلّ موجودٍ هي العلّة الغائيّة للإيجاد بمعنى أنّ الموجود خلق لأجلها و قد ثبت أنّ العلّة الغائيّة مؤخّرة عن الموجود في الوجود الخارجي و لكنّها مقدّمة عليه في الوجود العلميّ الذّهني إذ لو لم يوجد الموجود في الخارج لا يوجد الأثر و أمّا في الواقع و نفس الأمر فهو أي الأثر مقدّم على إيجاده إذ لولاه لما يوجده الخالق إذا عرفت هذا فنقول:

من جملة الموجودات في نظام الخلقة، الإنسان بل هو أشرف المخلوقات لو عرف نفسه و لا شكّ أنّه مركّبٌ من الرُّوح و البدن و أيضاً لا شكّ أنّ حياة البدن

بالرُّوح و قد جعل اللّه تبارك و تعالى للبدن أعضاء و جوارح من السَّمع و البصر و اليد و الرِّجل و القلب و غيرها و جعل لكلّ واحدٍ منها أثراً و أثاراً مخصوصة به فالسَّمع للإستماع و العين للرُّؤية و الذّائقة للذّوق و الشّامة للشَّم و القلب للتفقُّه و هكذا فقالت الفلاسفة هي الأثار المطلوبة المترتّبة على الأعضاء و القوى الموجودة في البدن، و لم يعلموا أنّ هذه الأثار من الأثار التكوينيّة الموجودة في الحيوان أيضاً فلو كان أثر السّامعة الإستماع و الباصرة الرّؤية و هكذا فما الفرق بين الحيوان و الإنسان بل هي في أكثر الحيوانات أقوى و أكمل منها في الإنسان فلا فرق بين الإنسان و الحيوان بل بعض الحيوانات أكمل من الإنسان من هذه الجهة و ذلك لأنّ الإستماع بالسَّمع و الرّؤية بالعين و هكذا سائر الأعضاء و القوى من الأثار المترتّبة على الموجود المتّصف بها تكويناً حيواناً كان أو إنساناً.

فالحقّ أن يقال أنّ الأثار في الموجود الّذي لا عقل له كالحيوان و النّبات و الجماد فهي مختّصة بالتّكوينيات و أمّا الموجود العاقل فليس كذلك فأنّ الأثر المترتّب على فعله لابدّ أن يكون عقليّاً، فالإستماع بالسَّمع مثلاً كما للحيوان ليس كمالاً للإنسان بل الكمال للإنسان هو الإستماع الّذي يترتّب عليه أثر عقليّ و هو الإنتفاع بالإستماع لا مجّرد الإستماع و هكذا في الباصرة حيث أنّ الأثر العقلي المترتّب عليها هو الإنتفاع بالرّؤية لا مجّرد الرُّؤية و لذلك قال اللّه تعالى في الإنسان **أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** و لم يقل ذلك للحيوان مع أنّه ينظر أيضاً و على هذا فالإنسان الّذي يسمع ينتفع به أو يبصر و لا يعتبر فهو كمن لا يسمع و لا يبصر أصلاً و أيّ فرقٍ بين من يسمع و لا يترتّب عليه الأثر العقلي، وبين الصمّ الّذي لا يسمع أصلاً و الجامع عدم الإنتفاع.

و ملخّص الكلام هو أنّ الأثار المطلوبة من السَّمع و البصر و غيرهما هو الإنتفاع و هو الأثر العقلي المترتّب على وجود الأعضاء على ما فصّلنا البحث فيه و بذلك تثبت فضيلة الإنسان على غيره من الموجودات و إلاّ لا فرق بينه و بين

الجماد إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول:

في قوله تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ** إشارة إلى أنّ هؤلاء الكفّار لا ينتفعون بما يسمعون و يبصرون و إذا كان كذلك فسواءٌ عليهم أوعظت لهم أم لم تكن من الواعظين كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله: **قالُوا سَوٰآءٌ عَلَيْنآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ٱلْواعِظِينَ**[1] و فى الآية إشارة بل دلالة علىٰ أنّ القابليّة في المعلول شرطٌ في تأثير العلّة لانّ تاثير العلّة في المعلول يتّحقق بشرطين:

أحدهما: وجود المقتضى، و الثّانى، رفع المانع، و عدم القابليّة مانعٌ عن التأثير و التأثُّر.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ

فأمّا، أصلة، فإن ما، و إن شرطيّة و لمّا دخلت، ما، على حرف الشّرط أشبه للقسم في التّأكيد و الإيذان بطلب التّصديق فدخلت النُّون المثقلّة في الكلام لذلك لأنّ النُّون تلزم في جواب القسم و لا تلزم في الجزاء لأنّه شبه به، و الخطاب في الآية للنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد إنكار القوم بنبوّته و إيذاءهم و إستهزاءهم أيّاه فقال اللّه تعالى تسليةٌ لنبيّه فإمّا نذهبنّ بك على سنتنا فيمن قبلك من الأنبياء بالموت فإنّا منهم، أي من هؤلاء الكفّار منتقمون في القيامة أو في الدُّنيا بعد موتك.

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ

الكلام في، إمّا، مثل الآية السّابقة، و المعنى و أمّا نريَنّك في الحياة الدُّنيا، الّذي وعدناهم، أي هؤلاء الكفّار من العذاب فإنّا عليهم مقتدرون، فأنّ ربّك على كلّ شيءٍ قدير يمكن لأحدٍ من المخلوق الفرار من حكومته.

و حاصل الكلام في الأيتين هو أنّ العقاب ثابت لهم لكفرهم و ظلمهم، أمّا في الدُّنيا بإهلاكهم و إستئصالهم و أمّا في الأخرة بدخولهم النّار و خلودهم فيها، و أمّا

١- الشّعراء = ١٣٦

فيهما أي في الدُّنيا و الأخرة، و أمّا أنت يا محمّد إمّا أن تبقى في الدُّنيا فترى ما يقع بهم و إمّا أن تموت فترى عذابهم في الأخرة.

و قال المفسّرون قد أراه اللّه إهلاكهم و عقابهم في الدُّنيا يوم بدر إذ أهلك اللّه فيه صناديد المشركين المستهزئين كأبي جهل و عتبة و شيبة و حنظلة و وليد و أمثالهم و هكذا في سائر الغزوات مثل، خندق، و خيبر و حنين و غيرها فأنّ اللّه تعالى نصر نبيَّه و دينه كما وعد و أهلك أعداءه كما أوعد و قد تحقّق ما وعد اللّه به نبيّه يوم الفتح أي يوم فتح مكّة و كسره أصنام المشركين و هذا واضح لا كلام فيه على مذاق القوم.

قال صاحب الكشّاف و المعنى فأن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم و نشفي صدور المؤمنين منهم، فإنّا منتقمون أشدّ الإنتقام في الأخرة.

كما قال تعالى: **أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**[١] و إن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النّازل بهم و هو يوم بدر فهم تحت ملكتنا و قدرتنا لا يفوتوننا وصفهم بشدّة الشّكيمة فى الكفر و الضّلال ثمّ أتبعه شدّة الوعيد بعذاب الدُّنيا و الأخرة إنتهى ما ذكره في تفسير الآية و على ذلك جميع مفسّري العامّه بعده و قبله و تبعهم على ذلك أكثر أصحابنا أيضاً لولا كلّهم.

و الحاصل أنّ إجماع المفسّرين على ذلك و هو ممّا لا بأس به ظاهراً و الّذي يختلج بالبال في تفسير الآية شئ آخر على ما إستفدناه من الأخبار الواردة عن أهل البيت و هو أنّ معنى قوله: **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ** نذهبّن بك من مكّة الى المدينة، **فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ** أي إنّا من المشركين منتقمون في المدينة في غزوة بدر و غيرها بيد علّي بن أبي طالب فأنّ يده يد اللّه و اليد كناية عن القدرة.

قال اللّه تعالىٰ: **يَدُ ٱللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** أي قدرته فوق قدرتهم و حيث أنّ

١- غافر = ٧٧

أميرالمؤمنين عليه السلام كان مظهر قدرة الحقّ يقال له يد اللّه أي قدرته و الدّليل على ذلك أنّه لولا أميرالمؤمنين في غزوة بدر لم يكن للمسلمين غلبة على الكفّار قطعاً و هكذا سائر الغزوات و قد شهدت التّواريخ بذلك فالإنتقام من الكفّار كان بيد علّي عليه السلام بأمرٍ من اللّه تعالى و لذلك نسب الإنتقام الى نفسه و قال: **فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ** و لا ينكره إلاّ معاند مكابر عقله و هذا الّذي قلناه في تفسير الآية يقتضيه ظاهر الآية أيضاً و ذلك لأنّ إرادة الموت من الذّهاب بعيد جدّاً لغةً و عرفاً و عقلاً.

أمّا لغةً فواضح إذ لم يقل أحد من أهل اللُّغة أنّ ذهب بمعنى مات و لم يحكم أحد من أهل اللُّغة بصحّة قول القائل ذهب زيدٌ أي مات، فأن قال قائل أريد منه الموت مجازاً أو أنّه كناية عن الموت.

قلنا أيُّ شباهةٍ بين الموت الّذي هو إزهاق الرّوح عن الجسد و بين الذّهاب الّذي هو طى المسافة من مكانٍ الى مكانٍ آخر حتّى يحكم بصّحة الكناية و الإستعارة و أيّ وجه شبهٍ بينهما.

و أمّا عرفاً فهو أوضح إذ لم يقل أحد و لا يقول بل و لن يقول أنّ الذّهاب بمعنى الموت أو كناية عنه.

و أمّا عقلاً فأنّ الذّهاب و المجئ في المسافة و الموت يقال في قطع العلائق و أيّ عقلٍ يحكم بصحّة إرادة الموت من الذّهاب فثبت و تحقّق أنّ الذّهاب في الآية يراد به ما ذكرناه و أيّدناه بالعقل و النّقل و اللُّغة.

و من المعلوم أنّ حمل الكلام على ظاهره المتعارف منه أولى من حمله على ما ينكره العقل و النّقل و العرف هذا و من أنكر ذلك فعليه بالدّليل.

أمّا الآية الثّانية: و هى قوله: **أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ** فالّذي يقوّي في النّفس أنّها ناظرة إلى الفتن الّتي حدثت بعد مَوت النّبي كما أنّ الآية الأولى كانت ناظرة إلى المشركين الحاضرين في مكّة و توابعها،

فقوله: **نُرِيَنَّكَ** إشارة إلى قوله تعالى حيث قال:

وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنّاسِ وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلّا فِتْنَةً لِلنّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلّا طُغْياناً كَبِيراً(١).

و قد أراه اللّه هذه الرُّؤيا في المدينة بالمنام و قصّة رؤيا النّبي و صعود القردة و الخنازير و غيرهما من أنواع الحيوانات على منبره صلّى الله عليه و آله و سلّم مشهورة بين الخاصّة و العامّة و قد ذكرناها عند كلامنا حول الآية في سورة الأسرى ذكرها المفسّرون في تفاسيرهم و المحدّثون في كتبهم و قد ورد في الأخبار أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد رؤية الرُّؤيا و نزول الآية ما زال منقبضاً و لم ينبسط ضاحكاً حتّى لقى اللّه.

و أمّا قوله: **فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** فهو حقّ لا مرية فيه و ذلك لأنّه تعالىٰ أهلك بنى أمّية و بني المروان و بني العبّاس بتسليطه عليهم شرار خلقه فسلّط بني العبّاس علىٰ بني أميّة و سلّط التّتار و المغول على بني العبّاس مع أنّ أتباع السَّقيفة و علماء السُّوء رووا في كتبهم أنّ رسول اللّه قال لعمّه العبّاس خذ ياعمّ أبا الأملاك (يعني عبد اللّه بن عبّاس) إلى يوم القيامة.

و في حديثٍ أخر رووا عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: الخلافة في أولاد العبّاس إلى نزول عيسى بن مريم من السّماء، و غير ذلك من الأحاديث المجعولة لأجل الدِّرهم و الدينار، ولم يعلموا أنّ الملك يبقى مع الكفر و لا يبقى مع الظُّلم و هذا معنى قوله: **فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** هذا ما فهمناه و إستفدنا من الآية و اللّه أعلم بما قال.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ

١- الأسرىٰ = ٦٠

أمر اللّه نبيّه بالتّمسك بما أوحي إليه من قبل اللّه تعالى ثمّ أعلمه أنّه على صراطٍ مستقيم رغماً لأنوف الكفّار الّذين كذّبوه و نسبوه إلى الجنون و حملوا معجزاته على السّحر ولم يعلموا أنّ الّذي يوحى إليه لا يكون إلاّ على طريق الحقّ.

ثمّ قال تعالى (و أنّه) أي هذا القرأن، لذكرٌ لك، أي شرفٌ لك، و قيل حجّةٌ تؤدّي إلى العلم لك و لكلّ أمّتك، و سوف تسألون، أنت و أمّتك من القيام بحقّه و العمل به يوم القيامة هكذا فسّروا الآية.

و لقائلٍ أن يقول قد إتّفقوا على أنّ مرجع الضّمير لابدّ له من أن يكون مقدّماً عليه لفظاً أو معنىً أو حكماً، و ليس في المقام ذكرٌ من القرأن بالوجوه المذكورة فكيف يقال أنّه أي القرأن لذكرٌ لك، و الحقّ أنّ الضّمير راجع على، صراط مستقيمٍ، أي أنّ الصّراط المستقيم شرفٌ لك و لقومك و سوف تسألون عنه يوم القيامة.

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ

الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أي و إسأل يامحمّد من أرسلنا من قبلك من رسلنا.

قال قتادة و الضّحاك أي سل من أرسلنا يعني أهل الكتابين التّوارة و الإنجيل و هم علماء يهود و النّصارى.

و قال إبن زيد أنّما يريد الأنبياء الّذين جمعوا ليلة الإسراء.

و قد نقل القرطبي قصّة الإسراء في تفسيره عن إبن عبّاس وإبن زيد، قال: لمّا أسري رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بعث اللّه له أدم و من ولد من المرسلين و جبرئيل مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فأذّن جبرئيل ثمّ أقام الصّلاة ثمّ قال قم يامحمّد فتقّدم و صّل فلمّا فرغ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن الصّلاة قال

له جبرئيل سل يامحمّد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرّحمن ألهةٌ يعبدون فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لا أسأل قد إكتفيت.

قال إبن عبّاس و كانوا سبعين نبيّاً منهم إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام فلم يسألهم لأنّه كان أعلم باللّه منهم إنتهى ما رواه عن إبن عبّاس.

ثمّ قال و في غير رواية إبن عبّاس، فصلّوا خلف رسول اللّه سبعة صفوف المرسلون ثلاثة صفوف و النبيُّون أربعة و كان يلي ظهر رسول اللّه إبراهيم خليل اللّه و على يمينه إسماعيل و على يساره إسحاق ثمّ موسى ثمّ سائر المرسلين فأتّمهم ركعتين فلّما إنفتل قام فقال: أنّ ربّي أوحى إلّي أن أسألكم هل أرسل أحدٌ منكم يدعوا إلى عبادة غير اللّه فقالوا يا محمّد أنّا نشهد إنّا أرسلنا أجمعين بدعوةٍ واحدة أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ ما يعبدون من دونه باطل و أنّك خاتم النّبيين و سيّد المرسلين قد إستبان ذلك لنا بامامتك إيّانا و أن لا نبّي بعدك إلى يوم القيامة إلاّ عيسى بن مريم فأنّه مأمورٌ أن يتبع أثرك إنتهى ما نقله القرطبي.

أقول و قد ذكر علّي بن إبراهيم القمي في تفسيره هذه القصّة بنحوٍ أخر، قال قدس سره: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي الرّبيع قال حججت مع أبي جعفر عليه السلام في السّنة التّي حجَّ فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطّاب فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت و قد إجتمع عليه النّاس فقال لهشام يا أميرالمؤمنين من هذا الّذي تتّكافاء عليه النّاس فقال هذا نبّي أهل الكوفة هذا محمّد بن علّي بن الحسين بن علّي إبن أبي طالب فقال نافع لأتيّنه

فلأسألنّه عن مسائل لا يجيبني فيها إلاّ نبّي أو وصّي نبّي أو إبن نبّي فقال هشام فأذهب إليه فلعلّك أن تخجله فجاء نافع و إتّكأ على النّاس ثمّ أشرف على أبىجعفر فقال يا محمّد بن علّي إنّي قد قرأت التّوراة و الإنجيل و الزّبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها و قد جئتك أسألك مسائل لا يجيبني فيها إلاّ نبّي أو وصّي نبّي أو إبن وصّي نبّي فرفع إليه أبو جعفر رأسه فقال سل، فقال أخبرني كم بين عيسى و محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم من سنة فقال أبوجعفر أخبرك بقولي أو بقولك قال أخبرني بالقولين جميعاً فقال عليه السلام أمّا قولي فخمس مائة سنة و أمّا بقولك فستّ مائة سنة قال فأخبرني عن قول اللّه تعالى: وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَآ من ذا الّذي سأل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و كان بينه و بين عيسى خمس مائة سنة قال فتلى أبو جعفر هذه الآية **سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَآ** فكان من الأيات الّتي أراها اللّه محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم حين أسري إلى بيت المقدس أن حشر اللّه الأوّلين و الأخرين من النّبيين و المرسلين ثمّ أمر جبرئيل فأذّن شفعاً و أقام شفعاً ثمّ قال في إقامته حيّ على خير العمل ثمّ تقدّم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و صلّى بالقوم فأنزل اللّه عليه وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ فقال لهم رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على ما تشهدون و ما كنتم تعبدون، قالوا نشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له و أنّك رسول اللّه أخذت على ذلك مواثيقنا و عهودنا قال نافع صدقت يابن رسول اللّه يا أبا جعفر

أنتم و اللّه أوصياء رسول اللّه و خلفاؤه في التّوراة و أسماءكم في الإنجيل و في الزّبور و في القرأن و أنتم أحقّ بالأمر من غيركم إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره قدس سره في تفسير الآية كاملٌ لا نحتاج معه إلى شيءٍ أخر فأنّه في هذا الحديث قد أوضح المسئول عنه حقّ الإيضاح.

فأن قلت لا شكّ أنّ الرّسول يدعو النّاس إلى من أرسله إلى الخلق يدعو إلى غيره فما وجه السُّؤال عنه.

قلت نعم الأمر كذلك في حقّ الرّسول و النّبي، إلاّ أنّ وجه السُّؤال هو إفحام الخصوم الذّين كانوا يدّعون أنّهم من أمّة عيسى أو موسى أو غيرهما من الأنبياء و مع ذلك كانوا كافرين باللّه لقولهم بألوهيّة عيسى و عزير و القول بالأب و الإبن و روح القدس و عبادتهم الأصنام و الأوثان و أنّهم شفعاؤهم و أمثال ذلك من العقائد السَّخيفة الرّديئة و بعبارةٍ أخرى وجه السُّؤال أنّ الأنبياء و المرسلين كانوا منزّهين عن الشّرك و الدّعوة إليه و أنّما قال من إدّعى متابعتهم ما قال من عند نفسه.

و الحاصل أنّهم أي أهل الكتاب نسبوا إلى أنبيائهم ما لا يليق بشأنهم كذباً و إفتراءً عليهم، فالآية نزّلت في الرَّد عليهم.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنآ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ

قد بيّنا نسب موسى و كيفيّة ولادته و نبّوته و سائر ما يتعلّق به فيما مضى مفصّلاً فلا نحتاج إلى الإعادة، قال المفسّرون هذا قسم من اللّه تعالى.

أقول غرضهم أنّ اللاّم في لقد، لام القسم أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أرسل موسى إلى فرعون بالأيات الدالّة على أنّ اللّه تعالى هو الّذي ينبغي أن يعبد

لا غيره، و الأيات جمع، أية، و هى العلامة و قد فصَّلنا الكلام فيها في سورة بنيإسرائيل و قلنا أنّه تعالى أنزل على نبيّه موسى أيات تسع كما قال: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسٰى تِسْعَ اٰيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ**(١) و هى العَصا، واليَد البَيضاء، والطُّوفان، و الجراد، و الطّاعون، و القمّل، و الضّفادع، و الدّم، و فلق البحر و إغراق فرعون و قومه، و قوله، و ملاءه، يعني قومه و من تبعه و هم القبط، فقال موسى له و لقومه إنّي رسول ربّ العالمين، و فى هذا الكلام تكذيبٌ لما إدّعاه فرعون و قال لقومه أنا ربّكم الأعلى، و ذلك لأنّ معنى ربّ العالمين أنّه لا ربّ غيره في عالم الوجود ثمّ أخبر اللّه تعالى فقال:

فَلَمّٰا جٰاۤءَهُمْ بِاٰيٰاتِنٰاۤ إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَضْحَكُونَ

أي أنّهم لمّا رأوا الأيات إستهزؤا بها و لم يقبلوها بل كانوا يضحكون و الضِّحك في أمثال هذا المقام علامة الإستهزاء.

وَ مٰا نُرِيهِمْ مِنْ اٰيَةٍ إِلّٰا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا وَ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

ما، نافية بمعنى، ليس، و فى الآية دلالة على أنّ اللّه أراهم، أي فرعون و قومه جميع الأيات النّازلة على موسى واحدةً بعد أخرى، لعلّه يتذكر أو يخشى و أيضاً فيها إشارة إلى أنّ الأيات بعضها أكبر من بعضٍ و مع ذلك كلّه لم يرجع فرعون و قومه إلى الحقّ فأخذهم اللّه بالعذاب لعلّهم يرجعون أي أراهم الأيات التّي فيها العذاب لعلّهم يرجعون أي لكي يرجعون عمّا كانوا عليه من الكفر و الإلحاد و لعلَّ المراد بالأيات الأيات التّي أشار اللّه إليها بقوله: **لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسٰى تِسْعَ اٰيٰاتٍ**(٢).

١- بنيإسرائيل = ١٠٠
٢- بنيإسرائيل = ١٠٠

فأوّل أية أراهم اللّه هي اليد البيضاء، و الآية الثّانية العصا و هى أكبر من أختها، و الثالّثة الطُّوفان و هى أكبر من العصا، و الرّابعة الجراد، و الخامسة الطّاعون، و السادسة القمّل، و السابعة الضّفادع و الثّامنة الدَّم و التّاسعة فلق البحر و إغراق فرعون و قومه و هى أكبر و أشدَّ من الجميع إذا هلكوا و ماتوا و لم يبق منهم إلاّ اللّعنة و سوء الدّار و أنّما جعلها اللّه على سبيل التّدريج و لم تنزّل الأيات دفعةً واحدة إذ في نزول العذاب تدريجاً إمهالٌ للظّالم و اللّه تعالى رؤوفٌ بعباده لا يرضى بالعذاب بلا إمهال و لذلك قال في أخر الآية لعلَّهم يرجعون أي أنّما فعلنا ذلك ولم نهلكهم دفعةً واحدة لكي يرجعون إلى الحقّ و اللّه تعالى يقبل التّوبة من عباده قبل الموت.

وَ قالُوا يآ أَيُّها ٱلسّاحِرُ ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ

أي أنّ فرعون و قومه لم يرجعوا عمّا كانوا عليه من الكفر و الظُّلم و الإنكار و الإستهزاء بل قالوا لموسى أيّها السّاحر أدع لنا ربّك بما عهد عندك، من نزول العذاب (إنّنالمهتدون) أي إنّنا على طريق الحقّ، و قال قوم أنّهم قالوا ذلك لمّا رأوا العذاب فقولهم: **ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ** يعني بما عهد عندك من كشف العذاب، **إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ** أي إنّا مؤمنون بك مهتدون بهدايتك، و أنّما قالوا لموسى **يآ أَيُّها ٱلسّاحِرُ** لأنّهم نادوه بما كانوا ينادونه به ولم يقصدوا الذّم فأنّهم كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التَّعظيم و به قال إبن عبّاس حيث قال.

أرادوا بقولهم: **يآ أَيُّها ٱلسّاحِرُ** يا أيّها العالم و كان السّاحر فيهم عظيماً يوّقرونه و لم يكن السِّحر صفة ذمٍّ.

و قال بعضهم معنى **يآ أَيُّها ٱلسّاحِرُ** أيّها الّذي غلبنا بسحره كقول العرب خاصمته فخصمته أي غلبته بالخصومة.

و قيل يحتمل أن يكون أرادوا به السّاحر على الحقيقة على معنى الإستفهام فلم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا، و قيل قالوا ذلك لجهلهم بنبّوته و صدقه وإعتقاد أنّهم كانوا مسحورين، و غرضهم من هذا الكلام أنّه متى كشف عنهم ذلك العذاب إهتدوا و رجعوا إلى الحقّ.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ

قالوا في الكلام حذفٌ لأنّ تقديره، فدعا موسى و سأل ربّه و ضرع إليـه أن يكشف عنهم العذاب فكشف اللّه عنهم ذلك فإذا هم عند ذلك ينكثون، و النَّكث نقض العهد يقال لأصحاب الجمل ناكثون، لنكثهم عقد البيعة و نقضه هذا ما قيل في تفسير الأية.

أقول يظهر من كلام المفسّرين أنّ قوم فرعون قالوا ذلك بعد ما رأوا العذاب فإلتمسوا من موسى أن يدعو ربّه ليكشف عنهم العذاب ليؤمنوا بعد ذلك بموسى و يهتدوا بهدايته فلمّا دعا ربّه و كشف اللّه العذاب عنهم نكثوا و نقضوا ما عاهدوا الّله عليه من الإيمان باللّه و رسوله فأن كان الأمر على هذا المنوال فكيف قالوا: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ** ثمّ قالوا: **ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ** و لم يقولوا يا أيّها النّبي، أو كيف لم يقولوا، ياموسى و قالوا يا أيّها السّاحر و أمّا قولهم أن السّاحر ليس صفة ذمٍّ بل هو صفة مدح في عرف القوم فهو بعيدٌ غاية البعد، هذا أوّلاً.

ثانياً: لم قاوا أدع لنا ربّك و لم يقولوا ربّنا أليس كلامهم هذا دالاً على عدم إعتقادهم باللّه و رسوله و جعلهم موسى في زمرة السّاحرين لا في جملة الأنبياء.

و محصلّ الكلام أنّ تعبير القوم عن نبيّ اللّه موسى بالساحر أدلّ دليلٍ على أنّهم إعتقدوا أنّ موسى عليه السلام كان ساحراً بمعناه اللُّغوي المتعارف عند النّاس في جميع الأعصار.

و أمّا قوله: **بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** فمعناه بما عهد عندك من العذاب، و أمّا قول

المفسّرين في تفاسيرهم بما عهد عنك من كشف العذاب و رفعه فلا دليل عليه و من أين علموا أنّ اللّه تعالى عهد إلى موسى كشف العذاب حتّى يحمل الكلام عليه بل المظنون بالظّن القوّي أنّ اللّه عهد إلى موسى و غيره و من الأنبياء نزول العذاب على الكفّار في صورة عدم الإيمان و الدلّيل على ذلك كثير من الأيات.

و محصلّ الكلام أنّ تفسير الآية على ما ذكروه غير معقول و الّذي يختلج بالبال في تفسير الآية و اللّه أعلم.

هو أنّ اللّه تعالى أرسل إلى فرعون و قومه موسى ليرشدهم إلى طريق الحقّ و يهديهم إلى سواء السَّبيل كما هو شأن جميع الأنبياء و المرسلين ثمّ أمر موسى أن يخوَّفهم من عذاب اللّه في صورة عدم الإيمان بعد تماميّة الحجّة عليهم فوعظهم موسى أوّلاً و أظهر لهم المعجزات و الكرامات من قبيل اليد البيضاء و العصا التّي صارت حيّة عظيمة و أبطلت سحر السَّحرة و هكذا ثمّ خوَّفهم و أوعدهم عذاب اللّه في صورة إصرارهم على الكفر إلاّ أنّهم لم يؤمنوا به كما هو شأن المعاند و قالوا لموسى على صورة الإستهزاء.

يَآ أَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ من العذاب بعد عدم قبول الإيمان، و قولهم إنّنا لمهتدون، أي لمهتدون بفرعون و لا نحتاج بك، فلمّا قالوا ذلك أنزل اللّه العذاب عليهم و يدلّ على ذلك قوله تعالى حيث قال:

وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ اٰيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[١].

دلَّت الآية أنّهم حملوا معجزات موسى على السِّحر و لمّا قالوا ذلك إبتلاهم اللّه بأيةٍ ثالثة و هى الطّاعون و كان هذا المرض الخبيث مهلكاً لهم قيل أنّه أهلك منهم سبعين ألفاً لم يمت واحدٌ من بنيإسرائيل فزع فرعون و قومه إلى نبّي اللّه موسى ليرفع عنهم هذا البلاء و وعده بإطلاق بنيإسرائيل كما أخبر اللّه تعالى بذلك حيث قال:

١- الأعراف = ١٣٢

وَ لَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ اَلرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى اُدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَعِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا اَلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓإِسْرآئِيلَ،فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ اَلرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ(١).

و لمّا نكث فرعون و قومه زاد غضب اللّه عليهم فإبتلاهم بما أخبر به:

قال اللّه تعالى: **فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ اَلطُّوفانَ وَ اَلْجَرادَ وَ اَلْقُمَّلَ وَ اَلضَّفادِعَ وَ اَلدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**(٢).

فأرسل عليهم بعد الطّاعون الطُّوفان إلى أخر ما قال و قد مرَّ الكلام في تفسير الأيات في سورة الأعراف و لا نطيل الكلام بتفسيرها ثانياً و الغرض أنّ الأيات الواردة في الباب تفّسر بعضها بعضاً كما قيل أنّ القرأن يفسّر بعضه بعضاً فلمّا طلبوا من موسى ما عهد عنده ربّه من العذاب و نزّل العذاب و رأوا ما رأوا منه طلبوا منه كشف العذاب و وعدوه إطلاق بنيإسرائيل فلمّا كشف اللّه عنهم العذاب لم يفوا بعهدهم كما قال تعالى: **فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ اَلْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ** هذا ما إستفدناه من الآية بضميمة غيرها من الأيات الواردة في الباب و لا أقول أنّي أصبت الحقّ و أنّما أقول هذا ما فهمته و اللّه أعلم بما قال:

وَ نادىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ اَلْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَ أَفَلا تُبْصِرُونَ

الهمزة في قوله: **أَلَيْسَ** للإنكار من قبيل قوله تعالىٰ: **أَلَيْسَ اَللّٰهُ بِكافٍ عَبْدَهُ** أي كافٍ، حكى اللّه تعالى عنه أنّه قال لقومه أنّ ملك مصر و الأنهار التّي تجري من تحتي كلّها مملوك لي و أنا مالكه أفلا تبصرون، أنّ الأمر كذلك أي ليس في مصر حاكمٌ غيري و النّاس كلّهم مطيعون لي و إذا كان كذلك فما يقول موسى، و أنّما قال فرعون ما قال، لأنّ موسى وعده البقاء على الحكومة في صورة الإيمان، و

١- الأعراف = ١٣٥ / ١٣٤ ٢- الأعراف = ١٣٣

لذلك قال فرعون ما قال أي ليس لربّ موسى قدرة على مصر فكيف وعدني موسى بما وعد، ولم يعلم فرعون أو تجاهل بما قال عند العوام كالأنعام أنّ قوله هذا كذبٌ محض، و اللّه تعالى هو الّذي خلقه و خلق غيره فهو نفسه مملوكٌ للّه تعالى و الدّليل على ذلك أنّ اللّه أهلكه كما أهلك من قبله و لو كانت الفراعنة قبله أحياء لم يكن له ملك مصر و حكم الأمثال واحد ثمّ قال فرعون.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ

قال بعض المفسّرين، معنى، أم، بل فكأنّه قال بل أنا خيرٌ من هذا الّذي هو مهين، يعني موسى وصفه بالمهانة إستخفافاً له أي لا عزّ له عند الخلق فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحِقارته و ضعفه.

و وصفه ثانياً، بأنّه لا يكاد أن يفصح في كلامه لأنّ في لسانه عقدة، فوصفه أوّلاً بالذّلة و الحقارة و ثانياً بعدم الفصاحة في الكلام، و أمّا أنا فعزيزٌ في قومي و فصيحٌ في كلامي فأنا خيرٌ منه.

قال الفرّاء في، أم، وجهان، إن شئت جعلتها من الإستفهام الّذي جعل، بأم، لإتّصاله بكلام قبله، أي أنا خير أم هو، و إن شئت جعلتها نسقاً على قوله: **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ** و قيل هي زائدة.

و قال الأخفش، في الكلام حذف و المعنى **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** أم تبصرون، الخليل المعنى **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** أم أنتم بصراء و على هذا ففيها معنى المعادلة لأنّهم لو قالوا، نعم لكان بمنزّلة قولهم أنت خير و كيف كان فغرضه من هذا الكلام الإهانة و الإستخفاف بموسى لأنّ المهانة الضّعف و الذّل و قيل الفقر و من كان ضعيفاً حقيراً لا يقدر على التكلّم على وجه الفصاحة فلا قدرة له بزعم فرعون و من تبعه إلى يوم القيامة، و حقٌّ لهم أن يقولوا ذلك لأنّهم لم يعرفوا الإنسان و زعموا أنّ العزّة و الشّرف في المال و الجاه و الأولاد و الشُّهرة و الأتباع و أمثال ذلك من العناوين العرّفية التّي لا بقاء لها و لا إعتبار.

قال أميرالمؤمنين في نهج البلاغة:

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ ابْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ اَخُوهُ هٰارُونُ عليه السلام عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ اِنْ اَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ فَقَالَ اَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِى دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُلِّ فَهَلاَّ اُلْقِىَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ اِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ وَاِحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ.

قوله عليه السلام: وَلَوْاَرَادَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ لِاَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ اَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذُّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ وَاَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ وَلاَ لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا وَلٰكِنَّ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِى قُوَّةٍ فِى غَزَائِمِهِمْ وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَىٰ الْأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً وَخَصَاصَةٍ تَمْلأُ الْأَبْصَارَ الْأَسْمَاعَ اَذىً.

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

أسورة جمع سوار، و قرأ بعضهم (أساورة) بألف، و هى جمع، أسورة، و أسورة جمع سوار، و هو الّذي يلبس في اليد **أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** يعني متتابعين على قول قتادة.

و قال مجاهد، أي يمشون معه، و قال إبن عبّاس أي يعاونونه على من خالفه و المعنى هلاّ ضمّ إليه الملائكة التّي يزعم أنّها عند ربّه حتّى يتكثّر بهم و يصرفهم على أمره و نهيه فيكون ذلك أهيب في القلوب قيل أنّ فرعون أوهم قومه أنّ رسل اللّه ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشّاهد ولم يعلم أنّ رسل اللّه أنّما أيدّوا

بالجنود السّماوية و كلّ عاقلٍ يعلم أنّ حفظ اللّه موسى مع تفّرده و وحدّته من فرعون مع كثرة أتباعه و إمداد موسى بالعصى و اليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً في قول مقاتل أو دليلاً على صدقه في قول الكلبي و ليس يلزم هذا لأنّ الإعجاز كاف و قد كان في الجائز أن يكّذب مع مجئ الملائكة كما كذَّب مع ظهور الآيات و ذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى لأنّه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم إنتهى ما ذكره.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطٰاعُوهُ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمًا فٰاسِقِينَ

يقال و أستّخفه أي حمله على الجهل، و قيل أستَّخف قومه أي وجدهم خفاف العقول و تقدير الكلام أنّه وجد قومه خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه.

و قيل أستخفّ قومه و قهرهم حتّى أتَّبعوه، و قيل أستخفّ به إذا أهانه، و حاصل معنى الآية أنّ فرعون وجد قومه خفاف العقول فأدّعى الربُّوبية فأطاعوه على ما دعاهم إليه و قالوا بربَّوبيته **إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمًا فٰاسِقِينَ** أي خارجين عن طاعة اللّه أو خارجين عن طاعة العقل، و فى الآية إشارةٌ إلى أنّ الإعراض عن الحَّق و الإقبال إلى الباطل و قبول دعوة شياطين الجِّن و الإنس مشروطاً بالحماقة و الجهل، و هذا لا يخَّتص بقوم فرعون و مصر، بل هو سيرة مستَّمرةً من صدر الخلقة إلى زماننا هذا فأنّ الفراعنة كثيرة و الجُّهال و الحمقاء أيضاً كذلك إلاّ أنّ الدُّعاة إلى الباطل مختلفة الأسامي فمنهم من سمَّي بفرعون و نمرود و منهم من سمَّي بمعاوية و يزيد و عبد الملك والسَّفاح و المنصور و أمثالهم:

عباراتنا شتّى و حسنك واحدُ   وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير

و ملخصّ الكلام هو أنّ خفَّة العقول و الجهل في العوام بمنزلة القابليّة للمعلول

في تأثُّره من العلَّة و هذا هو الأصل في تسلُّط الأشرار على الأخيار و الصّلحاء و إشاعة الفساد و الفحشاء و امامة المعروف و رواج المنكرات كما نشاهده في زماننا هذا أعاذنا اللّه من شرورهم.

فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

أي فلّما غاضونا و أغضبونا، و قيل أي أسخطونا، و المقصود لمّا أتممنا عليهم الحجَّة بإرسال النَّبي و أقمنا الدّلائل و البراهين الدالّة على التّوحيد بواسطة نبِّينا موسى، من اليد البيضاء، و العصى، و غيرهما من الآيات على ما مرَّ بيانه، ولم يقبلوا قول النَّبي ولم يؤمنوا باللّه و نكثوا عهدهم، فلا جرم أهلكناهم و أغرقناهم في البحر و جعلناهم عبرة لمن إعتبر بهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يسمّى بمكّة سامرُ

و ليس جزاء الظّالم المعاند المعرض عن الحّق، إلاّ الموت بأقبح الوجوه في الدّنيا و العذاب الأليم في الآخرة و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد:

قال اللّه تعالى: **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**[١].

إلاّ أنّ جبرئيل أخذ كفّاً من حمأة البحر و ضرب به على فمه:

قال اللّه تعالى: **ءَآلْـَٰٔنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ**[٢].

و قد مرَّ تفسير الأيات في سورة يونس و ينبغي أن يعتبر المعتبر بها و يعلم أنّ اللّه شديد العقاب مع أنّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ، إلاّ أنّه المعتبر قليل، و قليلٌ من عبادي الشكور، اللّهم إجعلنا من الشّاكرين المعتبرين بحقّ محمّدٍ و أله الطّاهرين.

١- يونس = ٩٠

٢- يُونُس = ٩٠ إلىٰ ٩٢

و لذلك قال تعالىٰ: **فَجَعَلْنٰاهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْاٰخِرِينَ**.

■

وَ لَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَ قالُوا ءَأٰلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِيٓ إِسْرٰآئيلَ ﴿٥٩﴾ وَ لَوْ نَشآءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلآئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ ٱتَّبِعُونِ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَ لَمّا جاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذى تَخْتَلِفُونَ فيهِ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ رَبّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَليمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴿٦٧﴾ يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَ لآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمينَ ﴿٦٩﴾ اُدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فيها ما

تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لٰا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا أَمْرًا فَإِنّٰا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّٰا لٰا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰيهُمْ بَلٰى وَ رُسُلُنٰا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعٰابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحٰانَ رَبِّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمّٰا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلٰاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمٰآءِ إِلٰهٌ وَ فِي ٱلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَ تَبٰارَكَ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَ لٰا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلشَّفٰاعَةَ إِلّٰا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَ قِيلِهِۦ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

◀ اللّغة

يَصِدُّونَ: الصَّد المنع.

تَمْتَرُنَّ: أي لا تشكّون، و المرية الشكّ.

ٱلْأَخِلَّآءُ: هو جمع خليل مثل أطباء جمع طبيب.

بَغْتَةً: البغتة الفجأة.

بِصِحَافٍ: هي جمع صحفة و هى الجامات التّي يؤكل فيها ألوان الأطعمة.

أَكْوَابٍ: بفتح الألف جمع كوب، قيل هو إناء على صورة الإبريق لا أذن له و لا خرطوم.

مُبْلِسُونَ: أي يائسون من رحمة اللّه و لذلك يقال للشّيطان إبليس.

مُبْرِمُونَ: الإبرام، الإحكام، يقال أبرموا، أي أحكموا.

يُؤْفَكُونَ: الإفك الإنصراف و الإنقلاب يقال، أفكه، إذا صرفه.

فَاصْفَحْ: الصَّفح العفو.

◀ الإعراب

مَثَلًا هو مفعول ثان (جعل مثلاً) و قيل هو حال أي ذكر ممّثلاً به أَنْ تَأْتِيَهُمْ هو بدل من السّاعة بدل الإشتمال لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ هي حال أو خبر ثان إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ إن بمعنى، ما، و قيل هي شرطيّة أي إن قلتم ذلك وَ هُوَ ٱلَّذِي فِي

ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ صلة، الّذي لا تكون إلاّ جملةٍ و التّقدير هنا، و هو الّذي هو إله في السّماء، و في، متّعلقة بإله، أي معبودٌ في السّماء و معبودٌ في الأرض وَ قِيلِهِۦ بالنَّصب و فيه أوجه:

أحدها: أن يكون معطوفاً على سرّهم أي يعلم سرّهم و قيله.

الثّاني: أن يكون معطوفاً على موضع السّاعة أي و عنده أن يعلم الساعة و قيله.

الثّالث: أن يكون منصوباً على المصدر أي و قال قيله، و يقرأ بالرّفع على الإبتداء يٰا رَبِّ خبره و قيل الخبر محذوف أي قيله ياربّ مسموعٍ أو مجاب و قرئ بالجرّ عطفاً على لفظ السّاعة.

◀ التّفسير

وَ لَمّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذاٰ قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

إختلفوا في سبب نزول الآية على قولين:

أحدهما: ما إختاره قتادة و مجاهد و هو أنّه لمّا قال اللّه تعالى: **وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنآ أَجَعَلْنٰا مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ اٰلِهَةً يُعْبَدُونَ**[١] مضىٰ تفسيرها تعلّق المشركون بأمر عيسى و قالوا ما يريد محمّد إلاّ أن نعبده (نتّخذه إلهاً) كما إتّخذت النّصارى عيسى بن مريم إلهاً و ذلك أنّ قريشاً قالت إنّ محمّداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى فأنزل اللّه هذه الآية.

الثّاني: ما إختاره إبن عبّاس و هو أنّه أراد بالآية مناظرة عبد اللّه بن الزُّبعرىٰ مع النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم في شأن عيسى عليه السّلام و أنّ الضّارب لهذا المثل هو عبد اللّه بن الزُّبعرى السّهمى حالة كفره لمّا قالت له قريش أنّ محمّداً صلّى الله عليه و آله و سلّم يتلو **إِنَّكُمْ وَ ما**

١- الزّخرف = ١٥

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ[١] فقال لو حضرته لرددت عليه قالوا و ما كنت تقول له، قال كنت أقول له هذا المسيح تعبده النّصارى و اليهود تعبد عزير، أفهما من حصب جهنّم فعجبت قريش من مقالته و رأوه أنّه قد خصم، و ذلك معنى قوله: **يَصِدُّونَ** فأنزل اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**[٢].

أقول يظهر من هذه القصّة على فرض صحّتها أنّ إبن الزِّبعرى كان جاهلاً بالعربيّة و نقاطها و دقائقها و ذلك لإتّفاق علماء الأداب على أنّ كلمة، ما، حيث تستعمل يراد بها غير ذوي العقول كما أنّ كلمة، من، لذوي العقول و الآية التّي إستدلّ بها على مدّعاه فيها كلمة، ما، دون، من، و على هذا فالمراد بقوله تعالى: **وَ مَا تَعْبُدُونَ** ما تعبدون من غير ذوي العقول و هو الأصنام و الأوثان فلا تشمل عيسى و لا عزيراً، و من كان جهله بهذه المثابة كيف يناظر النّبي فضلاً عن كلام اللّه.

و أيضاً روي عن إبن عبّاس أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال لقريش **لا خير في أحدٍ يعبد من دون اللّه، قالوا أليس تزْعم أنّ عيسى** عليه السّلام **كان عبداً نبيّاً و عبداً صالحاً فأن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون اللّه** فأنزل اللّه تعالى: **وَ لَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** أي يضجُّون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال.

و قرأ نافع و إبن عمر و الكسائي و يصدُّون، بضّم الصّاد، و معناه يعرضون و كسر الباقون الصّاد و هى المشهور و عليها المصاحف.

و قال الكسائي هما لغتان مثل، يعرشون، و يعرشون، و معناه يضّجون و به قال صاحب الكشّاف أيضاً و قال مثل يعكف و يعكف.

١- الأنبياء = ٩٨ ٢- الأنبياء = ١٠١

و قال بعض المفسّرين في تفسير الآية المراد بذلك لمّا ضرب اللّه المسيح مثلاً بأدم في قوله: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ**(١).

اعترض على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قوم من كفّار قريش فأنزل اللّه تعالى هذه الآية و وجه الإحتجاج في شبه المسيح بأدم، أنّ الّذي قدر أن ينشئ أدم من غير ذكرٍ قادرٌ على إنشاء المسيح من غير ذكرٍ فلا وجه لإستنكاره من هذا الوجه لمّا ذكر المسيح بالبراءة من الفحشاء و أنّه كأدم في الخلقة فقالوا هذا يقتضي أن نعبده كما عبده النّصارى هذا ما ذكروه في شأن نزول الآية و تفسيرها و لكلٍّ من الوجوه وجهٌ وجيه.

تنبيهٌ

روى العامّة و الخاصّة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعلّي: لولا أنّي أخاف أن يقال فيك ما قالت النّصارى في عيسى عليه السلام لقلت فيك قولاً لا تمُّر إلاّ أخذوا التّراب من تحت قدميك.

أنكر ذلك جملة من المنافقين و قالوا لم يرض أن يضرب له مثلاً إلاّ بالمسيح فأنزل اللّه الآية.

أقول هذا من أحسن الأقوال في وجه نزول الآية إلاّ أنّ المعاندين لا يقبلونه و أن كان حقّاً و الدّليل على أنه حقٌّ أنّه تعالى قال في أخر الآية **إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** أي يضجُّون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال.

و من المعلوم أنّ الضجّة من قريش في إثبات فضيلةٍ للمسيح و غيره من الأنبياء لا معنى له و أمّا بالنسبة إلى أهل البيت و لا سيّما أميرالمؤمنين فهو أثقل عليهم من حمل الأثقال و الجبال و لذلك إجتمعوا على غصب ماله و حقّه بعد موت الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم مع أنّ الخلافة كانت حقّه عقلاً و نقلاً و اللّه أعلم.

١- أل عمران = ٥٩

وَ قَالُوٓا ءَأٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ

أي قال الكفّار لرسول اللّه صلّی‌اللّه‌علیه‌وآله‌وسلّم **ءَأٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ** أي أم عيسى عندك يامحمّد و بعبارةٍ أخرى أنّ ألهتنا عندك ليس بخيرٍ من عيسى عليه‌السلام و إذا كان عيسى حصب جهنّم، كان أمر ألهتنا هيّناً، فقال تعالى لنبيّه: **مَا ضَرَبُوهُ**، أي ما ضربوا هذا المثل إلاّ لأجل الجدل و الغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحقّ و الباطل.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أي شديد الخصومة دأبهم اللّجاج و ذلك لأنّ اللّه تعالى أراد (بما) في ما تعبدون، غير ذوي العقول من الأصنام و الأوثان، و قد مرَّ الكلام فيه.

و الحاصل أنّهم يقولون و لا يعلمون ما يقولون و أنّما غرضهم الجدال و العناد و من كان كذلك لا يليق أن يجاب ثمّ أشار اللّه تعالى إلى مقام عيسى و منزلته عند اللّه فقال:

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ

إن، نافية بمعنى، ليس، و هو، راجع على عيسى وإن شئت قلت راجع على إبن مريم أي ليس إبن مريم إلاّ عبدٌ من عبادنا الصّالحين و قد أنعمنا عليه بنعمة الرّسالة و جعلناه مثلاً، أي موعظةً و عبرةً لهم يعتبرون به و يتّعظون به، وصف اللّه تعالى رسوله بأوصاف ثلاثة:

أحَدها: العبوديّة.

ثانيها: أنعم اللّه عليه.

ثالثها: أنّه تعالى جعله مثلاً لبنيإسرائيل، ولعمري أنّ هذه الأوصاف من أحسن الأوصاف بحيث لا يوجد وصفٌ فوقها.

أوّلها: العبوديّة و إليها الإشارة بقوله عبدٌ من عبادنا الصّالحين و أنّما قيّد

عبوديّته بالصّلاح لأنّ العبد في اللُّغة يطلق على كلّ بشرٍ خلقه اللّه فكلّ النّاس عبدٌ له من هذه الجهة و أمّا العبد المتّصف بالصّلاح فهو لا يطلق إلاّ على من كان كذلك و لذلك نقول أنّه لا مقام فوق مقام العبوديّة بهذا المعنى و قد إتّفقوا على أنّها فوق مقام النّبوة و الرّسالة فضلاً عن غيرهما من المقامات وصف اللّه نبيّه الخاتم به و قال: **سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** ولَم يقل بنبيّه أو رسوله و هذا ممّا لا كلام فيه.

ثانيها: وصفه بأنّ اللّه أنعم عليه بالرّسالة و النّبوة و أيّة نعمةٍ فوق الرّسالة و هذا يدلّ على قابليّته لتلك النّعمة الجليلة العظيمة.

ثالثها: وصفه بأنّه مثلٌ لبنيإسرائيل أي موعظة و عبرة ليعتبروا بها على قول المفسّرين لأنّ اللّه تعالى خلقه من غير أبٍ من جنس البشر و أنّه تكلّم في المهد و أقرَّ بجميع الأوصاف المذكورة فيه كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله: **قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**[1].

ففي قوله: **إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ** إقرار بالعبوديّة و فى قوله أتاني الكتاب و جعلني نبيّاً، إقرار بالنّعمة، و فى تكلّمه في المهد و هو صبيّ إشارة بكونه مثلاً لبنيإسرائيل أي أنّه مثلٌ للحقّ أي مظهرٌ كامل لقدرته تعالى و عظمته و إذا كان المسيح لا يستنكف أن يكون عبداً للّه تعالى فما يقولون هؤلاء الجهّال الّذين يعبدونه.

وَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَآئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ

أي لو نشاء لجعلنا منكم، أي بدلاً منكم معاشر بنيأدم، ملائكة فـي الأرض يكونون خلفاً عنكم غير أنّه تعالى أنشأ بنيأدم لإسباق النّعمة عليهم.

قيل المقصود من هذا الكلام أنّه ليس في إسكاننا الملائكة في السّماء شرفٌ

١- مَريم = ٣٠

حتّى يعبدوا أو يقال لهم بنات اللّه.

وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ ٱتَّبِعُونِ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

إختلف المفسّرون في مرجع الضّمير في (أنّه) فقال قوم أنّه راجع الى عيسى عليه‌السلام ظهوره يعلم به مجئ السّاعة لأنّه من أشراطها و هو قول إبن عبّاس و مجاهد و قتادة و غيرهم.

و قال قوم أنّ الضّمير يعود الى القرآن يعلمكم بقيامها و يخبركم عنها و عن أحوالها، و إختار في الكشّاف أوّلهما و قال: **لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَةِ** أي شرطٌ من أشراطها تعلم به فسّمى الشّرط علماً لحصول العلم به وقرأ إبن عبّاس (لعلمٌ للسّاعة) و هو العلامة، و قرئ، للعلم، وقرأ أبّي (لذكرٌ) على تسميته ما يذكر به ذكراً كما يسمّى ما يعلم به علماً و نقل في آخر كلامه قول الثّاني و هو أنّه القرآن إنتهى كلامه.

أقول الظّاهر أنّ الضّمير راجع على عيسى لتقدُّم ذكره في الآية السّابقة و أنّه لا شكّ في أنّ نزول عيسى من أشراط السّاعة و هذا بإجماع المفسّرين.

فقد روى الزّمخشري من طريق العامّة في ذلك حديثاً في تفسيره قال الحديث أنّ عيسى عليه‌السلام ينزل على تثنيةٍ بالأرض المقدّسة يقال لها، أفيقٍ، و عليه مصرتان و شعر رأسه دهين و بيده حربة و بها يقتل الدّجال فيأتي بيت المقدّس و النّاس في صلاة الصبّح و الإمام يؤّم بهم فيتأّخر الإمام فيتقدّمه عيسى و يصلّي خلفه على شريعة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ثمّ يقتل الخنازير و يكسر الصّليب و يخرّب البيع و الكنائس و يقتل النّصارى إلاّ من آمن به إنتهى حديثه و كلامه.

أقول نزول عيسى عليه‌السلام في آخر الزّمان ممّا لا خلاف فيه عند المسلمين و أمّا الحديث الّذي رواه الزّمخشري في المقام فألفاظه و ما ذكر فيه من المطالب تنادي بأعلى صوتها أنّه من الموضوعات الّتي وضعها أبو هريرة و أنس و أمثالهما من

الكذّابين الوّضاعين من عند أنفسهم و الزّمخشري نقله و لم يقل من أين نقله و ممِّن نقله، بل قال و فى الحديث، نعم ذكره القرطبي في تفسيره و نسبه الى أبي هريرة عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و لم يعلم أنّ النّبي مع علمه و فصاحته في الكلام أجلَّ شأناً من هذا الكلمات و للبحث فيه مقام آخر.

و الّذي نقول به في المقام أنّ نزول عيسى من أشراط السّاعة و هذا القدر ممّا لا خلاف فيه و أمّا كيفيّة النُّزول و ما يتعلّق به فهو خارج عن موضع الكتاب و له مقام آخر.

و أمّا قوله: **فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا** فالمرية الشكّ أي لا تشكّون فيها **وَ اتَّبِعُونِ** أي و أتَّبعوا هداي و شرعي أو رسولي، و قيل هذا أمرٌ لرسول اللّهِ صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يقول للأمّة لا تشكّون في السّاعة و أتّبعوني هذا صراطٌ مستقيمٌ.

وَ لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

الصَّد المنع أي لا يمنعكم الشّيطان عن طريق الحقّ أنّه لكم عدّوٌ ظاهر، لا خفاء فيه.

وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

نبّي اللّه عيسى عليه السّلام هو من أولى العزم الخمسة، أوّلهم نوح و ثانيهم إبراهيم و ثالثهم موسى و رابعهم عيسى و خامسهم محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو أفضلهم و أشرفهم و أكملهم صلوات اللّه عليهم أجمعين، و أمّه مريم إبنة عمران من نسل النبّي سليمان إبن داود ثمّ أنّه لمّا بعث أتاه اللّه من المعجزات و الكرامات و خوارق العادات و الحكم و المواعظ و غيرها، من احياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص و الأسقام كلّها ما لم يجعل لغيره في زمانه و هذا هو المراد بالبيّنات في الأية: **قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ** أي قال عيسى لبني إسرائيل قد جئتكم بالحكمة و

المواعظ الحسنة وَ **لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ** قيل المراد بالبعض ها هنا الكلّ كأنّه قال و لأبيّن لكم جميع ما تختلفون فيه.

و قيل المراد بالبعض، يعني أمر دينكم دون أمر دنياكم، و قيل معناه لأبيّن لكم في الإنجيل بعض الّذي تختلفون فيه من تبديل التّوراة و قيل غير ذلك.

أقول الآية لا تحتاج الى هذه التكلّفات و ذلك لأنّ الإختلاف في الأحكام بعد موت موسى في بنيإسرائيل كان في بعضها لا في جميعها و عليه فمعنى الكلام لأبَيِّن لكم بعض الأحكام المختلف فيه و أمّا الأحكام الّتي لا إختلاف فيها فلا نحتاج الى البيان لأنّه من تحصيل الحاصل و أمّا قوله: **فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ** يعني فأجتنبوا المعاصي و أفعلوا الطّاعات و أطيعوني فيما آمركم به و أنهيكم عنه فأنّ إطاعتي إطاعة اللّه و عصياني عصيانه فما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فأنتهوا.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

ثمّ أمر عيسى عليه السلام أتباعه و قال لهم أنّ اللّه هو ربّي و ربّ العالمين فأعبدوه أداءً لحقّ شكر المنعم الّذي يحكم العقل بوجوبه و هذا أي عبادة اللّه هي الصّراط المستقيم الذّي لا عوج فيه يقضي بكم الى الجنّة و ثواب اللّه.

فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ

الأحزاب جمع حزب قيل المراد بالأحزاب اليهود و النّصارى.

و قال قتادة يعني الفرق الّذين تحزّبوا في أمر عيسى فقال بعضهم هو إبن اللّه و قال بعضهم هو اللّه و غير ذلك من العقائد الباطلة و لذلك هدّهم اللّه و خوّفهم من العذاب الشّديد المؤلم يوم القيامة لأنّهم ظلموا أنفسهم لمّا أشركوا باللّه و جعلوا عيسى عليه السلام إبنه.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

النَّظر هنا الإنتظار أي هل ينتظرون إلاّ السّاعة و الأستفهام للإنكار و التَّوبيخ أي لا ينتظرون هؤلاء الأحزاب الّذين إختلفوا في عيسى إلاّ السّاعة و هـى القيامة، سميّت القيامة السّاعة لقرب أمرها لانَّها تكون في ساعة و فى قوله: **تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ** إشارة الى أنّ المكلّف ينبغي له أن لا يغفل عن الموت و الحساب بعده فأنّ الموت يأتي بغتةً أي في حال الغفلة و عدم التَّوجه اليه.

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ

الأخلاّء جمع خليل، حكم اللّه تعالى في الآية أنّ الأخلاّء و الأصدقاء فـي الدُّنيا، بعضهم لبعضهم عدَّوٌ يوم القيامة و إستثنى منهم المتّقين فأنّهم ليسوا كذلك و توضيح الكلام أنّ الخلّة تارةً تكون في الدُّنيا للدُّنيا في غير طاعة اللّه، و أخرى تكون في الدُّنيا لأجل الأخرة فهي في طاعة اللّه، فالخلّة بالمعنى الأوّل تنقلب يوم القيامة بالعداوة و البغضاء لأنّ كلّ واحدٍ منهما يرى الذَّنب لصاحبه و يقول له أنت الّذي أوقعتني في العذاب.

و أمّا الخلّة بالمعنى الثّاني و هو أن تكون في طاعة اللّه فليست كذلك لأنّ الخليلين بعد الموت في الجنّة.

يٰا عِبٰادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَ لآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

يا **عبادِ** بكسر الدّال والأصل فيه يا **عبادي** حذفت الياء بحرف النداء و بقيت الكسرة للدلالة عليه (ولا)، في لا خوف، لنفي الجنس، و اليوم يـوم القـيامة، و المعنى أنّ اللّه تعالى يقول لهم أي للمتّقين، يا عبادي لا خوف عليكم، نفى اللّه عنهم جنس الخوف أيُّ نوعٍ كان في يوم القيامة ثمّ نفى عنهم الحزن و الغمّ في الجنّة **وَ لآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** و قد روي أنّ المنادي ينادي يوم القيامة **يٰا عِبٰادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ** فيرفع الخلائق رؤسهم و يقولون نحن عباد اللّه و ذلك لأنّ **العباد**

بكسر العين جمع عبد و العبد في اللُّغة يطلق على كلّ فردٍ من أفراد البشر ولذلك يرفعون رؤسهم و يقولون نحن عباد اللّه ولم يعلموا أنّ المراد بالعبد المأمون عن الخوف و الحزن هو عبدٌ عمل في الدُّنيا بوظائف عبوديّته من الطاعة و ترك المعصية و لذلك ينادي المنادي ثانياً و يقول:

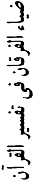
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ

أي مطيعين منقادين لأوامر اللّه و نواهيه فهذه الآية ترفع الإبهام عن لفظ العبد و تخصّه بالمؤمن المطيع و فى الآية إشارة الى أنّ الإيمان مشروط بالعمل فأنّ الإطاعة و الإنقياد لا يتحققان إلاّ بالعمل و قد مرّ الكلام في معنى الإيمان و الإسلام و الفرق بينهما غير مرّةٍ فيما مضى و أنّ الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالعمل الصّالح.

ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ

أي للّذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين، أدخلوا الجنّة أنتم و أزواجكم اللاّئي كنّ مؤمنات، و قيل المراد بالأزواج قرناءهم من المؤمنين، و قيل زوجاتكم من الحور العين تحبرون، أي تسُرون، فيها و الحبور السُّرور الّذي يظهر في بشرة الوجه أثره.

و قال قتادة و إبن زيد، معناه، تنعمون، و قال السّدي، تكرمون.



يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

بعد ما أمرهم اللّه بدخول الجنّة أشار في هذه الآية و ما بعدها بما أنعم عيلهم فيها فقال: **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ** قيل الصحاف الجامات الّتي يؤكل فيها ألوان الأطعمة واحدها صحفة، و الأكواب، إناء، على صورة الأبريق لا أذن له خرطومكالكأس للشّراب.

و قال السّدي الصحاف القصاع و أمّا الذّين يطوف بذلك الوصف الحور العين الّذين يخلفهم اللّه في الجنّة و قيل هم الغلمان و هذا بعض ما أنعم اللّه عليهم و لذلك قال: **وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ** أي و في الجنّة تُوجد جميع النِّعم ممّا تشتهيه الأنفس من المأكولات والمشروبات و تلّذ الأعين من رؤيته من القصور و الأشجار و الحور العين و غير ذلك و بالجملة التَّعيش فيها تامّ من جميع الجهات و لا نقص فيه.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ وَ مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ لايَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَ لايَظْعَنَ مُقِيمُهَا وَ لايَهْرَمُ خَالِدُهَا وَ لايَبْأَسُ سَاكِنُهَا[1] الىٰ اخر ما قال عليه السلام.

و سيأتي الكلام منا في هذا الباب بوجهٍ أبسط في المستقبل إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: **وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** أي لا تخرجون منها أبداً.

وَ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

في هذه الآية إشارة بل دلالة على أنّ الأعمال الصالحة في الدُّنيا تكون سبباً أو علّة للدّخول فيها و التّنعم بنعمها كذلك.

روي المجلسي قدس سره في البحار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا أسرى بي الى السّماء دخلت الجنّة فرأيت فيها ملائكة يبنون لبنةً من ذهبٍ و لبنة من فضة و ربمّا أمسكوا فقلت لهم ما بالكم ربما بنيتم و ربما أمسكتم فقالوا حتّى تجيئنا النَّفقة فقلت لهم و ما نفقتكم فقالوا قول المؤمن سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر، إذا قال بنينا وإذا أمسك أمكسنا

١- الخطبة ٨٤

إنتهى[۱].

و في قوله: **أُورِثْتُمُوهٰا** إشارة الى أنّ الجنّة و مقاماتها يرثها المتّقي فلقائلٍ أن يقول ممّن يرثها، و الإرث عبارة عن إنتقال المال الى شخصٍ آخر بسبب الموت حتّى أنّ الإنتقال في الحياة لا يطلق عليه الإرث بل لا بدّ في إطلاق الإرث من الموت و إذا كان كذلك فكيف أطلق في الآية على الجنّة الّتي أعطاها اللّه المؤمن بسبب أعماله الإرث و بعبارةٍ أخرى الآية تدلّ على أنّ الجنّة و نعيمها مسببة عن العمل الصّالح لقوله: **بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** فأنّ الباء للسّبب، و هذا ينافي الإرث الّذي يحصل للإنسان بعد موت المورث و لا دخل للعمل فيه و ليس التّعبير بالوراثة بهذه الأية.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ اَلْجَنَّةُ اَلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ كٰانَ تَقِيًّا**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُودُوٓا أَنْ تِلْكُمُ اَلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ اَلنَّعِيمِ**[۵].

و حاصل الكلام في هذه الأيات أنّه ما الوجه في التّعبير بالميراث عن الجنّة و نعيمها.

و الجواب يظهر من حديثٍ رواه في البحار بأسناده عن أبي عبداللّه عليه‌السلام قال عليه‌السلام: ما خلق اللّه خلقاً إلاّ جعل له في الجنّة منزلاً و في النّار منزلاً فإذا سكن أهل الجنّة و أهل النّار النّار، نادى منادٍ يا أهل الجنّة أشرفوا فيشرفون على أهل النّار و ترفع لهم منازلهم في النّار ثمّ يقال لهم هذه منازلكم الّتي لو عصيتم ربّكم دخلتموها

۱- ج ۳ ط كمباني ص ۳۲۶
۲- المؤمنون = ۱۱
۳- مَريم = ۶۳
۴- الأعراف = ۴۳
۵- الشّعراء = ۸۵

قال عليه السلام: فلو أنّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنّة في ذلك اليوم فرحاً لما صرف عنهم العذاب، ثمّ ينادون يا معشر أهل النّار ارفعوا رؤسكم فأنظروا الى منازلكم في الجنّة وما فيها من النَّعيم يقال لهم هذه منازلكم الّتي لو أطعتم ربّكم دخلتموها قال عليه السلام: فلو أنّ أحداً مات حزناً لمات أهل النّار ذلك اليوم حزناً فيورث هؤلاء منازل هؤلاء و هؤلاء منازل هؤلاء و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ، ٱلَّذينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ إنتهىٰ[1].

و أنا أقول لم يتّنبه المفسّرون من العامّة و الخاصّة إلى هذا الإشكال الذّي أشرنا إليه و الجواب عنه و الإنصاف عن الجواب عنه صعبٌ مستصعب و لولا الحديث الّذي ذكرناه لا نقدر على الجواب و لا يبعد أن يكون سكوت المفسرين عن الإشكال هو عجزهم عن الجواب و لذلك سكتوا عنه ثمّ أنظر إلى أهل البيت عليهم السّلام كيف فسّروا كلام اللّه و عند التّأمل فيما ذكرناه تعلم صدق كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: **أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي**، الحديث.

و لم جعلهم اللّه الرّاسخين فى العلم و أمرنا بإتّباعهم و الإستمداد منهم في حلّ مشكلات القرأن سلام اللّه عليهم أجمعين.

لَكُمْ فيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ

أي لكم في الجنَّة فاكهة كثيرة لا حدَّ لها و لا يمكن إحصاؤها منها تأكلون، ثمّ بعد ذلك أشار اللّه إلى أحوال المجرمين فقال:

إِنَّ ٱلْمُجْرِمينَ في عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ، لٰا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فيهِ

١- ج ٣ ص ٣٢٧ ط كمباني

مُبْلِسُونَ

المُجرم بضمّ الميم من إرتكب الجرم أعني به معصية اللّه تعالى أخبر اللّه تعالى في الآية أنّ المجرمين العاصين في عذاب جهنَّم خالدين فيها أبداً كما أنّ المطيعين في الجنَّة خالدين فيها و الفرق أنّ المجرمين في العذاب و المطيعين في الجنَّة فأختر أيّها المكلّف ما شئت منهما.

و في قوله: **لٰا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فيهِ مُبْلِسُونَ** أصل الفتور ضعف الحرارة و الإبلاس اليأس من رحمة اللّه بتخفيف العذاب عنهم و المعنى أنّ عذابهم لا يفتر و لا يضعف بل هو على ما كان و لا رجاء لهم برفع العذاب عنهم سمّي الشّيطان بإبليس لأنّه لا يرجو رحمة اللّه أي مأيوس عنها.

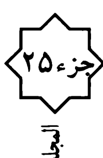
وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ ٱلظّٰالِمينَ

أي ما ظلمناهم في دخول النّار و لكن كانوا ظلموا أنفسهم بسبب إرتكابهم المعاصي التّي صارت باعثة على العذاب بإختيارهم و سوء سريرتهم أمّا أنّ اللّه لم يظلم لأنّ الظُّلم التّعدي قبيحٌ على اللّه و هو منزّهٌ عن إرتكاب القبيح.

و أن شئت قلت الظُّلم وضع الشّيئ في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في محلّه و حيث قد ثبت أنّ العذاب مسبّبٌ عن الأعمال و العمل يصدر عن المكلّف بإختياره فهو سلَّط العذاب على نفسه بإختياره إذ المفروض أنّه كان قادراً على ترك المعصية و فعل الطاعة ففي الحقيقة لم يعذّبه اللّه بل عذَّبه عمله فهو أي العبد ظالم على نفسه و اللّه تعالى بريئٌ منه و ذلك واضح.

فإن قلت أنّ اللّه تعالى خلق النّار و أمر بإلقاءه فيها، لا هو نفسه فكيف يقال أنّ العبد ظالم و اللّه الّذي ألقاه في النّار ليس بظالم.

قلت أنّما ألقاه في النّار عمله الّذي كان سبباً له فإذا وجد السّبب وجدالمسبّب و اللّه تعالى خلق دار الجزاء إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و خلق العبد و أعطاه العقل و



هو نبيّ الباطن و أرسل الرّسول و هو نبيّ الظّاهر ثمّ كلّف المكلّف و جعله مختاراً في فعله و حكم بأنّ هذا الجزاء يترتَّب على هذا الفعل فللمكلَّف أن لا يفعل الفعل الباعث على دخول النّار و فى المثل جعل اللّه القصاص على قتل العمد و أعلم المكلَّف بذلك بواسطة النّبي و لم يجبر المكلّف على القتل فإذا إرتكب القتل في حال الإختيار بسوء سريرته يقتل لا محالة قصاصاً ايجوز على العاقل أن يقول أنّ اللّه ظلمني حيث حكم بقتلي و هذا ظاهرٌ.

وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ المجرمين من شدّة العذاب يلتحبون إلى مالك خازن جهنّم و يقولون له **يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ** أي أدع ربّك أن يحكم فينا، إمّا بالموت و إمّا بالخروج منها ولم يعلموا أنّ الموت ليس هناك و الخروج منها و أن كان ممكناً إلاّ أنّ اللّه حكم بخلودهم فيها و لذلك يجيبهم مالك و يقول لهم أنّكم ماكثون أي لابثون.

إعلم أنّ المفسّرين من العامّة و الخاصّة فسَّروا كلام اللّه **لِيَقْضِ عَلَيْنا** أي ليقض علينا بالموت حتّى نتخلّص من العذاب و أمّا نحن فسَّرنا الكلام بغير ما فسَّروه و قلنا ليقض علينا إمّا بالموت و إمّا بالخروج منها و لم نخصّ القضاء بالموت فقط، و ذلك لأنّ القضاء ليس بمعنى الموت و لا يراد به الموت فقط و توضيحه إجمالاً:

أنّ القضاء الحكم و الحكم في حقّ المجرم تارةً يكون بالموت و أخرى برفع التّهمة و الخلاص من السّجن مثلاً، فإذا كان المجرم محكوماً بالحبس وكان المحبس عذاباً له و إستدعى من القاضي الحكم في حقّه من شدّة العذاب ليس معناه أن يحكم عليه بالموت بل معناه أن يحكم عليه بالفرج من المحبس إمّا بالموت و إمّا بالخلاص من الحبس و العذاب فتخصيص القضاء في الآية بالإماتة

و هو قولهم أي ليميتنا حتّى نتخلّص من العذاب لا دليل عليه لا مكان التّخلص بغير الموت و هو إخراجهم عن النّار و كونهم خالدين فيها لا ينافي إمكان الخروج عقلاً إذا أراد اللّه و شاء و يمكن أن يستفاد هذا من جواب مالك لهم بقوله: **إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ** فأنّ المكث اللّبث يقال لبث بالمكان، أقام به ملازماً له، إلى ما شاء اللّه تعالى و لذلك لم يقل في جوابهم لا تخرجون، أو لن تخرجوا، و قال: **إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ** أي أنّكم مقيمون فيها فعلاً إلى ما شاء اللّه.

لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ

هذه الآية في الحقيقة بمنزلة التّعليل للأية السّابقة أي إذا قال المجرمون لم أدخلتنا النّار يقال لهم لقد جئناكم بالحقّ، أي أرسلنا إليكم رسلنا و أنزلنا الكتاب و الميزان و دعوتكم إلى متابعة النّبي فعصيتم و أنكرتم الحقّ لكراهتكم إيّاه و من كان كذلك فلا يلومنَّ إلاّ نفسه فأنّ الإعتذار بعد تماميّة الحجّة لا معنى له.

أَمْ أَبْرَمُوٓا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ

قال مقاتل نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في دار النّدوة حين إستقرّ أمرهم على ما أشار إليه أبو جهل عليهم أن يبرز من كلّ قبيلةٍ رجلٍ ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه فنزلت هذه الآية و قتل اللّه جميعهم ببدرٍ، و الإبرام الإحكام يقال أبرموا الأمر إذا أحكموه.

و قال صاحب الكشّاف، أم أبرموا، مشركوا مكّة، أمراً من كيدهم و مكرهم برسول اللّه، فإنّا مبرمون، كيدنا كما أبرموا كيدهم إنتهى ما ذكره.

و لم يتعرّض لكيدهم و لم يبيّنه و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى فهو من قبيل:

قوله تعالى: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللّٰهُ**.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰيٰهُمْ بَلٰى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ

و المعنى أم يحسبون هؤلاء الكفّار، أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم، أي ما يسّرون في أنفسهم و يتناجون به بينهم في الخلوات **بَلٰى وَ رُسُلُنا** و هم الملائكة الّذين وكلّهم اللّه على أولاد أدم ليكتبوا ما يقول العبد و ما يفعله و يعبّر عنهم بالكرام الكاتبين، فأنّ ما يكتبونه هو المسمّى بصحيفة الأعمال يوم القيامة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ، كِرٰامًا كٰاتِبِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلا كُفْرٰانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّٰا لَهُ كٰاتِبُونَ**(٢).

و سيأتي الكلام فيه في موضعه إن شاء اللّه.

قُلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِينَ

في تفسير الآية أقوال:

أحدها: أنّ العابدين بمعنى الأنفين و المعنى أن كان للرّحمن ولد فأنا أوّل الأنفين من عبادته لأنّ من كان له ولد لا يكون إلاّ جسماً محدثاً و من كان كذلك لا يستحقّ العبادة لأنّه لا يقدر على النّعم التّي يستحقّ بها العبادة.

الثّاني: ما قاله إبن زيد و أسلم و قتادة و هو أنّ (إن) في قوله: **إِنْ كٰانَ** بمعنى، ما، النّافية و تقديره ما كان لرّحمن ولد، فأنا أوَّل العابدين للّه.

الثّالث: هو أنّه لو كان له ولد لعبدته على ذلك كما تقول لو دعت الحكمة إلى عبادة غير اللّه لعبدته لكنّه لا تدعوا إلى عبادة غيره، و كما تقول لو دلَّ الدّليل على أنّ له ولد لقلت به، لكنّه لا يدلّ فهذا تحقيق نفي الولد لأنّه تعليق محالٍ بمحالٍ، إنتهى ما ذكره الشّيخ قدس سره في التّبيان من الأقوال.

و أمّا سائر الأقوال فهو راجع إلىٰ ما ذَكرناه و نقلناه عنه و قد ذكر القرطبي في

١- الإنفطار = ١١
٢- الأنبياء = ٩٤

تفسير الآية أقوالاً كثيرة لا نحتاج إلى ذكرها لأنّها ترجع في الحقيقة إلى ما قاله الشّيخ في التّبيان إن شئت فراجع تفسيره و الحقّ ما ذكره الشّيخ قدّس سرّه في ثالث الأقوال و هو أنّ الكلام تعليق محالٍ بمحالٍ و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً.

و على هذا فالآية على ظاهرها و لا نحتاج إلى تفسير العابدين بالأنفين، أو بالخارجين كما نقله القرطبي أو الجاحدين و أمثال ذلك، فمعنى الآية إن كان للرّحمن ولد لعبدته لأنّ عبادة الولد في الحقيقة عبادة الوالد لأنّه جزء منه و لكن ليس له ولد فأعبد اللّه وحده و أنّما قلنا ذلك لأنّ المعلّق على المحال محالٌ عقلاً و بعبارةٍ أخرى عبادة الولد معلّقٌ على وجوده إذا المعدوم لا يعبد، و قد ثبت عقلاً و نقلاً إستحالة وجود الولد له تعالى و الّذي يستحيلُ وجوده يعدّ من الممتنع و ما كان كذلك فما علّق عليه هو أيضاً محال فهذا من قبيل قول القائل لو كان للّه شريك فأنا أوّل العابدين له، من حيث أنّ العبادة معلّقة على وجود ممتنع الوجود فالعبادة أيضاً ممتنعة التحقُّق، و لا فرق في إمتناع الوجود بين شريك البارئ و الولد و الدّليل قائم على إستحالة وجودهما، بل نقول هذا أصلٌ أصيلٌ و حكمٌ متينٌ في جميع الأمور من التّوحيد و النبوّة و الإمامة.

سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

لمّا نزَّه اللّه تعالى نفسه عن الولد على ما قرَّرناه نزَّه نفسه عمّا لا يليق بجنابه على الوجه الكلّي فقال سبحان ربّ السّموات و الأرض و العرش عمّا يصفونه به من إتّخاذ الولد و قبول الشّريك في عبادته و أنّ يد اللّه مغلولة، أو أنّه فرغ عن الأمر افوَّض الأمر إلى عباده أو أنّه خلق الكفر في عباده و جعل العبد مجبوراً في أفعاله ثمّ يعاقبه عليه و أمثال ذلك من الأباطيل فأنّ اللّه تعالى منّزهٌ عن جميعها فقوله: **عَمَّا يَصِفُونَ** عامٌّ يشمل جميع النّقائص الإمكانيّة.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذي يُوعَدُونَ

ثمّ قال اللّه تعالى لنبيّه **فَذَرْهُمْ** أي أتركهم، يخوضوا و يلعبوا، يعني كفّار مكّة حين كذّبوا نبوّتك و أنكروا عذاب الأخرة، حتّى يلاقوا يومهم الذّي يوعدون، و هو يوم القيامة.

وَ هُوَ ٱلَّذي فِي ٱلسَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِي ٱلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ ٱلْحَكيمُ ٱلْعَليمُ

قيل هذا تكذيبٌ لهم من اللّه في أنّ للّه شريكاً و ولداً و المعنى هو المستّحق للعبادة في الأرض و في السّماء فلامعنى لقولهم أنّ الملائكة بنات اللّه كما لا وجه لقولهم أنّ عزيراً إبن اللّه و أنّ عيسى إبن اللّه أو الأصنام و الأوثان شركاء للّه في المعبوديّة كلّ ذلك باطل عاطل فأنّ إله الأرض و إله السّماء واحد و هو الّذي خلق السّموات و الأرض و الخالق لهما هو المعبود فيهما لا غيره الحكيم العليم، بخفيّات الأمور.

وَ تَبٰارَكَ ٱلَّذي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

تبارك مأخوذٌ من البرك و هو الثّبوت و معناه، جلَّ الثّابت الذّي لم يزل و لا يزال، و قيل معناه جلَّ الّذي عمَّت بركة ذكره ثمّ وصف نفسه بأنّه الّذي خلق السّموات و الأرض و عنده علم السّاعة، أي القيامة أي لا يعلم أحد متى تقوم القيامة إلاّ اللّه تعالى و قد مرَّ الكلام فيها و قلنا أنّ علم السّاعة منحصرٌ به تعالى لقوله تعالى: **قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبّي**.

و أمّا قوله: **وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فمعناه واضح إذ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله إنّا للّه و إنّا إليه راجعون بعد الموت.

وَ لا يَمْلِكُ ٱلَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلشَّفٰاعَةَ إِلّٰا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ

هُمْ يَعْلَمُونَ

قال المفسّرون أراد بالّذين يدعون من دون اللّه، عيسى و عزيراً و الملائكة و المعنى لا يملك هؤلاء الشّفاعة إلاّ لمن شهد بالحقّ و أمن على علم و بصيرةٍ.

و قال بعضهم يقول اللّه تعالى مخبراً، أنّ الّذين يدعونه الكفّار إلهاً و يوجّهون عبادتهم إليه من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يملكون من دون اللّه الشّفاعة ثمّ إستثنى من جملتهم من شهد بالحقّ و هم عالمون بذلك و هم الملائكة و عيسى و عزير و قيل المعنى و لا يشفع الملائكة و عيسى و عزير إلاّ من شهد بالحقّ يعلم الحقّ ذكره مجاهد.

و قال قومٌ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ** الملائكة و عيسى و عزير، لهم عند الّله شهادة بالحقّ، و قيل المعنى إلاّ من يشهد بأنّه أهل العفو عنه **وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** ذلك و هؤلاء أصحاب الصّغائر و الّذين تابوا من الكبائر، ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

أقول الّذي نفهم من الآية هو شيء أخر غير ما ذكره المفسّرون و تكلّفوا أنفسهم في تفسيرها و ذلك أنّ الكفّار كانوا يزعمون أنّ هؤلاء الأصنام و الأوثان شفعاء لهم عند اللّه كما حكى اللّه تعالى عنهم حيث قال: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلَاۤءِ شُفَعَاۤؤُنَا عِنْدَ ٱللّٰهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللّٰهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ**(١).

فهذه الآية كما ترى تخبرنا بأنّهم كانوا يعتقدون شفاعة الأصنام و الأوثان عند اللّه، فقال اللّه تعالى في ردّهم أنّ الأمر ليس كما زعمتموه و أنّ الشفاعة ليست إلاّ لمن شهد بالحقّ عالماً به و هو لا يكون إلاّ نبيّاً أو وصيّاً أو مؤمناً صالحاً فأنّهم يشهدون بالحقّ عن علم و أمّا الأصنام و الأوثان فلا لأنّها من الجماد الّذي لا عقل له و لا شعور و الشّهادة بالحقّ فرعٌ عليها و على هذا فزعمكم باطلٌ فمعنى شهد بالحقّ، أن يكون مؤمناً مصدِّقاً بالحقّ و الجماد ليس كذلك.

١- يُونس = ١٨

و قال صاحل الكشّاف في معنى شهد بالحقّ، هو توحيد اللّه و هو يعلم ما يشهد به عن بصيرةٍ و إيقانٍ و إخلاصٍ هو الّذي يملك الشّفاعة و هو إستثناء منقطع و يجوز أن يكون متصّلاً لأنّ في جملة الّذين يدعون من دون اللّه الملائكة إنتهى كلامه.

و هو قريبٌ ممّا ذكرناه.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ

الإفك بكسر الألف يقال لكلّ معروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلة عن المّهاب مؤتفكة، خاطب اللّه نبيّه و قال له: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** أي سألت هؤلاء الكفّار، من خلقهم ليقولنَّ اللّه، و لا يقولون خلقنا الأصنام و الأوثان و الملائكة و هكذا بل يقولون أنّ اللّه خلقنا و إذا كان كذلك أي يقرّون بأنّ اللّه خالقهم، فأنّى يؤفكون، أي يصرفون عن الحقّ و الإعتقاد إلى الباطل و من الصَّدق في المقال إلى الكذب و من الجميل في الفعل إلى القبيح و بعبارةٍ أخرى لم يصرفون عن الحقّ إلى الباطل و يصرفون المعبوديّة عن الخالق الّذي خلقهم إلى الأصنام و الأوثان.

وَ قِيلِهِ يٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ

قرئ **قيلِهِ** بالحركات الثّلاث، النّصب و الجرّ و الرّفع، فمن نصبه حمله على **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰيهُمْ**[١] و قيله، لم و إمّا الجرّ فأنّه مَعطُوف على لفظ السّاعة في قوله تعالى: **وَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ** و أمّا الرَّفع فعلىٰ الإبتداء و الخبر ما بعده و يجور عطفه على **عِلْمُ ٱلسّٰاعَةِ** على تقدير حذف المضاف أي و عنده علم السّاعة و علم قيله، و القيل مصدر كالقول، و الضمير في، قيله، راجع

١- الزخرف = ٨٠

على الرّسول أي و قول الرسول أنّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون، باللّه و رسوله و القيامة.

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

ثمّ أمر اللّه نبيّه بالصّفح و الإعراض عنهم فقال فأصفح يامحمّد يائساً عن إيمانهم ودعهم و أتركهم، و قل لهم سلاٰمٌ، أمره اللّه بتوديعهم بالسّلام ولم يجعله تحيّةٌ لهم، و قيل معناه، تسلّم منكم و متاركة، و قيل رفع، سلاٰمٌ على تقديره و هو عليكم سلاٰمٌ أي ما سلم به من شرّهم و أذاهم.

و قال الحسن، و قل سلاٰمٌ، اسلم عنهم، ثمّ هدَّدهم اللّه بقوله، فسوف تعلمون، غداً يوم القيامة.

■

سُورَةُ ٱلدُّخٰانِ

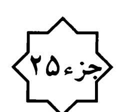
بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ وَ ٱلْكِتابِ ٱلْمُبينِ ﴿٢﴾ إِنّٰآ أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبٰارَكَةٍ إِنّٰا كُنّٰا مُنْذِرينَ ﴿٣﴾ فيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنٰآ إِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّميعُ ٱلْعَليمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنينَ ﴿٧﴾ لٰآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ يُحْيي وَ يُميتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ اٰبٰآئِكُمُ ٱلْأَوَّلينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ في شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمٰآءُ بِدُخٰانٍ مُبينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَليمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنّٰى لَهُمُ ٱلذِّكْرٰى وَ قَدْ جٰآءَهُمْ رَسُولٌ مُبينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنّٰا كٰاشِفُوا ٱلْعَذٰابِ قَليلًا إِنَّكُمْ عٰائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرٰىٓ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰآءَهُمْ رَسُولٌ كَريمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبٰادَ



ٱللّٰهِ إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمينٌ ﴿١٨﴾ وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى ٱللّٰهِ إِنّىَ اٰتيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبينٍ ﴿١٩﴾ وَ إِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لى فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلآءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبادى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَ ٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَريمٍ ﴿٢٦﴾ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فيها فاكِهينَ ﴿٢٧﴾ كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْمًا اٰخَرينَ ﴿٢٨﴾ فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمآءُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرينَ ﴿٢٩﴾ وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنىٓ إِسْرآئيلَ مِنَ ٱلْعَذابِ ٱلْمُهينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِيًا مِنَ ٱلْمُسْرِفينَ ﴿٣١﴾ وَ لَقَدِ ٱخْتَرْناهُمْ عَلٰى عِلْمٍ عَلَى ٱلْعالَمينَ ﴿٣٢﴾ وَ اٰتَيْناهُمْ مِنَ ٱلْاٰياتِ ما فيهِ بَلآؤٌا مُبينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هٰؤُلآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولٰى وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِاٰبآئِنآ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمينَ ﴿٣٧﴾ وَ ما خَلَقْنَا ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبينَ ﴿٣٨﴾ ما خَلَقْناهُمآ إِلّا بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ

يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۴۰﴾ يَوْمَ لٰا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَ لٰا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿۴۱﴾ إِلّٰا مَنْ رَحِمَ ٱللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿۴۲﴾ إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ ﴿۴۳﴾ طَعٰامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿۴۴﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿۴۵﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿۴۶﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلٰى سَوٰاءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿۴۷﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿۴۸﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿۴۹﴾ إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿۵۰﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقٰامٍ أَمِينٍ ﴿۵۱﴾ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ ﴿۵۲﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِينَ ﴿۵۳﴾ كَذٰلِكَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿۵۴﴾ يَدْعُونَ فِيهٰا بِكُلِّ فٰاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿۵۵﴾ لٰا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولٰى وَ وَقٰيهُمْ عَذٰابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿۵۶﴾ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿۵۷﴾ فَإِنَّمٰا يَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿۵۸﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿۵۹﴾



◀ اللّغة

فَارْتَقِبْ: الإرتقاب الإنتظار أي فإنتظر.

بِدُخٰانٍ: الدُّخان بضمّ الدّال الظُّلمة التّي كانت تغشي الأبصار.

يَغۡشَى: الغشي اللبّاس الّذى يغمر الشّي و الغاشية من النّاس الجماعة يغشون.
تَوَلَّوۡا: أي أعرضوا التّولي الإعراض.
نَبۡطِشُ: البطش الأخذ بشّدةٍ.
فَتَنَّا: الفتنة الإختبار و الإمتحان.
أَدُّوٓا: فعل أمرٍ من، أديؤدّ أي أرسلوا.
تَعۡلُوا: من العلوّ بمعنى الطُّغيان بإفتراء الكذب.
تَرۡجُمُونِ: الرَّجم هاهنا الشّتم و قيل هو الرّجم بالحجارة.
رَهۡوًا: الرّهو السّكون يقال حشيشٌ راه إذا كان خفضاً و ادعا و قيل الرّهو، السّهل.
ٱلۡمُهِينِ: بضمّ الميم الشّديد.
عَالِيًا: من العلوّ أي متجبّراً متكبّراً.
مِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ: الإسراف التّجاوز عن الحدّ ممّا يجوز فعله إلى ما لا يجوز.
بِمُنشَرِينَ: النّشر البسط و المراد به البعث بعد الموت، أي بمبعوثين.
ٱلزَّقُّومِ: ما أكل بتكرّهٍ شديد.
كَٱلۡمُهۡلِ: المهل بالضّم الشّئ الذّي يذاب في النّار حتّى يشتدّ حرّه كالفضّة و الرّصاص.
يَغۡلِي: الغلي إرتفاع المانع من الماء و نحوه بشّدة الحرارة.
فَٱعۡتِلُوهُ: العتل زعزعة البدن بالجفاء و الغلظة للإهانة.
تَمۡتَرُونَ: أي تشكّون، و المرية الشكّ.
سُندُسٍ: الحرير.
وَ إِسۡتَبۡرَقٍ: الإستبرق الدّيباج الغليظ.
وَ وَقَىٰهُمۡ: الوقي الحفظ.
فَٱرۡتَقِبۡ: أمرٌ من الإرتقاب و هو الإنتظار.

◄ الإعراب

أَنْزَلْنَاهُ هو جواب القسم و إِنَّا كُنَّا مستأنف و قيل هو جوابٌ أخر من غير عاطفٍ فِيهَا يُفْرَقُ صفة لليلة و إِنَّا معترضٌ بينهما أَمْرًا قيل هو مفعول، منذرين و قيل هو مفعولٌ له و العامل فيه، أنزلناه أو منذرين أو يفرق، و قيل هو حال من الضّمير في حكيم و قيل هو في موضع المصدر، و قيل هو مصدر أي أمرنا امراً و قيل هو بدل من الهاء في أنزلناه مِنْ عِنْدِنَا صفة لأمر أو متعلّق بيفرق رَحْمَةً مفعول مرسلين، أو مفعول له، أو مصدر أي رحمناكم رحمةً و قيل هو في موضع الحال من الضّمير في، مرسلين رَبِّ السَّمٰوٰتِ بالرّفع خبر مبتدأ محذوف أي هو ربّ السّموات أو هو مبتدأ و لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الخبر، و بالجرّ بدلاً من ربّك رَبُّكُمْ أي هو ربّكم يَوْمَ تَأْتِي هو مفعول، فإرتقب الذِّكْرٰى مبتدأ و، لهم، الخبر يَوْمَ نَبْطِشُ هو بدل من، تأتي، أو ظرفٌ، لعائدون عِبَادَ اللّٰهِ أي ياعباد اللّه و أَنَّ هٰؤُلَاءِ منصوب بدعا و رَهْوًا حال من البحر و قيل هو مفعول ثان أي صيّره مِنْ فِرْعَوْنَ هو بدل من العذاب بإعادة الجارّ أي من عذاب فرعون و مِنَ الْمُسْرِفِينَ خبر أخر أو حال من الضّمير في، عالياً، عَلٰى عِلْمٍ حال من ضمير الفاعل أَهْلَكْنَاهُمْ حال من الضّمير في الصِّلة لَاعِبِينَ حالٌ و أَجْمَعِينَ توكيد للضّمير المجرور يَوْمَ لَا يُغْنِي بدل من يوم الفصل إِلَّا مَنْ رَحِمَ هو إستثناء متصلّ أي من رحمة اللّه يَغْلِي حال من الضمير في الكاف أو من المهل يَدْعُونَ حال من الفاعل في زوّجنا لَا يَذُوقُونَ حال أخرى من الضّمير في، يدعون إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولٰى قيل الإستثناء منقطع أي ماتوا الموتة الأولى و قيل هو متصلّ لأنّ المؤمن عند موته في الدّنيا بمنزلته في الجنّة لمعاينته ما يعطاه منها و قيل، إلاّ، بمعنى بعد.

◄ التّفسير

حٰمٓ

قد بيّنا في ما مضى أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السُّور لا يعلم معناها إلاّ اللّه و الّذي يعتمد عليه من الأقوال هو أنّها أسماء للسُّور و العلم بها عند اللّه.

وَ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ

هو القرآن و جرّه بأنّه قسم، و قيل تقديره و ربّ الكتاب المبين و إنّما وصف بأنّه مبين لأنّه بمنزلة النّاطق بالحكم الّذي فيه فلا يحتاج إلى إستخراج الحكم من مبين غيره سمّي به لأنّه مظهرٌ للأحكام.

إِنّٰآ أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبٰارَكَةٍ إِنّٰا كُنّٰا مُنْذِرِينَ

الظّاهر أنّ المراد باللّيلة المباركة، ليلة القدر، لقوله تعالى: **إِنّٰآ أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ**[1].

و قال قوم المراد بها ليلة النّصف من شعبان و الأوّل أقوى و أشهر و أصَح لما ذكرناه من الآية و هى كالنّص و سيأتي تفصيل الكلام فيها في سورة القدر إنشاء اللّه و قوله: **إِنّٰا كُنّٰا مُنْذِرِينَ** فالإنذار الإعلام بموضع الخوف و اللّه تعالى قد أنذر عباده من طريق العقل و السّمع، و قد أعذر من أنذر، و دفع الضَّرر المحتمل واجبٌ عقلاً فضلاً عن المقطوع به كما في إنذار اللّه و أنبيائه.

فِيهٰا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ

الضّمير راجع على اللّيلة، أي في هذه اللّيلة المباركة الّتي أنزل القرآن فيها، يفرق أي يفصل و يقسّم الآجال و الأرزاق و غيرها و فى قوله: **حَكِيمٍ** إشارة إلى أنّ تفريق الآجال و الأرزاق و المقدّرات كلّها على وجه الحكمة و المصلحة و لهذا سميّ حكيماً لأنّ أفعاله و مقدراته صدرت على وجه الحكمة.

١– القدر = ١

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنآ إِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ

أي أنّ الأمر الّذي به يقسّم الآجال و الأرزاق هو أمرٌ من عندنا إنّا كنّا مرسلين، الأنبياء و الرُّسل إلى الخلق لإرشادهم و هدايتهم إيّاهم إلى الحقّ.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

أي إرسال الرُّسل رحمةٌ من اللّه إلى خلقه أنّه تعالى يسمع و يعلم، أي يسمع ما يقول خلقه و يعلم مصالحهم و مفاسدهم.

و قلنا سابقاً أنّ السّمع و البصر في حقّه تعالى غيرهما في حقّ خلقه فأنّا نسمع و نبصر بالجوارح و اللّه يسمع و يبصر بمعنى أنّه عالمٌ بالمسموعات و المبصرات.

رَبِّ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمآ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

أي هو ربّ السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات كما وصف نفسه بذلك حيث قال: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ** و الرَّب في الأصل التَّربية و هو إنشاء الشّيء حالاً فحالاً إلى حدّ التّمام فالرَّب مصدر مستعار للفاعل و لا يقال الرّب مطلقاً إلاّ للّه تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات و على هذا:

قال اللّه تعالى: **وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلآئِكَةَ وَ ٱلنَّبِيِّنَ أَرْبابًا**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **اِتَّخَذُوٓا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ**[٣].

و المعنى لا تتّخذوهم ألهة و تزعمون أنّهم الباري مسبّب الأسباب و المتولّي لمصالح العباد، و أمّا بالإضافة فلا مانع من إستعمال اللّفظ في غير اللّه كما يقال

١- أل عمران = ٨٠
٢- أل عمران = ٦٤
٣- التّوبة = ٣١

ربّ الدّار و ربّ الفرس و قول عبد المطّلب أنا ربّ الإبل و للبيت ربّ، و على هذا قال يوسف الصّديق كما حكى اللّه عنه **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** أي عند عزيز مصر، و قال فرعون: **أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** و المقصود أنّ الرّب المطلق بدون الإضافة مختصّ باللّه تعالى و أمّا معها فيطلق على غيره تعالى أيضاً.

و أمّا في المقام فالرّب أضيف إلى السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات فالمراد به ربّ العالمين و هو لا يكون إلاّ اللّه تعالى فكأنّه قال ربّ العالمين.

و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** و قيل في وجه الإحتجاج بالآية بذكر ربّ السّموات و الأرض هاهنا، أنّ الّذي دبَّرهما على ما فيه مصالح العباد هو الّذي دبَّر الخلق بإرسال الرّسول رحمةً منه بعباده على ما فيه مصالحهم و معنى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** أي إن كنتم ممّن يطلب اليقين فهذا طريق اليقين و هو حال يجده الإنسان من نفسه عند التعقّل و لهذا يقال من وجد برد اليقين كان من اليقين و لذلك لا يوصف اللّه تعالى باليقين و أن وصف بأنّه عالمٌ و عليمٌ إنتهى.

أقول ما ذكره ﷺ في قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** لا بأس به فأنّه من المحتمل، ولنا في المقام إحتمال أخر و هو أنّ المعنى **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** بأنّ للسّموات و الأرض و ما بينهما خالقٌ فهو اللّه لا غيره و إن كنتم في شكٍّ بأنّ لهما خالقٌ و تعتقدون أنّ السّموات و الأرض و ما بينهما لا خالق لهما فلا كلام لنا معكم لأنّ هذا الإعتقاد خارج عن طور العقل ضرورة أنّه يحكم بأنّ الشّئ لا يوجد نفسه و لا يوجد بدون العلّة و الموجد فإذا فرضنا أنّ له موجد فمن هو و هذا إستدلالٌ قوىّ لا مخلص لأحدٍ منه.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ

أي لا إله في عالم الوجود إلاّ هو الّذي يحيي و يميت، ربّكم و ربّ آباءكم

الأولّين فهو الّذي يستحقّ العبادة فقوله: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** يعني يحيي الخلق بعد موتهم و يميتهم بعد إحياءهم، أو يحيي الخلق بالإيجاد و يميتهم بالأجال و كيف كان لا شكّ أنّ الحياة و الموت بيده فكمّا أنّه خلقكم و رباكم خلق آباءكم الأوّلين فأنّ حكم الأمثال واحد.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ

أخبر اللّه تعالى عن الكفّار بعدم يقينهم و أنّهم على شكّ بما أخبرناك يا محمّد فهم مع ذلك يلعبون و يسخرون ينكرون التّوحيد و النبوّة و المعاد ولم يعلموا أنّ دفع الضّرر المحتمل واجب قطعاً فضلاً عن المقطوع و إذا كان كذلك.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى ٱلنَّاسَ هٰذا عَذابٌ أَلِيمٌ

الإرتقاب الإنتظار و المعنى فأنتظر يا محمّد يوم تأتي السّماء بدخان، و هو الظُّلمة الّتي كانت تغشي أبصار المشركين من قريش لشدّة الجوع.

قال إبن مسعود و ذلك حين دعا عليهم النّبي فقال: **اللّهم سنين كنين يوسف.**

و قال إبن عبّاس الدُّخان، آية من أشراط السّاعة تدخل في مسامع الكافر و المنافق حتّى يكون كالرّأس الحنيذ و نصيب المؤمن منه مثل الزّكمة، تغشى النّاس يعني الدُّخان يغشى النّاس، و قيل معنى الآية إحفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السّماء بدخانٍ مبين، و لذلك سمّي الحافظ رقيباً، الدُّخان أقوال من المفسّرين غير ما ذكرناه.

و منها، أنّه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السّماء و الأرض، فأمّا المؤمن فيصيبه مثل الزّكام و أمّا الكافر و الفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم و يضيق أنفاسهم و هو من اثار جهنّم يوم القيامة.

و منها، أنّه دخان يهيج بالنّاس يوم القيامة يأخذ المؤمن منه كالزّكمة و ينفخ الكافر حتّى يخرج من كلّ مسمعٍ منه.

و منها، ما رواه عن صحيح مسلم قال: أطلع النّبي و قال: **أنّها لن تقوم حتّى تروا قبلها عشر آيات**، فذكر الدُّخان، و الدّجال، و الدابّة، و طلوع الشّمس من مغربها، و نزول عيسى بن مريم، و خروج يأجوج و مأجوج و ثلاثة خسوف، خسفٌ بالمشرق، و خسفٌ بالمغرب، و خسفٌ بجزيرة العرب و آخر نارٌ تخرج من اليمن تطرد النّاس الى محشرهم، و في روايةٍ أنّ السّاعة لا تكون حتّى تكون عشر آيات، خسفٌ بالمشرق و خسفٌ بالمغرب و خسفٌ في جزيرة العرب و الدُّخان و الدّجال و دابّة الأرض و يأجوج و مأجوج و طلوع الشّمس من مغربها و نارٌ تخرج من قعر عدن ترحّل النّاس و الأقوال في الباب كثيرة كلّها من المحتملات الّتي لا يمكن الإستناد اليها في تفسير الآية و الأحسن حمل الآية على ظاهرها و أنّ الدُّخان ما هو و كيف يكون فاللّه أعلم.

و قوله: **يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** فمعناه أنّ الدُّخان يغشى النّاس و هذا أي الدُّخان الموصوف بما وصفناه عذابٌ أليمٌ، لهم أي لهؤلاء الكفّار المنكرين للحشر و لذلك يقولون كما حكى اللّه عنهم.

رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ

أي يقولون بعد رؤيتهم العذاب، ربّنا أكشف عنّا العذاب و هو الدُّخان إنّا مؤمنون، بك أو بالحشر و قيل معناه نومن بك إن كشفته عنّا فيقال في جوابهم.

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَ قَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ

أي كيف لهم الذِّكرى أو من أين لهم الذِّكرى و قد جاءهم رسول مبين، في الدُّنيا و حثّهم على ذلك فلم يقبلوا منه بل كذّبوه و أنكروه فقولهم: **إِنَّا مُؤْمِنُونَ** بعد رؤيتهم العذاب لا فائدة فيه بعد سقوط التكليف عنهم في القيامة و أنمّا ينفع

ذلك في دار التّكليف لسلب الإختيار عنهم بعد الموت فلا تقبل لهم توبة بعده.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ

أي أنّهم كانوا في الدُّنيا معرضين عن الرّسول الّذي كان يدعوهم الى الإيمان و قالوا أنّ الرّسول معلّمٌ مجنون، **مُعلّمٌ** بفتح اللاّم أي علّمه بشر أو علّمه الشّياطين و الكهنة و مع ذلك هو مجنون و ليس برسولٍ من عند اللّه.

إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ

قال بعض المفسّرين أنمّا قال تعالى ذلك على وجه التبكيت لهم على شدّة عنادهم، إنّا لو كشفنا عنكم العذاب و رفعناه عنكم **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** على شرككم و إنكاركم الحقّ كما كنتم عليه قبل ذلك فمن قال أنّ العذاب بالدُّخان عند رفع التكلّيف قال، إنّكم عائدون في العذاب و هو قول قتادة و من ذهب الى أنّه في الدُّنيا مع بقاء التكليف قال معناه، إنّكم عائدون، الى الضّلال و هو قول جماعة، هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال الزّمخشري في الكشّاف، أي رَيثما نكشف عنكم العذاب تعودون الى شرككم لا تلبثون غبّ الكشف على ما أنتم عليه من التَّضرع و الإبتهال.

فأن قلت كيف يستقيم على قول من جعل الدُّخان قبل يوم القيامة قوله: **إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا**.

قلت إذا أتت السّماء بالدُّخان تصوّر المعذّبون به من الكفّار و المنافقين و غوثوا و قالوا ربّنا أكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون منيبون فيكشف اللّه عنهم العذاب بعد أربعين يوماً فريثما يكشفه عنهم يرتدّون و لا يتمهّلون إنتهى.

أقول يظهر من الآية أنّ قوله تعالى: **يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** هو في الدُّنيا قبل القيامة و يحتمل أن يكون يوم البعث، إذ لو كان في القيامة لم يقل أنّكم عائدون، لأنّه ليس بعد الأخرة و القيامة حالة يعودون اليها، هذا فقولهم ربّنا

أكشف عنّا العذاب بعد رؤيتهم الدُّخان الّذي هو نوعٌ من العذاب و معنى قوله تعالى: **إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ**، أنّكم عائدون الى ما كنتم عليه قبل الدُّخان.

يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ

البطش تناول الشّئ بصولةٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذاٰ بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّاٰرِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَهْلَكْناَ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ**(٣).

و الظّاهر أنّ المراد باليوم يوم القيامة و ذهب كثيرٌ من المفسّرين أنّ المراد به هو ما جرى عليهم يوم بدر من القتل و الأسر، و الّذي يقوّي في النّفس أنّ البطش بطشان، صغيرٌ و كبيرٌ.

أمّا البطشة الصُّغرى هي يوم البعث و إحياء الأموات.

و أمّا الكبرى فهي يوم القيامة الّتي يؤخذ فيها بالنّواصي و الأقدام و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالى هو الّذي يأخذ حقّ المظلوم من الظّالم و هذا هو الّذي يعبّر عنه بالإنتقام أي أنّه ينتقم من الظّالم للمظلوم كما هو مقتضى العدل إذ لو لم يأخذ حقّ المظلوم من الظّالم لزم الظُّلم على المظلوم و هو منزّهٌ عنه الإنتقام من اللّه تعالى لأجل التّشفي القلبي كما هو فينا كذلك.

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ

أقسم اللّه تعالى أنّه فتن و إمتحن قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون و أرسل إليهم رسولٌ كريمٌ و هو موسى إبن عمران و معنى هذه الفتنة و الإبتلاء هو الأمر

١- الشّعراء = ١٣٠ ٢- البروج = ١٢
٣-الزّخرف = ٨

بالطّاعة و المعنى عاملناهم معاملة المختبر فأرسلنا اليهم موسى، فكذّبوه ولم يقبلوا قوله فأهلكوا جميعاً فهكذا نفعل بأعداءك يا محمّد إن لم يؤمنوا بك و في الكلام إشارة الى أنّ العذاب بعد إتمام الحجّة و هو كذلك و أنّما وصف الرّسول بالكريم لأنّه كان كريماً في قومه، أو أنّه كان كريم الأخلاق و الصّفات بالتجاوز و الصَّفح عن المذنبين الخاطئين و قيل كان كريماً على ربّه إذ إختصّه بالنُّبوة و إسماع الكلام و هذا الوصف لا يختصّ بموسى عليه‌السلام بل كلّ الأنبياء كانوا كذلك على قدر مراتبهم و منازلهم:

بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْأَعْذَارِ اِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ اِلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ اَلَا اِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً لَا اَنَّهُ جَهِلَ مَا اَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ اَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ اَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلاً فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً وَالْعِقَابُ بَوَاءً[١].

أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه جاءهم رسولٌ كريمٌ، أشار في هذه الآية و ما بعدها الى ما دعاهم موسى اليه و هو أمورٌ.

أحدها: أنّ موسى قال لفرعون و قومه، أن أدُّوا، أي أرسلوا، إلّي عباد اللّه، و أطلقوهم من العذاب و المراد بهم قوم بنيإسرائيل، فهو من قبيل قوله أرسل معنا بني اسرائيل، فقوله: **عِبَادَ ٱللَّهِ** منصوبٌ على أنّه مفعولٌ، و قيل هو منصوب على النّداء أي يا عباد اللّه أدُّوا ما أمركم به فأنّي لكم رسولٌ أمينٌ، على ما أدعوكم إليه.

ثانيها: **وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ اٰتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** أي لا تطغوا على اللّه بإفتراء الكذب عليه أو لا تبغوا عليه بكفر نعمه، أو لا تتكبّروا على اللّه

١- الخطبة ١۴۴

بترك طاعته و إتباع أمره و قيل معناه أن لا تبغوا على أولياء اللّه بالبغي عليهم.

إِنِّىٓ ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ السُّلطان الحجّة و البرهان للغلبة على الخصم و المعنى أنّي أتيكم بحجّةٍ واضحة الّتي مع ظهورها يظهر الحقّ و هى اليد البيضاء و العصا و أمثالهما من الأيات على ما مرَّ تفصيله في موضعه.

ثالثها: وَ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ قال بعض المفسّرين كأنّهم توّعدوه بالقتل فإستجار باللّه و قال إنّي عذت بربّي الّذي خلقني و خلقكم أن ترجموني بالحجارة.

و قال إبن عبّاس تشتموني فتقولوا ساحرٌ كذّاب.

أقول أنّما قالوا ذلك في تفسير الكلام أنّ الرَّجم ظاهرٌ في الرَّمي بالأحجار عرفاً و إلاّ فهو في أصل اللُّغة يطلق على مطلق الرّمي سواء أكان بالحجارة أو بالشّتم أو بالتّكذيب و الإفتراء و التُّهمة و غير ذلك فحمل الكلام على معناه العامّ الشّامل لجميع المصاديق أولى و كيف كان لا خفاء في المعنى فلا نحتاج إلى بسط الكلام فيه.

رابعها: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ قيل، اللاّم في لِى لام لأجل، و المعنى أن لم تصدّقوني ولم تؤمنوا باللّه لأجل برهاني، **فَاعْتَزِلُونِ** أي فإعتزلوني ودعوني كفافاً لا، لي، ولا، علَّي، و قيل معناه كونوا بمعزلٍ منّي، وأنا بمعزلٍ منكم إلى أن يحكم اللّه بيننا و هو خير الحاكمين، و قيل معناه، فخلُّوا سبيلي و كفوا عن أذاي، و المعانى متقارب.

أقول الظّاهر أنّ المخاطب بهذا الكلام هو فرعون و من تبعه و هم الّذين منعوا موسى عن إخراج قومه عن مصر، و على هذا فقوله: **فَاعْتَزِلُونِ**، هو خطاب لفرعون و قومه و معناه إن لم تؤمنوا لي، فإعتزلون أي خلُّوا بيني و بين بنيإسرائيل و هذا ظاهر و محصلّ الكلام في الأيات المذكورة هو أنّكم أن لم تؤمنوا بي فلا تمنعوا قومي عن الإيمان فأنّ هذا من أقبح الظُّلم و أشنع الكفر.

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ موسى لمّا يئس منهم أن يؤمنوا به، دعا ربّه فقال: **أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ** أي فرعون و من تبعه، **قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ** إمتنعوا من إطلاق بنيإسرائيل و من الإيمان و من كان كذلك فقد حقّت عليه كلمة العذاب.

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ

الفاء وقعت موقع الجواب الكلام، فدعا فأجيب بأن قيل له فأسر بعبادي، فهي عطف وقع موقع جواب الدُّعاء فأمره اللّه تعالى بأن يسير بأهله و المؤمنين ليلاً، أي قبل الصّباح، و أنّما أمره بذلك لئلاّ يردّوهم إذا رأوهم نهاراً، و أعلمه أنّهم متّبعون، أي يتبعهم فرعون و قومه و يخرجون خلفهم و قد تقدّم تفصيل ذلك فيما مضى في البقرة و الأعراف، و طه و الشّعراء و يونس فلا نعيد الكلام بذكره ثانياً و بيّنا هناك إغراق فرعون و إنجاء موسى بما لا مزيد عليه.

وَ ٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ

الرّهو بفتح الرّاء و سكون الواو و الهاء إختلفوا في معناه فقيل معناه السّكون أي ساكناً على ما هو به، معناه الطّريق، أي طريقاً، و قيل معناه السّهل، أي سهلاً، و قيل أي يبسا و قيل غير ذلك.

قال الرّاغب في المفردات، و أترك البحر رهواً، أي ساكناً و قيل سعةً من الطّريق و هو الصّحيح و منه الرّهاء للمفازة المستوية و يقال لكلّ حوقةٍ مستوية يجتمع فيها الماء رهوٌ، و المعنى و أترك البحر سهلاً بلا تعب و مشقّة.

و قوله: **إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ** فالضّمير عائد على فرعون و قومه حكم اللّه بأنّهم مغرقون في البحر ثمّ أشار اللّه تعالى إلى ما تركوه من الأموال بعد الغرق والموت فقال:

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ

أي كم تركوا من بساتين و عيون جارية لم تدفع عنهم عذاب اللّه.

وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ

زروعٌ جمع زرع و المراد بها الأراضي المستعدّة للزّرع، و مقامٍ كريم، قيل هو المجلس الشَّريف، و قيل مقام الملوك و الأمراء و الحكماء، و قيلً المنازل الحسنة، و قيل المنابر و قيل المقام الكريم هو الّذي يعطي اللّذة كما يعطي الرّجل الكريم الصلّة و قيل غير ذلك و قد مضى تفسير هذه الآية في الشّعراء، و كلمة (كم) في الآية للتكثير أي تركوا كثيراً من الأموال و الذّخائر.

وَ نَعْمَةٍ كٰانُوا فِيهٰا فٰاكِهِينَ

الواو للعطف أي وكم تركوا أيضاً من أنواع النِّعم التّي كانوا منها متمتّعين في الدّنيا من المأكول و المشروب و الملبوس و القصور و غير ذلك و الفاكه المتمتّع بها بضروب اللّذة كما يتَّمتع الأكل بضروب الفاكه، قيل أنّ **النّعمة** بكسر النُّون من المنَّة و هو الإفضال و العطيّة و بالفتح من التَّنعيم و هو سعة العيش و الرّاحة، و قرأ أبو رجاء و الحسن و أبو الأشهب و الأعرج و غيرهم (فكهين) بغير ألف و معناه، أشرين بطرين قال الجوهري، فكه الرّجل، بكسر **الكاف** فهو فكه إذا كان طيّب النّفس مزاحاً، و الفكه، أيضاً الأشر و البطر هذا و المشهور بين القرّاء (فاكهين) و عليه المصاحف أي لاهين مازحين، و كيف كان ففي الكلام إشارة الى أنّ الدُّنيا و ما فيها من النِّعم ليست إلاّ لعباً و لهواً فالمغبون من غرَّته الدُّنيا و إعتمد عليها.

كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْمًا اٰخَرِينَ

أي كذلك حال الدُّنيا و ما فيها من النِّعم فلا بقاء لها و العاقل لا يعتمد على ما لا بقاء له و فى قوله تعالى: **وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْمًا اٰخَرِينَ** إشارة الى أنّ مالك الدُّنيا هو

ٱلسَّمَآءُ وَ ٱلْأَرْضُ كناية عن عدم تأثّر أهلهما و هذا الحكم ثابت لكلّ ظالم في كلّ عصر و زمانٍ إذ لا يمكن للمظلوم دفع شرّ الظّالم و اللّه قادر على كلّ شيءٍ و أن شئت قلت موت الظّالم موت الشّر و هو مطلوب كلّ مظلوم.

وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ، مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه نجّى بنيإسرائيل و هم قوم موسى من العذاب المهين، و الهون على وجهين:

أحدهما: تذلّل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضةً فيمدح به نحو:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا**(١).

و نحو ما روي عن النبّي صلّى الله عليه و آله و سلّم: **المؤمن هيّنٌ ليّنٌ**.

الثّاني: أن يكون من جهة متسلّطٍ مستخفٍّ به فيذّم به و على هذا.

قال الله تعالىٰ: **ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ**(٢).

قال الله تعالىٰ: **فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**(٣).

قال الله تعالىٰ: **وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**(٤).

قال الله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُهِنِ ٱللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**(٥).

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الآية من هذا القبيل و ذلك لأنّ فرعون عذّبهم عذاباً شديداً من ذبح الأبناء و إستحياء النساء و غير ذلك ممّا مرّ الكلام فيه سابقاً في تفسير الأيات الواردة في الباب.

و قد روي أنّ فرعون و قومه كانوا يكلّفون بنيإسرائيل المشّاق و يحملوهم القذارات و يكلّفونهم كنسها و تنظيفها و غير ذلك ممّا يعجز القلم عن تحريره و

١- الفرقان = ٦٣
٢- الأنعام = ٩٣
٣- فصّلت = ١٧
٤- البقرة = ٩٠
٥- الحجّ = ١٨

الّذي خلقها فهي لا تبقى لأحدٍ من خلقه كما قال تلك الأيّام نداولها بين النّاس، فقول فرعون: **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ** كذبٌ محض ناشئ عن عن جهله و غوايته.

فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمٰآءُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ

قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الحسن فما بكى عليهم حين أهلكهم اللّه أهل السّماء و أهل الأرض لأنّهم مسخوطٌ عليهم مغضوبٌ عليهم بإنزال الخزي بهم.

الثّاني: أنّ التّقدير أنّ السّماء و الأرض لو كانتا ممّن يبكي على أحدٍ لما بكتا على هؤلاء لأنّهم ممّن أهلكهم اللّه بالإستحقاق و أنزل عليهم رجزاً بما كانوا يكفرون و العرب تقول إذا أرادت أن تعظم موت إنسانٍ، أظلمت الشّمس و كسف القمر لفقده و بكت السّماء و الأرض و أنمّا يريدوا المبالغة كما قال الشّاعر:

الشّمس طالعةُ ليست بكاسفةٍ   تبكي عليك نجوم اللّيل و القمر

الثّالث: أنّهم لم يبك عليهم ما يبكي على المؤمن إذا مات مصلاّه و مصعد علمه، ذكره إبن عبّاس و إبن جبير و معناه لم يكن لهم عملٌ صالح، و قال الحسن ما بكى عليهم المؤمنون و الملائكة بل كانوا بهلاكهم مسرورين **وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ** أي عوجلوا بالعقوبة ولم يمهلوا، إنتهى ما ذكره في التّبيان، و قال صاحب الكشّاف أنّ ذلك على سبيل التمثيل و التخييل مبالغةٍ في وجوب الجزع و البكاء عليه كما قال الشّاعر:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنّك لم تجزع على إبن طريفٍ

أقول تفسير الآية واضح لا يحتاج الى هذه التكلّفات و هو أنّ اللّه أخبر فيها أنّ إهلاك فرعون و إغراقه في البحر كان بالإستحاق لظلمه و عناده و طغيانه و إدّعاءه الربوبيّة و لذلك لم يتأثّر و لم يتأسّف أحدٌ على موته من أهل الأرض و من أهل السّماء و هم الملائكة، بل صاروا مسرورين بموته فقوله: **فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ**

البيان عن ذكره فخَّلصهم اللّه تعالى عن العذاب حين أهلك فرعون و قـومه و وفّقهم للإيمان بموسى عليه السلام و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله، من فرعون كأنّه قال قائل و ممّن أنجاهم اللّه فقال تعالى: **مِنْ فِرْعَوْنَ** ثمّ وصف اللّه فرعون بوصفين:

أحدهما: العلُّو.

الثّاني: الإسراف.

فقال: **إِنَّهُ كٰانَ عٰالِيًا مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ** هذا إذا كان تقدير الكلام و هو من المسرفين و يمكن أن تكون، من، بيانيّة، أي أنّه كـان عـالياً مسـرفاً و ذلك لأنّ الإسراف من مصاديق العلوّ الّذي هو التّجاوز عن الحدّ و **العُلوّ** بضّم العين و اللاّم ضدّ السِّفل، و العلوّ الإرتفاع يقال، علا يعلو علوّاً و هو عالٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِى ٱلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعًا**(٢).

و من المعلوم أنّ العالي مسرفٌ لأنّه تـجاوز عـن حـدّ الإعـتدال و لا نـعني بالمسرف إلاّ هذا.

وَ لَقَدِ ٱخْتَرْنٰاهُمْ عَلىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعٰالَمِينَ

الإختيار هو إختيار الشّيء على غيره بالإرادة له لتفضيله عليه و مـثله الايـثار، أخبر اللّه تعالى مقسماً بأنّه إختار موسى و قومه على العالمين و أنّ هذا الإختيار كان مسبوقاً بالعلم و الإرادة فكان على سبيل الإستحقاق.

وَ اٰتَيْنٰاهُمْ مِنَ ٱلْاٰيٰاتِ مٰا فِيهِ بَلآٰؤٌا مُبِينٌ

المراد بالأيات، العصا، و اليد البيضاء و الطُّوفان، و الجراد، و الطّاعون، و القمّل، و الضّفادع، و الدَّم، و فلق البحر و إغراق فرعون و قومه و كلّها معجزات خارقات يعجز البشر أن يأتي بواحدةٍ منها و قوله: **فِيهِ بَلآٰؤٌا مُبِينٌ** فالبلاء الإختبار إذا كان

١- يُونس = ٨٣
٢- القَصص = ٤

بسبب النِّعمة، و العذاب إذا كان بالنّقمة.

قال الفرّاء البلاء قد يكون بالعذاب و قد يكون بالنّعمة، و المبين، الظّاهر أي فيما أعطيناهم من الأيات بلاءٌ ظاهرٌ بالنّعمة و هي أنّ اللّه أهلك فرعون و قومه و أيّة نعمةٍ أحسن من تخليصهم من شرّ فرعون و قومه.

إِنَّ هٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ

قيل هؤلاء إشارة إلى المشركين من كفّار قريش في عهد النّبي أخبر اللّه تعالى عنهم أنّهم قالوا:

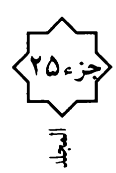
إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولٰى وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ

أي ليس بعد الموت حياة و فيه إنكار البعث، و ما نحن، أي لسنا بعد الموتة الأولى بمبعوثين و لا معاودين.

فَأْتُوا بِاٰبٰآئِنٰآ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ

أي قال الكفّار للمسلمين فأتوا بأبائنا، الّذين ماتوا قبلنا، **إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** في قولكم بالمعاد و أنّ اللّه تعالى يحي الموتى لأنّ القادر على النّشأة الثّانية قادرٌ على إعادة الأباء و إحياءهم بطريقٍ أولى.

و أجاب المفسّرون عنه بأنّ الإعادة في النّشأة الثّانية أنّما وجبت للجزاء لا للتكليف فلا تلزم إعادة الأباء و لا تجب، و الأحسن أن يقال في الجواب أنّ إعادة الأباء قبل يوم البعث لا فائدة فيه لأنّ الإعادة تجب للجزاء فتكون قبل يوم الجزاء عبثاً و ليس ذلك ممّا يدلّ على عدم قدرة اللّه فأنّ اللّه لا يفعل عبثاً.



أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ

تُبَّع بضّم التّاء و فتح الباء المشدّدة، قيل أنّهم كانوا رؤوساء سمّوا بذلك لإتّباع بعضهم بعضاً في الرّئاسة و السياسة و قيل تبّع ملكٌ يتّبعه قومه و الجمع التّبايعة، قاله في المفردات.

و قال الطّبري في تفسيره في قوله تعالى: **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ** ذكر لنا أنّ تبّعاً كان رجلاً من حمير سار بالجيوش حتّى حير الحيرة ثمّ أتى سمرقند فهدمها و ذكر لنا أنّه كان إذا كتب بإسم الّذي تسمّى و ملك برّاً و بحراً، و ذكر لنا أنّ كعباً كان يقول نعت نعت الرّجل الصّالح ذمّ اللّه قومه ولم يذّمه إنتهى.

و قال القرطبي ليس المراد بتبّع رجلاً واحداً بل المراد به ملوك اليمن فكانوا يسمّون ملوكهم التّابعة فتبّع لقبٌ للملك منهم كالخليفة للمسلمين، و كسرى للفرس و قيصر لرُّوم.

و قال أبوعبيدة سمّي كلّ واحدٍ منهم تبّعاً لأنّه يتبع صاحبه و قال الجوهري و التّبابعة ملوك اليمن واحدهم تبّع إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

إذا عرفت هذا فنقول الهمزة في قوله: **أَهُمْ** للإنكار أي أنّ هؤلاء الكفّار المنكرين للبعث و الجزاء ليسوا خيراً من قوم تبّع و الأمم المهلكة قبلهم و إذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء، و قيل المعنى أهم أظهر نعمةً و أكثر أموالاً أم قوم تبّع، و قيل أهم أعزّ و أشدّ و أمنع أم قوم تبّع.

و حاصل المعنى، أنّهم ليسوا خيراً منهم و حكم الأمثال واحد فكما أهلكنا قوم تبّع و من قبلهم كذلك نهلكهم و ذلك لوحدة الملاك فيهم و هو الجرم و الكفر و المجرم يستحقّ العذاب كائناً من كان.

وَ مٰا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ

يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات لم يكن لعباً بل

كان لمقصدٍ صحيحٍ و هو العبادة التّي هي فرعٌ على المعرفة و ذلك لأنّ فعل اللّعب لا يصدر من اللّه تعالى لأنّه خالقٌ حكيمٌ و من كان كذلك لا يخلق شيئاً عبثاً لا فائدة فيه و لذلك قال تعالى:

مٰا خَلَقْنٰاهُمٰآ إِلّٰا بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لٰا يَعْلَمُونَ

ما، نافية أي ما خلقنا السّموات و الأرض و ما بينهما إلاّ بـالحقّ أي لغـرضٍ صحيحٍ و هو المعرفة و لكنّ أكثرهم لا يعلمون ذلك يعني لا يعلمون صحّة ما قلناه لعدولهم عن النّظر فيه و الإستدلال على صحتّه قيل و فى ذلك دلالة على بطلان قول من قال أنّ المعارف ضروريّة و ذلک، لأنّها لو كانت لما نفي تـعلّق علمهم به.

و حاصل الكلام أنّ اكثر النّاس يظنّون أو يقطعون أنّا خلقناهم عبثاً فلا حساب و لا كتاب و لا بعث و لا نشور و لا سؤال و لا جواب ولم يعلموا.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ

يوم الفصل هو يوم القيامة سمّي بالفصل لأنّه اليوم الّذي يفصل فيه بين المحقّ و المبطل فيشفي صدور المؤمنين و يغيظ قلوب الكافرين لما يرونه من العذاب المسبّب عن الأعمال ثمّ وصف اللّه ذلك اليوم بقوله:

يَوْمَ لٰا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَ لٰا هُمْ يُنْصَرُونَ



أي أنّ يوم الفصل و هو يوم القيامة لا معين لهم و لا ناصر لأنّه يومٌ يفرّ المرء من أخيه و صاحبته و بنيه فكلّ إنسانٍ فيه مرهونٌ بعمله لا ينتفع بغيره و هذا لا ينافي شفاعة الشّافعين لأنّ الشّفاعة لا تحصل إلاّ بأمر اللّه و إذنه و المراد في الآية أنّه ليس لهم من يغني عنهم من غير أن يأذن اللّه له فيه على وجه الدّفع عـنه و النّصر له و بيّن ذلك بقوله: **وَ لٰا هُمْ يُنْصَرُونَ** ثمّ إستثنى مـن قـوله و لا هـم

ينصرون.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

قال في التّبيان، المولى ها هنا الصّاحب الّذي شأنه أن يتولّى معونة صاحبه على أموره فيدخل في ذلك إبن العمّ و الحليف و غيره ممّن هذه صفته استثنى ما أشرنا اليه بقوله: **إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ** فأنّ من يرحمه اللّه أمّا أن يسقط عقابه إبتداءً أو يأذن في إسقاط عقابه بالشّفاعة فيه إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره قدّس سرّه لا بأس به إلاّ أنّه لا يكفي في تفسير الكلام، و الحقّ أن يقال أنّ الإستثناء أمّا منقطعٌ أو متصّلٌ.

فعلىٰ الأوّل: معنى الكلام، لكن من رحم اللّه لا ينالهم ما يحتاجون فيه الى من يغنيهم من المخلوقين.

علىٰ الثّاني: أعني به الإتّصال معناه لا يغني قريبٌ عن قريبٍ إلاّ المؤمنين فأنّ اللّه يأذن لهم في شفاعة بعضهم لبعضٍ، و يحتمل أن يكون المعنى، إلاّ من رحم اللّه من الكفّار، كالمستضعفين منهم و الصّبيان و السُّفهاء و أمثالهم ممّن لا يقدر على معرفة الحقّ و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالى يغفر لمن يشاء و يعذّب كذلك و هو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و الدّليل عليه أنّه العزيز الرّحيم أي أنه القادر على كلّ شيءٍ و هو الّذي سبقت رحمته غضبه و مع ذلك وسعت رحمته كلّ شيء.

إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ، طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ، كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن طعام الأثمين العاصين فقال: **إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ، طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ** و هو الّذي يأثم و يعصي في الدُّنيا فيستحقّ العقاب بسبب معاصيه قيل المراد به ها هنا أبو جهل، و **الزّقوم** بفتح الزّاء و ضمّ القاف المشّددة أطعمة كريهة في النّار و منه أستعير، زقم فلان، و تزقّم، إذا إبتلع شيئاً

كريهاً ثمّ شبّه اللّه تعالى الزّقوم بأنّه مثل المهل، و هو الشّئ الّذي يذاب في النّار حتّى يشتدّ حرّه كالفضّة و الرّصاص و غيرهما ممّا يماع بالنّار سمّي بالمهل، لأنّه يمهل في النّار حتّى يذوب.

و قال إبن عبّاس المهل ما أذيب في النّار كالفضّة، و قيل أنّه درديّ الزّيت في النّار، ثمّ وصف اللّه المهل بأنّه، يغلي في البطون، من حرارةٍ كما يغلي الحميم و هو الماء المغلّي على النّار فالمهل يغلي في بطون أهل النّار كما يغلي الماء بحرّ الإيقاد، و الحميم الحارّ، و منه أحمّ اللّه ذلك من لقاه أي أدناه و قرّبه، لأنّ ما حمّ، فللأسراع، و ما يود فللأبطاء و منه، حمّ ريش الطّائر إذا قرب خروجه، و لمّا بيّن اللّه تعالى طعام الكافر الظّالم في النّار أشار الى ما يتلوه من العذاب فقال تعالى للملائكة.

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ، إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ

في هذه الأيات أشار اللّه تعالى بما يلحقهم من العذاب بعد الطّعام فقال: **خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ** يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكفّار و أن يعتلوهم الى سواء الجحيم، يعني الى وسطه، و العتل زعزعة البدن بالجفاء و الغلظة للإهانة، و قيل العتل الأخذ بتلابيب الرّجل و جرّه اليك لتذهب به الى حبسٍ أو بليّةٍ يقال عتلته عتلاً إذا جذبته جذباً عنيفاً، و قوله: **إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ** أي الى وسط الجحيم، ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم، قيل أي من ماء دماغه الحميم فيصّب الملك فوق رأسه ماءٍ حميماً، فيتّفتت رأسه من دماغه فيجري على جسده فيقول الملك له، ذق أنّك أنت العزيز الكريم، يقال له ذلك على وجه التّهجين له بما كان يدّعي له ممّا ليس به أي أنت كذلك عند نفسك و قومك و من تبعك من الجّهال قيل و يجوز أن يكون على معنى النّقيض كأنّه قيل

أنت الذليل المهين قيل أنّ الآية نزلت في أبي جهل و قد قال: (أنا أعزّ من بها و أكرم) ذكره قتادة، و الحقّ أنّ المراد بها العموم و أن كان المورد خاصّاً مع أنّ خصوصيّة المورد أيضاً لا دليل عليه و أنّما قال قتادة ما قال من عند نفسه وكيف كان فلفظه خبر و معناه حكاية عمَّن يقول له ذلك.

و أمّا قوله: **إِنَّ هٰذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ** فالإمتراء الشكّ و معناه أنّ الّذي ترونه من العذاب يوم القيامة هو الّذي كنتم تشكّون فيه في الدُّنيا.

و لمّا بيَّن اللّه تعالى حال الكفّار في القيامة أشار الى أحوال المتّقين الّذين عرفوه ثمّ عبدوه و أطاعوه و إجتنبوا معاصيه في دار الدّنيا.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقٰامٍ أَمِينٍ

قال الجوهري، و أمّاً **المقام** بفتح الميم و المقام بضمّها فقد يكون كلّ واحدٍ منهما بمعنى الإقامة و قد يكون بمعنى موضع القيام لأنّك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوحٌ و إذا جعلته من أقام يقيم فمضمومٌ لأنّ الفعل إذا جاوز الثّلاثة فالموضع مضموم الميم لأنّه مشبّهٌ بنبات الأربعة نحو دحرج و هذا مدحرجنا، و قيل المقام بالفتح المشهد و المجلس و بالضمّ يمكن أن يراد به المكان و يمكن أن يكون مصدراً و يقدّر فيه المضاف أي موضع الإقامة إنتهى.

و قوله تعالى: **أَمِينٍ** فهو من الامن أي يؤمن فيه من الأفات و الحوادث هو الفرق بين المقام في الجنّة و المقام في الدُّنيا فأنّ المقام في الدُّنيا لا يؤمن من الأفات و أيّة آفةٍ أعظم من زواله و هذا بخلاف المقام في الجنّة فأنّه لا زوال له.

فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ

هو بدلٌ من مقام أمين، كأنّه قيل ما هذا المقام، فقال تعالى: **فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ** و الجنّة البستان و **العُيون** بضمّ العين جمع عين، و هي الماء الجاري تحت البساتين و المعنى أنّ المتّقين في بساتين و عيون جارية، كقوله تعالى: **جَنّٰاتٍ**

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ هذا من حيث المقام والمكان.

و أمّا من حيث اللّباس فهم:

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ

لايرى بعضهم قفا بعضٍ متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا، و**السُّنْدُس** بضمّ السّين ما رقَّ من الدّيباج و الإستبرق ما غلظ منه، و قيل، السندس الحرير، و الإستبرق الديّباج الغليظ و قيل معنى متقابلين، أي يقابل بعضهم بعضاً بالمحبّة لا متدابرين بالبغضة.

كَذٰلِكَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ

قيل الحور جمع حوراء من الحور و هو شدّ البياض.

و قال قتادة، بحورٍ، أي ببيضٍ و منه الحور لبياضه، و قوله: **عِينٍ فالعين** بكسر العَين جمع، عيناء و هى الواسعة العين الحسنة، و قيل العيناء الشديدة السَّواد، سواد العين الشديدة البياض بياضها و المقصود من ذلك كلّه هو بيان أوصاف الحور و أنّها في أعلى درجة الحسن من جميع الجهات.

يَدْعُونَ فِيهٰا بِكُلِّ فٰاكِهَةٍ اٰمِنِينَ

أي يستدعون في الجنَّة بكلّ فاكهةٍ و ثمرةٍ شاءوا غير خائفين فوتها و زوالها، فأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلّذ الأعين، مع دوامه و بقاءه و قد ورد في الأخبار أنّ شجرة الجنَّة مثمرةٌ بكلّ الثّمار و ليست ثمرتها نوعاً خاصّاً من الثّمرات و لذلك قال يدعون فيها بكلّ فاكهةٍ.

لاٰ يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولٰى وَ وَقٰيهُمْ عَذٰابَ ٱلْجَحِيمِ

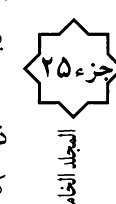
الذَّوق بفتح الذَّال وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر يقال له الأكل و إختير في القرأن لفظ الذّوق في العذاب لأنّ ذلك و أن كان في التّعارف للقليل فهو مستصلح للكثير فخصّه بالذّكر ليعمّ الأمرين و حيث أنّ الموت نوعٌ من العذاب لأنّه عبارة عن فراق الأحبّة عبّر عنه بالذَّوق، و المراد بالموتة الأولى الموت الذّي لابدّ منه لكلّ مخلوقٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلٰاقِيكُمْ**[2].

و معنى الآية أنّ المتّقين لا يذوقون في الجنَّة الموت البَّتة لأنّهم فيها خالدون و الخلود ينافي الموت ثمّ قال تعالى: **وَ وَقَيٰهُمْ عَذٰابَ ٱلْجَحِيمِ**، أي أنّ اللّه تعالى يحفظهم عن عذاب النّار، و على هذا فالاستثناء في قوله: **إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولىٰ** منقطعٌ، أي لكنّ الموتة الأولى قد ذاقوها في الدّنيا، و قيل أنّ، إلاّ، بمعنى بعد أي لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الأولى، و قيل (إلاّ) بمعنى سوى أي سوى الموتة الأولى ذاقوها في الدّنيا و هو كما تقول، ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

و قال بعضهم، إلاّ الموتة الأولى، معناه أنّ المؤمن إذا أشرف على الموت إستقبلته ملائكة الرّحمة و يلقى الرَّوح و الرّيحان، فكان موته في الجنَّة لإتّصافه بأسبابها فهو إستثناءٌ صحيحٌ و الموت عرضٌ لايذاق و لكن جعل كالطّعام الّذي يكره ذوقه فأستعير فيه لفظ الذَّوق إنتهى.



أقول ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّ جميع الأقوال يرجع إلى قولٍ واحدٍأنّ المؤمن ذاق أو يذوق موتة الأولى كغيره من المخلوق و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ و أمّا كيفيّة الموت فلاكلام لنا فيها فعلاً.

١- الرّحمن = ٢٦ ٢- الجمعة = ٨

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

أي فعل اللّه تعالى ذلك بهم تفضّلاً منه عليهم و قوله: **فَضْلًا** فهو منصوب على المصدر و تقديره فضل فضلاً منه تعالى و أيّ فضلٍ أحسن و أرجح من التّوفيق في الدّنيا إلى أعمالٍ صارت موجبة للدّخول في الجنّة و الخلود فيها و التنعّم بأنواع النِّعم التّي لا يدرك و لا يوصف و لذلك قال تعالى: **ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ذلك، إشارة إلى ما أعطاهم اللّه من المقام في الجنَّة وما يتبعه من النِّعم و من المعلوم أنّه لا فوز و لا فلاح أعظم منه و هو ظاهر.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

الضّمير في، يسَّرناه، راجع على القرأن أي أنزلناه باللّغة العربيّة التّي تتكلّم أنت و قومك بها لعلّهم أي لعلّ قومك يتفقّهوا و يتفكّروا فيه فيعلموا أنّ الأمر على ما قلناه، و هذا هو السِّر في إنزال الكتب السّماوية بلسان النّبي و قومه لأنّه يكون أتمّ حجّةً على القوم كما أنّ النّبي المبعوث إليهم أيضاً كذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**[١].

و قال في القرأن: **وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**[٢].

و إذا كان النّبي و الكتاب المنزل عليه بلسان قومه فلا عذر لهم يوم القيامة و هو واضح.

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ

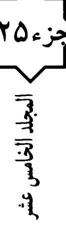
الإرتقاب الإنتظار أي فإنتظر يامحمّد مجئ ما وعدتك به من أحوال الكفّار و المتّقين يوم القيامة، أنّهم أي قومك أيضاً منتظرون ذلك اليوم لأنّهم في شكّ فيما أنزلناه إليك و أخبرناهم به في الدّنيا، و قيل المعنى أنّهم منتظرون لك الموت، و قيل معنى الكلام إنتظر الفتح و النّصر من ربّك أنّهم أيضاً منتظرون بزعمهم قهرك،

١- إبراهيم = ۴

٢- النّحل = ١٠٣

و قيل إنتظر أن يحكم اللّه بذلك بينك و بينهم فأنّهم ينتظرون بك ريب الحدثان، و قيل يغر ذلك و أنت ترى أنّ الأقوال متقاربة المعنى و المأل فيها واحد و الجامع أنّ ما وعدناك حقّ لا مرية فيه و من أصدق من اللّه قيلاً.

■



سُورَةُ ٱلجاثِيَةِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ ٱلْكِتابِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَاٰياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ اٰياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَ ٱخْتِلافِ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ وَ مآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ ٱلرِّياحِ اٰياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ اٰياتُ ٱللّٰهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللّٰهِ وَ اٰياتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ اٰياتِ ٱللّٰهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَ إِذا عَلِمَ مِنْ اٰياتِنا شَيْئًا ٱتَّخَذَها هُزُوًا أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرٰآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئًا وَ لا مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْلِيآءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هٰذا هُدًى وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ

عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَليمٌ ﴿١١﴾ اَللّٰهُ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَميعًا مِنْهُ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذينَ لا يَرْجُونَ أَيّامَ اللّٰهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَ لَقَدْ آتَيْنا بَني إِسْرائيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمينَ ﴿١٦﴾ وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلىٰ شَريعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا وَ إِنَّ الظّالِمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقينَ ﴿١٩﴾ هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

يَبُثُّ: البّث في الأصل التّفريق و إثارة الشّيئ كبثّ الرّيح التُّراب.

دَآبَّةٍ: الدَّب والدَّبيب مشيٌ خفيفٌ و يستعمل ذلك في الحيوان، و في الحشرات أكثر و يستعمل في كلّ حيوانٍ و أن إختصّت في التّعارف بالفرس.

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ: الإفك كلّ مصروفٍ عن وجهه الذّي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلةً المؤتفكة، و الأثيم، مبالغة في الإثم و هو الذّنب.

هُزُوًا: الهزء السّخرية و الإستهزاء.

رِجْزٍ: الرّجز في الأصل الإضطراب و المراد به هاهنا الزّلزلة.

وَلِتَبْتَغُوا: الابتغاء الطَّلب.

بَغْيًا: البغي طلب التّجاوز عن الحدّ.

◀ الإعراب

ءَايَٰتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ يقرأ بكسر التّاء و فيه وجهان:

أحدهما: أنّ، أن مضمرة حذفت لدلالة الأولى عليها و ليست أيات معطوفة على أيات الأولى لما فيه من العطف على عاملين.

الثّانى: أن يكون كرّر أيات للتّوكيد لأنّها من لفظ أيات الأولى و يقرأ بالرّفع على أنّه مبتدأ، و فى خلقكم، خبره قدّم عليه نحو في الدّار زيدٌ و قيل هي في الرّفع على التّوكيد أيضاً و أمّا قوله وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ فمجرورة، بفي مقدّرة غير الأولى و، أيات بالكسر و الرّفع على ما تقدّم يَسْمَعُ هو في موضع جرّ على الصّفة أو حال من الضّمير في، أثيم، أو مستأنف وتُتْلَىٰ حال و كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا حال أيضاً وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا معطوفٌ على ماكسبوا و، ما، فيهما بمعنى الّذي أو مصدريّة جَمِيعًا مِنْهُ متّعلق بسّخر أو هو نعتٌ لجميع و الباقي واضح.

◀ التّفسير

حمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة التّي في أوائل السُّور و قلنا أنّ العلم بها مختصٌ بقائلها و هو اللّه تعالى و إذا كان كذلك فالسّكوت عنها أولى من نقل الأقوال التّي لا فائدة فيها و المشهور أنّها أسامي السُّور و اللّه أعلم.

تَنْزِيلُ ٱلْكِتٰابِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

وصف اللّه تعالى الكتاب بأنّه تنزيلٌ من اللّه، قال بعضهم حم، مبتدأ و تنزيلٌ خبره، و قيل تنزيل الكتاب مبتدأ، و من اللّه، خبره، و الكتاب القرأن و المعنى أنّ تنزيل القرأن من اللّه القادر العالم بمصالح العباد الّذي هو حكيمٌ في فعله و تدبيره للأمور.

إِنَّ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأٰيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

الأيات جمع أية و هي العلامة و المراد بها في المقام الأيات الدالات على توحيده و أنّه لا خالق إلاّ هو و أنّما خصّ ذلك بالمؤمنين، لأنّ غير المؤمن باللّه لا يقّر بذلك لإنكاره الخالق فضلاً عن فعله، و قد تقدّم الكلام في هذا الباب غير مرّةٍ و لنعم ما قيل:

وفـي كـلّ شـيءٍ له أيـةٌ تـدُل عـلى أنّـه واحـدُ

وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰآبَّةٍ اٰيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

إن قلت قوله تعالى: **إِنَّ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأٰيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ** عامٌّ يشمل خلق الإنسان و غيره ممّا يبثّ من دابّة على الأرض، و بعبارةٍ أخرى أنّ قوله: **وَ فِي خَلْقِكُمْ** داخل في قوله: **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** فما وَجه تخصيصه بالذّكر ثانياً أليس هذا من التكرار.

قلت في الآية السّابقة حكم اللّه حكماً كلّياً و فى الآية الثّانية خاطب الإنسان

فكأنّه قال أن لم يكن علمٌ بما خلق اللّه في السمّوات و الأرض من عجائب الخلقة و أنّ السّموات بغير عمدٍ ترونها فأنظروا إلى ما في الأرض من خلق أنفسكم و غيركم من الدَّواب بعين البصيرة ففي الحقيقة هذه الآية نظير قوله تعالى: **وَ فيِ أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**(١) فأنّ الأرض و ما فيها من الموجودات محسوسة لكلّ أحدٍ و المحسوس مقدّمٌ على المعقول ثمّ فصلّ الكلام في المحسوسات.

وَ ٱخْتِلافِ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهارِ وَ ماۤ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّماۤءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ ٱلرِّياحِ اٰياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

معنى إختلاف اللّيل و النّهار تعاقبهما، و قيل زيادتهما و نقصانهما، و يحتمل أن يكون المراد بإختلافهما اخلقهما في النُّور و الظُّلمة، و إنزال الماء من السّماء من الغيث و المطر و إحياء الأرض بالنّبات بعد الجدب و القحط فيثبت اللّه بذلك رزق الحيوان و المراد بتصريف الرّياح تغييرها و جريانها على ما تقتضيه المصلحة و قد تقدّم الكلام في جميع ذلك في سورة البقرة و غيرها و سمّي المطر و الغيث رزقاً لأنّه سبب الرِّزق.

تِلْكَ اٰياتُ ٱللّٰهِ نَتْلُوها عَلَيْكَبِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَ ٱللّٰهِ وَ اٰياتِهِ يُؤْمِنُونَ

أي هذه أيات اللّه و حججه و براهينه الدالّة على وحدانيّته و قدرته، نتلوها عليك بالحقّ، الّذي لا مرية فيه لأنّها من المحسوسات الّتي يدركها جميع العقلاء فإذا لم يؤمنوا بها فبأيّ حديثٍ بعد حديث اللّه و أياته يؤمنون و بعبارةٍ أخرى من أنكر كلام الحقّ الّذي لا باطل و لا كذب فيه كيف يقبل الحديث من غيره و هو

١– الذّاريات = ٢١

يحتمل الصّدق و الكذب، و أن شئت قلت من أنكر المحسوسات كيف يقبل المعقولات الّتي وراء المحسوسات و هو عالم الأخرة وما فيها من الجنّة و النّار و فى الآية إشارة إلى أنّ الكفّار لا يقبلون الحقّ فذرهم في خوضهم يلعبون و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

قيل، ويل، وادٍ في جهنّم و الأفّاك الكذّاب، فأنّ الإفك الكذب و قوله: **أَثِيمٍ** أي مرتكبٌ للإثم، ذكر اللّه تعالى أنّ من كان متصّفاً بالكذب و الإثم في الدّنيا، مأواه جهنَّم و بئس المصير و أيُّ إفكٍ أشنع و أقبح من الكذب على اللّه ثمّ أيُّ إثمٍ أعظم من معصية اللّه و إنكار توحيده قيل المراد به النَّضر بن الحارث و عن إبن عبّاس أنّه الحارث بن كلدة.

و حكى الثّعلبي أنّه أبو جهل و أصحابه و لاحقّ أنّ الأفّاك الأثيم، مآله إلى جهنّم و مقّره الويل فيها أيّ شخصٍ كان.

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

هذه الآية في الحقيقة تفسّر الآية السّابقة، كأنّه قيل، و من الأفّاك الأثيم، الّذي حكم اللّه بأنّ له الويل، فقال تعالى هو الّذي يسمع أيات اللّه تتلى عليه، يعني أيات القرأن ثمّ يصُر أي يتمادى على كفره متعظّماً في نفسه عن الإنقياد و الطاعة كأنّه لم يسمعها، و الضّمير ضمير الشّأن ثمّ قال تعالى لنبيّه فبَّشره بعذابٍ أليمٍ أي مؤلمٍ يوم القيامة.

ثمّ أخبر اللّه تعالى عن هذا المتكبر المعرض عن أيات اللّه بسبب إستكباره أنّه إتَّخذ آيات اللّه هزواً.

وَ إِذاٰ عَلِمَ مِنْ اٰياٰتِناٰ شَيْئًا ٱتَّخَذَهاٰ هُزُوًا أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذاٰبٌ مُهِينٌ

أي و إذا علم المستكبر من أياتنا شيئاً قليلاً أو كثيراً إستهزاء بها و لم يتنبّه أنّه حقٌّ و هذا منه ذنبٌ أخر أعظم من الأوّل لأنّ الإستهزاء بكلام اللّه أعظم ذنباً من إنكاره و لذلك قال أولئك لهم عذابٌ مهين، أي مخزٍ و مذلٍّ ثمّ حكم بأنّ من وراءه جهنّم، قال إبن عبّاس أي أمامهم جهنَّم.

مِنْ وَراٰئِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ ماٰ كَسَبُوا شَيْئًا

من المال و الأولاد و المقام و أمثال ذلك و قيل لا يغني عنهم ما كسبوا من عبادة الأصنام و الجامع لا يغني عنهم ما كسبوا من الدّنيا في الأخرة **وَ لاٰ ماٰ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْلِياٰءَ وَ لَهُمْ عَذاٰبٌ عَظِيمٌ** و ذلك لأنّ يوم القيامة لا ينفع فيه مالٌ و لا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم.

هٰذاٰ هُدًى وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰياٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذاٰبٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ

هذا، إشارة إلى القرأن و هو الكتاب الّذي قال اللّه تعالى فيه: **تَنْزِيلُ ٱلْكِتاٰبِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**[۱] وصفه اللّه تعالى بأنّه هدىً أي هادٍ، و أهو نفس الهداية مبالغة و إدّعاءً نحو زيدٌ عدلٌ و الّذين كفروا بأيات اللّه و أنكروها لهُم عذابٌ من رجزٍ أليم، الرِّجز العذاب و قيل الرِّجز القذر مثل الرِّجس أي لهم عذابٌ من تجّرع الشّراب القذر، و وقله أليم، أي مؤلمٌ موجعٌ.

ٱللّٰهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

و المعنى اللّه الّذي سخَّر لكم البحر، لا غيره من الأصنام و الأوثان و أنّما

۱- الزّمر = ۱

سخَّرها لكم **لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا** أي و لتطلبوا الرِّزق من فضله بسبب التّجارة و نقل الأمتعة من مكانٍ إلى مكان أخر.

و من المعلوم أنّ هذا منه تعالى إحسانٌ و إنعامٌ و قد حكم العقل بأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً، و لذلك قال: **وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** أي لكي تشكرون، و بعبارةٍ أخرى أنّه محسنٌ إليكم في فعله فهو مستّحقٌ للشّكر به على وجهٍ لا يجوز لغيره و من كفر فأنّ اللّه غنّيٌ عن العالمين.

وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

الواو للعطف أي أنّ اللّه تعالى سخَّر لكم ما في السّموات و ما في الأرض أيضاً، و التسخير في الأصل سياقة إلى الغرض المختّص قهراً، و هو عبارة أخرى عن التَّسليط أي سلَّطكم على ما في السّموات كما سلّطكم على البحر و فى هذه الآية إشارة إلى أنّ الإنسان قادرٌ على تسخير السموات و الأرض بأذن اللّه تعالى بحسب إستعداده و لياقته لو عرف قدره.

و من المعلوم أنّ مقام الإستعداد و القوّة مقدّم على مقام الفعليّة فما ذكره اللّه تعالى إشارة إلى الأوّل و أمّا الخروج عن القوّة إلى العقل فهو وظيفة العبد و قد شاهدنا في زماننا هذا أنّ السُّفن الفضائيّة سخَّرت كرة القمر و لا يبعد تسخير سائر الكرات أيضاً في المستقبل كما أنّ الآية مشعرة به.

و حاصل الكلام أنّ الإنسان الّذي قال اللّه تعالى فيه **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ**[1] لا يعرفه إلاّ خالقه الّذي خلقه و جعله مسلّطاً على جميع ما في السّموات و الأرض، و هذا هو المراد بقوله جميعاً منه، أي أنّ هذا التسخير جميعاً

١- المؤمنون = ١۴

منه تعالى لأنّه فعله و خلقه و إحسانٌ منه و إنعام، و قرئ **جَميعا منهُ** بكسر الميم و تشديد النّون و تنوين الهاء منصوباً على المصدر، و المنّة التّفضل، أي أنّ تسخير ما في السّموات و الأرض جميعاً منّةٌ من اللّه عليكم و تفَضلٌ و رحمة يجب الشّكر عليه لمن كان له عقل كما قال أنّ في ذلك لأيات لقومٍ يتّفكرون و من المعلوم أنّ التّفكر للعاقل لا للمجانين.

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

خاطب اللّه نبيّه و أمره أن يقول للمؤمنين أن يغفروا و يعفوا للّذين لا يرجون أيّام اللّه، أي لا يخافون عذابه و هم الكفّار و المشركون الّذين لم يؤمنوا باللّه و رسوله إذا أتاكم الأذى و المكروه منهم فأنّهم لا يرجون ثوابه بالكّف عنكم، و قيل معناه، للّذين لا يرجون ثواب اللّه للمؤمنين، و المغفرة هاهنا ترك مجازاتهم على أذاهم و لا يكافوهم ليتوّلى اللّه مجازاتهم.

و قوله: **يَغْفِرُوا** جواب أمرٍ محذوف دلّ عليه الكلام و تقديره، قل لهم إغفروا يغفروا و صار (قل لهم) على هذا الوجه يغني عنه ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول الظّاهر أنّ الآية نزلت في الصّفح و العفو عن الكفّار في أذاهم المؤمنين و لذلك قيل أنّها نسخت بقوله تعالى: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**[1].

و الحقّ أنّها غير منسوخة و اللّه تعالى أمر فيها بالصّفح و العفو عن الخاطئ الجاهل المنكر للحساب يوم القيامة و ذلك لأنّ العفو أقرب في جذبه إلى الإسلام لأنّه أي العفو من المداراة التّي هي من أوصاف الأنبياء مع الكفّار سيّما نبّي الإسلام الّذي بنى تبليغ الأحكام على المداراة لا على الشّدة و المعاملة بالمثل و هذا أصلٌ اصيل في جذب المخالف إلى الحقّ و دونه خرط القتاد.

١- الحجّ = ٣٩

قال بعض المفسرين من العامّة أنّها نزلت في عمر بن الخطّاب مع عبد اللّه إبن أبّي في غزوة بني المصطلق فأنّهم نزلوا على بئرٍ يقال لها، المريسيع، فأرسل عبد اللّه غلامه ليستسقي و أبطأ عليه فقال له عبد اللّه، ما حسبك قال غلام عمر بن الخطّاب قعد على فم البئر فما ترك أحداً يستسقي حتّى ملأ قرب النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرب أبي بكر و ملأ لمولاه فقال عبد اللّه ما مثلنا و مثل هؤلاء إلاّ كما قيل، سمِّن كلبك يأكلك، فبلغ عمر قوله فإشتمل على سيفه يريد التّوجه إليه ليقتله فأنزل اللّه هذه الأية، قال هذه رواية عطا عن إبن عبّاس.

و روى عنه ميمون بن مهران قال، لمّا نزلت **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**(۱) قال يهودي بالمدينة يقال له فنخاص، إحتاج ربّ محمّد، فلا فلمّا سمع عمر بذلك إشتمل على سيفه و خرج في طلبه فجاء جبرئيل عليه السلام إلى النّبي و قال أنّ ربّك يقول: **قُلْ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا يَغْفِرُوا** ثمّ أطال الكلام بما لا فائدة في نقله و الحقّ أنّها نزلت لبيان حكم كلّيٍ في جميع الموارد و أنّ العفو و الصَّفح عن الذّنب حسنٌ ممدوحٌ كما مرَّ.

و أمّا قوله: **لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ** أي ليجزي اللّه قوماً كذلك و قرئ، بضّم الياء و فتح الزّاء على الفعل المجهول و هو شاذّ و كيف كان فالمعنى واضح لا خفاء فيه فأنّ المقصود إيكال الأمر إلى اللّه تعالى:

مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا ثُمَّ إِلٰى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

لمّا حكم اللّه تعالى في الآية السّابقة بالعفو و الصَّفح عن المذنب المسيءمن الأعمال الصالحة و الأفعال الحسنة حكم في هذه الآية بأنّ من عمل صالحاً فلنفسه أي نفعه عائد إليه في الدنيا و الأخرة و من أساء في قوله و فعله في حَّق الغير فضرره عائد عليه أيضاً إذ لا تزر وازرةٌ وزر أخرى ثمّ قال تعالى: **ثُمَّ إِلٰى**

۱- البقرة = ۲۴۵

رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ بعد الموت لقوله تعالى: **إنّا لِلّهِ وَ إنّآ إلَيْهِ راجِعُونَ.**

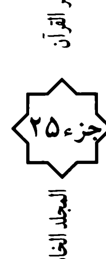
و في يوم القيامة يحكم اللّه بين عباده فيجزي كلّ واحدٍ منهم جزاء عمله إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و لا يظلم ربّك أحداً و محصلّ الكلام أنّ الإنسان مختار في فعله و قوله في الدنيا و لكُلّ عملٍ ثمرة تختَّص به (ولمثل ذلك فليعمل العاملون).

وَ لَقَدْ اٰتَيْنا بَنيٓ إسْرآئِيلَ ٱلْكِتابَ وَ ٱلْحُكْمَ وَ ٱلنُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى ٱلْعالَمِينَ

بنيإسرائيل قوم موسى إبن عمران و هم الّذين أنجاهم اللّه من شرّ فرعون و أعطاهم الكتاب و هو التّوراة الّتي أنزلت على موسى، و الحكم، قيل هو الفصل بين الخصمين و بين الحّق و الباطل.

و قيل هو ألفهم في التّوراة، و النبوّة، يعني جعل اللّه الأنبياء من وقت يوسف إلى زمن عيسى منهم و يعبّر عنهم بأنبياء بنيإسرائيل فمنهم من كان صاحب كتابٍ و شريعةٍ كموسى و عيسى و منهم من لم يكن كذلك و هم كثيرون، و رزقناهم من الطيّبات، إشارة إلى الأقوات و الثّمار و الأطعمة و غيرها من النّعم الّتي يحتاج النّاس إليها في تعيشّهم و بقائهم، و قيل المراد به المنّ و السّلوى في التّيه **وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى ٱلْعالَمِينَ** أي على عالمي زمانهم، و التّفضيل جعل الشّئ أفضل من غيره بإعطائه من الخير ما لم يعط غيره، أو بالحكم، لأنّه أفضل منه فأنّ اللّه تعالى فضَّلهم بما أعطاهم من الخير على عالمي زمانهم، و قال قوم فضَّلهم بكثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم السّابقة.

وَ اٰتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا إلّا مِنْ بَعْدِ ما جآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إنَّ رَبَّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ



الواو للعطف على ما أعطاهم اللّه أي و أتيناهم أيضاً، بينات من الأمر، أي دلالات و براهين واضحات من الأمر، فما أختلفوا، أي لم يختلفوا، **إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا** و ظلماً، بينهم، **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ** فيما أختلفوا فيه يوم القيامة هذا تفسير ألفاظ الآية و فى هاتين الآيتين نكات و دقائق لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: أنّ اللّه تعالى أعطى بنيإسرائيل الكتاب و الحكم و النبوّة، فالكتاب إشارة إلى الدّين و أحكامه، و الحكم إشارة إلى العلم بالقضاء و رفع الخصومات بين النّاس و إجراء العدالة بينهم، و النبوّة إشارة إلى شرف البيت و تقرّب أنبيائهم إلى اللّه و لا نعمة في عالم الوجود فوق هذه النّعم، ثمّ رزقهم من الطّيبات و هى النِّعم الماديّة، ففي الحقيقة أكمل اللّه النّعم العقليّة المعنّوية و المادبّة على قوم بنيإسرائيل.

الثّانية: أنّ اللّه تعالى فضلّهم على سائر الأقوام و الملل بعد كونهم ضعفاء أذّلاء في عصر فرعون و أعوانه الّذين كانوا يسّومونهم سوء العذاب فيقتلون أبنائهم و يستحيون نسائهم، و شرّفهم و فضّلهم على عالمي زمانهم و هى أيضاً من أحسن النِّعم.

الثّالثة: أنّه تعالى أتاهم بيّنات الأمر و هى الدّلالات و البراهين الواضحات التّي لا خفاء فيها و هى أيضاً من أحسن النّعم، ثمّ أنّهم بعد ذلك إختلفوا و إختاروا طريق البغي و الظُّلم و الخروج عن حدّ الإعتدال و بعبارةٍ أخرى لم يشكروا على ما أتاهم اللّه من النّعم بل كفروا بها أنّ في ذلك لعبرةٍ لأولي الأبصار مع أنّ العقلاء قد أطبقوا على وجوب شكر المنعم، فالآية لا تدلّ على مدح بنىإسرائيل بل تدُّل على ذمّهم و كفرانهم و طغيانهم و أنّ الإنسان ليطغى أن رأه إستغنى و أمّا موارد إختلافهم في الإعتقادات فكثيرة جدّاً و أهمَّها و أشنعها قولهم بأنّ عزير إبن اللّه كما حكى اللّه تعالى عنهم في كتابه حيث قال:

وَ قَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللّٰهِ وَ قَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللّٰهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(١).

و أيّ إختلافٍ أشدَّ و أعظم من الإختلاف في التّوحيد و جعل المخلوق شريكاً للّه تعالى، و في قوله تعالى: **بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ** إشارة إلى نُقطةٍ دقيقة و هي أنّ الشّرك باللّه سرى من علمائهم إلى جهالهم و هو عجيبٌ لأنّ وظيفة العالم إرشاد الجاهل إلى الحقّ لا إضلاله و إغواءه، و لذلك قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: **إذا فسد العالم فسد العالَم.**

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

خاطب اللّه نبيّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و قال، ثمّ، بعد أنبياء بني إسرائيل، جعلناك، يا محمّد، على شريعةٍ من الأمر، و الشريعة السنّة التّي من سلك طريقها أدّته إلى البغية كالشّريعة التّي هي طريق إلى الماء و أن شئت قلت الشريعة هي العلامات المنصوبة من الأمر و النّهي المؤديّة إلى الجنّة، و أنّما قال جعلناك على شريعةٍ على وجه التّنكير ولم يقل على شريعتهم أو على شريعته، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم كان أفضل الأنبياء و أشرفهم و دينه و شريعته ناسخٌ لأديانهم و الأفضل لا يكون تابعاً للمفضول و أنّ الإسلام يعلو و لا يعلى عليه، فكما أنّ النّبي كان أفضل كذلك دينه أكمل و أفضل و أشرف.

و على هذا فكانت شريعته مستقلّة غير تابعة لغيرها من الشّرائع و لذلك:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلَامُ**(٢) **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ**

١- التّوبة = ٣٠
٢- أل عمران = ١٩

دينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخٰاسِرِينَ[۱].

ثمّ أمر نبيّه بمتابعة شريعته و قال: **فَاتَّبِعْهٰا وَ لٰا تَتَّبِعْ أَهْوٰآءَ ٱلَّذِينَ لٰا يَعْلَمُونَ** أي و لا تتّبع أهواء الجهّال الّذين لا علم لهم بحقيقة الأمر فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و هم الكفّار و المنافقين أو مطلق الجهّال كائناً من كان.

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ ٱللّٰهِ شَيْئًا وَ إِنَّ ٱلظّٰالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰآءُ بَعْضٍ وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ

هذه الآية بمنزلة البرهان على عدم متابعة الجهّال و ذلك لأنّ اللّه تعالى علّل الحكم بأنّهم لن يغنوا عنك من اللّه شيئاً، أي أنّهم لا يقدرون على شئ أبداً و متابعة العاجز غير معقولٍ ثمّ وصفهم بأنّهم في خوضهم يلعبون فأنّ الظالم لا يكون إلاّ وليّاً لظالم أخر مثله و أن كان ضمّ المعدوم إلى المعدوم لا فائدة فيه.

ثمّ قال: **وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ** لا غيره كما أنّ الشّيطان ولّي الظّالمين:

قال اللّه تعالى: **ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيٰآؤُهُمُ ٱلطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمٰاتِ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ**[۲].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ**[۳] و غيرها من الأيات.

هٰذٰا بَصٰآئِرُ لِلنّٰاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

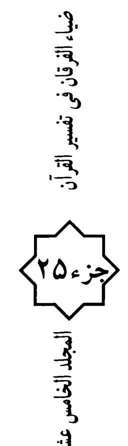
أي هذا القرأن الّذي أنزل عليك، أو هذا الّذي ذكرناه من قصّة بنيإسرائيل و أنّك على شريعةٍ من الأمر، **بَصٰآئِرُ لِلنّٰاسِ** أي ما يتّبصرون به **وَ هُدًى** أي دلالة

۱- أل عمران = ۸۵
۲- البقرة = ۲۵۷
۳- أل عمران = ۶۸

واضحة، **وَ رَحْمَةٌ** أي و نعمةً من اللّه عليهم، **لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** بما ذكرناه و أنّه حقّ لا مرية فيه، فأنّ الشّاك بالمواعظ الحسنة فضلاً عن الكفّار و المنافقين الّذي لا دين لهم إعتقاد صحيحٌ.

■

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحٰاتِ سَوٰآءً مَحْيٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ «٢١» وَ خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ «٢٢» أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ وَ أَضَلَّهُ ٱللّٰهُ عَلٰى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلٰى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلٰى بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللّٰهِ أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ «٢٣» وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلّٰا حَيٰاتُنَا ٱلدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلّٰا يَظُنُّونَ «٢٤» وَ إِذٰا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلّٰآ أَنْ قٰالُوا ٱئْتُوا بِاٰبٰآئِنٰآ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ «٢٥» قُلِ ٱللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلٰى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لٰا رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ «٢٦» وَ لِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ «٢٧» وَ تَرٰى كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعٰىٓ إِلٰى كِتٰابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٢٨» هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٢٩» فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا



ٱلصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿۳۰﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿۳۱﴾ وَ إِذا قيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ ٱلسّاعَةُ لا رَيْبَ فيها قُلْتُمْ ما نَدْري مَا ٱلسّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿۳۲﴾ وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿۳۳﴾ وَ قيلَ ٱلْيَوْمَ نَنْسيٰكُمْ كَما نَسيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا وَ مَأْويٰكُمُ ٱلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ ﴿۳۴﴾ ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آياتِ ٱللّٰهِ هُزُوًا وَ غَرَّتْكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿۳۵﴾ فَلِلّٰهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمٰواتِ وَ رَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ ﴿۳۶﴾ وَ لَهُ ٱلْكِبْرِياءُ فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿۳۷﴾

◀ اللّغة

ٱجْتَرَحُوا: الإجتراح الإكتساب و هو مأخوذ من الجرح و الجراح لأنّ له تأثيراً كتأثير الجراح.

خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ: الختم علامة على كفره و ضلاله.

غِشَٰوَةً: الغشاوة الغطاء و السّتر.

كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً: الأمّة الجماعة و إشتقاقه من أمّه يؤمّه إذا قصده و الجاثية، مشتقّة من الجثو و هو البروك على طرف الأصابع فهو أبلغ من الجثو.

مَأْوَىٰكُمُ: الموى المقام و المكان.

هُزُوًا: الهزو السُّخرية.

يُسْتَعْتَبُونَ: بصيغة المجهول طلب العتبى و الإعتذار.

ٱلْكِبْرِيَآءُ: السّلطان القاهر الغالب.

◀ الإعراب

سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ يقرأ، سواءٌ بالرَّفع، فمحياهم مبتدأ و مماتهم معطوف عليه و سواء خبرٌ مقدّم، و يقرأ، بالنَّصب أيضاً و فيه وجهان:

أحدهما: هو حال من الضّمير في الكاف.

الثّانى: أن يكون مفعولاً ثانياً، لحسب و الكاف حال عَلَىٰ عِلْمٍ حال يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ هو بدل من يوم الأوّل كُلَّ أُمَّةٍ (كلّ أمّةٍ) مبتدأ و تُدْعَىٰ خبره يَنْطِقُ حال من الكتاب أو خبرٌ ثانى وَ ٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا يقرأ بالرّفع على الإبتداء و ما بعده الخبر، و قيل هو معطوف على موضع، أن، و ما عملت فيه و يقرأ بالنّصب عطفاً على إسم، أنّ، فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ يجوز أن يكون حالاً من الكبرياء و العامل فيه الإستقرار و أن يكون ظرفاً و العامل فيه الظّرف الأوّل أو الكبرياء لأنّها بمعنى العظمة.

◀ التّفسير

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَ

عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ

قال بعض المفسّرين يحتمل أن يكون، أم، بمعنى الهَمَزة الإستفهامية الكلام، أحسب الذّين إجترحوا السّيئات، و الحسبان هو الظّن و قيل هي أم المنقطعة و معنى الهَمَزة فيه إنكار الحسبان قاله الزّمخشري في الكشّاف.

و الإجتراح الإكتساب و منه الجوارح، و فلان جارحة أهله أي كاسبهم و المعنى أحسب الذّين إكتسبوا السّيئات بأعمالهم و أقوالهم، أن نجعلهم كالّذين أمنوا باللّه و رسوله و عملوا الصالحات قولاً و فعلاً في الدنيا، سواءٌ محياهم و مماتهم، هو بدل من الكاف أي حسبوا أنّ محيا الكفّار و مماتهم كمحيا المؤمن و مماته، ساء ما يحكمون ليس الأمر كذلك و على هذا فقوله: **نَجْعَلَهُمْ** معناه نصيّرهم و هو من جعل المتعدّي إلى مفعولين.

أوّلهما: الضّمير.

الثّاني: الكاف و الجملة التّي هي **سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ** بدل من الكاف لأنّ الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد و حيث أنّ الإستفهام للإنكار فالمعنى أنّ المؤمن و الكافر أو الفاسق ليسوا على حدٍّ سواء حيّاً و ميّتاً.

أمّا حيّاً، فلأن المؤمن ينفع و لا يضُر و الفاسق لا ينفع و يضرّ.

و أمّا ميّتاً، فلأنّ الكافر و الفاسق بموتهما يستريح النّاس من شرّهمابخلاف المؤمن فأنّ موته ليس كذلك هذا في الدنيا و أمّا في الأخرة فواضحة لا خفاء فيها.

و قال مجاهد المؤمن يموت على إيمانه و يبعث عليه و الفاسق و الكافر يموتان على الكفر و الفسق و يبعثان عليه.

وَ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ

خلق اللّه السّموات و الأرض بالحقّ أي للحقّ لم يخلقهما عبثاً و أنّما خلقهما لمنافع خلقه بأن يكلّفهم فيها و يعرضهم للثّواب الجزيل، **وَ لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ** من الثّواب على الطّاعة و العقاب على المعصية و هم لا يظلمون، أي لا يبخسون حقوقهم.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلٰى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلٰى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلٰى بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ

إلٰه بكسر الهَمزَة جعلوه إسماً لكلّ معبودٍ لهم و سمُّوا الشّمس ألهة لإتّخاذهم إيّاها معبوداً، و أله فلان يأله، عبد و قيل هو من ألَه، أي تحيَّر و تسميته بذلك إشارة إلى ما قال أميرالمؤمنين: **كلّ دون صفاته، بتحير الصّفات و ضلّ هناك تصاريف اللّغات** و ذلك أنّ العبد إذا تفكّر في صفاته تحيَّر فيها، و قيل، اللّه، أصله إلٰه فحذفت هَمزته و أدخل عليه الألف و اللاّم فخصَّ بالباريْ تعالى و قد تكلّمنا في هذا البٰاب عند قوله تعالى: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ** بما لا مزيد عليه و الّذي نقول في المقام أنّ المراد به المعبود.

و أمّا الهوى، قال في المفردات الهوى ميل النَّفس إلى الشَّهوة و يقال ذلك للنّفس المائلة إليها و قيل سمّي بذلك لأنّه يهوى بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهيةٍ و فى الأخرة إلى الهاوية و قد عظم اللّه تعالى ذمّ إتباع الهوى في كثير من الأيات فقوله: **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ** معناه أفرأيت يامحمّد من إتّخذ معبوده هواه أي كلّ ما إشتاقت النّفس إليه سواء كان من خشبٍ أو من حجارةٍ أو غيرهما من الشّمس و القمر و النّار و أمثالها.

قال سعيد بن جبير كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به و عبد الأخر و قال مقاتل نزلت الآية في الحارث بن قيس السّهمي أحد المستهزئين لأنّه كان يعبد ما تهواه نفسه.

و قال سفيان بن عينية أنّما عبدوا الحجارة لأنّ البيت حجارة.

قال الشُّعبي أنّما سمّي الهوى هوىً لأنّه يهوي بصاحبه في النّار.

روى بعض المفسّرين عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به، و قال أبو إمامة سمعت النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول ما عبد تحت السّماء إلهٌ، أبغض إلى اللّه من الهوى.

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: ثلاث منجيات و ثلاث مهلكات، فالمهلكات شحٌّ مطاعٌ و هوىً متّبع، و إعجاب المرء بنفسه، و المنجيات، الخوف من اللّه في السِّر و العلن، و القصد في الغنى و الفقر، و كلمة العدل في الرّضا و السَّخط.

و الأخبار الواردة في ذمّ الهوى كثيرة و كفى في ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوىٰ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ‌عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَويٰهُ**[٢]

و الأيات كثيرة.

و قوله: **وَ أَضَلَّهُ ٱللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ** قيل في تفسيره أي على علمٍ قد علمه منه، و قيل أضّله عن الثّواب على علمٍ منه بأنّه لا يستحقّه.

و قال إبن عبّاس على علمٍ قد سبق عنده أنّه سيضلّ، و قيل على علمٍ من عابد الصّنم أنّه لا ينفع و لا يضرّ.

و قال بعضهم قوله: **عَلىٰ عِلْمٍ** حال من الفاعل أي أضلّه على علم منه به أي أضلّه عالماً بأنّه من أهل الضلال في سابق علمه، و يجوز أن يكون حالاً من المفعول و المعنى أضّله في حال علم الكافر بأنّه ضالّ.

١- النّازعات = ٤١ / ٤٠ ٢- الكهف = ٢٨

و قال في التّبيان معناه حكم اللّه بضلاله عالماً بعدوله عن الحقّ و يحتمل أن يكون المعنى يعدل اللّه به من طريق الجنّة إلى طريق النّار جزاءً على فعله و عالماً بأنّه يستحقّ ذلك إنتهى و الّذي يختلج بالبال في معنى الكلام أنّ اللّه تعالى أضلّه أي وكلّه إلى نفسه و تركه عن الهداية و اللُّطف و خذله على علم عالماً بأنّ ذلك لا يجدي عليه و أنّه ممّن لا لطف له أو مع علمه بوجوه الهداية و إحاطة بأنواع الألطاف المحصّلة و المقرّبة، ذكره الزّمخشري في تفسيره و أظن أنّه أحسن الوجوه المذكورة في تفسير الكلام و أوفق بالفرار من الجبر الّذي حكم العقل و الشَّرع بإستحالته و على هذا فمعنى قوله: **عَلٰى عِلْمٍ** أنّه تعالى تركه و وكّله إلى نفسه و منع اللُّطف منه مع علمه تعالى بأنّ ذلك يوجب ضلالته، و ذلك لأنّ العلم بضلالته ليس علّة لها حتّى لزم الجبر و هو ظاهر، و على ذلك يحمل قوله: **وَ خَتَمَ عَلٰى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلٰى بَصَرِهِ غِشٰاوَةً** فأنّ العبد إذا تركه اللّه و منع منه اللُّطف يسمع و لا ينتفع به و يفهم يترتّب أثر الفهم عليه و يرى ببصره و لا يعتبر به كأنّ على بصره غشاوة:

قال اللّه تعالىٰ: **خَتَمَ ٱللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ**[1] و قد مَرَّ الكلام في هذا الباب عند تفسير الآية مفصّلاً.

فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللّٰهِ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ أي من وكلّه اللّه إلى نفسه فمن يهديه إلى طريق الحقّ بعد اللّه أفلا تذّكرون، أي أفلا تعقلون.

و السِّر فيه أنّ العبد الممنوع عن اللُّطف و التوفيق يصير عبداً للشّيطان لا محالة و من كان كذلك لا يقدر على إرشاده أحد.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ**[3].

۱- البَقرة = ۷
۲- الزّمر = ۳۶ و غافر = ۳۳
۳- الأعراف = ۱۸۶

وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا ٱلدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُـهْلِكُنٰآ إِلاَّ ٱلدَّهْرُ وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ

الواو للعطف أي و قال الّذى إتّخذ إلهه هواه و أضلّه اللّه على علم الى آخر الأية، ما هي إلاّ حياتنا الدُّنيا، أي ليست الحياة إلاّ هذه الحياة الّتي نحن فيها في دار الدُّنيا، و أمّا بعدها فلا حياة لناو فيه إنكارٌ للبعث و إبطالٌ للجزاء، و قوله: **نَمُوتُ وَ نَحْيٰا** قيل معناه نموت نحن و نحيا أولادنا، و قيل معناه يموت بعضنا و يحيا بعضنا، و قال إبن مسعود فيه تقديم و تأخير أي نحيا و نموت، **وَ مٰا يُهْلِكُنٰآ إِلاَّ ٱلدَّهْرُ** يعني السنين و الأيّام، و قيل أنّ أهل الجاهليّة كانوا يقولون، الدّهر هو الّذي يهلكنا و هو الّذي يحيينا و يميتنا فنزلت هذه الأية.

أقول القائلون بهذه المقالة يقال لهم الدّهريون و قد يعبّر عنهم بالطّبيعيون في زماننا هذا و لم يعلموا أنّه لا مؤثّر في الوجود إلاّ اللّه و لعلّ هذا هو المراد من قول من قال الدَّهر هو اللّه إذ ليس الدَّهر من الموجودات الخارجيّة الّتي ينسب الموت و الحياة اليه و ذلك لأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له فإذا كان الدّهر هو المحيي فلا محالة يكون حيّاً، موجوداً ذا شعورٍ و إرادةٍ لأنّه خلق موجوداً له شعور و إرادة و هو الإنسان ثمّ بعد ذلك أماته، و المفروض أنّه ليس إلاّ اللّيل و النّهار و الشّهور و السّنين و الأفات المتدرجّة في الوجود فكيف يعقل أن يكون خالقاً لغيره و لا وجود له إلاّ في الوهم.

و الإنصاف أنّ هذا الكلام أشبه شئٍ بكلام المجانين الّذين لا علم لهم بما يقولون، فثبت أنّ خالق العالم هو اللّه الّذي لا إله إلاّ هو قادرٌ على كلّ شئٍ عالمٌ بكلّ شئٍ حكيمٌ في أفعاله و إذا كان الإيجاد بيده فالموت أيضاً بيده المطلوب و لعلَّه الى هذه الدقيقة أشار بقوله: **وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ** أي ليس لهم علمٌ بما يقولون إذ العالم لا يقول و ما يهلكناً إلاّ الدّهر الّذي وجوده و همّي فرّضي في المخيّلات نعم هذا داخل في المظنون ثبت أنّ الظّن لا

يغني من الحقّ شيئاً.

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ٱئْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

أي و إذا تتلى على هؤلاء الكفّار المنكرين آياتنا بيّنات، من التدوينات و التّكوينات في مسألة البعث لم يكن لهم في مقابلتها حجّةٌ و برهانٌ إلاّ قولهم: **ٱئْتُوا بِآبائِنا** الّذين ماتوا و بادوا، **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** في قولكم بالحياة بعد الموت و لم يعلموا أنّ هذا الكلام منهم أيضاً لا معنى له و ذلك لأنّ إحياء آباءهم قبل يوم الجزاء لا فائدة فيه بل هو عبث و لغوٌ و اللّه تعالى منزّهٌ عن فعل العبث، و أنمّا قلنا أنّه عبث لأنّ يوم الجزاء لم يأت بعد فإذا فرضنا إحياء آباءهم و إرجاعهم الى الدُّنيا فلامحالة يكونون مكلّفين بالتّكاليف الشّرعية، لأنّ الدُّنيا دار التّكليف، و لا تكليف بعد الموت، و إن قلنا بعدم التكليف فوجودهم عبث لا فائدة فيه و لذلك قال تعالى: **ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ٱئْتُوا بِآبائِنا** ولم يعلموا أنّ هذا كلام باطل.

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّاسِ لا يَعْلَمُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار المنكرين للبعث، اللّه يحييكم، في دار الدُّنيا، إذ لا يقدر على الإحياء أحدٌ سواه **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** بعد هذا عند بلوغ الأجل المقدّر **ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ لا رَيْبَ** بأن يبعثكم و يعيدكم أحياء الى يوم القيامة للحساب و الجزاء و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، فلسفة البعث والنُّشور.

وَ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ

أي أنّ اللّه تعالى مالك السّموات و الأرض يتصرّف فيهما بما يشاء من الإحياء و الإماتة، و يوم تقوم السّاعة، يوم القيامة يخسر المبطلون، ثواب اللّه و المبطل من عدل عن الحقّ و فعل الباطل، قيل مفعول الفعل محذوف و تقدير الكلام يخسيرُ المبطلون منازلهم في الجنّة بسبب إنكارهم البعث و النشّور و القيامة و الحساب و الجزاء.

وَ تَرٰى كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعٰىٓ إِلٰى كِتٰابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الأمّة في الأصل الجماعة و المراد بها في الآية أهل كلّ ملّةٍ، و فى الجاثية أقوال.

قال مجاهد، معناها، مستوفره، و قال سفيان المستوفر الّذي لا يصيب الأرض منه إلاّ ركبتاه و أطراف أنامله و ذلك عند الحساب.

و قال إبن عبّاس معناها مجتمعة، و قال عكرمة متميزة، و قيل خاذعة بلغة قريش، و قيل باركة على الرّكب، و الجثو الجلوس على الرّكب يقال جثى على ركبتيه.

قال في المفردات و الجاثية في قوله عزّ وجلّ: **وَ تَرٰى كُلَّ أُمَّةٍ جٰاثِيَةً** فموضوع موضع الجمع كقولك جماعة قائمة و قاعدة إنتهى.

أقول و الى ذلك ينظر قول من قال أنّ أصل الجثوة الجماعة من كلّ شيءٍ و منه قوله الشّاعر حيث قال:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفيح فضيدٍ

و معنى الآية و ترى، يا محمّد يوم القيامة، كلّ أمّةٍ جاثية من هول ذلك اليوم، كلّ أمّةٍ من الأمم، تدعى الى كتابها، الّذي أنزل على نبيّها، فالمسلم يدعى الى القرآن و اليهود الى التّوراة و النّصارى الى الإنجيل و هكذا، اليوم تجزون ما كنتم تعملون، في الدُّنيا إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و لذلك سمّي يوم القيامة يوم

الجزاء و يوم الحساب، و يوم الفصل و غير ذلك.

هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

المراد بالكتاب القرآن، **يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ** قيل جعل اللّه ثبوت ما فيه و ظهوره بمنزلة النُّطق و هو إستعارة يقال نطق الكتاب بكذا أي بيَّن، و قوله: **بِالْحَقِّ** هو وصف لكتاب و الحقّ هو الخبر المطابق للواقع، و الحقّ هو الّذي لا سبيل للبطلان اليه، و الحقّ هو الثّابت الّذي لا يتغير و لا يتبدل و الحقّ المطلق هو اللّه تعالى و ما سواه باطلٌ لثبوته تعالى و فناء غيره و منه قول الشّاعر:

ألا كلّ شيٍ ما خلا اللّه باطلُ　　　و كـلّ نـعيم لا مـحالة زائـلُ

و إذا كان الحقّ بقولٍ مطلق هو اللّه تعالى فكلامه أيضاً حقٌّ إذ الحقّ لا يقول بالباطل و ملخصّ الكلام أنّ اللّه حقّ فكلامه و أفعاله أيضاً حقّ فلا سبيل للبطلان اليه في ذاته و صفاته و أفعاله و أمّا قوله: **إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** فقيل معناه، نستنسخ ما حفظت عليكم الملائكة الحفظة، الحفظة تستنسخ ما هو مدُّونٌ عندها من أحوال بنيآدم الجزائية قاله إبن عبّاس، و روي عن عليٍ: **أنّ للّه ملائكة ينزلون في كلّ يومٍ يكتبون فيه أعمال بنيآدم** و معنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثوابٍ و عقابٍ.

أقول لا شكّ أنّ الإستنساخ الإستكتاب عن نسخة الأصل و هى الّتي كتبها الملائكة الموكلّين على العباد المعبّر عنهم بكرام الكاتبين و المقصود أنّ الملاك هو هذه النسخة و هى الّتي قد يعبّر عنها بصحيفة الأعمال الّتي دوّنت الأعمال فيها، و أنمّا قال تعالى، إنّا، ولم يقل أنّ الملائكة لأنّ ما أثبته الملك بإذن اللّه فقد أثبته اللّه و ما نفاه نفاه اللّه و لذلك نسب اللّه فعل الملك الىٰ نفسه.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآيـة أنّ الّـذين آمـنوا، بـاللّه و رسـوله ثـمّ عـملوا الصّالحات من الأعمال قولاً و فعلاً إذ الإيمان لا يتحقق بدون العمل، فيدخلهم ربّهم في رحمته، الّتي وسعت كلّ شيءٍ و من المعلوم أنّ الدّخـول فـي رحـمته الواسعة هو الفوز المبين، أي الفلاح الظّاهر و أيُّ فلاحٍ أحسن و أظهر منه.

وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ اٰيَاتِي تُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَـاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة الى أحوال المؤمنين و أنّهم يدخلون في رحمته الواسعة يوم القيامة أشار في هذه الآية الى أحوال الكفّار بعد الموت فقال فأمّا الّذين كفروا باللّه و رسوله و أنكروا البعث و الجزاء، **أَفَلَمْ تَكُنْ اٰيَـاتِي تُتْلٰى عَلَيْكُمْ** في الدُّنيا بواسطة النّبي، و التقدير الكلام فأمّا الّذين كفروا يقال لهم أفلم تكن آياتي الآية و الهَمزة للإنكـار و التـوبيخ أي‌بـل كـانت تـتلى عـليكم، فأستكبرتم، أي منعكم التّكبر عن قبولها و الإستكبار هو طلب التعظيم في أعلى المراتب فهو صفة ذَمٍ للعباد و كذلك المتكبّر لأنّها تـقتضي التـعظيم فـي أعـلى المراتب، و صفة مدحٍ في الخالق، و هو لا يليق إلاّ باللّه تعالى و ذلك لأنّ إستحقاق التعظيم في أعلى المراتب لا يكون إلاّ لمن لا يجوز عليه النّقص بوجهٍ من الوجوه ذاتاً و صفةً، و هو اللّه تعالى لا غيره كائناً ما كان و لذلك قال: **الكبرياء ردائي فمن نازعني فيها قصمت ظهره** رسول اللّه **من تكبَّر وضعه اللّه ومن تواضع رفعه اللّه**، ثمّ قال تعالى: **وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ** و أيُّ جرمٍ أكبر و أعظم من التَّكبر الّذي صار باعثاً على إنكار الحقّ و الإقبال الى الباطل.

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ ٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي

مَا ٱلسّٰاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ

هذه الآية في الحقيقة بمنزلة الدّليل على إستكبارهم و إنكارهم السّاعة و ذلك لأنّه إذا قيل لهم أنّ وعد اللّه حقٌّ و السّاعة لا ريب و لا شكّ فيها قالوا في الجواب ما ندري أي ما نعلم أيُّ شيءٍ السّاعة و لم يعلموا أنّ الإنكار من غير دليلٍ دليلٌ على الإستكبار و لا سيّما إذا كانَ المخبر هو اللّه تعالى بواسطة أنبياءه و توضيح ذلك إجمالاً أنّ المخبر يتصوّر على قسمين:

أحدهما: أن يكون معصوماً لا يكذب أبداً.

الثّاني: أن لا يكون كذلك بل يجوز عليه الخطأ والكذب فيما أخبر به، و في المقامين لا سبيل للإنكار من غير دليلٍ.

أمّا القسم الأوّل: فواضح.

أمّا القسم الثّاني: فهو أيضاً كذلك إذ الكلام منه يحتمل الصدّق و الكذب على الفرض و من أين علم المخاطب المستمع أنّه أي المخبر كاذبٌ في إخباره مع أنّه يحتمل الصِّدق أيضاً بل ينبغي للمخاطب التوقّف في الحكم صدقاً و كذباً حتّى يتبيّن له أحد الإحتمالين بالبيّنة و البرهان هذا كلّه في الأخبار بالمحسوسات مثل مجيئ زيد و عدمه و أمّا في الأخبار بما وراء المحسوسات مثل الأخبار عن عالم البرزخ و القيامة و الحساب و الجزاء فلا مجال للتفحُّص فيها فأن كان المخبر بها صادقاً في إخباره مصوناً عن الكذب مثل إخبار النّبي المعصوم فلا مجال للتوقّف فيه و ما نحن فيه من هذا القبيل و من أصدق من اللّه قيلاً فقول الكفّار إن نظُّن إلاّ ظنّاً و ما نحن بمستيقنين ناشٍ عن تكّبرهم و عدم معرفتهم باللّه و رسوله و من لم يعرف اللّه كيف لم يحصل له اليقين قطعاً.

وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

أي أظهر لهم جزاء معاصيهم التّي عملوها في دار الدّنيا من العقاب و حـاق بهم، أي حلَّ بهم، جزاء ما كانوا به يستهزؤن، بإخبار اللّه و إخبار نبيّه من عذاب اللّه.

وَ قِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنْسيٰكُمْ كَمٰا نَسيتُمْ لِقٰآءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا وَ مَأْوٰيكُمُ ٱلنّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرينَ

القائل لهم الملائكة بأذن اللّه تعالى يقولون لهم أي لهؤلاء لكفّار اليوم، و هو يوم القيامة، ننسيكم، أي نترككم في العقاب في قول إبن عبّاس كما تركتم فـي الدّنيا يومكم هذا و تركتم العمل به، و مأواكم، و مسكنكم النّار و ما لكم مـن ناصرين، أي ما لكم من ينصركم و يدفع عنكم العذاب ثمّ بيَّن اللّه تعالى لم فعل بهم ذلك.

ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ هُزُوًا وَ غَـرَّتْكُمُ ٱلْـحَيٰوةُ ٱلدُّنْـيٰا فَالْيَوْمَ لٰا يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لٰا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

ذلكم، إشارة إلى ما وقع بهم من العذاب و المعنى أنّما وقعتم فيما وقعتم من العذاب لأجل أنّكم إتَّخذتم أيات اللّه، أي حججه و براهينه، هزواً، أي سخريّة و كنتم تستهزؤن بها في دار الدّنيا و غـرّتكم الحـياة الدّنـيا أي خـدعتكم زيـنتها فإغتررتم بها، فاليوم، أي اليوم الحاضر و هو يوم القيامة لا تخرجون منها أي من النّار التّي أوقدتموها بسبب أعمالكم و لا هم يستعتبون، أي لا يطلب منهم العتبى و الإعتذار لزوال التكليف.

قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ لٰا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم أي يرضوه إنتهى.

و قرأ حمزة و الكسائي **فَالْيَوْمَ لٰا يُخْرَجُونَ مِنْهٰا** بفتح الياء و ضمّ الرّاء، و

قرأ الباقون بضّم اليّاء و فتح الرّاء على صيغة المجهول و هو المشهور و عليه المصاحف.

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ رَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ

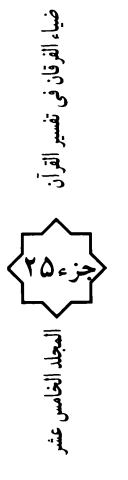
اللاّم، في، للّه للإختصاص أي أنّ الحمد مختصٌّ بربّ السّموات و الأرض ربّ العالمين، و ذلك لأنّ مثل هذه الرُّبوبية العامّة يوجب الحمد و الثّناء على كلّ مربوبٌ، أداءٌ لحقّ شكره الواجب عقلاً.

وَ لَهُ ٱلْكِبْرِيٰآءُ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

الكبرياء بكسر الكاف و سكون الباء التّرفع عن الإنقياد و ذلك لا يستحقّه غير اللّه تعالى و إلى ذلك المعنى أشار النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله حاكياً عن اللّه تعالى: **أنّه قال الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني في واحدٍ منهما قصمته**، واللاّم في له، للإختصاص أي أنّ الكبرياء في السّموات و الأرض للّه تعالى لا لغيره و حقٌّ مثله أن يكبّر و يعظّم لأنّه خالق السّموات و الأرض و ما بينهما و هو العزيز الحكيم، أي القادر العالم بمصالح الأمور و تمّت كلمة ربّك صدقاً و عدلاً و الحمد للّه ربّ العالمين.

هذا أخر الكلام في الجزء الخامس و العشرين و يتلوه الجزء السّادس و العشرون و المرجوّ من اللّه تعالى أن يوّفقنا لإتمامه بمحمّدٍ و أله الطّاهرين.

■


ضیاء القرآن فی تفسیر القرآن
جزء ۲۵
المجلد الخامس عشر

الفهرست

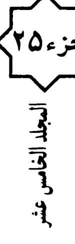
■

سورة ٱلشّورى ٢٢٣

■

سورة ٱلزُّخْرُفِ ٣٣١

■


جزء ۲۵